

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مارس ١٩٩٤

المجلد الأول

العدد الثانى

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الثانى - المجلد الاول

هيئة التحرير

رئيس التحرير	أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور
نائب رئيس التحرير	أ.د. عبد المالك التميمى
عضوا	أ.د. سهيل زكار
عضوا	أ.د. عبد الرحمن الأنصارى
عضوا	أ.د. الحبيب الجنحاني
عضوا	أ.د. جمال زكريا قاسم
عضوا	أ.د. محمد رزوق

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتا سنوية فى شهر مارس من كل عام ، على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- لا يزيد البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة منسوخة على الآلة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين : أصل وصورة .
- تأخذ الهوامش والاحالة رقما مسلسلا على أن تثبت فى نهاية البحث .
- تخصص أقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم اجازتها للنشر بالمجلة .
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها واجازتها للنشر ولا علاقة اطلاقا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالمقر المؤقت للاتحاد (كلية الآداب – جامعة القاهرة – أورمان – جيزة – مصر) .

المؤرخ العربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثانى - المجلد الأول - مارس ١٩٩٤

فى هذا العدد

- افتتاحية العدد
- نظرية فرويد وأثرها فى البحث التاريخى
- حول العلاقات بين مصر وجنوب الجزيرة العربية فى العصر الفرعونى
- بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون الأوائل
- كناش الكشكرى : وثيقة مهمة عن التطبيب العملى فى بعض بيمارستانات بغداد
- اضواء على مدينة الرى فى صدر الاسلام
- مدينة حلب فى عصر بنى حمدان
- الصراع الدولى حول شبه الجزيرة العربية فى القرن السادس الميلادى
- دور المتطوعة فى حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول
- تجارة السلاح فى عهد الشيخ مبارك الصباح
- باب عرض الكتب - تحليل لمؤلفات سمو الدكتور سلطان بن محمد القاسمى
- احاطة
- رئيس التحرير
- د. منصور أحمد أبو خمسين
- د. عبد المنعم عبد الحليم سيد
- د. غيثان بن على بن جريس
- د. مريزن سعيد مريزن عسىرى
- د. حسين على المسرى
- د. راضى عبد الله عبد الحميد
- د. رأفت عبد الحميد
- د. عبدالله بن سعيد بن محمد سافر الغامدى
- د. فتوح الخترش
- رئيس التحرير
- هيئة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد

كلمة سواء

بسم الله الرحمن الرحيم نقدم للمشتغلين بالدراسات التاريخية العدد الثانى من مجلة المؤرخ العربى التى تصدر عن الاتحاد الشرعى للمؤرخين العرب بالقاهرة . وقد سبق أن أوضحنا فى أكثر من مناسبة ان هذا الاتحاد فى وضعه الجديد يستهدف فى المقام الأول خير العلم وأهله ، من خلال الكشف عن دور علم التاريخ فى تكييف حياة الانسان والافادة من تجارب الماضى فى مواجهة متاعب الحاضر والاعداد لمستقبل أفضل ولا يتم ذلك على الوجه الأكمل الا عن طريق الوصول الى الحقيقة التاريخية وعرضها مجردة من أية اعتبارات أو نزوات عاطفية تتعمد الانحراف بالتاريخ عن طريق التلاعب بأحداثه .

والمفروض فى التاريخ أن يكون بمثابة مدرسة ، يستفيد فيها اللاحقون من تجارب السابقين ، ويتعلم فيها الحكام وأولو الأمر بصفة خاصة حتى ينهضوا بالأمانة الكبرى الملقاة على عواتقهم . يروى المسعودى أن معاوية بن أبى سفيان كان « يستمر الى ثلث الليل فى سماع أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتهما ، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتهما ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ... » . ولعلنا فى ضوء هذه العبارة نستطيع أن نفسر نجاح معاوية - وهو الرجل الذى نشأ نشأه بدوية بسيطة محدودة الأفق - فى أن يسوس أمة كبيرة ويؤسس دولة واسعة ضمت عددا من الشعوب المختلفة الأصول والحدود ، المتباينة المشارب والاتجاهات . أما السلطان الظاهر بيبرس ، صاحب الشهرة الواسعة فى عالمى الحرب والسياسة ، فيروى عنه المؤرخ المعاصر أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى أنه كان دائما يردد عبارة « سماع التاريخ أعظم من التجارب » . وعن هذا

الطريق نجح الظاهر بيبرس - الذى نشأ مملوكا يباع فى أسواق الرقيق - فى أن يصبح المؤسس الحقيقى لدولة من أعظم الدول الاسلامية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى .

وعندما قام اتحاد المؤرخين العرب بحركته التصحيحية سنة ١٩٩١ ، وضع لنفسه سياسة التزم بها ، محورها الحفاظ على كرامة العلم وأهله ، وانتشال علم التاريخ والمشتغلين به من المستنقع الذى سحبهم اليه حكام بغداد واذنابهم من الأتباع والمنتفعين ، والحيلولة دون تسخير طاقة المؤرخين العرب فى الترويج لسياسة نظام - أيا كان - يتخذ من الارهاب والعدوان والابتزاز أدوات لتحقيق مجد زائف أثبت التاريخ أنه لا يدوم . وعندما يحين الوقت المناسب يصدر التاريخ حكمه صريحا واضحا ... والتاريخ لا يرحم .

وانطلاقا من مبدأ الحفاظ على الوجه المشرق لعلم التاريخ ، ورعاية كرامة المشتغلين به تحرص هيئة تحرير مجلة المؤرخ العربى على الالتزام بروح الأمانة العلمية ، والعمل على تنقية التاريخ مما علق به من أوهام وأخطاء ، والحرص على تفسير أحداثه تفسيرا بعيدا عن الأهواء والميول والأغراض مما يعود فى بهاية الأمر على المسيرة البشرية ، وعلى الأمة العربية بوجه خاص ، وعلى المؤرخ العربى بالخير والصالح .

وعندما تقدم هيئة التحرير العدد الثانى من مجلة المؤرخ العربى للباحثين والقراء ، فانها ترى أن تبدى أسفها لأصحاب البحوث التى لم تنشر ، اما لأنها لم تحظ بموافقة الحكام - وهم من صفوة الأساتذة المتخصصين - واما لأنها لا تتفق من ناحيتى الكم والكيف مع القواعد التى تلتزم بها المجلة فى مجال النشر

وما دمنا بصدد موضوع التحكيم ، فاننا نرى أن الأمر يتطلب قدرا من الايضاح ، مراعاة لصالح العلم ، وصالح الباحث أو الكاتب ، فضلا عن الحكم والقارىء .

ان التحكيم غايته اصدار حكم نهائى على البحث : هل هو صالح

للمنشر أم أنه دون المستوى المنشود . والحكم لا ينبغي أن يجعل من نفسه سيفاً باتراً يحجر على حرية الباحث أو يلزمه برأى معين . ان للباحث حرّيته ، ولكل باحث مستواه الفكري والعلمي ، كما أن لكل فرد امكانياته في القدرة على التعبير . قد يصادف الحكم أو القارىء في البحث ما لا يرضى عنه وما لا يقره ، وربما اعتبر ذلك خطأ وقع فيه الباحث : ولكن عليه أن يضع في الكفة المقابلة ما يحويه البحث من مزايا واضافات بحيث لا يترك السيئات يذهبن الحسنات . حقيقة أننا ننشد الكمال ، ولكن علينا أن ندرك أن الكمال لله وحده ؛ فعلى ان أسعى ولكن ليس على أن أدرك النجاح . ان العقول ننفات في ادراكها للأمر وفي تفسيرها للحقائق ، ووجهات النظر قد تتباين في تفسير الحقيقة الواحدة ، وعندئذ ينبغي على اهل العلم وأولى الراى أن يدخلوا في نقاش وجدل هادىء بناء بعيدا عن التعصب لراى بعينه ؛ وليكن شعارنا جميعا الأخذ والعطاء ، فأنا أعلم وأتعلم ، وفوق كل ذى علم عليم ؛ ولا عيب في أن أقع في خطأ ، ولكن العيب هو ألا أحاول الافادة من هذا الخطأ . وحبذا لو تذكرنا أن هذه الحقيقة أدركها ونادى بها بعض الأئمة والفقهاء في صدر الاسلام ، فشاع بينهم الراى القائل : « قولى حق يحتمل الخطأ ، وقول مخالفى خطأ يحتمل الصواب » .

ونحن عندما نوضح هذه الحقيقة لا نستهدف تبرير الخطأ أو اغماض العين عنه ، وانما نستهدف ثلاث حقائق نضعها أمام الباحث والحكم والقارىء جميعا : الحقيقة الأولى هي أن مهمة الحكم ليست الحجر على حرية الباحث أو الحد من حركته وانما تقييم البحث من ناحية صلاحيته أو عدم صلاحيته للنشر ، ويتم هذا التقييم في ضوء قوله تعالى « ان الحسنات يذهبن السيئات » والحقيقة الثانية : هي أن الباحث هو المسئول الأول والأخير عن كل ما يرد في بحثه من عبارات وآراء وأفكار ومعلومات ، بمعنى أن البحث يعبر أولا وأخيرا عن مستوى الباحث الفكرى ، وحصيلته العلمية وقدراته اللغوية . أما الحقيقة الثالثة فهي أن باب النقد البناء والنقاش الهادىء والجدل المثمر مفتوح أمام الجميع ، طالما أن الهدف واحد هو الوصول بالتاريخ وأهله الى المستوى اللائق المنشود .

مرة أخرى ، نفتح قلوبنا ونرفع أيدينا سائلين الله عز وجل الهداية
والتوفيق ، مستلهمين إياه خيرا للعرب ، ولتاريخ العرب ، ومستقبل
العرب ، في كل زمان ومكان

رئيس التحرير

نظرية فرويد وأثرها في البحث التاريخي

بقلم

دكتور منصور أحمد أبو خمسين (*)

مقدمة :

التنظير في أبسط تعريف له ، هو استخراج نسق أو مجموعة من الانساق الواضحة ، والمفهومة ، والمكنة الاثبات ، من مجموعة من المعطيات العلمية والملاحظات والمشاهدات المثبتة والمدققة في حقل من حقول المعرفة أو ميدان من ميادين الدراسة . ويستدعي التنظير تراكم كم معين مقبول من المعطيات التي تمكن صاحب النظرية من استخراج هذه الأنماط ثم فحصها أو اختبارها للتأكد من صحتها وإبراز أية استثناءات هامة لها . فالتنظير أو النظرية حسب هذا التعريف هي جزء من العملية الاستقرائية التي تسود اليوم كافة العلوم الطبيعية منذ أن روج لها فرانسيس بيكون في مقالته الشهيرة نوفوم اورجانوم (١) ، والتي دعى فيها الى نفس العلم القديم وإقامة بناء جديد للمعرفة باستخدام الطريقة الاستقرائية . وبغض النظر عما يقوله العديد من المؤرخين والفلاسفة ودارسي التاريخ الفكري حول استحقاق بيكون لشرف التبشير بالطريقة الاستقرائية وأرساء قواعد البحث العلمي الحديث ، فإن الطريقة الاستقرائية بكل تأكيد ليست وليدة عصرنا هذا كما لا تقتصر الطريقة الاستقرائية على العلوم البحتة فلقد كانت العلوم الاجتماعية والانسانية ولا زالت ميدانا واسعا للاستقراء والتنظير منذ أقدم العصور . والتراث الاغريقي يحوى إنتاجا استقرائيا وتنظيريا في غاية الاهمية بما ينم عن نفاذ البصيرة في المجالين العلمى البحث والانسانى . لكن الامكانيات الحقيقية للطريقة الاستقرائية لم تتوافر الا في عصرنا الحديث ، عصر التراكم العلمى الذى تحول اليوم الى انفجار فى المعرفة افرز كما متزايدا

(*) قسم التاريخ - كلية الاداب - جامعة الكويت .

من المعطيات التى لم تجعل التنظيم واستخراج الانساق أمرا ممكنا فحسب ، بل ضروريا أيضا . اذ بدونه يتحول هذا الكم من المعطيات العلمية الى ركام هائل مشوش يستعصى على الفهم والاستيعاب والفرز .

ولعل فى تراثنا العلمى مثالا رائعا للعلاقة بين وفرة المعطيات وضرورة التنظيم يتمثل فى الانتاج العلمى لابن خلدون . فهذا الرجل لم يكن شعلة ثارت فى ميدان الفكر الاسلامى بعد طول غياب كما يصوره البعض بل كان محصلة طبيعية لذلك الفكر فى انتاجه وفى توقيته . لقد ورث ابن خلدون كما كبيرا من المعطيات التى افرزها النشاط العلمى فى ميدان التاريخ وما يتعلق به من علوم على امتداد ستة قرون . وينعد دراسة مستفيضة لهذا التراث قام باستخراج نسق متكرر للحوادث التاريخية ولمجموعة أخرى من الانساق الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة ارتباطا مباشرا بالنسق التاريخى المحورى والتى تعطى تفسيراً معقولا لمجمل الاحداث السياسية والاجتماعية بل والاقتصادية التى مرت بشمال افريقية منذ العهد الرومانى وحتى وقت ابن خلدون (٢) . ان الجهد التنظيمى لابن خلدون لم يكن ممكنا لولا توفر المعطيات ، ولكنه أيضا كان ضروريا لاستيعاب تلك المعطيات وفهمها وغربلتها وإبقاء اللازم منها ثم ترتيبها وفقا لأهميتها وعلاقتها بمنطق داخلى يحكمه النسق التاريخى المحورى والانساق الأخرى المرتبطة به .

التنظيم وعلم التاريخ الأوروبى

ولقد ورث المؤرخون وباحثو العلوم الانسانية الأوربيون فى نهاية القرن الماضى وبداية قرننا الحاضر كما كبيرا ومتنوعا من العلوم والمعارف فى مختلف المجالات . ذلك أن أوربا مرت بين نهاية العصور الوسطى وبداية القرن العشرين بأحداث جمة ، وشهدت نشاطا واسعا فى مختلف الميادين وتغيرات واسعة وجذرية شملت مختلف أوجه النشاطات والتنظيمات الانسانية . ولا يمكن مقارنة ذلك التحول خلال هذه القرون الأربعة الا بالنقلة النوعية التى مز بها الانسان فى فجر التاريخ ؛ تلك النقلة التى استغرقت آلاف السنين وعبرت بالبشرية من عصر جماعات الصيد والالتقاط البدائية الى عصر الزراعة والكتابة والامبراطوريات .

ورافق نقلة أوروبا من العصر الوسيط الى الحديث. جهد كبير فى مجالات المعرفة وجمع المعلومات والرصد والتسجيل والملاحظة والمشاهدة والدراسة والتوثيق . وافرز هذا الجهد كما هائلا من المعطيات حول نشاطه مجالات النشاط الانسانى. تقاسفته فروع العلوم الانسانية المختلفة .

وفى ثلاثة من هذه الفروع برزت ثلاث محاولات لاستخراج انساق واضحة من هذه المعطيات تنظم وترتب هذا الكم المتشعب الهائل من المعلومات فى نسق واضح ومفهوم يفسر الاحداث ويكشف المعالم ويوضح العلاقات . وشكلت كل واحدة من هذه المحاولات تيارا تنظيريا هاما تغلغل فى مختلف فروع المعرفة .

فمن علم الاقتصاد او مما كان يسمى فى القرن التاسع عشر بعلم الاقتصاد السياسى خرجت النظرية الماركسية التى تعود الى كارل ماركس واعتقد أننى لست بحاجة للتعريف بكارل ماركس او بنظرياته ولكن اكتفى بالإشارة هنا الى ان النظرية الماركسية التى بدأت باستخراج انساق الاقتصاد وعلاقاتها بالهرم الاجتماعى والسلطة السياسية ، تطورت لى تستوعب كافة الأنشطة الانسانية وفروع المعرفة المرتبطة بها كالتاريخ والسياسة والفن والفكر والدين والأسرة الخ . وفى كل هذه الميادين استخرج الماركسيون انساقا وأدوات تحليل ومفاهيم ومفردات ترتب وتستوعب المعطيات والاحداث التاريخية والمعاصرة بل والمستقبلية وتعللها جميعا بشكل يتفق والمادية التاريخية التى تشكل محور النظرية الماركسية .

ومن علم الاجتماع برز ما يسمى بالمدرسة الفبرية نسبة الى ماكس فيبر . وفيبر هذا عالم المانى خصب الانتاج حاد الفكر توفى فى سنة ١٩٢٠ ، بعد نشاط علمى حافل ساهم من خلاله بتشكيل علم الاجتماع الحديث وترك اثرا واضحا وعميقا فى كافة العلوم الاجتماعية (٣) . وتقف نظرية فيبر او بصورة أدق نظريات فيبر موقف المعارضة من النظرية الماركسية : اذ بينما تأخذ هذه النظرية الاقتصاد او العامل الاقتصادى كمحور للتحليل والتعليل واستخراج الانساق وفهم الاحداث والمعطيات ، ينطلق ماكس فيبر من قاعدة فكرية شبة خالصة . واذا كان كارل ماركس قد ارسى قواعد نظرياته لتفسير الاحداث التاريخية فى كتاب بعنوان

رأس المال فلقد قام فيبر بذلك فى كتاب عنوانه الاخلاقيات البروتستانتية وروح الرأسمالية (٤) . ولقد علل فيبر فى هذا الكتاب نشأة وتطور الرأسمالية فى أوروبا وما رافق ذلك التطور من نمو وتوسع اقتصادى وثورة صناعية وتوسع امبريالى بأسباب تعود الى الطبيعة الخاصة بالاصلاح الدينى المنسوب الى كالفن وموقف هذا المذهب من قضية الخلاص والقسمة الالهية . ومن تحليله للمذهب البروتستانتى انطلق فيبر الى ما يسمى بعلم نفسولوجيا الأديان والدراسة المقارنة للأديان والقضاء والقيادة السياسية حيث اخرج نظرية متكاملة فسر بها التطور السياسى والاجتماعى للمجتمعات الأوربية والشرقية وعلل الفروق المختلفة بين المجتمعات وأسلوب تطورها باستخدام أدوات تحليل سماها IDEAL TYPES أو النماذج المثالية ، تدور كلها حول الايديولوجيات الفكرية والدينية المختلفة (٥)

أما المدرسة الثالثة وهى موضوع هذا البحث فهى المدرسة النفسية أو الفرويدية والتي أخذت اسمها من سيجموند فرويد . وفرويد هذا طبيب وباحث ولد وعاش فيما كان يعرف بامبراطورية النمسا المجر وأجرى بحوثه ونشرها باللغة الالمانية فى النمسا والمانيا وكانت أخصب سنوات إنتاجه ما بين سنتي ١٨٩٩ - ١٩٢٧ ، ورسمت بحوثه واستنتاجاته معالم طريق علم النفس المعاصر واثرت تأثيرا كبيرا فى علوم الطب والتربية والاجتماع والتعليم (٦) .

وكان اهتمام فرويد الأساسى بالاعراض المرضية التى يطلق عليها الطب الآن . الهستيريا أى الاضطرابات العضوية التى ليس لها أساس بيولوجى أو فسيولوجى . وخلال سنوات عديدة من البحث والمراقبة ومحاولات العلاج طور نظرية خاصة لتفسير عناصر تكوين وعمل النفس الانسانية أو PSYCHE ولقد أصبح لتلك النظرية بالذات ومفرداتها وأدوات التحليل فيها تطبيقات خرجت عن حدود علم النفس والتربية والتعليم لتشمل دراسة احداث التاريخ والسياسة والمجتمع ، واستخدمت معطيات تلك النظرية لتفسير تلك الاحداث واستخراج انساق معينة منها .

نظرية فرويد :

مثل معظم التيارات الفكرية الخالدة والمؤثرة تبدأ نظرية فرويد بفكرة واحدة فى غاية البساطة واليسر وهى أن النفس الانسانية ليست شيئاً واحداً يولد متكامل بل هى كيان يولد مع الفرد ويتطور بمعىة تطور الفرد نفسه (٧) . فعندما يولد الفرد تكون النفس الخاصة به PSYCHE عبارة عن كتلة واحدة مبهمه هى الـ (هو) أو كما يسميها فرويد ID وهذا الـ (هو) كيان نستغرقه ذاته لا يرى ولا يسمع إلا مطالبه الغريزية . والعامل الفعال الوحيد المؤثر فيه هو عامل الـ (هو) الذى يحاول ارضاءه دون الالتفات الى أى عامل آخر . ان هذا الـ (هو) مليء بالطاقة التى تأتية من الغرائز ولكن هذه الطاقة غير منظمة ولا يمكن أن تنتج ارادة جماعية فهى تهدف فقط لارضاء الحاجات الغريزية كما يملها عليه مبدأ اللذة (٨) .

ولكن الـ (هو) سرعان ما يعى وجود عالم خارجى لأن الاشباع يقتضى التعامل مع هذا العالم . وكنتيجة لهذا التعامل يفرز الـ (هو) او الـ ID كيانا يخرج منه هو الانا أو كما يسميه فرويد « THE EGO والانا » وهو ذلك الجزء من الـ (هو) الذى تم تحويله بسبب قربه من العالم الخارجى وتأثير ذلك العالم عليه . لقد تحول ليتمكن من استقبال المؤثرات الخارجية وليكون الدرغ الواقعى من هذه المؤثرات . ان الانا تقوم بتمثيل العالم الخارجى أمام الـ (هو) ، ولولا الانا لما استطاع الـ (هو) أن ينجو من التدمير الذى كان ينتج من سعيه الأعمى لاشباع غرائزه دون الالتفات للقوى والمؤثرات الخارجية « (٩) .

ان الانا أو Ego هى الجزء المفكر من الـ (هو) أو ID الناتج عن تعامل الـ ID مع الخارج خلال نموه وهى لا تختلف عنه فى سعيها لاشباع الرغبات الا فى احساسها وحسن تقديرها للعالم الخارجى وما يحويه من مخاطر . والانا قادرة على جمع وتخزين الخبرات وفحصها « REALITY TESTING »

والأنا قادرة على تأجيل اندفاع الـ (هو) عن طريق اعمال الفكر واستخدام الحبرات . فالأنا بهذه الطريقة الغت مبدأ اللذة الذى يتحكم بمسيرة الاحداث فى عالم الـ (هو) دون قيود، وابدلته بمبدأ الواقع الذى يعد بزيادة فى التأكيد ونجاح أعظم . فالأنا اذن أكثر واقعية وليست أقل إنانية ؛ تدفعها الرغبة فى الاشباع ولكن تردعها العوامل الخارجية . ويقول فرويد أن أول هذه العوامل الرادعة هى سلطة الوالدين التى تتمثل فى العقاب والثواب اللذين تستجيب لهما الأنا أو الـ (Ego) العائدة للطفل بالامتناع عن عمل معين رغم أن فيه اشباعا لغريزة أو أخرى من غرائز الطفل والقيام بعمل آخر رغم أن ذلك العمل لا يعد بأى مردود اشباعى (١٠) .

وفى المرحلة الثالثة من مراحل تطور النفس يتكون ما يسمى بالأنا العليا « THE SUPER EGO » حين يتم استيعاب أو استدخال « INTERNALIZE » القيود الخارجية من خارج الـ PSYCHE الى داخله « حيث تأخذ الأنا العليا مكان السلطة الأبوية وتقوم بمراقبة وتوجيه وتهديد الأنا بنفس الطريقة التى تعامل بها الأبوان مع الطفل » وأساس العملية هى ما يسمى « بمطابقة الهوية » IDENTIFICATION أو كما عرفها فرويد نفسه « استيعاب أو تمثيل الأنا EGO لـ (أنا) أخرى بخارجة عنها . وكننتيجة لهذا التمثيل تتصرف الأنا الأولى كالثانية من بعض النواحي تقلدها وتأخذها فى ذاتها » (١١) . ويتكوّن الأنا العليا تكتمل عناصر النفس أو PSYCHE والأساس هو الأنا EGO الذى يخدم ثلاثة سيادة هى الـ ID والعالم الخارجى و SUPER EGO

التطبيقات التاريخية لنظرية فرويد :

حملت نظرية فرويد منذ ظهورها فى بداية هذا القرن احساسا قويا بالزمن وبفكرة التطور ، ولا يخفى على الاذهان تآثر فرويد الشديد بداروين . ولقد اعطى هذان البعدان لنظرية فرويد امكانيات واضحة لاستخدامها فى استخراج انساق معينة من المعطيات التاريخية (الأوربية بصورة خاصة) أو العالمية . لقد كان فرويد نفسه أول من تطرق لذلك

فى كتابه (محاضرات حول علم التحليل النفسى) . اذ نجد امكانية واضحة لأن تكون فى نظريته عن تطور النفس بذور نظرية أوسع لتفسير التطور الانسانى الحضارى بصورة عامة . وتكفى المقارنة بين وضع الـ (هو) أو ID وحالة التحرر الأولية للقبائل البدائية عندما يصف فرويد الـ (هو) بقوله :

« ان القوانين المنطقية للأفكار لا تنطبق على الـ (هو) ولا يوجد فى الـ (هو) ما يوحى باعتراف بعامل الوقت . ولا تعديل فى العملية الفكرية بسبب مرور الوقت . فعوامل التمنى التى لم تتجاوز الـ (هو) والانطباعات التى رسختها فى الـ (هو) عوامل القهر الخارجية شيئان خالدان اذ بعد مرور عقود من الزمن يفعل العاملان التمنى والمنع الناتج من القهر وكأنهما قد حدثا للتو » (١٢) .

انهما غير قابلين لفقدان فاعليتهما الا باخراجهما للوعى والتحليل القادر على ارجاعهما الى مكانهما فى الماضى السحيق ، عند ذلك يفقد التمنى والقهر فاعليتهما . الأنا فى الواقع لا يعرف حكما قائما على القيم ، ليس لديه خير وشر أو أخلاقية MORAL واقتصاده مرتبط ارتباطا مباشرا بمبدأ الاشباع الذى يسيطر على كل فاعلياته .

هذه الحالة بالطبع سوف تتعرض للتغيير بنفس أسلوب تغيير السايكى ، وهو الاتصال بالعالم الخارجى ثم استيعاب الأنا العليا . وعملية الاستيعاب هذه فتحت أمام فرويد نفسه ثم تلاميذه واتباعه فيما بعد بابا واسعا لتوجيه الدراسات التاريخية والتأثير عليها . وهنا أيضا نجد أولى المحاولات على يد فرويد نفسه . اذ ان قوله بأن EGO الفرد تقوم بتمثل EGO أخرى واستيعابها ومن ثم التصرف وفق أوامر ونواهى ذلك الـ EGO يفتح امكانية استيعاب مجموعة الأفراد كبرت أو صغرت لنفس الـ EGO وبالتالي تصرف هذه المجموعة وفقا لأوامر ونواهى هذه الـ EGO نفسها . أو كما يقول فرويد : « أن الأنا العليا تمثل فى النهاية الروادع الأخلاقية وهى تعود لتأثير الآباء والمعلمين وغيرهم . ولكن هؤلاء الآباء والمعلمين ومن فى حكمهم يتبعون الأنا العليا (مجلة المؤرخ العربى)

العائدة لهم **THEIR SUPER EGO** عندما يخلقون تلك الأنا عند الأطفال . اذن فان الأنا العليا للأطفال لا تتكون على شاكلة الآباء بل على شاكلة الأنا العليا للآباء وبكل ما تحمله تلك الأنا العليا من أوامر ونواهي وأحكام قاومت عوامل مرور الزمن وانتقلت من جيل الى جيل « (١٣) » . وفى اشارة واضحة للفكر الماركسى يتابع فرويد فيقول أن من الأرجح أن تكون الاراء المادية فى التاريخ على خطأ عندما تقلل من أهمية هذا العامل . انهم ينحونها جانبا بقولهم ان الأيديولوجيا ليست سوى البنية الفوقية أو افرازا للظروف الاقتصادية المعاصرة . وقد يكون هذا الكلام حقيقة ولكنه ليس كل الحقيقة . « ان الجنس البشرى لا يعيش فى حاضره فقط ، ان الماضى تراث العرق أو الجنس **RACE** وتراث الشعب يبقى حيا فى ايديولوجيات وفى الذات العليا « **SUPER EGO** للأفراد وهى لا تتأثر بالحاضر وتغيراته الا بصورة بطيئة . وما بقيت هذه الايديولوجيات فاعلة فى الذات العليا للأفراد فانها تلعب دورا قويا فى الحياة الانسانية بغض النظر عن الظروف الاقتصادية « (١٤) » .

ومن أهم العناصر الايديولوجية التى استحوذت على اهتمام فرويد وأتباعه فيما بعد كانت قضية ظهور وتطور ايديولوجية الدين وأثرها فى بداية التطور الحضارى للانسان . وفى سلسلة من البحوث أهمها - **WELTANSCHAUUNG** (١٥) والطوطمية والتحریم (١٦) وموسى والتوحيد (١٧) ، ابرز فرويد العلاقة بين نشوء الأديان والتطور النفسى للفرد من ناحية والعلاقة بين الدين كـ رؤية شاملة أو كونية **WELTANSCHAUUNG** وتكوين الأنا العليا أو **SUPER EGO** من ناحية أخرى .

يقول فرويد ان حاجة الانسان الى رؤية كونية شاملة هى حاجة انسانية ازلية ولقد عرف الانسان مجموعة من هذه الرؤى أهمها الرؤى الدينية ، والفلسفية ، والوضعية ، ثم العملية (١٨) . ولكن انجح هذه الرؤى وأقربها اشباعا لحاجة الانسان هى الرؤية الدينية لأنها تلبي حاجات ثلاث :

فهى أولا تشفى عطش الانسان المستمر للمعرفة ، ففى الدين اجابة

جاهزة لكل أسئلة الانسان عن ماضيه وحاضره ومستقبله . وهى ثانيا تسكن روح الانسان وتعطيه الطمأنينة من مخاوف هذه الحياة ومخاطرها فهى تعطيه الراحة فى الأوقات العصبية وتطمئنه الى حسن الحال والراحة فى نهاية الطريق وهى ثالثا توجه الانسان وتعطيه معالم الطريق وتزوده بالأوامر والنواهي والحدود . ويرى فرويد تطابقا واضحا بين وظائف الدين ووظائف الأنا العليا أو SUPER EGO كما يجد كذلك تطابقا آخر بين الرموز الدينية المختلفة وشخصية الوالدين . وبعد تجميع العديد من المعطيات حول الديانات القديمة والحديثة وأساليب التربية يخلص الى القول بأن نفس الأب الذى منح الطفل الحياة وحماه من المخاطر هو الذى علمه ما يجب أن يعمل وما لا يجب عمله ودربه كيف يكبح غرائزه الداخلية وجعله يفهم المطلوب منه تجاه والديه وأخوانه وأخواته ان أراد أن يصبح عضوا مقبولا فى أسرته ومجتمعه ، كل ذلك فى اطار نظام من المكافأة أو العقوبة (١٩) . ان كافة هذه العلاقات ادخلها الانسان فى ديانتته دون تغيير بل ان فحص الديانات القديمة تعطى صورة واضحة للعلاقة الحميمة بين صورة الالهة والوالد أو السلطة الأسرية .

فالاله هو الأب وهو مانح الطعام وهو المعاقب وهو أيضا المثيب . انه كذلك ليس بالصورة الكاملة فالأساطير الدينية القديمة ، معظمها لا تعطى الاله الأب كل الفضل فى الخلق فهناك الاله الأم وهناك الشياطين والأرواح ، ومحدودية قدرة الاله الأب بل نواقصه وعيوبه . وقدرة الانسان فى التأثير عليه اما بصورة مباشرة عن طريق الارضاء والاستعطاف أو بالاستعانة بقدرات أخرى كالسحر والأرواح والكلمة .

التحليل النفسى وعلم التاريخ :

قام فرويد نفسه بأول محاولة لاستخدام نظرياته فى التعليل التاريخى وذلك فى كتاب أثار ضجة كبيرة فى وقت هو كتاب (الحضارة والفسخ) (٢٠) . والكتاب مزيج مثير من علوم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والتاريخ ، حاول فيه فرويد الربط بين انتقال الانسان من البدائية الى مرحلة الحضارات والتطور النفسى للانسان البدائى . ان حسب تعبيرة هو « ان تطور الحضارة هو عملية خاصة يمكن

مقارنتها بالنمو والنضوج الطبيعي للفرد» (٢١) والاطار العام لنظريته هو أن الحضارة الانسانية أو بصورة أدق الجماعات الانسانية التى انشأت الحضارات المبكرة لم يكن بوسعها القيام بذلك لو لم تمر تلك المجتمعات بمرحلة الانتقال من الـ (هو) الى الـ أنا ثم الـ أنا العليا أى نفس مراحل تطور النفس الانسانية . ويرى فرويد أن أولى مراحل ذلك الانتقال هى تكوين الأسرة التى يرى فرويد أن السبب الأساسى فى تكوينها هو رغبة الرجل فى اشباع حاجته الجنسية وبعد أن كانت العلاقة بين الرجل والمرأة عابرة تحولت الى علاقة دائمة عندما تغلب الرجل على الـ (هو) البدائية فيه وتطور الـ (الـ أنا) المدرك لمحدودية الممكن وامكان الحصول على الاشباع الدائم عن طريق التعامل بواقعية مع العالم الخارجى .

فالأسرة اذن هى أول خطوة فى تطوير الحضارة ولكن المجتمعات التى أسست الحضارات لم تبرز الى الوجود الا بعد أن تجاوز الانسان الأسرة كوحدة أساسية وكون التجمعات الانسانية الأكبر . ولقد تمت هذه الخطوة بصورة مشابهة لتكوين الـ أنا العليا فى النفس الانسانية . وبهذا الخصوص يناقش فرويد باستفاضة طبيعة ومظاهر وأهداف الشعور الانسانى أو العاطفة الانسانية التى يسميها الانسان الحب (LOVE) ويدعى هنا بأن الأساس فى شعور الانسان بالحب هو الرغبة الجنسية والتى يكون هدفها هو المرأة . وطوال العصر البدائى للانسان لم تخرج هذه العاطفة عن حدودها أو أهدافها . ويرى فرويد كذلك أن الرجل فى تلك المرحلة غاب عنه الشعور بالاطمئنان بسبب الاحتمال القائم دائما بفقدانه هدف عاطفته هذه - أى المرأة - بسبب الوفاة أو الانفصال مما دعاه كفرد أو افراد الى تحويل نوعية هذه العاطفة وتوسعة أهدافها عن طريق الـ SUBLIMATION أى التسامى . ولكى لا يفجع الانسان بذلك فقد اتسع نطاق الشعور بالمحبة من المرأة بمفردها أو من الهدف الجنسى بعينه الى مجموعة أكبر هى أفراد المجتمع كافة ، وتحولت العاطفة من عاطفة حب جنسى (EROS) الى عاطفة الاخوة والمواطنة وتم تحويل تلك الطاقة التى صرفها الرجل فى حياته البدائية على اشباع حاجته الجنسية الى طاقة اجتماعية تنظيمية سمحت لأول المجتمعات الانسانية بالظهور والتطور . ويلاحظ فرويد هنا علاقة عكسية بين اهتمام الانسان باشباع حاجاته الغريزية بالمتعة واللعب ومدى تطور حضارات الانسان

وانجازاته المدنية . اذ كلما زاد سعى المجتمع الى تسامى وتصيد وتحويل وتهذيب طاقة الانسان الجنسية من هدفها المحدود ، وكلما عمل المجتمع على خلق الحواجز والحدود والنواهي حول الممارسة الجنسية واشباع الغرائز واللهو بصورة عامة ، تسامت غرائز الانسان ودفعته الى الالتصاق بأفراد آخرين من المجتمع خارج حدود الجنس الآخر وانصرفت طاقاته الى اعمال البناء والتشييد والخلق الحضارى .

لقد لقيت أفكار فرويد هذه في البداية معارضة شديدة كما هو متوقع من مصادر عدة ولكنها لقيت كذلك قبولا واسعا من علماء الانثروبولوجيا الذين استخدموا نظرياته وأساليبه التحليلية في دراساتهم . والملفت للنظر هو التأثير المحدود لنظريات فرويد في علم التاريخ بالمقارنة بالعلوم الانسانية الأخرى . وكان أن بقى الوضع كذلك - حتى الستينات من هذا القرن - حين تغير الوضع تغيرا كبيرا بفضل بعض تلاميذه الذين نقلوا اهتمامهم من التاريخ القديم وعصر ما قبل التاريخ الى التاريخ الحديث والمعاصر ، مستخدمين انساق فرويد نفسها وأدواته التحليلية ومفاهيمه . وانتج هذا الاهتمام سيلا غزيرا من الانتاج التاريخي الذي استخدم الانساق الفرويدية لالقاء الضوء على جوانب متعددة من جوانب التاريخ الأوربي والعالمي .

ومن الرواد الأوائل لهذه الدراسات كان اريك اريكسون . واريكسون هذا تلميذ من تلاميذ فرويد ، هاجر للولايات المتحدة لمواصلة عمله وابحائه وأحرز مكانة مرموقة في عالمها الاكاديمي . وفي سنة ١٩٥٠ نشر اريكسون كتابه الطفولة والمجتمع (٢١) والذي حاول فيه الربط بين أسلوب وطريقة تطور الـ (EGO) في أطفال تلك المجتمعات والتطور التاريخي لها . يقول اريكسون في هذا المجال أن ما يميز الانسانية هو طول الفترة الزمنية لمرحلة الطفولة عند أفرادها ، وما يميز الانسانية المتحضرة هو أن فترة طفولة أفرادها أكثر طولا (٢٢) . وفي فترة الطفولة هذه يتكون الانا والانا العليا ، وهي في رأى اريكسون لا تتكون بنفس الأسلوب أو الطريقة في كل المجتمعات اذ يختلف الأسلوب من مجتمع الى آخر . ولا يخلو ذلك التكوين من مخاوف لا عقلانية يحملها الأفراد معهم الى حياتهم البالغة . لذا يقوم اريكسون بدراسة أساليب تربية الأطفال في عدد من المجتمعات

الانسانية محاولا ايضاح العلاقة بين تلك الأساليب والتطور التاريخي لتلك المجتمعات . ففى بحث عن الهنود الحمر من شعب السيوكس SIOUX يربط اريكسون بين أسلوب تعامل الأمهات الصغار مع أطفالهن وحالة الخنوع واللامبالاة التى تميز تلك القبائل (٢٤) . وفى بحث آخر يدرس اريكسون دور الأب والأم فى الأسرة الأمريكية فى الفترة بين سنوات الحرب الأهلية والانطلاقة الصناعية ويخلص الى القول بأن طغيان دور الأم وتراجع موقع الأب فى تلك الأسرة قد أدى الى تفهقر الفردية لدى الشعب الأمريكى وخلق قناع جماعى من الفردية يخفى حقيقة ذوبان الفروق الفردية (٢٥) . وفى بحث من أهم بحوث الكتاب وأكثرها اثارة للجدل تتبع هذا العالم بعض خصائص تربية الأطفال فى المانيا وظهور الفكر النازى (٢٦) وكانت إحدى أهم خلاصة أبحاثه أن اهتمام الألمان الغير سوى بانضباط الأطفال فى وقت مبكر خصوصا فى بعض القضايا الحيوية كالتحكم فى البول والغائط وطغيان صورة الأب جعل الشبان الالمان على استعداد لقبول فكرة الفوهرر والالتزام بتنظيم يحى صورة الفرد ويمنع انفراديته ، أى أن النظام النازى كان امتدادا طبيعيا لحياة الأفراد وأسلوب تكوين السايكى لديهم .

وكان لبحوث اريكسون هذه أثر واسع فى أوساط المؤرخين الأمريكيين الذين اثارتهم الامكانيات الجديدة التى قد تتيحها أساليب فرويد ونظرياته . وكان لاريكسون فضل استقطاب عدد من هؤلاء المهتمين فى مجموعة ذات طابع بعيد عن الرسميات والشكليات اطلقت على نفسها اسمهم مجموعة WELLFLEET . ولقد ضمت هذه المجموعة عددا من العاملين فى البحث التاريخى وعلم النفس والدرامات الأدبية وتناولت بحوثهم مواضيع عديدة تراوحت بين تاريخ الهنود الحمر وغاندى ومانيا النازية وأوضاع اليهود فى أوربا ولكن قد تكون أهم انتاجات تلك المجموعة التى نشطت فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات هى البحوث النظرية التى حاول فيها بعض أفراد المجموعة ارساء القواعد النظرية لاستخدام فكر فرويد فى البحث التاريخى (٢٧) .

وكان أن تحولت هذه البداية المتواضعة الى تيار مؤثر تغلغل فى العديد من مراكز الدراسات التاريخية المهمة فى الولايات المتحدة . ولقد

انتج هذا التيار مجموعة من الابحاث فى غاية الجودة والطرافة والذكاء حاولت اما القاء الضوء على بعض جوانب التاريخ الأمريكى المبهمه وغير الواضحة أو القاء أسئلة جديدة حول ذلك التاريخ . ويعتقد أصحاب هذا التيار أن المدرسة الفرويدية هى أكثر المدارس مناسبة لدراسة بعض جوانب التاريخ الأمريكى . فهؤلاء المؤرخون لا يشفى غليلهم التفسير المادى لاحداث الاستعمار الانجليزى والثورة الأمريكية والصراع بين البيض والهنود الحمر والحرب الأهلية . هؤلاء المؤرخون حسب تعبير احدهم يعلمون أن الانسان لا يعيش ويتصرف بدوافع المصلحة وحدها ولا يكفى القول أن الاحداث التاريخية السابقة ينحصر تفسيرها الوحيد فى الصراع على الأرض والموارد الاقتصادية . والمؤرخ يواجه فى كل لفظة من لفظاته عوامل تأثير العادات والتقاليد ، الولاء وروح التعصب ، حرارة الايمان والروح الانتحارية (٢٨) . ولا يمكن قياس هذه القوى أو تفسيرها أو دراسة تفاعلها مع الاحداث الا بالعودة لعلم التحليل النفسى . ومن هذا المنطلق نجد أحد هؤلاء المؤرخين ، ميكل روجن فى كتابه (آباء وأبناء) (٢٩) يسأل سؤالاً مهماً يتعلق بأسباب اشتداد الصراع بين البيض والهنود الحمر فى السنوات السابقة على الحرب الأهلية وهى سنوات لم يكن البيض فيها بحاجة الى أراضى الهنود . ويرجع روجن أسباب الصراع فى تلك الفترة الى التطور النفسى للأمة الأمريكية التى ربطت بصور لا واعية أو ارادية بين طفولتها ووجود الهنود الحمر . ويستخدم روجن كما كبيرا من المصادر الأدبية المختلفة فى محاولة لاثبات أن الأمريكيين فى أيام جاكسون كانوا فى الواقع يحاولون تدمير طفولتهم عندما كانوا يدمرون الهنود الحمر .

وتناول آخرون بالبحث والتحليل عددا من شخصيات التاريخ الأمريكى المثيرة للجدل . ففى بحث مطول حاول جوزيف بيرنز عن طريق فحص الحياة الخاصة لهنرى ادامز تحليل أسباب الصراعات المتعددة التى خاضها هذا الثورى البارز والسياسى المهم مع معاصريه (٣٠) . وفى محاولة لفهم دوافع ودور ويلسون ، الاكاديمى الذى أصبح رئيسا للولايات المتحدة فى الحرب العالمية الأولى ، قام الكسندر جورج وجولييت جورج بدراسة وتحليل كم كبير ومتنوع من المصادر والوثائق الخاصة بهذا الرجل

فى محاولة تحليل نفسية ويلسون وتفسير الاضطراب الكبير فى حياته العملية وأسباب دفعه للولايات المتحدة الى حلبة السياسة العالمية فى وقت لم تكن مستعدة فيه لذلك (٣١) .

ولكن هذه المحاولات كافة نقصر عن اللحاق بتيار فرنسى ارسى دعائمه شارلز فوكو منذ نهاية الستينات . وشارلز فوكو هذا طبيب تخلى عن دراسة الطب ليتحول الى دراسة التاريخ وتدريسه فى أشهر كلية فى فرنسا « COLLEGE DE FRANCE » . وفى سلسلة من البحوث والكتب والمقالات قدم فوكو للفكر الأوربى اطروحات جديدة لتفسير تطور أوربا التاريخى تركت اثرا عميقا على مختلف العلوم الاجتماعية .

وتأتى أهمية اطروحات فوكو من طريقة معالجته للقضايا الأساسية فى التاريخ الأوربى الحديث من طبيعة الأدلة التى يستخدمها . اذ نجد ايمان فوكو بنظرية فرويد ومعرفته الوثيقة بتطبيقاتها واستخدامه لانساقها يجعله يطرح قضايا التاريخ الأوربى طرحا جديدا فى غاية الطرافة والابتكار مع التزامه التام بتلك الانساق . فهو يؤمن ايمانا مطلقا بنظرية تطور السايكى التى طرحها فرويد ويخرج بها من اطارها الفردى الى اطار جماعى واسع يشمل أوربا كلها . فالاد أو الـ (هو) والايجو أو الأنا هو حال أوربا فى العصور الوسطى . وما نقلة أوربا من العصور الوسطى الى العصر الحديث الا تكوين الأنا العليا أو SUPER EGO

ان تاريخ أوربا الحديث هو تاريخ انتصار البرجوازية وما تبعه من انتصار الدولة المركزية الحديثة وأجهزتها وانتصار البيروقراطية التى قيدت الفرد الأوربى وقننته وحولته من عفويته الأولى الى جزء من آلة دقيقة محكمة النظام والقيود . فالايجو اذن هو المجتمع الأوربى ، اما ثلاثى الدولة والبرجوازية والبيروقراطية فهى عناصر السوبر ايجو التى كبحت ولا تزال تكبح الفرد والمجتمع الأوربى .

واذا كانت وحدة التحليل الأساسية فى النظرية الماركسية هى الانتاج ووسائل الانتاج أو أساليب الانتاج فان وحدة التحليل الأساسية لدى فوكو هى السلطة أو القوة POUVOIR بأشكالها المختلفة ومظاهرها

ومراكزها وكافة العلاقات الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية ماهى فى النهاية سوى علاقات قوة. وكافة المؤسسات الفكرية والاجتماعية كالبحت العلمى والزواج والأسرة ماهى الا نقاط مظاهر القوة وأماكن لممارستها . أو كما عبر عن ذلك فى كتابه تاريخ الجنس أو تاريخ العلاقات الجنسية *HISTOIRE DE SEXUALITE* وعند تحليله للاهتمام العلمى والاجتماعى والحكومى بقضايا الجنس فى نهاية القرن التاسع عشر .

ان. الكشف الطبى والفحص النفسى والتقرير البيداغوجى والقيود التى تفرضها العائلة تبدو لأول وهلة « فى تلك الفترة » وكأنها تهدف الى رفض كل أنواع العلاقات الجنسية الغير سوية أو التى لا تقود الى التكاثر. ولكن الحقيقة أنها كلها تعمل كأداة ذات غرضين: اللذة والقوة، وهى اللذة التى تأتى من ممارسة قوة تسال وتراقب وتبحث وتتجسس وتحسس وتظهر الى الضوء ، واللذة التى تأتى من ناحية ثانية من القدرة على الهروب من هذه القوة أو خداعها . أما القوة فهى التى تتمتع بقدرتها على ملاحقة اللذة تقابلها قوة تؤكد نفسها بالاستلذاذ بالمباهاة والمقاومة أو التصرف الفاضح . وقد شارك فى هذا الصراع الدائم بين اللذة والقوة : الآباء والأبناء ، الكبار والمراهقون ، المعلمون والطلاب ، أطباء ومرضاهم، الأطباء النفسيون وذوو السلوك الغير سوى «(٣٢) .

وبهذا النمط من التحليل ليس بالمستغرب أن تغيب عن أدلة فوكو أو مجال بحثه الانماط العادية من ميادين البحث ومجالاته كالسياسة أو الطبقة أو الاقتصاد أو ملفات الشركات والوزارات والدوائر الحكومية أو المؤسسات الاقتصادية أو السياسية أو غيرها من ميادين البحث المعتادة .

ان ميدان بحث فوكو الأساسى هو المؤسسات التى تتعامل مع ما يسميه بالعناصر الهامشية أو العناصر غير السوية . ففى بحث رائع بعنوان « الحضارة والجنون »(٣٣) يتتبع فوكو تعامل أوروبا مع الجنون والمجانين منذ ايرازموس وحتى نهاية القرن التاسع عشر ليثبت بوضوح كيف تدرجت تلك المعاملة من التسامح الى محاولة ارغام المجنون على التصرف السوى بالقسوة والقوة البدنية ، ثم الى استخدام الضغوط

النفسية لجعل المجنون ذاته يرغب نفسه على السلوك السوى (٣٤) وفى وصف رائع لممارسات مستشفيات المجانين الانجليزية فى بداية ظهورها وكيف كانت تستخدم فيها أكثر الأساليب شيطانية وقسوة لارغام المجنون على الالتزام بالهدوء والنظام ثم تطور تلك الأساليب ونجاحها فى ارغام المجنون على اجبار نفسه ، بدون أى أساليب قسر خارجية ، على التصرف العاقل . وفى بحث آخر يتبع فوكو تعامل أوروبا مع المجرمين والخارجين على القانون (٣٥) ليخلص الى نفس النتيجة ، وهى التطور من التسامح الى القسوة البدنية المفرطة ثم فرض القيود من الداخل . كل ذلك بتزامن وثيق مع تحول أوروبا من النظام الاقطاعى والحكم المحدود الى التسلط البرجوازى وقيود الدولة الحديثة - فالعناصر الغير سوية تلعب من وجهة نظر فوكو دور الأنا المتطرف الذى يخضعه السوبر ايجو لاستيعابه . ان تاريخ أوروبا عند فوكو هو تاريخ استيعاب الأنا العليا الأوروبية ، الأنا العليا البرجوازية .

ولقد وسع فوكو فيما بعد دائرة بحثه لتشمل مجالين من مجالات البحث فى محاولة لتأكيد وجهة نظره . المجال الأول هو الانتولوجى أو علم المعرفة وذلك فى كتابه « الكلمات والأشياء » (٣٦) . ويناقش فى هذا الكتاب مراحل بروز العلم والفن الحديث وتفريعاتهما ليؤكد فى النهاية أن الهدف النهائى لذلك التطور هو فرض القوة والسلطة . ولقد كانت هذه الفكرة هى منطلق ادوارد سعيد فى كتابه الاستشراق والذى ربط فيها بين ظهور علم الاستشراق ومحاولة الغرب ادخال الشرق فى حيز المفهوم وبالتالى حيز السيطرة (٣٧) .

اما المجال الثانى فهو كتابه عن تاريخ الجنس أو العلاقات الجنسية وهو كتاب ضخم تتبع تطور نظرة أوروبا للجنس ولأنواع العلاقات الجنسية منذ العصور الوسطى وحتى الوقت الحاضر فى محاولات لابرار مراكز القوة وممارساتها فى المجتمع الأوروبى (٣٨) .

الخاتمة :

وأخيراً ...

ما هو التقييم الفعلى لمساهمات فرويد وتلامذته فى علم التاريخ ؟
ان من الصعب تقييم ذلك اذ على الرغم من الانتشار الواسع لميدان بحوثهم
الا أن قبول آرائهم لا يزال محصورا فى قلة من العلماء .

ولقد تعرضت محاولات تطبيق النظرية الفرويدية الى الانتقاد من
جانبيين ، الجانب الأول انصب على معطيات النظرية نفسها التى كانت
ولا تزال مثار نقاش وجدل ضمن العاملين فى مجال علم النفس . وكان
لمعارضى فرويد فى مجال علم النفس أنصارهم فى علم التاريخ . ولقد
تعرض هؤلاء الأنصار بالنقد والتجريح للمؤرخين الذين حاولوا تطبيق
النظرية الفرويدية . ومن جانب آخر تعرض مؤرخون آخرون بالنقد
للتطبيقات الفرويدية بسبب ما وصفوه بالسهولة التى يقفز بها هؤلاء من
المقدمات الى النتائج ومحاولتهم تفسير ظواهر واحداث تاريخية شديدة
التعقيد بالاعتماد على مصادر قليلة قد لا ترتبط ارتباطا مباشرا بالحدث
التاريخى الا من ناحية التزامن (٣٩) ان التفسير النفسى للتاريخ ليس
بالشئ المحدث أو الجديد بل ان محاولات هذا الأسلوب تعود الى أقدم
الدراسات التاريخية ابتداء من أرسطو الذى أشار فى كتابه عن الدساتير
اليونانية الى العلاقة بين ما أسماه طبيعة سكان المدن اليونانية المختلفة
وتطور أنظمتها السياسية المتمثلة بدساتيرها . ولابن خلدون كذلك
محاولات فى غاية الأهمية لربط أحداث التاريخ ودوراته بما يعترى نفس
الانسان من تطور ابان انتقاله بين مظاهر العيش المختلفة ، ومن البداوة
الى الحضارة ومرور الزمن على الحكام وتقادم السلطة الى غير ذلك .
كما قام مونسكيو بالقول ان النظام السياسى والاجتماعى لا يبلد وأن أية
حضارة ما هى الا انعكاس لنفسية سكانها . وهكذا لا يجب اعتبار
التطبيقات التاريخية لعلم النفس على تلك الدرجة الكبيرة من الشذوذ
أو الغرابة التى يصفها بها أعداؤها وهى كذلك ليست بتلك الدرجة من
الجدة والابتكار التى يصفها بها أنصارها .

ووفقا لهذا الاعتبار يمكن تقييم مساهمات فرويد وتلامذته على ضوء مساهمتهم فى الجهد العام لدارسى التاريخ من جوانبه المتعددة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . . الخ .

من هذا المنطلق يمكننا القول ان دراسات أنصار فرويد لابد من ان تصب فى النهاية فى التيار الهادف الى فهم أفضل وأكثر عمقا لتاريخ الانسان ومؤسساته المختلفة وانجازاته الحضارية المتفاوتة الاهمية . لقد استطاع هؤلاء توسعة دائرة البحث التاريخى لتشمل قضايا لم تكن مطروحة فى السابق كأسلوب تربية الأطفال والعلاقات داخل الأسرة وعلاقة الأسرة بالمجتمع ووضع المرأة . كذلك اقت هذه الدراسات الضوء على العديد من المؤسسات التى لم تكن تحظى باهتمام يذكر لدى باحثى التاريخ كالسجون والمستشفيات والعيادات النفسية . وهذا بحد ذاته اضافة ذات أهمية بالغة للدراسات التاريخية وعلم التاريخ تكفى للاهتمام بهذا التيار .

الهوامش

(١) نشر فرانسيس بيكون مقالته « الاورجانون الجديد » فى عام ١٦٢٠ وهو بحث عام فى المعرفة وتحليل لاسباب وقوع الاخطاء فى البحث العلمى لكى يحصل محل اورجانون ارسطو ولقد تعارف مؤرخو التاريخ الفكرى الاوربى على اعتبار هذا البحث أول لبنة فى بناء الاسلوب العلمى الاستقرائى الحديث الذى يسود عالمنا المعاصر . انظر حول الموضوع :

برتراند رسل ، حكمة الغرب ج ٢ . الفلسفة الحديثة والمعاصرة ترجمة د . فؤاد زكريا (الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٣) من ٥٨ - ٦٦ . وفيها يطرح منهج بيكون وأهم انتقاداته .

MUHSIN MAHDI, (٢)
IBN KHALDUN'S PHILOSOPHY OF HISTORY
(CHICAGO : UNIVERSITY OF CHICAGO PRESS, 1971),
pp. 288-289.

(٣) ولد ماكس فيبر سنة ١٨٦٤ فى مدينة ارفورت بالمانيا وتلقى تعليمه فى جامعاتها وعمل فى سلك القضاء أولا ثم التحق بجامعة فرايبورغ كاستاذ فى سنة ١٨٩٣ وقضى ما تبقى من عمره متنقلا فى جامعات المانيا محاضرا ومؤلفا . ولقد تحدى فيبر النظرية الماركسية منذ بواكير عمله العلمى . وحاول عن طريق بحوثه فى التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع اثبات بطلان التاريخية المادية التى نادى بها تلاميذ ماركس . ويوجد افضل عرض لافكاره فى كتابه المهم والكبير الحجم (١٤٦٩ صفحة)

MAX WEBER,
ECONOMY AND SOCIETY ED. GUENTHER ROTH AND
CLOUS WITTICH, 2 VOLS. (BERKELEY : U.C. PRESS,
1978).

MAX WEBER, (٤)
THE PROTESTANT ETHIC AND THE SPIRIT OF CAPITALISM, (NEW YORK : CHARLES SCRIBNER'S SONS,
1958).

(٥) انظر تعريف فيبر للنماذج المثالية فى :

WEBER,
ECONOMY AND SOCIETY, vol. 1, pp. 18-22.

(٦) تريبو كتب ومقالات فرويد عن الستين ترجمت الى معظم اللغات الحية وتوجد قائمة كاملة بانتاجه العلمى والترجمة الانجليزية لذلك الانتاج فى :

SIGMUND FREUD,
NEW INTRODUCTORY LECTURES ON PSYCHOANALYSIS,
TR. AND ED. BY JAMES STRACHEY (NEW YORK :
NORTON AND CO., 1965), pp. 184-190..

(٧) سنستخدم فى هذا المقال عند استعراض نظرية فرويد على الطبعة الاخيرة من كتابه محاضرات فى التحليل النفسى وهو الكتاب الذى ترجمه STRACHEY والمذكور فى الهامش السابق .

FREUD, INTRODUCTORY LECTURES, p. 73. (٨)

FREUD, INTRODUCTORY LECTURES, p. 75. (٩)

FREUD, INTRODUCTORY LECTURES, p. 76. (١٠)

FREUD, INTRODUCTORY LECTURES, pp. 62-63. (١١)

FREUD, INTRODUCTORY LECTURES, p. 74.

FREUD, INTRODUCTORY LECTURES, p. 67. (١٢)

FREUD, INTRODUCTORY LECTURES, p. 67. (١٤)

FREUD, INTRODUCTORY LECTURES, pp. 158-182. (١٥)

SIGMUND FREUD, TOTEM AND TABOO (LONDON, 1950). (١٦)

(١٧)
SIGMUND FREUD, MOSES AND MONOTHEISM, (NEW YORK : VINTAGE BOOKS, 1967).

FREUD, INTRODUCTORY LECTURES, p. 160 (١٨)

FREUD, INTRODUCTORY LECTURES, p. 164-19. (١٩)

(٢٠)

SIGMOND FREUD, CIVILIZATION AND ITS DISCONTENTS (NEW YORK : NORTON AND CO., 196). (٢١)

FREUD, CIVILIZATION, p. 45.

(٢٢)
ERIK H. ERIKSON, **CHILDHOOD AND SOCIETY** (NEW YORK : NORTON AND CO., 1950).

(٢٣) كما يوجد للكتاب طبعة أحدث منقحة ومزودة صدرت من نفس الدار في سنة
١٩٦٢ .

ERIKSON, **CHILDHOOD**, pp. 133-134. (٢٤)

ERIKSON, **CHILDHOOD**, p. 295. (٢٥)

(٢٦)
ERIKSON, **CHILDHOOD**, CH-9 "THE LEGEND OF HITLER'S CHILDHOOD" pp. 326-356.

(٢٧) تم نشر أوراق مجموعة البحث هذه في :

ROBERT JAY LIFTON, ED., **EXPLORATION IN PSYCHO-HISTORY. THE WELFLEET PAPERS, EDITED BY ROBERT JAY LIFTON WITH ERIC OLSON AND WITH ESSAYS BY ERIK ERIKSON AND KENNETH KENISTON** (NEW YORK : SIMON AND SCHUSTER, 1974).

ويضم الكتاب أوراق المجموعة منذ أوائل سنوات تشكيلها . حول المجموعة
نفسها انظر الصفحات pp. 11-19

(٢٨)
PETER GAY, **FREUD FOR HISTORIANS** (NEW YORK : OXFORD UNIVERSITY PRESS, 1985), p. 100.

(٢٩)
MICHAEL PAUL ROGIN, **FATHER AND CHILDREN, ANDREW JACKSON AND THE SUBJUDICATION OF THE AMERICAN INDIAN**, (NEW YORK : VINTAGE BOOKS, 1976).

(٢٠)
JOSEPH F. BYRNES. **THE VIRGIN OF CHARTERS : AN INTELLECTUAL AND PSYCHOLOGICAL HISTORY OF THE WORK OF HENRY ADAMS** (NEW YORK : NORTON, 1979).

(٢١)

ALEXANDER L. GEORGE AND JULIETTE L. GEORGE,
WOODROW WILSON AND COLONEL HOUSE : A PER-
SONALITY STUDY (NEW YORK : NORTON, 1964).

(٢٢)

MICHEL Foucault, THE HISTORY OF SEXUALITY VOL.
1 : AN INTRODUCTION, (NEW YORK : VINTAGE
BOOKS, 1978).

(٢٣)

MICHEL Foucault, MADNESS AND CIVILIZATION : A
HISTORY OF INSANITY IN THE AGE OF REASON,
(NEW YORK : VINTAGE BOOKS, 1973).

Foucault, MADNESS, p. 247.

(٢٤)

(٢٥)

MICHEL Foucault, DISCIPLINE AND PUNISHMENT, THE
BIRTH OF THE PRISON (NEW YORK : PANTHEON
BOOKS, 1977).

(٢٦)

MICHEL Foucault, THE ORDER OF THINGS AN AR-
CHAEOLGY OF THE HUMAN SCIENCES. A TRANS-
LATION OF LES MOTS ET LES CHOSES (NEW YORK :
VINTAGE BOOKS, 1973).

(٢٧)

EDWARD W. SAID, ORIENTALISM (NEW YORK : PAN-
THEON BOOKS, 1978), pp. 21-24.

(٢٨)

MICHEL Foucault, HISTOIRE DE LA SEXUALITE
VOL. 1, LA VOLONTE DE SAVOIRE (PARIS : GALLI-
MARD, 1976). J. VOL. 2 L'USAGE DES PLAISIRS VOL. 3
LA SOCIÉTÉ DE SOI (PARIS : GALLIMARD, 1984).

(٢٩) حول أهم الانتقادات للتطبيقات التاريخية لفرويد. انظر :

DAVID E. STANNARD, SHRINKING HISTORY : ON FREUD
AND THE FAILURE OF PSYCHOHISTORY (NEW YORK :
NORTON AND CO., 1980).

حول العلاقات بين مصر وجنوب الجزيرة العربية في العصر الفرعوني

٥٠١ / عبد المنعم عبد الحليم سيد (*)

ربما لا يعبر هذا العنوان تماما عن موضوع البحث لأنه لا توجد أدلة تاريخية أو أثرية على وجود علاقات مباشرة بين مصر وجنوب الجزيرة العربية في العصر الفرعوني . واقصد بالعلاقات المباشرة الاتصال المباشر بين المصريين القدماء وبين اليمنيين القدماء ، اما بابحار المصريين بسفنهم الى سواحل اليمن ، أو بمجيء اليمنيين القدماء بسفنهم الى موانئ مصر الفرعونية . وقد أوضحت في بحوث سابقة بالعربية والانجليزية الأدلة التي تنفي هذا الاتصال (١) والخصها فيما يلي :

أولا : تخلو النصوص المصرية التي ترجع للعصر الفرعوني نفسه من الاسم الذي عرفت به الجزيرة العربية في النصوص القديمة وهو اريبي ARIBI الوارد في النصوص الآشورية . وأقدم ذكر لهذا الاسم في النصوص المصرية ورد في نص ديموطيقى يرجع للعصر البطلمي (٣٢٢ - ٣٠ ق.م) أو لعصر الاحتلال الفارسي على أكثر تقدير (٥٢٥ - ٣٣٢ ق.م) أي بعد انتهاء العصر الفرعوني .

ثانيا : وبالمثل فان كلمة « مصر » وهو الاسم الذي عرفت به في النصوص الآسيوية ، لم ترد في نصوص جنوب الجزيرة العربية الا بعد انتهاء العصر الفرعوني وذلك في نصوص معينة تعاصر فترة الاحتلال الفارسي لمصر (٢) .

ثالثا : اقتصر ارتياد المصريين القدماء لسواحل البحر الأحمر على

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية .
(مجلة المؤرخ العربى)

سواحله الافريقية التى كانوا يطلقون عليها التسمية « بونت » أو « بيا - بونت » ، بمعنى « مناجم (ذهب) بونت » ، ولم يمتد هذا الارتداد فى أى فترة من فترات التاريخ الفرعونى الى سواحله الآسيوية والأدلة على اقتصره على السواحل الافريقية هى :

(أ) نتائج الحفائر التى توصلت اليها بعثة قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية عام ١٩٧٦ عندما اكتشفت فى منطقة « مرسى جواسيس » على ساحل البحر الأحمر جنوبى ميناء سفاجة بحوالى اثنين وعشرين كيلو مترا ، موقع الميناء الذى كانت تنطلق منه السفن المصرية الى المنطقة التى اطلقت عليها النقوش المكتشفة فى هذا الموقع « بيا - بونت » والتى تبين أنها صحراء العتباى الممتدة على الساحل الشرقى للسودان (٣) . حيث تنتشر مناجم الذهب التى تشير اليها كلمة « بيا » .

(ب) تدل الرسوم التى سجلها المصريون القدماء على آثارهم للحياة الحيوانية فى بلاد بونت هذه على أنها بيئة افريقية ، وأهمها رسم لحيوان الزراف ورد ضمن رسوم بعثة الملكة حتشبسوت الى بونت حيث صورت زرافة وهى ترعى على ورق الشجر ، أى أن هذا الحيوان مثل فى بيئته الأصلية . والمعروف أن الزراف حيوان افريقى بحت ولم يظهر فى آسيا قديما أو حديثا ، وقد أثبت ذلك الباحث الالماني م . هلسهيمر M. Hilzheimer منذ زمن بعيد (٤) ، وقد اعتمدت على رأيه هذا فى بحوثى السابقة (٥) .

(ج) دون المصريون القدماء على آثارهم ابتداء من عصر الملك تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق م .) قوائم بأسماء البلاد والشعوب والمدن والقبائل التى أخضعوها فى المناطق الافريقية والآسيوية ، وقد رتبت قوائم الفرعون تحتمس الثالث ترتيبا جغرافيا من الجنوب الى الشمال ، وتبين من دراسة مكان الاسم « بونت » فى هذه القوائم أنه يأتى فى التسلسل بعد اسماء جغرافية من المؤكد أنها توجد فى افريقية ولا توجد فى آسيا وهى « كوش » و « واوات » ، فتبدأ هذه القوائم باسم « كوش » وهو اسم النوبة العليا ويندرج تحته ٢٢ اسما جغرافيا

(لمدن أو قبائل) ثم الاسم « واوات » وهو اسم النوبة السفلى ويندرج تحته ٢٤ اسما جغرافيا ، ثم يبدأ الترتيب مرة أخرى من الجنوب مقتربا من ساحل البحر الأحمر فتذكر القوائم الاسم « بونت » ويندرج تحته ٢٤ اسما ، يليه الاسم « مجاى » وهو اسم المنطقة أو القبائل الضاربة فى الصحارى الممتدة فى شرق السودان ويندرج تحته ١٧ اسما ، وأخيرا تأتى منطقة « خاسخت » وتمتد على ساحل مصر حتى خليج جمصة عند مدخل خليج السويس ويندرج تحتها ٢٢ اسما (ويبدو أن المصريين كانوا يعتبرون هذه المنطقة من المناطق المعادية رغم أنها تقع فى نطاق خطوط عرض مصر نفسها ربما بسبب سكنى قبائل البدو بها التى كانت دائمة الاغارة على أطراف الوادى الخصيب) .

وهكذا يرتبط الاسم الجغرافى « بونت » بمناطق افريقية بحثة ولا يمتد الى مناطق آسيوية . ويستدل من هذا الترتيب على أنها كانت تقع فى أقصى جنوب المناطق الأخرى حيث تقع بلاد الصومال .

وفى مقابل هذا التسلسل والوضوح للاسماء الجغرافية الممتدة على الجانب الافريقى للبحر الأحمر ، لم ترد فى هذه القوائم أية اسماء على الجانب الآسيوى لهذا البحر . وكل ما ورد من اسماء آسيوية فى هذه القوائم ينتمى الى بلاد الشام وما يتاخمها ، وإلى سيناء وما يتصل بها شرقا (٦) .

(د) ورد على لوحة ترجع لعصر الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية نص يربط بين سقوط الأمطار على الجبال المسماة على هذه اللوحة « جبال (أو جبل) بونت » وبين فيضان النيل ، وذلك ينفى أن تكون بلاد بونت هذه فى جنوب الجزيرة العربية لأن من غير المعقول أن تصل الأمطار الى النيل مع وجود فاصل بحرى (البحر الأحمر) بين مصدر هذه الأمطار (اذا كانت بونت فى جنوب الجزيرة العربية) وبين منابع النيل فى افريقيا لأن هذه المياه ستتشبث بطبيعة الحال فى البحر الأحمر قبل وصولها لافريقيا (٧) .

هذه هى الأدلة على أن التعبير الجغرافى المصرى « بونت » كان

يقتصر على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ولم يمتد الى ساحله الآسيوى وبالتالى فإن اتصالات المصريين القدماء المباشرة اقتصرت على الساحل الافريقى لهذا البحر دون ساحله الآسيوى .

ان البحث وراء دوافع المصريين لهذه الاتصالات يؤكد هذه النتيجة ، فقد ارتاد المصريون القدماء سواحل البحر الأحمر للحصول على نوعين من السلع أولهما « البخور » ذو الأهمية البالغة فى طقوسهم الدينية ، وثانيهما سلع الترف ذات القيمة الكبيرة فى تصوير أبهة الملك ومظهرية السلطان . وهذه السلع تتوفر على كلا الجانبين الافريقى والآسيوى للبحر الأحمر ، ولكن الجانب الافريقى كان الأفضل بالنسبة لهم لسببين أولهما أن أشجار البخور المعروف بـ « الكندر » Frankincense (المسمى بالعامية « اللبان دكر » والكلمة الانجليزية لاتينية الأصل تعنى « البخور الحر أو النقى ») ، وهو النوع الذى كان يفضلهُ المصريون القدماء . هذا النوع كانت أشجاره تنمو بالقرب من الساحل على الجانب الافريقى للبحر الأحمر فكان يمكنهم الحصول عليها مباشرة لنقل زراعتها الى مصر طبقا لما ورد فى نقوش ورسوم بعثة الملكة حتشبسوت الى بونت ، مما كان يوفر الكثير من المصاعب والاضطراب التى كانت تواجههم اذا حاولوا الحصول على هذه الاشجار من ساحل اليمن المطل على البحر الأحمر ولا سيما أن هذه الأشجار لم تكن قريبة من الساحل بل كانت فى المناطق الداخلية كما يستفاد من وصف الكتاب الكلاسيكيين (٨) . وكانت المنطقة الوحيدة التى تنمو بها أشجار الكندر قرب الساحل فى جنوب الجزيرة العربية هى المنطقة المعروفة حاليا باسم « ظفار » الواقعة غرب دولة عمان الحالية على البحر العربى فكان على المصريين عبور البحر الأحمر ثم الخروج الى البحر العربى والابحار لمسافة تتراوح بين ١٣٠٠ ، ١٥٠٠ كيلو متر من بوغاز باب المندب الى منطقة ظفار هذه (بعد أن يكونوا قد قطعوا المسافة الطويلة من الميناء المصرى فى شمال البحر الأحمر الى بوغاز باب المندب والتى لا تقل عن ١٨٠٠ كيلو متر أيضا) . وهو أمر يبدو مستحيلا .

اما عن سلع الترف من ذهب وعاج وأبنوس وريش نعام وغيرها ،

فقد كان الأفضل للمصريين الحصول عليها من الجانب الأفريقى للبحر الأحمر حيث موطن انتاج هذه السلع وبالتالي انخفاض أثمانها كثيرا عما يدفعونه فى مقابلها لو حصلوا عليها من جنوب الجزيرة العربية لأن سكانها كانوا يستوردون هذه السلع من خارج بلادهم (من افريقية نفسها ومن الهند) ، وبالتالي تضاف اليها أجور نقلها وحراستها من افريقية الى أسواق جنوب الجزيرة العربية .

يضاف الى هذه العوامل كلها أن ارتياد المصريين لسواحل جنوب الجزيرة العربية كان يعرض سفنهم لخطر عبور البحر الأحمر الشهير بزوابعه الرعدية وتياراته العنيفة ؛ وخاصة اذا علمنا أن المصريين استخدموا فى البحر الأحمر نوعا من السفن يمكن أن نسميه السفن « الخيطة » أو « المخيطة » وهى سفن تستخدم الحبال والخيوط فى تثبيت ألواحها بدلا من المسامير المعدنية . ولعل السبب فى ذلك هو قدرة هذه السفن على امتصاص الصدمات ضد الشعاب المرجانية التى يشتهر بها البحر الأحمر ، وذلك على عكس السفن ذات المسامير المعدنية التى تكون أكثر قابلية للكسر عند اصطدامها بهذه الشعاب . ولكن فى مقابل هذه الميزة للسفن المهيطة فإنها كانت أضعف من السفن ذات المسامير المعدنية أمام العواصف والزوابع التى تعصف بها فى عرض البحر الأحمر اذا حاولت العبور من شاطئه الأفريقى الى شاطئه الآسيوى . ولدينا وصف من العصر الإسلامى (الذى استخدم خلاله هذا النوع من السفن فى البحر الأحمر بسبب ميزتها فى امتصاص صدمات الشعاب المرجانية وربما كانت هذه السفن استمرارا للسفن المصرية المهيطة) دونه الرحالة ابن جبير وهو يصف رحلته من عيذاب الى جدة فى إحدى هذه السفن التى كانت تسمى فى ذلك العصر « الجلبة » أو « الجلابة » اذ يقول : « وكان نزولنا بجدة حامدين الله عز وجل ، وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عانىناه فى تلك الثمانية أيام طول مقامنا على البحر ، وكانت أهوالا شتى ، عصمنا الله منها بفضلها وكرمه ، فمنها ما كان يطرا من البحر واختلاف رياحه ، وكثرة شعبه المعترضة فيه ، ومنها ما كان يطرا من ضعف عدة المركب واختلالها واقتصامها (انكسارها) المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه أو جذب مرسى من مراسيه . وربما سنحت (لصقت

بالأرض (الجلبة بأسفلها على شعب من تلك الشعوب أثناء تظلها ،
فنسمع لها هذا يؤذن باليأس ، فكنا فيها نموت مرارا ونحيا مرارا .. »
(رحلة ابن جبير ص ٥١ - ٥٢ ، طبعة بيروت ، عن « تاريخ البحرية
المصرية » ، جامعة الاسكندرية ١٩٧٣ ص ٥٦٥) .


فاذا كان هذا هو الحال بعد قرون طويلة من العصر الفرعوني
لا شك أن صناعة السفن تقدمت خلالها - رغم بقائها سفنا شراعية
مخيطه - فماذا كان الحال فى العصر الفرعوني ؟ لابد أن السفن فى ذلك
العصر كانت أكثر ضعفا من سفن العصر الاسلامى .

وازاء ضعف السفن المصرية المخيطة ، واضطرار المصريين القدماء
لاستخدامها لميزتها فى الابحار بين الشعب المرجانية ، يبدو أن المصريين
اتبعوا طريقة « المساحلة » أى الابحار فى موازاة الساحل الافريقى
للبحر الأحمر ابتداء من الساحل المصرى حتى ساحل بلاد بونت وهو
الساحل الشمالى الشرقى للصومال وذلك ابتداء من عصر الملكة حتشبسوت ،
حيث توجد السلع المطلوبة وفى مقدمتها أشجار الكندر ، وهم فى أمان
تام اذ يمكنهم كلما استشعروا قرب هبوب العواصف أو اشتداد التيارات
البحرية أن يسرعوا بالالتجاء الى الخلجان والشروم الممتدة على طول
هذا الساحل فلا تغرقهم هذه العواصف والتيارات .



وعلى ذلك ، فمادامت نفس السلع التى يطلبها المصريون القدماء
تتوفر على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ، ومادام يتوفر لهم ولسفنهم
الأمن والأمان اذا أبحروا بحذاء هذا الساحل ، فما الذى يدعوهم لتجاهل
كل هذه الظروف المواتية ويجازفون بعبور البحر الأحمر معرضين أنفسهم
لاخطاره للحصول على نفس السلع من جنوب الجزيرة العربية ؟

وفى مقابل الادلة القسوية التى ذكرناها والتى تثبت اتصال
المصريين المباشر بالساحل الافريقى للبحر الأحمر ، لا يوجد دليل واحد
من بين النصوص أو من الرسوم المصرية القديمة يشير الى أى اتصال
مباشر لهم بجنوب الجزيرة العربية .

ورغم هذه الحقائق الواضحة ، فان بعض الباحثين ينادون فى بحوثهم بأن بلاد بونت كانت تقع فى جنوب الجزيرة العربية أو أن هذه المنطقة (وبالتحديد منطقة « ظفار » فى غرب عمان) هى التى حصلت منها بعثة الملكة حتشبسوت على أشجار البخور ، دون أن يقدموا أى دليل من النصوص أو الرسوم المصرية القديمة التى تؤيد هذا الرأى وانما كان جل اعتمادهم على معلومات غير محددة أو على تفسيرات لبعض النصوص والرسوم المصرية التى نناقشها فيما يلى :

أولا قرأ بعض الباحثين كلمة « ارم »  المكتوبة فوق صور الزعماء الراكعين أمام الملكة « ار - ام - مر » وترجمها « الذين يعملون فى البحر » وقال أنهم قبائل « المهرة » الذين يسكنون سواحل حضرموت وأن هذه التسمية المصرية لهم تشير الى ارتباطهم بالبحر (٩) .

ونرى أن هذا التفسير قام على أساس غير صحيح لأن هذا الاسم يقرأ « رم » وليس « ار - ام - مر » باتفاق جميع الباحثين المتخصصين فى هذا المجال (١٠) . وهو اسم شعب افريقى تردد كثيرا فى النقوش المصرية وارتبط فى بعض الأحيان بالنوبة والسودان ولم يكن له أى ارتباط بجنوب الجزيرة العربية أو حتى بأى منطقة آسيوية أخرى . ويبدو أن الباحث اقتصر على الاعتماد على رسم الكلمة فى نصوص حتشبسوت

فقط حيث وردت بمخصص مسطح مائى  فقط، ولو رجع الى رسوم الكلمة فى النصوص الأخرى ، حيث وردت حوالى ثلاثين مرة لوجد أنها كتبت بمخصص أرض جبلية  أيضا (١١) . وقد نشر

حديثا بحث مستفيض عن هذا الشعب حدد منطقة انتشاره قديما فى شرق السودان (١٢) . ويرجح أنه أحد اسلاف قبائل الجالا التى تسكن فى غرب الصومال أو شرق الحبشة لأن المصريين رسموا أفرادهم أو زعماءهم طبقا للاصطلاح المصرى القديم فى الرسم بطريقة توحى بأن هذا الشعب كان يسكن وراء مناطق البونتيين سكان الصومال . والذى يرجح هذا الاستنتاج أيضا ، أن الاسم « جالا » ليس الاسم الوطنى لهذا الشعب

بل هي تسمية الاحباش له ، وأن الاسم الوطنى الذى يطلقه هذا الشعب على نفسه فى الوقت الحاضر هو « اروم » أو « اروما » وهو قريب فى نطقه من الاسم المصرى القديم « ارم » (١٣) .

ثانيا : اعتمد بعض الباحثين على بعض القطع الاثرية الصغيرة ذات الطابع المصرى القديم التى وجدت فى اليمن مثل جعران عليه اسم الفرعون امنحتب الثالث وقطعة مربعة من الحجر تحمل اسم الفرعون تحتمس الثالث - اعتمدوا على هذه الآثار الصغيرة فى القول بأن المصريين القدماء ربما حملوا هذه الاشياء الى اليمن فى رحلاتهم التجارية (١٤) . ونرى أن هذا افتراض لا يقوم على أساس ، لأن هذه الآثار الصغيرة لا يجب أن تؤخذ دليلا على اتصال المصريين القدماء المباشر ببلاد اليمن لسهولة نقلها بالطرق غير المباشرة أى ليس بواسطة المصريين القدماء أنفسهم ، وانما بواسطة شعب أو شعوب وسيطة أخرى قد يكون من بينهم الفينيقيون الذين كان لهم نشاط ملاحى وتجارى بارز فى البحر الأحمر فضلا عن صلتهم الوثيقة بمصر الفرعونية ، وقد برع الفينيقيون فى تقليد الصناعة المصرية ، وربما تكون القطعة المربعة المذكورة التى تحمل اسم الفرعون تحتمس الثالث ، مثالا لهذا التقليد ويتضح ذلك من رسم القرص والهلal عليها متباعدين . ولم يكن هذا هو الأسلوب المصرى الشائع فى رسم القرص (الذى يمثل القمر المكتمل) والهلal وانما كان ذلك شأن الأسلوب اليمنى ، وربما رسمهما الفينيقيون طبقا لهذا الأسلوب ضمانا لرواجه فى أسواق اليمن ، وقد سبق أن تناولت هذا الموضوع فى بحث منشور فى مجلة مؤتمر الدراسات العربية بلندن (١٥) .

ثالثا : ترجم أحد الباحثين ترجمة خاصة عبارة وردت فى نقش من عصر الفرعون امنحتب الثالث وجد فى سيناء لموظف مصرى يدعى « سبك - حتب » ويكنى « بانحسى » وكاتبه المدعو « امون - مس » والنقش كما سبق أن ترجمه الباحثون وهو « يقول (الكاتب امون - مس) لقد تبعت سيدى فى البلاد الأجنبية (أو الجبلية) ونفذت المهمة التى عهد بها الى ، لقد خرجت الى المحيط (حر جسوى - واج ور)

لاستكشاف (سر او سرى) عجائب (بيايت) بونت للحصول على الصموغ العطرية وقد احضرت الامراء الأجانب فى ٠٠ مع جزية بلاد أجنبية (أو جبلية) عديدة ، انظر لقد اتيت أيضا وطرقت بلاد هذه الالهة وأدرت العمل فى استخراج الفيروز « (١٦) » .

والعبارة التى ترجمها الباحث ترجمة خاصة اختلفت عن ترجمات الباحثين وغيرت من معنى الجملة تعبيراً كبيراً تتكون من جزئين :

أولهما : « حر جسوى - واج ور » ترجمها بمعناها الحرفى اى « على شاطئ البحر » (فى صيغة المثنى) رغم أنها تستخدم فى النصوص المصرية بمعنى « شاطئ البحر » (فى صيغة المفرد) وقد ثبت ذلك من أمثلة أخرى وردت فيها هذه الكلمة واستحال أن يكون معناها على « شاطئ البحر » (فى صيغة المثنى) وقد نبه الى هذه الحقيقة علماء المصريات منذ عهد بعيد (١٧) .

وقد افترض الباحث فى ترجمته هذه أن هذا الموظف (امون - مس) استقبل الامراء الأجانب على ساحل خليج العقبة (١٨) وحدد نقطة هذا اللقاء فى بحث آخر له فى منطقة ايلات (١٩) حيث تسلم البضائع التى جلبوها أو حصل مكوسها ثم رافق القافلة عبر سيناء حتى مجرى النيل (٢٠) .

ونرى أن هذه الاستنتاجات بعيدة عن الواقع لأنها قامت على ترجمة غير دقيقة لعبارة « حرجسوى » ، اذ كيف يقوم الموظف المصرى باداء مهمته فى الاشراف على استخراج الفيروز من منطقة سيرابيط الخادم فى غرب سيناء (بالقرب من خليج السويس) ثم يتجه الى أقصى شرقها على شاطئ خليج العقبة ليقابل الزعماء الأجانب ثم يصاحبهم الى أقصى الغرب نحو وادى النيل ؟

ثانيهما : كلمة « سر او سرى » ترجمها الباحث بمعنى « يقابل » أو « يتربص » وصول « وفسر عبارة « سرى بيايت نو بونت » تفسيرين أحدهما بأن مهمة الموظف

الذى

المصرى صاحب النقش هى مقابلة شيوخ تجارة البخور الخارجية وما أتوا به من بضائع من بويئة (بونت) (٢١) .

والحقيقة أن كلمة « سر أو سرى » هذه ليس معناها « يقابل » أو ما شابه ذلك ولكن معناها « يستكشف » وقد توصل لهذا المعنى المر ايدل (٢٢) Elmar Edel وفسر الكلمة بأنها تحمل معنى القيام برحلة الى بونت (٢٣) وذلك من دراسته لهذا النقش بالمقارنة مع نقشين آخرين وجدوا فى منطقة سيرابيط الخادم بسيناء أيضا ، احدهما وجد مهشما وتمكن ايدل من اكماله وقراءته . ويتحدث فيه صاحب النقش عن مهمتين قام بهما ، احدهما « استكشف عجائب بونت »

١٠-٩-٤٤

أى أنه استخدم نفس التعبير الوارد فى نقش بانحسى - امون مس « المذكور ، والأخرى استخراج الفيروز فى سيناء (٢٤) وهى نفس المهمة الثانية التى قام بها « امون - مس » . والنقش الثانى يتكون من قطعتين كان قد سبق العثور عليهما ونشرت نصوصهما منذ عدة سنوات (٢٥) ولكن ظلت قراءتهما مبهمة حتى تمكن المر ايدل من جمعتهما وقراءة نصوصهما كنص واحد (٢٦) . وأهمية هذا النص انه يذكر رحلة فعلية قام بها صاحب النقش الى بونت اذ جاء فيه « ... الذى سافر خلال جبال بونت ليحضر العجائب لجلالته » . وان الإشارة الى رحلة فعلية لصاحب النقش (الذى وجد فى منطقة سيرابيط الخادم بسيناء شأن النقوش الأخرى) الى بونت بالاضافة الى اقتران كلمة « العجائب »

« بيات » بكلمة « احضار » أنت

يدل على أن الجمع بين الرحلة الى بونت لجلب سلعها والرحلة الى سيناء لاستخراج الفيروز ، كان تقليدا متبعا وهو ما توصل اليه المر ايدل كما ذكرنا .

وقد يثار تساؤل عن امكانية قيام شخص واحد بهذه الرحلة المزدوجة رغم التباعد الشديد بين المنطقتين اذ تقع سيناء فى شمال البحر الاحمر بينما تقع بونت أو بالتحديد منطقة أشجار الكندر فى بونت فى أقصى الجنوب - فى شمال شرق الصومال - وهى المنطقة من بونت التى بدأ المصريون يترددون عليها منذ عصر حتشبسوت (٢٧) ولكن اذا لم يكن هدف أصحاب هذه النقوش الحصول على أشجار الكندر والاكتفاء بالحصول على حبات الكندر فقد كان يمكنهم الحصول عليها من أسواقه القريبة نسبيا من مصر مثلما كان الحال فى عصر الدولتين القديمة والوسطى عندما كان المصريون يطلقون التسمية « بونت او بيا - بونت » على منطقة صحراوية قريبة من مصر هى فى الغالب صحراء العتباى كما تدل على ذلك عبارة حكام الأرض الحمراء أى الصحراء فى نقش «حنو» (٢٨) ، وكلمة « بيا - بونت » أى مناجم (ذهب) بونت فى نقوش وادى جواسيس (٢٩) ، وعلى هذا فربما تشير كلمة بونت فى هذه النقوش الثلاثة الى هذه المنطقة الواقعة فى شرق السودان وبذلك يصبح المدى الزمنى بين الرحلتين الى سيناء وبونت أقل بكثير مما لو كانت منطقة أشجار الكندر فى شمال شرق الصومال هى المقصودة بكلمة بونت فى هذه النقوش . وعلى ذلك يمكن لشخص واحد القيام بهاتين الرحلتين .

أما سبب الجمع بين الرحلتين فان المصريين اضطروا لذلك لكى يتمشى الوضع مع الطريقة التى كانوا يتبعونها فى اعداد السفن لهذه الرحلات؛ فقد كانوا يصنعون هذه السفن على شاطئ النيل فى ترسانة قفط كما ورد فى أحد نقوش وادى جواسيس (٣٠) ثم يفككونها وينقلونها على ظهور الرجال والدواب الى شاطئ البحر الأحمر حيث يركبسونها فى الميناء الذى يقلعون منه . ولا شك أن هذه العملية كانت تكلفهم كثيرا من المصاريف والجهد والوقت ولا سيما أن عليهم تكرار فك هذه السفن ونقلها الى شاطئ النيل بعد انتهاء مهمتها ، ومن هنا كان عليهم الاستفادة من تشغيل هذه السفن فى البحر الأحمر الى أقصى حد ممكن (٣١) فربما كان الموظف المكلف باداء المهمتين يشرف على نقل هذه السفن للعمال اللازمين لعمليات التعدين ذات المدى الطويل فى مناجم الفيروز بسيناء،

ثم يقوم بالرحلة الى بونت (فى شرق السودان أو بالقرب منه) لجلب منتجاتها وبعد العودة من بونت وتفريغ شحنة السفن فى الميناء المصرى على ساحل صحراء مصر الشرقية ، كان يتوجه بها الى سيناء لنقل العمال وما استخرجوه من فيروز وغيره . وكان الميناء المستخدم هو ميناء مرسى جواسيس كما أثبت الباحثون (٣٢) وكما أثبتنا ذلك فى بحوث سابقة نظرا لأنه الميناء الفرعونى الوحيد على ساحل البحر الأحمر الذى تأكد وجوده بالأدلة الأثرية التى وجدت فى الموقع ذاته (٣٣) . وان الموضع المتوسط لهذا الميناء يلائم تماما هاتين الرحلتين ولا سيما أنه توجد بقايا ميناء مصرى قديم على الساحل الغربى لشبه جزيرة سيناء يشرف على سهل المرخا جنوبى أبى زنيمة حيث يبدأ طريق عبر وادى بابع ووادى سويق يؤدى الى منطقة سيرابط الخادم ويرجع هذا الميناء الى عصر حتشبسوت وتحتمس الثالث (٣٤) وربما كان هذا الميناء يكون مع ميناء مرسى جواسيس نقطتى البداية والنهاية بالنسبة للرحلات بين ساحل مصر الشرقى وبين ساحل سيناء .

بهذه الطريقة كان يمكن للمصريين الاستفادة من هذه السفن الى أقصى حد ممكن وربما كانت السفن بعد هذه الرحلات الطويلة تصبح فى حالة من البلى لا تصلح معها لفكها واعادتها الى وادى النيل لاستخدامها كسفن نيلية فكانوا يستخدمون أخشابها فى أغراض أخرى كوقود مثلا ، فقد عثرت بعثة قسم التاريخ أثناء حفائرها قرب موقع الميناء الفرعونى فى وادى جواسيس على بقايا أحشاب بها تعشيقات مما يدل على استخدامها فى تثبيت بعضها الى بعض طبقا للطريقة المتبعة فى تثبيت ألواح السفن ، وبعض هذه الأخشاب بها آثار حرق وقد تبين من تحليلها أنها من خشب الأرز اللبنانى وهو الخشب الذى كان المصريون يصنعون منه سفنهم فى البحر الأحمر (٣٥) .

من كل ما تقدم يتبين أن نقش « بانحسى - امون مس » المذكور يروى اختبار رحلتى الموظف المصرى الى بونت لجلب سلعها والى سيناء لتعدين الفيروز . وقد تأكد ذلك من نقشين آخرين وجدوا فى نفس منطقة سيرابط الخادم بـسيناء ، وعلى ذلك فإن ما استخلصه الباحث من

النقش مما يشير الى اتصالات بين سكان جنوب الجزيرة العربية والمصريين فى شمال الجزيرة العربية ليس له سند من النصوص أو الآثار .

رابعاً : يقول أحد الباحثين أن التعبير « تا - نتر » بمعنى « أرض الاله » فى نصوص بعثة حتشبسوت يشمل الساحل الافريقى للبحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية ، بينما ينحصر التعبير الجغرافى « بونت » على الساحل الافريقى للبحر الأحمر فى عروض اريتريا والصومال (٣٦) . وتمشياً مع رأيه هذا قال ان المصريين الذين أوفدتهم الملكة حتشبسوت الى بونت كان هدفهم الحصول على أشجار الكندر *Frankincense trees* من منطقة « ظفار » فى جنوب الجزيرة العربية (التى ينطبق عليها التسمية : « أرض الاله » فى رأيه) حيث يوجد أجود أنواع الكندر المعروف علمياً باسم *Boswellia Carteri, or B. Sacra* قرب الساحل ، وهو أجود من الكندر الصومالى الذى لا يوجد قرب ساحل صوماليا (شمال الصومال) ولكن فى المناطق الداخلية (حرقيا : مناطق الظهير) على ارتفاع ٣٦٠٠ متر (٣٧) . ويسترسل فى هذه الاستنتاجات قائلاً ان هؤلاء البونتيين خافوا من أن يؤدى وصول رجال بعثة حتشبسوت الى منطقة نمو أشجار الكندر فى ظفار الى ضياع مكاسبهم كوسطاء فى تجارة بخور ظفار لأنهم كانوا أصلاً من سكان جنوب الجزيرة العربية الذين هاجروا الى الساحل الافريقى للبحر الأحمر واستقروا على ساحل صوماليا واشتغلوا بهذه الوساطة التجارية ، فحاولوا اثناء المصريين عن الوصول الى منطقة ظفار بأن صوروا لهم الصعوبات التى سيلاقونها اذا توجهوا بأنفسهم الى هذه المنطقة ووعدوهم بالحضار فسائل من أشجار بخور ظفار وفعلاً أحضروها لهم (٣٨) .

هذا هو مجمل رأى الباحث فى هذا الموضوع وقد نشر ملخصاً له ضمن بحث آخر بالعربية (٣٩) وسوف نوضح فى الصفحات التالية أن هذه الاستنتاجات أسست على معلومات غير دقيقة .

ان محور رأى الباحث بأن المصريين حصلوا عن طريق الوسطاء المستقرين فى بونت الافريقية (شمال الصومال) على أشجار الكندر

التي استوردوها لهم من منطقة « ظفار » فى جنوب الجزيرة العربية - محور هذا الرأى هو قوله أن هذه الاشجار لا تنمو فى المناطق الساحلية من شمال الصومال بل فى المناطق الداخلية (حرفيا : مناطق الظهير) hinterland وقد نسب هذه المعلومة الى الباحث النباتى « هبر Nigel Hepper » وفيما يلى نص هذه المعلومة فى مقال الباحث :

"...according to Hepper (p. 69-70), unlike Myrrh, trees which grew in the coastal region of Somalia, Frankincense trees grew in the hinterland at an altitude of up to 3600 feet"⁽⁴⁰⁾

فالباحث هنا ينسب الى « هبر » معلومة مؤداها أن أشجار الكندر Frankincense trees (وهى التى جاء المصريون فى طلبها) لا تنمو على الساحل الشمالى للصومال ، بل فى الداخل وعلى ارتفاع ٣٦٠٠ قدم .

غير أننا اذا رجعنا الى الصفحة التى ذكرها الباحث فى مقال « هبر » نجده يذكر معلومة مخالفة تماما لما نسبته اليه الباحث وهى :

"Boswellia Frereana grows in the coastal region of Somalia, unlike Boswellia Carteri which inhabits the hinterland at an altitude of up to 3600 feet. It is most likely to be B. Frereana that would have been encountered if Punt is identifiable as Somalia"⁽⁴¹⁾.

اى أن « هبر » يقرر أن أشجار الكندر تنمو فى المناطق الساحلية فى شمال الصومال على عكس ما نسبته اليه الباحث ، بل والأكثر من ذلك يقول « هبر » أن هذه الاشجار فى اغلب الاحتمالات هى التى حصلت عليها بعثة حتشبسوت اذا كانت بونت تقع فى شمال الصومال .

ويلاحظ أن الباحث اختزل هذه المعلومة فحذف أولها وآخرها وأخذ الجزء الأوسط منها الذى جاء فيه أن أشجار الكندر تنمو فى الداخل على ارتفاع ٣٦٠٠ قدم . ولم يذكر الباحث اسم نوع الكندر بينما ذكر « هبر » اسم هذا النوع وهو Boswellia Carteri وقارن بينه وبين النوع الذى يتقو على الساحل وهو Boswellia Frereana

كما يلى :

"...Boswellia Frereana yields first quality Frankincense and the resin from Boswellia Carteri, although widely used, is inferior to it"(42)

أى أن « هبر » يخلص من هذه المقارنة بأن نوع B. Frereana
أى النوع الذى ينمو على الساحل الشمالى للصومال ينتج أجود أنواع
الكندر وان النوع B. Carteri الذى ينمو فى المناطق الداخلية من
شمال الصومال ، أقل جودة منه رغم أنه أوسع استعمالا .

وقد أغفل الباحث هذه المعلومة فى مقال « هبر » التى تحسم
المشكلة لأنها توضح أن الأفضل للمصريين الحصول على كندر الصومال
أى من نفس المنطقة التى وصلوا إليها فى شمال الصومال والتى صوروا
معالمها على جدران معبد الملكة حتشبسوت ، بل ان الباحث قدم معلومة
أخرى مخالفة تماما لها نسبها الى ثلاثة مصادر من بينها مقال « هبر »
هذا كما أثبتتها الباحث بنصها :

"...while Frankincense trees have not been found outside the coastal mountain range of Dhofâr and eastern Hadramaut and [in lesser quantity and of inferior quality in the mountains of northern Somalia]"(43)

فالمعلومة التى بين حاصرتين لا وجود لها أو لما يشبهها فى
صفحة ٦٦ من مقال « هبر » كما أشار الباحث أو حتى فى مقال « هبر »
كله ، ولا يمكن أن توجد فى هذا المقال بطبيعة الحال لأنها تتعارض
تماما مع ما أورده « هبر » فى مقاله كما أثبتنا فى الفقرة السابقة ،
اذ كيف يذكر أن أشجار الكندر توجد بأعداد أقل ومن نوع أقل جودة فى
جبال شمال الصومال بينما يذكر أن الكندر الصومالى المسمى
B. Frereana الذى تنمو أشجاءه على سواحل شمال الصومال طبقا
لرأيه المذكور أجود من النوع المسمى B. Carteri الذى ينمو فى
المناطق الداخلية من شمال الصومال على ارتفاع ٣٦٠٠ قدم وهذا النوع
الآخر يعتبره الباحث أحد النوعين الممتازين اللذين ينموان فى ظفار
كما يلى :

"...the land of Dhofar, the main area producing Frankincense (Boswellia Carteri, or B. Sacra)" (٤٤)

من هذه المطابقة بين ما جاء فى مقال الباحث وما فى مقال « هبر »
(الذى أعتمد عليه الباحث اعتمادا أساسيا فى المعلومات التى أوردتها
عن الكندر وأشجاره) يتبين ما يلى :

١ - أن أشجار الكندر المسماة B. Frereana تدر أجود أنواعه
وتنمو فى المناطق الساحلية من شمال الصومال طبقا لما جاء فى مقال
« هبر » ولم يذكر الباحث شيئا عنها على الاطلاق .

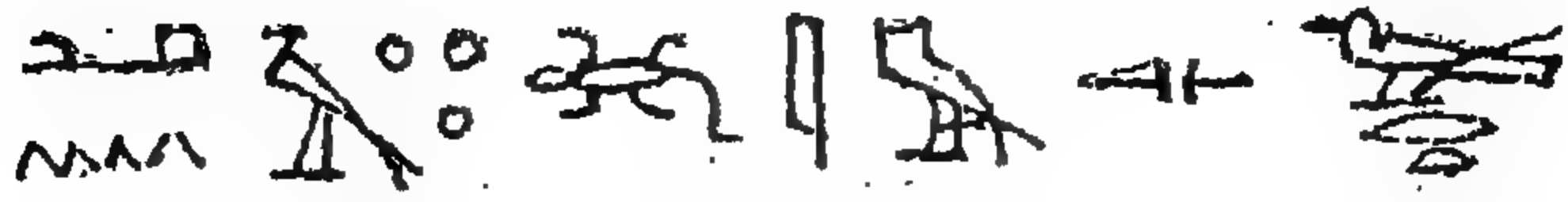
٢ - أن أشجار B. Carteri التى يقول الباحث أنها تنمو فى
المناطق الساحلية فى ظفار وتنتج أجود أنواع الكندر ، هذه الأشجار
- طبقا لبحوث « هبر » - تنمو أيضا فى المناطق الداخلية من شمال
الصومال ولكن الكندر الذى تنتجه أقل جودة من كندر أشجار
B. Frereana .

وعلى ذلك فإن المصريين كان يمكنهم الحصول على أشجار الكندر
التي جاءوا فى طلبها من المناطق الساحلية فى شمال الصومال ولم يكن
هناك ما يدعوهم الى محاولة الابحار الى ظفار فى جنوب الجزيرة
العربية ، وبالتالي لا يوجد ما يدعو البونتيين المستقرين فى شمال
الصومال (بونت) الى تصوير مخاطر الرحلة الى ظفار للمصريين
واقناعهم باحضار فساتل من أشجار ظفار لهم مثلما ذكر الباحث (٤٥) .

ورغم ما أوردناه من نتائج توضح بجلاء أن المصريين حصلوا على
أشجار الكندر من نفس منطقة بونت التى ارتادوها ورسموا معالمها على
جدران معبد الملكة حتشبسوت (٤٦) ، فإن الادلة من هذه الرسوم ومن
النصوص المصاحبة لها ، تؤكد هذه النتائج كما يلى :

١ - صور المصريون هذه الأشجار قبل قطعها أى وهى ثابتة فى
الأرض وهم يجمعون عصارة الكندر منها فى سلال (٤٧) ويجوار احدى

هذه الأشجار نص هيروغليفى يصف الشجرة على لسان أحد المصريين الذين يجمعون العصاره :



وترجمة هذه الجملة هى : « ان بداخلها كندر غزير جدا » (٤٨) .

بل أكثر من ذلك فقد دون نص هيروغليفى آخر فى نفس المنظر جاءت فيه العبارة الصريحة التالية :



وترجمتها كما يلى : « اقتلاع أشجار الكندر » (٤٩) .

كل ذلك يوضح بجلاء أن أشجار الكندر التى حصلت بعثة حتشبسوت عليها من بونت كما جاء فى النصوص ، اقتلعتها من المنطقة التى رست عندها سفن هذه البعثة أى من شمال الصومال ولم تجلب من منطقة « ظفار » فى جنوب الجزيرة العربية كما يرى الباحث الذى رغم هذه الرسوم والنصوص الواضحة الصريحة يقول ان مدرجات الكندر وعمليات اقتلاع أشجار الكندر لم تظهر ضمن رسوم الدير البحرى (٥٠) .

وتمشيا مع وجهة نظره بأن البونتيين صوروا الصعوبات التى يمكن أن يلاقوها المصريون اذا صمموا على مواصلة رحلتهم الى منطقة «ظفار» للحصول بأنفسهم على أشجار الكندر ، ترجم الباحث بعض النصوص الهيروغليفية المدونة من رسوم بعثة حتشبسوت ترجمة خاصة خالف فيها الترجمة التى أجمع عليها غيره من الباحثين ومنها النص المدون فوق أمير بونت وأفراد أسرته الذين يتخاطبون فيه المصريين مستفسرين عن كيفية وصولهم الى بلادهم (بونت) واجتيازهم الصعوبات التى تعترض الطريق اليها (٥١) ، اذ حول الباحث هذا النص الى تحذير من البونتيين (مجلة المؤرخ العربى)

للمصريين من خطورة الطريق الى منطقة أشجار الكندر فى ظفار لكى يجعلونهم يحجمون عن القيام بهذه الرحلة حتى لا يصلوا الى هذه المنطقة ويحصلون على أشجار الكندر بأنفسهم فتضيع على البوننتيين مكاسبهم من الوساطة فى تجارة الكندر (٥٢) ، كذلك ترجم الباحث نصا آخر يعد فيه الاله آمون الملكة حتشبسوت بأنه سيذل الطريق أمام رجالها ويجعلهم يخترقون ممرات مائية صعبة الاجتياز (٥٣) - ترجم هذا النص بما يعنى أن هذه الممرات المائية هى التى تفصل الجانب الأفريقى للبحر الأحمر عن جانبه الآسيوى (ربما يقصد بوغاز باب المندب) (٥٤) ، ثم الطريق الممتد على طول جنوب الجزيرة العربية حتى منطقة ظفار (٥٥) .

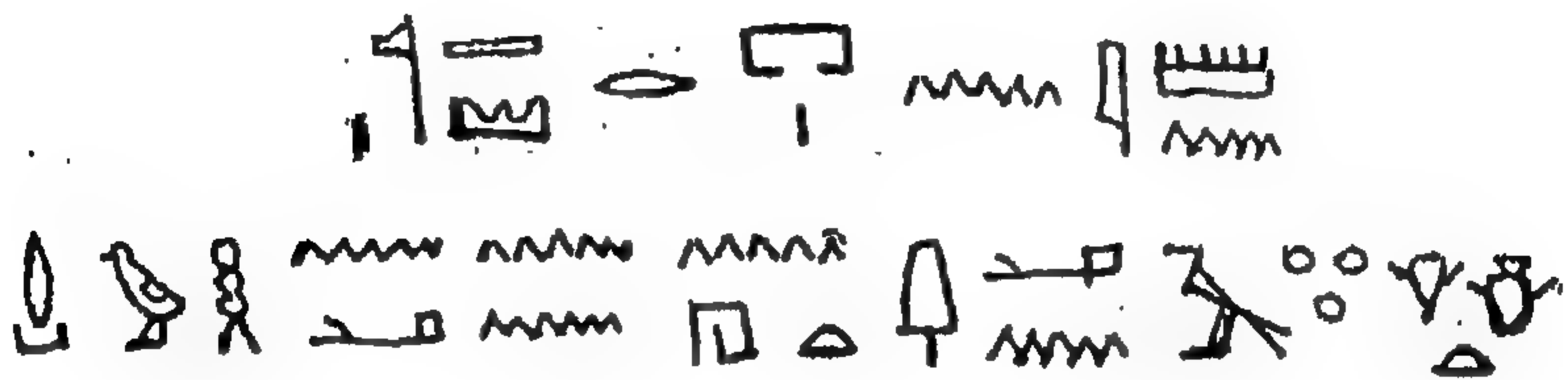
وبطبيعة الحال ليست هناك حاجة لمناقشة الترجمة لهذه النصوص لأن ما قدمناه من أدلة نباتية وأثرية ونصية على وجود أشجار الكندر على الساحل الشمالى للصومال (بونيت الافريقية فى رأى الباحث) مما ينفى حاجة المصريين للحصول على هذه الأشجار من منطقة ظفار - يجفل الحقيقة واضحة

وكما قلنا سابقا بأن رأى الباحث هذا أعتمد على اعتباره أن منطقة ظفار هذه تدخل ضمن نطاق التعبير المصرى « تا - نثر » أى « أرض الاله » - ولكن النصوص الهيروغليفية المصاحبة لرسوم بعثة حتشيسوت توضح بجلاء أن التسمية « تا نثر » أو « أرض الاله » الواردة فى هذه النصوص تنطبق على نفس منطقة بونت التى ارتادها المصريون واقتلعوا منها أشجار الكندر ، أى على الساحل الشمالى للصومال ، ومن هذه النصوص ، النص المدون أمام قائد البعثة المصرية الذى يقرأ :

وترجمته هي : « وصول المبعوث الملكي (المصري) الى أرض الاله
(تا - نثر) مع الجيش الذى خلفه أمام زعماء بونت « (٥٦) » .

فالتراشف واضح جدا فى هذا النص بين التسميتين « بونت »
و « أرض الاله » أى أنهما اسمان لمنطقة واحدة .

بل والأكثر تحديدا النص بدون فوق الحماليين المصريين الذين
صوروا أربعة منهم يحملون شجرة كندر فقد جاء فيه على لسان أحد
هؤلاء الحماليين :



وترجمته هي : « هلمى معنا شجرات العنتيو (الكندر) من قلب
أرض الاله الى دار (معبد) آمون » (فى مصر) (٥٦) » .

فهذا النص بدوره يوضح بجلاء وبطريقة مباشرة أن أرض الاله
التي بها أشجار الكندر التى حصل عليها المصريون هي نفس منطقة بونت
الافريقية . وبذلك يصبح تفسير الباحث بأن « أرض الاله » المقصودة فى
نصوص بعثة حتشبسوت هي جنوب الجزيرة العربية - يصبح هذا التفسير
بدون أى أساس .

وفى ختام مناقشة آراء الباحثين فى موضوع التعبير « تا - نثر »
نشير الى رأى الذى يترجم هذه العبارة بـ « الأرض المقدسة » بدلا من
« أرض الاله » (٥٨) . وصاحب هذا رأى يفسر سبب هذه التسمية بما
يربطها بمنطقة أشجار البخور فى جنوب الجزيرة العربية (منطقة
ظفار) اذ يقول ما معناه أن المصريين اطلقوا التعبير « الأرض المقدسة »
على هذه المنطقة لأنهم يحصلون منها على البخور الذى كان له عند جمع
محصوله طقوس خاصة مقدسة، وفى موسم جمع المحصول لا يجوز للرجال

الذين يعملون فى هذا المجال أن يفقدوا طهارتهم بقاء النساء كما يقول بلينى (٥٩) .

وبطبيعة الحال ليس من المعقول أن يطلق المصريون القدماء تسمية ذات قدسية على منطقة لم يرتادوها كما أثبتنا فى الصفحات السابقة ، بالإضافة الى الفارق الزمنى الكبير بين عصر النشاط المصرى الفرعونى مع مناطق انتاج البخور فى البحر الأحمر الذى انتهى حوالى عام ١١٥٠ قبل الميلاد وبين عصر الكاتب الرومانى بلينى الذى عاش حتى أواخر القرن الأول الميلادى أى أن الفارق الزمنى بين العصرين يبلغ حوالى اثنى عشر قرنا ، هذا فضلا عن أن ترجمة « تا - نثر » بـ « الأرض المقدسة » غير صحيحة ، والصحيح ترجمتها بـ « أرض الاله » .

أما عن التفسير الحقيقى للتسمية « تا - نثر » فإن الوصول اليه يقتضى البحث عن الاله المقصود بكلمة « نثر » فى هذه التسمية . ويرشدنا الى ذلك الترادف بين هذه التسمية وبين التسمية « بونت » لأن الاسمين لمنطقة واحدة كما سبق أن قدمنا ، وبعبارة أخرى يجب أن يكون هذا الاله مشتركا بين تا - نثر وبين بونت ويكون أيضا من أقدم الآلهة لأن التسميتين ظهرتتا فى النصوص المصرية منذ عصر مبكر من التاريخ المصرى القديم فضلا عن ارتباطه بالبحر الأحمر وهو الطريق البحرى الذى كان المصريون يسلكونه للوصول الى تا - نثر وبونت .

أن أول ما يرشدنا للتعرف على هذا الاله أن كلمة « نثر » بمعنى « اله » كانت تكتب على الآثار المصرية بمخصص صقر (٦٠)

، والصقر كما هو معروف كان رمز الاله حورس ،



وبالفعل نجد الشروط المذكورة كلها تنطبق على الاله حورس فقد اطلقت عليه النصوص المصرية « حور رب بونت » و « الصقر المقدس حاكم بونت » و « الصقر المقدس الذى جاء من أرض الاله » (٦١) ويلاحظ على هذه الإلقاب التى خلعت على الاله حورس ، الترادف بين بونت وبين أرض الاله وارتباطهما بالاله حورس ، ثم ربطت النصوص المصرية بين

الاله حورس وبين المشرق فاطلقت عليه نصوص الأهرام « حور - ابتى »
أى حور الشرقى (٦٢) •

وبالإضافة الى كل ذلك ربطت نصوص الأهرام بينه وبين البحر
الأحمر بأن اطلقت عليه « ذلك الذى فى الأخضر العظيم » (٦٣)
والمقصود بالأخضر العظيم (واج - ور) فى ذلك العصر هو البحر
الأحمر لأن هذه التسمية لم تطلق على البحر المتوسط الا ابتداء من الأسرة
السابعة عشرة (٦٤) •

أما سبب تخصيص الاله حورس بكلمة « نثر » أى « الاله » فى
عبارة « أرض الاله » فيمكننا التوصل اليه فى ضوء الحقائق التالية :

١ - كان الفراعنة يعتبرون أنفسهم من سلالة أو من ورثة الاله
حورس فى حكم مصر ، ففى بردية تورين اطلقت النصوص المصرية
التسمية « شمسو حور » أى « اتباع حورس » على حكام مصر فى عصر
ما قبل الاسرات • وقد جسد المصريون هذه التسمية فى أقدم رمز للقب
الملكى وهو الصرخ الذى يكتب بداخله اسم الفرعون ويعلوه رسم الصقر
رمز الاله حورس وهو ما نسميه باللقب الحورى الذى ظهر منذ بداية
العصور التاريخية المصرية كما تدل على ذلك لوحة الملك نعرمر المعروفة
وقد صور الاله حورس عليها مرة أخرى فى صورة الصقر كاله حامى
للملك •

٢ - لون المصريون الاله حورس باللون الأحمر سواء رسموه فى
شكل صقر أو فى شكل انسان برأس صقر (٦٥) واستخدموا نفس اللون
فى تلوين البوننتين • وهو نفس لون المصريين أنفسهم وان كان أفتح
قليلا من لون البوننتين •

٣ - رسم المصريون البوننتين على الآثار المصرية بنفس ملامحهم
- بالإضافة الى نفس اللون تقريبا - وبنفس هيئتهم مع اضافة اللحية
المستعارة لأشكال البوننتين التى تشبه لحية الالهة والملوك المصريين ربما
باعتبار البوننتين ينتمون لأرض الاله التى نسب المصريون أجدادهم
(اتباع حورس) اليها (٦٦)

هذه الحقائق الثلاثة توحى بوجود شعور لدى المصريين بأن هناك صلة ما بين الاله حورس واسلاف المصريين من ناحية وبين البونتيين سكان أرض الاله من ناحية أخرى ، وبطبيعة الحال ليس من المعقول أن ينشأ هذا الشعور من فراغ ، اذ لابد أن يكون هناك أساس ما لهذا الشعور وان كان مبهما في ذاكرة المصريين .

واذا علمنا أن الصور المبكرة للاله حورس ظهرت أول ما ظهرت في المناطق المتاخمة أو القريبة من الوديان الممتدة من البحر الأحمر الى النيل مثل وادى الحمامات ووادى عباد ، مثل صورته في شكل الصقر التى وجدت في « العمرة » بالقرب من نجع حمادى والتي تمثله فوق الصرح وهى أقدم صورة له وترجع الى عصر نقادة الأولى (٦٧) ، ومثل صورته على لوحة الملك تعمر التى وجدت فى الكاب بالقرب من ادفو ، واذا علمنا أيضا أن الفراعنة الأوائل (ملوك الأسرة الأولى) ينتسبون الى منطقة قريبة من هذه الوديان وهى منطقة « ثينة » (جرجا) - اذا علمنا كل هذه الشواهد ، فان ذلك يوصلنا الى أن نرجح أن هناك اشتراكا فى الأصل البعيد بين أسلاف المصريين (الذين يرمز اليهم الاله حورس) وبين البونتيين وبلادهم الواقعة على الساحل الافريقى للبحر الأحمر وظهيره . وان وجود الصور الأولى للاله حورس بالقرب من نهايات الطرق القادمة من البحر الأحمر وكذلك وقوع الموطن الأول لفراعنة الأوائل (ملوك الأسرة الأولى) بالقرب من هذه النهايات ، بالاضافة الى اطلاق التسمية « حورس الشرقى » على الاله حورس - كل ذلك يشير الى هجرات جاءت من المناطق الواقعة الى الشرق والجنوب الشرقى من مصر ودخلت اليها عبر هذه الوديان ثم انتشرت فى وادى النيل فى الصعيد الأعلى .

ولعل هذه الهجرات كانت موجات متأخرة نسبيا من الهجرات الحامية الكبرى الموغلة فى القدم التى بدأت منذ العصر الحجري القديم الأعلى (٦٨) واجتازت بوغاز باب المندب (الذى ربما كان جزرا متقاربة فى ذلك العصر البعيد) قادمة من الجزيرة العربية ثم انتشرت فى افريقية الشرقية وزحفت شمالا حتى صحراء مصر الشرقية ثم دخلت مصر عبر

وادی الحمامات ووادی عباد والودیان الأخرى الموازية لها شمالا وجنوبا، واستقرت فى الوادی وكونت قاعدة الشعب المصرى القديم .

وربما بقيت ذكرى هذه الهجرات البعيدة على هيئة روايات متواترة مبهمه عبر الأجيال فى أذهان المصريين فى العصر التاريخى فرمزوا اليها بتلك الرموز التى تربط بينهم وبين سكان الساحل الافريقى للبحر الأحمر وظهيره . وكان من الطبيعى أن يطلقوا على المنطقة ما يسبغ عليها صفة التقديس ومن هنا جاءت التسمية « تا - نثر » التى تجمع بين هذه الصفة وبين نسبتها الى الاله الذى تميزت به والمقصود بكلمة « نثر » وهو الاله حورس .

ويلاحظ أن الاله حورس صار فى العصور اللاحقة الها للشمس وربما كان السبب فى ذلك يرجع الى وصفه بـ « حورس الشرقى » . فالمثبت أن حورس لم يكن له أية صلة فى الأصل باله الشمس ، ولكن عندما اكتسب هذه الصفة صار رمزه قرص الشمس بين جناحي صقر ، وانتشر هذا الرمز انتشارا كبيرا على واجهات ومداخل المعابد المصرية (٦٩) .

وبالنسبة لأقدم ذكر للتعبير « تا نثر » فى النصوص المصرية ، فحتى عهد قريب كان النقش المعروف بنقش « حننو » أو « حنو » فى وادی الحمامات الذى يرجع لعصر الأسرة الحادية عشرة الفرعونية - كان يعتبر أقدم نص ورد به التعبير « تا نثر » (٧٠) ، ولكن أدى الكشف أخيرا عن نقش من عصر الملك « نفر - كاو - حور » من الأسرة الثامنة فى مقبرة رجل يدعى « شمای » توجد فى القرية المسماة « كوم المؤمنین » (سابقا كوم الكفار) تقع على مشارف طريق قفط - القصير ، حيث ورد هذا التعبير (٧١) ، أدى ذلك الكشف الى ارجاع أقدم ورود لتعبير « تا - نثر » الى عصر هذه الأسرة أى الى بداية العصر المتوسط الأول (٧٢) فضلا عن تقديم معلومات جديدة بشأن مدلول هذا التعبير فى ذلك العصر . وفيما يلى ترجمة النص طبقا لمكتشفته :

« أما بصدد أى عمدة أو حاكم للصعيد يبحر جنوبا فى داخل هذا البحر ويرسوا فى تا - نثر الخ » (٧٣) .
فالربط هنا بين الابحار جنوبا ثم الرسو فى تا نثر يشير الى أن

هذا التعبير لا يقتصر على صحراء مصر الشرقية ، بل يمتد الى منطقة ما على الساحل الافريقى للبحر الأحمر الى الجنوب من ساحل صحراء مصر الشرقية ، ربما ليشمل ساحل صحراء العتباى فى شرق السودان وهى المنطقة التى ارتادتها بعثة الملك سنوسرت الأول ثانى ملوك الأسرة الثانية عشرة كما دلت على ذلك الآثار والنقوش التى اكتشفت فى وادى جواسيس (٧٤) .

غير أن مكتشفة النقش فسرتة بما يفيد أنه ينطبق على الساحل الحجازى وليس على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ، وأعتمدت فى ذلك على نصين فى نقش « حنو » أولهما ورد فى السطر العاشر والآخر فى السطرين الرابع عشر والخامس عشر . ولكنها لم تأت بجديد يختلف عن الترجمات السابقة للنصين رغم اعتراضها على هذه الترجمات فيما عدا كلمتين سوف نعرض لهما ، وفيما يلى مقارنة بين ترجمة « برستد » وترجمة الباحثة للنصين :

ترجمة الباحثة (٧٦)

ارسلنى سيدى لاعداد سفينة
لترسل الى بونت ولكى أحضر الكندر
الطازج من لدن الشيوخ الذين فى
الأرض الحمراء .

ثم بلغت الأخضر العميق (٩)
فشيدت هذه السفينة وارسلتها
مجهزة بكل شئ وأديت لها قربانا
عظيما من الثيران والابقار والماعز ،
وهكذا فبعد أن وصلت من الأخضر
العميق (٩) وقد نفذت أوامر جلالته
محضرا له كل العطايا (ا و ن)
التى وجدتها على شواطئ

« أرض الاله » (٧٧/١)؟

ترجمة برستد (٧٥)

السطر العاشر

ارسلنى سيدى لابعث بسفينة الى
بونت لكى أحضر له الكندر الطازج
من مشايخ الأرض الحمراء .
السطران الرابع عشر والخامس عشر

ثم وصلت الى البحر الأحمر ثم
صنعت هذه السفينة وارسلتها بكل
شئ وعملت من أجلها قربانا عظيما
من الماشية والثيران والوعول .
والآن بعد عودتى من البحر الأحمر ،
نفذت أمر جلالته وأحضرت له كل
الهدايا (ا ن و) التى وجدتها فى
منطقة « أرض الاله » (تا نثر)
وعدت عبر (طريق) « واج » (٧٧)
وادى الحمامات .

والكلمتان هما : كلمة «ور» فى التعبير « واج ور » وقد ترجمتها « العميق » بدلا من « العظيم » . وكلمة « العطايا » ولو أنها الترجمة الصحيحة لكلمة « ان و » المصرية الا أنها فسرتها بالعنتيو ، أى الكندر مما أدى الى تناقض فى الترجمة لأنه لا يستقيم مع المعنى لأن الكندر جلبته السفينة التى ارسلها الى بونت من حكام الأرض الحمراء أى من الساحل الافريقى للبحر الأحمر كما ورد فى السطر العاشر الموضح أعلاه بينما وردت الإشارة الى العطايا مقترنة بالتسمية « تا - نثر » أى « أرض الاله » فى السطرين الرابع عشر والخامس عشر كما هو موضح أعلاه أيضا ، وعلى ذلك فلا توجد أية صلة بين حكام الأرض الحمراء سكان بونت أى الساحل الافريقى للبحر الأحمر (صحراء العتباى كما يفهم من عبارة « الأرض الحمراء » التى ارتادتها بعثة الملك سنوسرت الأول كما ذكرنا) ، وبين العطايا « ان و » التى فسرتها الباحثة بـ « الكندر » وهو تفسير غير صحيح كما سنوضح بعد .

ثم فسرت الباحثة عبارة « يبحر جنوبا فى داخل هذا البحر » الواردة فى نقش مقبرة « شماى » المذكورة بأنها تشير الى اتجاه المسافر من الميناء المصرى نحو الجنوب الى ميناء على الساحل الحجازى ، ربما كان ميناء ينبع أو ما كان يحل محله قديما على حد قولها (٧٨) .


ونرى أن المعنى لا يستقيم فى الجمع بين الابحار جنوبا والرسو فى تا - نثر وبين الاتجاه شرقا عبر البحر الأحمر الى الساحل الحجازى حتى مع وجود عبارة « فى داخل » التى ليس لها معنى الاتجاه شرقا ، وعلى ذلك فان الاقرب الى المنطق أن يكون مدلول عبارة « الابحار جنوبا والرسو فى تا نثر » هو الابحار من الميناء المصرى على ساحل الصحراء الشرقية والسير فى موازاة الساحل الافريقى للبحر الأحمر والرسو فى منطقة صحراء العتباى التى تدخل فى نطاق المدلول « تا نثر » والتى ارتادها المصريون بعد ذلك كما يستفاد من نقش « حنو » وكما ثبت من نقوش وادى جواسيس .

ويبدو لنا أن السبب فى هذه الاستنتاجات للباحثة ، انها فسرت

كلمة « ان و » فى نقش « حنو » التى معناها « هدايا » فى النصوص المصرية (وأحيانا « جزية ») بأنها « هدايا العنتيو أى الكندر » وهو تفسير قد يكون صحيحا فى نصوص أخرى ، ولكنه غير صحيح بالنسبة للنص الذى نحن بصدده ، الذى يصف فيه « حنو » ما جاء به من الصحراء الشرقية بالذات وليس من الساحل الحجازى بدليل أنه يروى فى النص أنه بعد الحصول على هذه الهدايا من شاطئ (أو من منطقة) أرض الاله عاد عبر (طريق) « واج » (وطريق) وادى الحمامات (٧٩)

وقد اغفلت الباحثة ترجمة نص هذه العودة خلال الصحراء الشرقية التى لا يمكن أن تتحقق اذا كانت الأرض المقصودة هى الساحل الحجازى ، اذ فى هذه الحالة كان لابد أن يسرد أخبار أبحاره عبر البحر الأحمر من الساحل الحجازى أى من تا - نثر أو أرض الاله الى الساحل المصرى ثم أخبار رحلته عبر وادى الحمامات .

ان التفسير الحقيقى لكلمة « ان و » أى « هدايا » أو بتعبير أدق « كل الهدايا » كما وردت فعلا فى نص « حنو » بالنسبة للصحراء الشرقية ، ما كان يستخرجه المصريون منها من أحجار كريمة ومعادن نفيسة وفى مقدمتها الذهب ، وقد أثبتنا فى بحث سابق أن المصريين أطلقوا عليها « خ اس ت/ن ب و/ » أى « صحراء الذهب » (٨٩) بسبب ما كانوا يستخرجونه منها من الكميات الوفيرة من الذهب . ومن الواضح أن كلمة « ان و » فى النص تعنى « الذهب » فقد وردت فى نصوص أخرى بهذا المعنى (٨١) كما أن حنو نفسه حمل من بين القابه لقب « المشرف على خزانة الذهب الخام » (٨٢) (نوب واج) ، وان وصف الذهب فى هذا اللقب بـ « الخام » (واج) يدل على أن حنو أشرف على عمليات استخراج الذهب من الصحراء الشرقية . والحقيقة أن هذه كانت طريقة المصريين فى استغلال الأيدى العاملة المكلفة بتجهيز سفن البعثات المصرية المسافرة الى بونت ، فقد كانوا يستفيدون من هذه الأيدى العاملة فى مشروعات أخرى فى الصحراء الشرقية (٨٣) ريثما تعود السفن من رحلتها فلا تبقى هذه الأيدى العاملة معطلة طوال المدة التى تستغرقها هذه الرحلة ، لأن السفن التى كان يستخدمها المصريون فى البحر الأحمر ،

وهى من نوع السفن المخططة كما ذكرنا سابقا ، كانت تحتاج الى ايدى عاملة كثيرة لنقل اجزائها أولا من دار صناعتها على شاطئ النيل الى ساحل البحر الأحمر حيث يتم تركيبها ، ثم بعد عودتها من رحلتها لتفكيكها مرة أخرى ونقل اجزائها (اذا كانت فى حالة صالحة) مع شحنتها الى شاطئ النيل . ويبدو أن حنو استغل الأيدى العاملة هذه فى استخراج الذهب من المناجم الوفيرة المنتشرة على جوانب الطريق الموصلة الى الميناء الذى يرجح أنه « مرسى جواسيس » نظرا لوفرة مناجم الذهب على جوانب وديان « عطا الله » و « ساقى » المؤدية الى هذا الميناء بينما لا توجد مناجم ذهب ذات قيمة على جوانب طريق وادى الحمامات فى جزئه الشرقى الممتد من بئر الفواخير الى القصير ، ولهذا يرجح الباحثون أن الاسم « واج  الوارد فى

نقش حنو هو اسم الطريق من مرسى جواسيس عبر هذه الوديان الى بئر الفواخير (٨٤) حيث يتلقى بوادى الحمامات الذى أطلق عليه فى النقش

« را - هنو » 

والحقيقة أن هناك أمثلة أخرى من عصور متفرقة تشير الى الجمع بين مشروعى ارسال السفن الى بونت وبين تعدين الذهب فى الصحراء الشرقية بعضها يشير صراحة الى « ذهب صحراء قفط » أو « ذهب الصحراء » ضمن نصوص هذه الرحلات مثل ما ورد فى نصوص المقبرة رقم ١٤٣ فى طيبة والتي ترجع فى الغالب الى عصر الملك امنحتب الثانى (٨٥) ، وفى نصوص بعثة حتشبسوت الى بونت (٨٦) ، وبعضها نصوص تذكر ذهب قفط من عصر ملوك أرسلوا بعثات الى بونت وسجلوا فى الوقت نفسه اسماءهم على جوانب الوديان الواقعة على الطريق الى ميناء مرسى جواسيس وتتوفر بها مناجم الذهب مثل الملك رمسيس الثالث (٨٧) والملك سنوسرت الأول (بعثته الى « بيا - بونت » واسمه على صخور وادى ساقى والاشارة الى الذهب فى نقوش عنخو ، والاشارة الى « ذهب قفط » فى نصوص امينى) (٨٨) .

وعلى هذا فان العبارة التى وردت فيها كلمة « ان و » هذه
يستقيم معناها اذا ترجمت كما يلى :

« وبعد عودتى من البحر الأحمر (الأخضر العظيم) نفذت أمر
جلالته وأحضرت له جميع الهدايا (من الذهب) التى وجدتها على
ساحل (أو فى منطقة) (٨٩) أرض الاله (الصحراء الشرقية) ،
وعدت على (الطريق المسمى) « واج » (الطريق الممتد من ميناء مرسى
جواسيس الى وادى الفواخير) ، ووادى الحمامات (را هنو) وأحضرت
له (للملك) أحجار التماثيل الخ » (٩٠) .

بذلك يستقيم المعنى ويتفق مع المنطق ولا يحتاج الأمر للذهاب بعيدا
وتحميل النص أكثر مما يحتمل مثل افتراض عبور البحر الأحمر من
غربه الى شرقه للوصول الى الساحل الحجازى للحصول على العنتيو أو
الكندر من شيوخ الأرض الحمراء كما ذهبت الباحثة فى استنتاجاتها .

وفى ختام مناقشة مدلول « تا نثر » يلاحظ أن هذا المدلول اتسع
فى عصر الدولة الحديثة باتساع الامبراطورية المصرية فشمّل بلاد الشام
وما يليها شمالا حتى بلاد الحيثيين ، أى المناطق الواقعة الى الشمال
الشرقى من مصر التى ارتادها المصريون فى ذلك العصر ، وهذه ظاهرة
واضحة فى هذه التسمية ، فليس هناك دليل على أن المصريين أطلقوا
هذا الاسم على مناطق لم يرتادوها ، فالذى يلاحظ أن كل منطقة من
المناطق الداخلة فى نطاق التسمية « أرض الاله » كان لها اسم خاص
بها شأن تسمية الساحل الأفريقى للبحر الأحمر « يونت » مثل « خارو » ،
و « رتنو » و « زاهى » و « نهرينا » ، وهى أسماء خاصة بفلسطين
وسوريا ولبنان وشمال الشام وشمال غرب العراق على التوالى ، بينما
لم يكن للجزيرة العربية وخاصة جنوبها اسم خاص بها فى النصوص
المصرية كما سبق أن ذكرنا ، وبعبارة أخرى لقد كانت هناك ثلاثة شروط
لاطلاق التسمية « تا - نثر » أى « أرض الاله » على منطقة ما :
أولها أن تكون هذه المنطقة واقعة الى الشرق من مصر أو بتعبير أدق
أن يأخذ المصريون وجهتهم نحو الشرق عندما يغادرون وادى مصر فى
طريقهم الى هذه المنطقة ، وثانيها أن يكون المصريون قد ارتادوها ،

وثالثها أن تكون مصدر سلع ثمينة في نظرهم ، اما لعدم وجود هذه السلع في وادى مصر أو لندرتها فيها . وعلى ذلك فقد أطلقوا هذه التسمية على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر مصدر الكندر ، وعلى سيناء مصدر الفيروز (٩١) وعلى لبنان مصدر أشجار الأرز ، ثم على بلاد الشام المذكورة فيما سبق لأنها كانت مصدر سلع ثمينة متنوعة في مقدمتها الأحجار الكريمة (٩٢) .

وفى المقابل لم يطلق المصريون هذه التسمية على بلاد النوبة رغم توفر شرطين منها هما أنها كانت مصدرا لنفس سلع بونت تقريبا وأنهم ارتادوها ، ولكن لعدم توفر الشرط الثالث وهو وقوعها الى الشرق من مصر وبالمثل لم يطلقوا هذه التسمية (تا نثر) على جنوب الجزيرة العربية رغم توفر شرطين فيها هو وجود الكندر بها ووقوعها الى الشرق من مصر ، ولكن لعدم توفر الشرط الثالث وهو ارتياد المصريين لها ، ولعل هذا هو السبب فى عدم وجود اسم خاص للجزيرة العربية فى النصوص المصرية التى ترجع للعصر الفرعونى .

الحواشي والتذييلات

(١) ١ - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها في النقوش القديمة في مصر ، بحث منشور في كتاب بحوث الندوة العالمية الاولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الاول ، الرياض ١٩٧٩ .

ب - b) Abdel-Monem, A.H. Sayed, "Were there direct relationships between Pharaonic Egypt and Arabia ?" P.S.A.S., Vol. 19 (1989), p. 150-166.

وقد أعيد نشر هذين البحثين حديثا في كتاب للمؤلف عنوانه « البحر الاحمر وظهيره في العصور القديمة » الاسكندرية ١٩٩٢ ، الصفحات ٤٠١ - ٤١٧ ، ١٨١ - ١٩٢ على التوالي .

وكنيت قد تناولت هذا الموضوع في رسالة الماجستير التي قدمتها لقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية عام ١٩٦٨ بعنوان « علاقات مصر القديمة ببلاد بونت ونشاطها في البحر الاحمر » .

(٢) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الاحمر وظهيره ، ص ٣٨٢ .

(٣) رغم مرور ما يقرب من سبعة عشر عاما على هذا الكشف الذي توصلت اليه بعثة الحفائر الموقدة من قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية في عام ١٩٧٦ ، ورغم أن المعلومات عن هذا الكشف أصبحت من الموضوعات الثابتة في مؤلفات علماء المصريات الأجانب ، بل أصبح موضوعا لدراسات في هذه المؤلفات نذكر منها طبقا لتسلسل صدورها :

1. Honor Frost, "Egypt and stone anchors, some recent discoveries", M.M. Vol. 66 (1979), p. 137 f.
2. W. Kelly Simpson, "Wadi Gawasis", L.A., 1986) Band VI, p. 1097 f.
3. Pascal Vernus, "Une inscription cursive du Ouadi Gawasis", RdE, Tome 37, (1986), p. 139 f.
4. Ogden Goelet, "W3d-Wr and Punt in Wadi Gawasis inscriptions," St. Aeg. Vol. XIV (1992), p. 212 f.

هذا غير عشرات المؤلفات الاجنبية التي تناولت هذا الكشف ضمن موضوعاتها .
رغم كل هذا الاهتمام بالكشف من العلماء الاجانب ، ورغم نشره في حينه على
أوسع نطاق بين الجامعات والهيئات الاثرية المصرية والباحثين المصريين . . .

فان مؤلفات كثير من الباحثين ، مازالت حتى اليوم للأسف الشديد ، تخلو
تماما من أية إشارة الى هذا الكشف أو حتى الى بعثة سنوسرت الأول هذه رغم انها
أصبحت جزءا من تاريخ الدولة الوسطى الفرعونية ، ومن أمثلة البحوث المتخصصة
في هذا المجال التي اغفلت هذه الحقيقة التاريخية :

M. Hiltzheimer; "Zur Geographischen Lokalisierung von Punt"
Z.A.S. 68 (1932), S. 112-114.

(٥) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، علاقات مصر القديمة ببلاد بونت ، (رسالة
الماجستير) ص ٢٣ .

(٦) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، « دراسة تاريخية للصلات والمؤتمرات الحضارية
بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الاحمر » ، رسالة دكتوراه غير منشورة ،
كلية آداب الإسكندرية ، (١٩٧٢) ص ٤٨ وما بعدها .

(٧) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، الجزيرة العربية ، ص ٤١ وأيضا ، البحر
الاحمر ، ص ٤٠٣ وهذه المعلومة عن :

M. Flinders Petrie ; Tanis, Part II (1888), p. 107 and
pl. XLII

(٨) تناولت هذا الموضوع بالتفصيل في رسالة الماجستير ، « علاقات مصر
القديمة ببلاد بونت » ص ٣٤ - ٣٧ .

(٩) أبو العيون بركات ، بونت بين المصادر المصرية ، ص ٩٤ .

10. a) H. Gauthier, Dictionnaire des noms géographiques conte-
nus dans les textes hiéroglyphiques, Tome I, p. 93.

b) Zibelius, op. cit., p. 84.

11. Op. cit.

12. D. O'Connor, "The Location of Irem", JEA, Vol. 73 (1987),
p. 99 f.

- (١٣) عبد المنعم عبد الحليم ، علاقات مصر القديمة ، ص ٣٣ .
- (١٤) عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٣١٧ - وأبو العيون بركات
بونت ، ص ١٠٣ .
15. Abdel Monem Sayed, Were there direct relationships, p. 160, see also.
Abdel Monem Sayed, The Red Sea and its hinterland in Antiquity, Alexandria, 1993), p. 187.
16. Cerny-Gardiner-Peet, The inscriptions of Sinai, Vol. 2, p. 166 and Vol. 1 pl. LXVI, no. 211.
17. J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol. II § 260 note d. cf. Wb. V S. 194.
- (١٨) عبد العزيز صالح : شبه الجزيرة ، ص ٣١٧ - ٣١٨ .
19. Abdel Aziz Saleh, "An open question on Intermediaries in the Incense Trade during Pharaonic Times" ORIENTALIA, Vol. 42 (1973), p. 381.
- (٢٠) عبد العزيز صالح : شبه الجزيرة ، ص ٣١٧ .
- (٢١) نفس المصدر .
22. Elmar Edel, Beiträge zu den ägyptischen Sinaiinschriften, "Berichte über Puntexpeditionen", N.A.W.G. Nr. 6 (1983), p. 183), p. 183 note 36.
23. Op. cit., p. 181.
24. Op. cit., p. 183-185.
25. Cerny, Sinai, Vol. II, no. 238, p. 173, p. 213 and Vol. I pl. LXVII.
26. Edel, Beiträge, p. 175-182.
- (٢٧) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الاحمر وظهره ، ص ٥٥ - ٦٠ .
- (٢٨) سيرد الحديث عن نقش حنو بالتفصيل فيما بعد .
- (٢٩) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الاحمر وظهره ، ص ١٣١ - ١٣٨ .

(٣٠) نفس المصدر ، ص ١٤١ - ١٤٥ .

(٣١) اتفق البروفسور المر ايدل معى فى هذا الاستنتاج اثناء انعقاد مؤتمر الآثار المصرية فى جرينوبل بفرنسا عام ١٩٧٩ عند القى محاضرتة فى هذا المؤتمر عن نقوش سيرابيط الخادم التى اكملها والمذكورة فى الصفحات السابقة ، وقد اشترت الى هذا الاتفاق فى الرأى بيننا فى البحث الذى القيته فى هذا المؤتمر ونشر فى الدورية التى تصدر فى بروكسل بعنوان :

"Chronique d'Egypte" Tome LVIII, No. 115-116, 1983, p. 32
note 3

وانظر أيضا :

Abdel Monem A.H. Sayed, The Red Sea in its Hinterland in Antiquity, Alexandria, 1993, p. 92 note 3.

32. Louise Bradbury, "Reflections on Traveling to "God's Land" and Punt in the Middle Kingdom", JARCE, Vol. XXV, (1988), p. 128-141.

(٣٣) عبد المنعم عبد الحليم ، البحر الاحمر وظهره ، ص ٢٠٩ .

(٣٤) اكتشفت هذا الميناء بعثة جامعة كاليفورنيا عام ١٩٤٨ راجع :
Cerny, Sinai II, p. n.e.

(٣٥) عبد المنعم عبد الحليم ، البحر الاحمر وظهره ، ص ١١٦ - ١١٧ .

36. Abdel Aziz Saleh, "Some problems relating to the Pwenet reliefs at Deir el-Bahari" JEA, Vol. 58 (1972), p. 153.

37. Op. cit., p. 155.

38. Op. cit., p. 154-155.

(٣٩) عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٢٠٩ .

40. Saleh, Op. cit., p. 155 (lines 6-8)

41. F. Nigel Hepper, "Arabian and African Frankuncense trees", JEA, Vol. 55 (1969), p. 69-70.

42. Op. cit., p. 68.

(مجلة المؤرخ العربى)

43. Saleh, Op. cit., p. 145 (lines 7-9) and note 1.

44. Op. cit., p. 153 (line 15) and note 1.

45. Op. cit.,

• وقارن أيضا لنفس الباحث ، شبه الجزيرة ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٤٦) أوردت في بحوث سابقة الأدلة على أن الظروف النباتية الحالية السائدة على السواحل الشمالية للصومال من حيث نمو أشجار الكندر ، هي نفسها الظروف التي كانت سائدة في عصر المصريين القدماء أي منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، وأيضا في العصر اليوناني الروماني ، أي منذ ألفي عام ، راجع « محاولة لتحديد موقع بونت » ، ص ٥٥ - ٦٠ في كتاب المؤلف ، البحر الأحمر وهیره في العصور القديمة .

(٤٧) في الصف الثالث (من أسفل) ، انظر اللوحة التي جمع فيها « سميث » الاجزاء المتناثرة المنشورة في كتاب :

Naville, The temple of Deir el-Bahari, III, pl. 70.

واللوحة في كتاب :

W. Stevenson Smith, "The Land of Punt" JARCE vol. I (1962), p. 61.

48. Smith, Op. cit., and Urk IV 327,g,2.

49. Urk IV 327,g,3.

50. Saleh, Op. cit., p. 154-155.

ولو انه أورد نص اقتلاع الاشجار p. 155 n. 2 ولكن عبارته في عدم رسم المصريين لدرجات الكندر واقتلاع الاشجار منها غير مفهومة لان رسم مدرجات الكندر يحتاج الى الرسم بالمنظور والمصريون كما هو معروف لم يستخدموا المنظور في الرسم ، فرسموا أشجار الكندر في صفين فوق شريط المياه رمزا لساحل البحر وفي صف واحد فوق السفن التي تشحن فيها أشجار الكندر .
Naville, Op. cit., pls. 69, 74.

51. Breasted, A.R. Egypt II § 257.

52. Saleh, Op. cit., p. 152.

53. Breasted, Op. cit., § 288.

(٥٤) جاء ذكر بوغاز باب المتلب في مقاله المنشور بالعربية ، راجع عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٣٠٩ ولكن لم يرد ذكره في المقال المنشور بالانجليزية :

55. Saleh, Op. cit., p. 153.

56. Naville, Op. cit., pl. 69 and Breasted, A.R. Egypt II 255.

(٥٧) هذه ترجمة الباحث نفسه لهذا النص في مقاله المنشور بالعربية ولكنه اعتبرها من منطقة ظفار ، أو كما يقول « من الاراضى العربية » رغم أنه قال في نفس الصفحة بأن البونتيين ذهبوا بالمبعوثين المصريين الى مدرجات جبالهم الافريقية الداخلية كجزء من مدرجات العنتيو (الكندر) على جانبي البحر الاحمر عليهم يكتفون بذلك ، راجع ، عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٣٠٩ .

(٥٨) أبو العيون بركات ، بونت (نفس المصدر) ، ص ٧ .

(٥٩) نفس المصدر .

60. Ch. Kuenz, "Autour d'une conception égyptienne méconnue, le Pays du Dieu" BIFAO, Tome XVII (1919), p. 178.

61. Samuel Mercer, Horus, Royal God of Egypt, (1942), p. 89.

62. G. Hart, Dictionary of Egyptian gods and goddesses, (1986), p. 94.

63. R. Falker, The Ancient Egyptian Pyramid Texts (1969), Spell 1505, p. 231.

64. Gauthier, Op. cit. I, p. 182.

65. V. Loret, "Horus le Faucon", BIFAO, III (1903), p. 15-16.

66. Ibid.

67. Mercer, Op. cit., p. 88.

68. Roland Oliver, History of East Africa, The Early Period, (1967), p. 65.

(٦٩) يرى بعض الباحثين أن الاله آمون رع اله الامبراطورية والذي قرن باله الشمس ، هو المقصود بكلمة « نثر » (*) ولكن ما دامت النقوش لم تخصص هذا الاله فان الاقرب الى مفهومنا أن يكون الاله حورس هو المقصود بكلمة « نثر » في عصر الامبراطورية أيضا وخاصة أن هذا التعبير سابق على وصول الاله آمون رع الى مركز الصدارة في عصر الامبراطورية .

(*) Abdel-Aziz Saleh, "Notes on the Ancient Egyptian T3-NTR "God's Land" Bulletin du Centenaire (supplément au BIFAO, 81), 1981, p. 114.

70. Couyat et Montet, 'êLes inscriptions hiéroglyphiques et hiératiques de Ouadi Hammamat, MIFAO, Tome 34, (1912) no. 114 line 15 ans Breasted, A.R. Egypt, I, §433.

(٧١) من ملخص بحث بعنوان « مصر والساحل الحجازي »، إعادة بحث المصطلح « تا - نثر »، في ضوء نصوص الدولتين القديمة والوسطى «، القته د/مها فريد مصطفى في ندوة « مصر والجزيرة العربية عبر العصور » التي نظمها قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة في الفترة من ٢ - ٥ أبريل ٩٣ .

(٧٢) نفس المصدر ، ص ٣ وقد ضمت الباحثة الاسرة الثامنة الى الدولة القديمة والصحيح الى العصر المتوسط الاول كما تعارف على ذلك علماء المصريات ، راجع قائمة اقسام تاريخ مصر في نهاية كتاب :

A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, (1961), p. 437.

(٧٣) مها فريد ، نفس المصدر ، ص ٣ .

(٧٤) عبد المنعم عبد الحليم ، الكشف عن موقع ميناء الاسرة الثانية عشرة ، بحث منشور في كتاب لنفس المؤلف بعنوان « البحر الاحمر وظهيره في العصور القديمة »، (١٩٩٣) ص ١٣١ - ١٣٢ .

75. Couyat, Op. cit., line 10 and Breasted, Op. cit., §429.

(٧٦) مها فريد ، نفس المصدر ، ص ٥ .

(٧٧) كان يرستد قد تنبه الى ان كلمة « واج » الواردة في النص قبل « را - هنو » اي وادي الحمامات ، هو اسم لمنطقة أو أرض (طريق) غير وادي الحمامات راجع : Breasted, A.R.E. I §433 note d. وسوف نوضح مسار هذا الطريق فيما بعد .

(١/٧٧) لم تتم الباحثة ترجمة النص رغم اهميته في وصف طريق حنو من ساحل البحر الاحمر عبر الصحراء الشرقية .

(٢/٧٧) « الاخضر العظيم » هي الترجمة الشائعة للاسم المجرى « واج - ور » (البحر الاحمر) لدى علماء المصريات راجع :

ê"Das grosse Grün" in "Wörterbuch der Aegyptischen Sprache, I, 269.

ولا يعرف سبب تغيير الباحث لهذه الترجمة الى « الاخضر العميق » التي ليس لها أى أساس ، نفس المصدر ، ص ٤ ، ٥ .

(٧٨) مها فريد ، نفس المصدر ، ص ٦ - ٧ .

79. Couyat, Op. cit., line 15 and Breasted, Op. cit., I § 433.

(٨٠) عبد المنعم عبد الحليم « الكشف عن موقع « فى » البحر الاحمر وظهره ، ص ١٢٢ .

81. WB V 225, 14.

82. Couyat, Op. cit., 1.9.



(٨٣) من هذه المشروعات أيضا قطع أحجار الشست من منطقة وادى الفواخير الواقعة فى منتصف وادى الحمامات تقريبا ، وقد جاءت اشارة لذلك فى نص «حنو» (سطر ١٥) وفى نقش امينى فى وادى الحمامات الذى جمع بين قطع هذه الاحجار وبين الاشراف على بناء (أو تركيب) السفن فى ميناء مرسى جواسيس

Sayed, "New light on the recently discovered port on the Red sea shore" in, The Red sea and its hinterland in Antiquity, p. 89.

ولكن يبدو ان حنو اُضاف الى هذين المشروعين مشروع استخراج الذهب بدليل لقبه الذى ذكرناه وربما كان السبب فى ذلك وفرة مناجم الذهب على جوانب الوديان المؤدية الى وادى جواسيس (وادى عطا الله ووادى ساقى) . وربما يكون لقب « المشرف على الذهب » الوارد بين القاب الموظفين فى مقصورة عنخو فى وادى جواسيس مما يشير الى استخراج الذهب من هذه الوديان تحت اشراف عنخو هذا أو « امينى » الوارد اسمه على لوحة انتيفوكر وهو نفس امينى الوارد اسمه فى وادى الفواخير كما ذكرنا اعلاه .

84. Louise Bradbury, Op. cit., p. 134.

85. B. Cumming, Egyptian historical records of the later Eighteenth dynasty, Fasc. 2 (1984) no. 1473.

86. Breasted, A.R.E. II §373.

87. a) Breasted, A.R.E. IV §228, 407.

b) F.W. Green, "Notes on some inscriptions in the Etbai district", P.S.B.A. 31 (1909) pl. LIV.

“三三三”

(۸۹) ترجمہ پرستند کلمۃ ادب

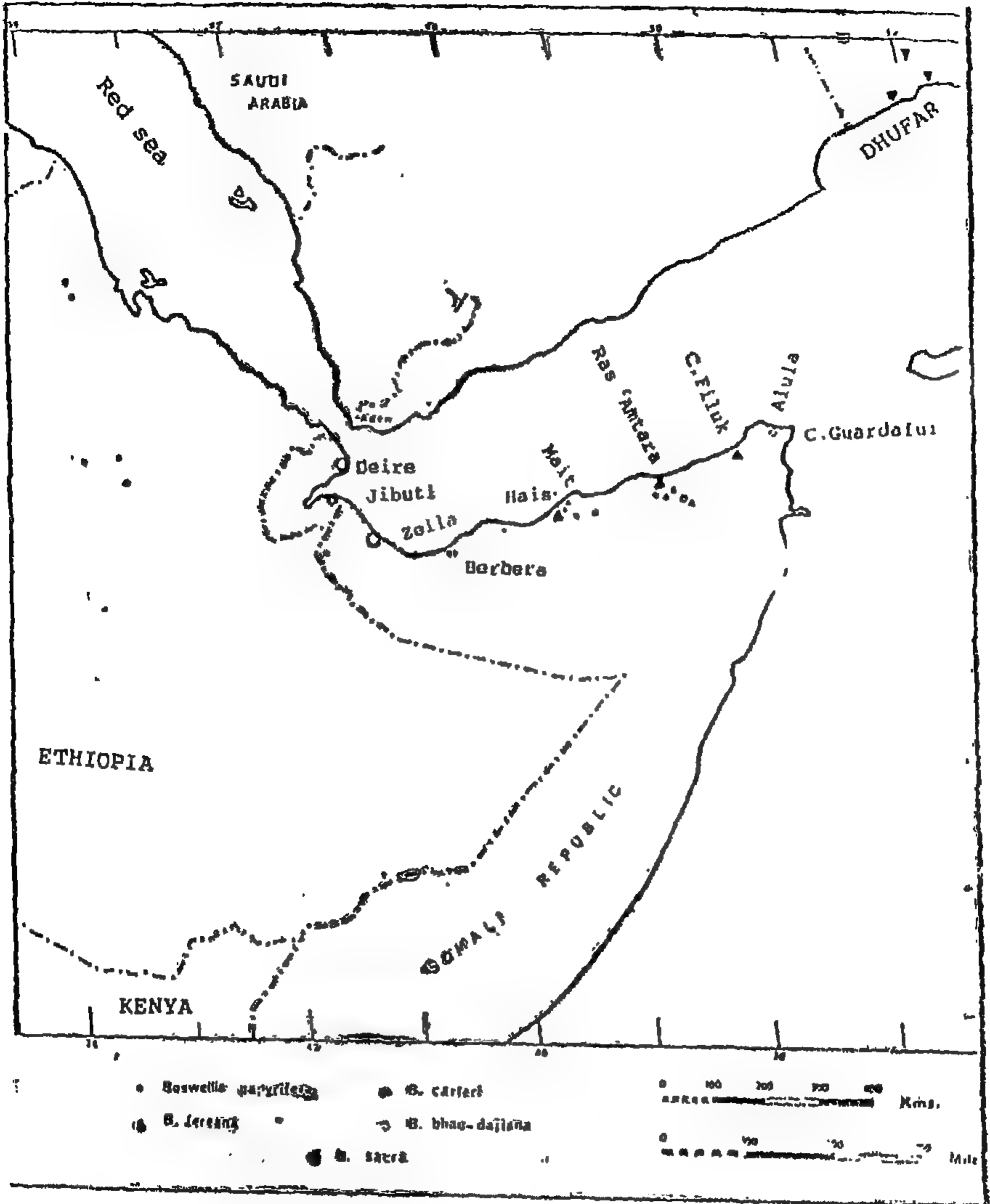
Breasted, I §429 : region بمعنى « منطقة » وليس « ساحل » راجع :

90. Couyant, *Op. cit.*, 1.15 and BAR I §429.

91. Wb V 225,3

92. Wb V 225, 4,12.

- BIFAO = Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale.
- JARCE = Journal of the American Research Center in Egypt.
- J.E.A. = Journal of Egyptian Archaeology.
- L.A. = Lexikon der Aegyptologie.
- MIFAO = Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale.
- M.M. = Marriner's Mirror.
- N.A.W.G. = Nachrichten der Akademie der Wissenschaften in Göttingen.
- P.S.A.S. = Proceedings of the Seminar for Arabian Studies.
- P.S.B.A. = Proceedings of the Society of Biblical Archaeology.
- St. Aeg. = Studia Aegyptiaca.



الخريطة الملحقة بمقال « هبر » Hepper, Op. cit., pl. XV التي توضح توزيع اشجار الكندر حول سواحل البحر الاحمر وخليج عدن والبحر العربي ، ويلاحظ أن الاشجار التي تدر النوع المسمى *B. Frereana* (التي يرمز اليها المثلث) وهي أجود أنواع الكندر ، هي الاقرب الى شاطئ البحر في شمال الصومال . وقد جرى توضيح المثلثات التي ترمز اليها لصغر حجمها في الخريطة الاصلية . كما اضيفت اسماء الموانئ الرئيسية الحالية في شمال الصومال .

بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة

والجغرافيون المسلمون الأوائل

بقلم

دكتور غيثان بن علي بن جريس (*)

عندما نذكر بلاد تهامة والسراة يتبادر الى أذهاننا أماكن عدة في شبه الجزيرة العربية، ولكن ما نريده في هذه الدراسة هي السهول التهامية والجبال السروية الواقعة بين نجران وجازان جنوباً ومكة المكرمة والطائف شمالاً . والسبب الذي جعلنا نقتصر في حديثنا على هذه المنطقة دون غيرها هو : أن مدن الحجاز الكبرى (مكة المكرمة والمدينة المنورة وما حولهما) ومدن اليمن مثل : صنعاء وصعدة وزبيد وعدن ، نالت اهتماماً كبيراً من المؤلفين الأوائل في التراث الإسلامي ، وعلى الخصوص من الجغرافيين والرحالة .

أما المنطقة الواقعة بين الجزئين السابقين الذكر ، والتي أطلقنا عليها اسم تهامة والسراة ، فقد بقيت ولا زالت مجهولة على مر التاريخ ، فلم يعن المؤلفون والرواة الأوائل بالحديث عنها في مؤلفاتهم ، وإذا ورد ذكرها أو ذكر جزء منها لا يرد إلا لماماً ، إذا قيس بما دون عن الحواضر الكبرى في الجزيرة العربية . لهذا السبب رأينا من الضروري إعطاء هذه المنطقة حقها من البحث والدراسة مستعينين بكتب الجغرافيا والرحلات التي دونت في العصر الإسلامي الوسيط . وما الجغرافيون والرحالة المسلمون إلا رافداً من الروافد التي أثرت التراث الإسلامي ، حيث قضوا جل حياتهم في الترحال والتجوال في مختلف أقطار العالم وبخاصة الإسلامي، فكتبوا عن سهوله وجباله، وأوديته وأنهاره، وطرقه البرية والبحرية، وأجناسه، وعناصره، وعاداته، وتقاليده، وعن سكانه وما

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية

جامعة الملك سعود - فرع أبها .

ينتجون من حاصلات وثمار ، وما يصعدون بواسطة الطرق البرية والبحرية ، الى الأسواق الخارجية أو المحلية .

وحظيت الجزيرة العربية أكثر من غيرها بوفود ععدد كبير من الرحالة اليها قصد الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ ، وهم فى العادة يدونون ما يشاهدون فى رحلاتهم أثناء ذهابهم أو ايابهم لاداء فريضة الحج ، وزيارة قبر الرسول ﷺ حيث كانوا يأتون من كل فج وصقع من الجهات الغربية للدولة الاسلامية كالمغرب والأندلس ، ومن الجهات الشرقية، كالعراق وبلاد فارس ، فضلا عن بلاد الشام ومصر (١) . وكان مما نال نزرا بسيطا فى التدوين بلاد السراة ، حيث كان للرواة من رجالها دور فى تدوين بعض المعلومات عنها . وقد يقوم بعض الرحالة فى الذهاب الى بعض الأجزاء التهامية والسروية للمشاهدة والمعاينة على أرضها ، أو ربما شاهدوا بعض التهاميين والسرويين عند قدومهم الى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث كانوا يتميزون فى هيئاتهم وألبستهم . . . وكان لاتجاه الرحالة أثر كبير فى تدوين رحلاتهم ، فأبن بطوطة ، على سبيل المثال ، خرج من جزيرة سواكن على شاطئ السودان ، متجها نحو اليمن ، مارا ببعض المدن الساحلية الشرقية على البحر الأحمر فدون عنها معلومات لا بأس بها (٢) ، ومنهم من تنقل بين مدن اليمن والحجاز عبر بلاد السراة كالهمدانى الذى ذون هو الآخر معلومات قيمة ، عن بعض الأجزاء السروية وما جاورها من المناطق ، قد لا نجدها عند غيره من الجغرافيين والرحالة السابقين واللاحقين (٣) .

وفى هذه الدراسة سوف يقتصر حديثنا على الجغرافيين والرحالة الذين ذكروا بلاد تهامة والسراة فى مدوناتهم فى الفترة الواقعة ما بين القرنين الثالث والثامن الهجريين . والسبب الذى جعلنا لم نتطرق للفترة التى سبقت القرن الثالث ، هو عدم وجود الكتب والمؤلفات التى دونها الجغرافيون المسلمون أثناء رحلاتهم الى هذه الديار فى ذلك الدور ، فلم تظهر بعض المؤلفات ظهورا واضحا الا فى العصر العباسى الثانى ، وعلى وجه التحديد فى أوائل القرن الثالث الهجرى . على أن تلك المؤلفات عنيت فى المرتبة الاولى بوصف أجزاء وأقاليم الدولة

الاسلامية وما يجاورها من البلاد ، أما باقى أخبار رحلاتهم فكانت تتضمن أمورا سياسية واجتماعية وفكرية واقتصادية ومعلومات متممة للحديث عن البلد أو المنطقة التى يدونون عنها فى مؤلفاتهم .

وتجدر الإشارة الى أن الرحالة والجغرافيين الأوائل لم يرد فى مؤلفاتهم ما أوردناه عنوانا لبحثنا (بلاد تهامة والسراة ٠٠٠٠) وإنما أشاروا اليها كمنطقتين منفصلتين ، وذهب بعض الجغرافيين الى أن الأجزاء الجبلية الممتدة من الطائف الى نجران جزء من سلسلة جبال السروات أو جبال الحجاز الفاصلة ما بين الأغوار التهامية الساحلية فى الغرب والأجزاء الشرقية النجدية فى الشرق (٤) .

وتبدأ جبال الحجاز أو السراة عند الكثير من الجغرافيين من فلسطين شمالا الى صنعاء جنوبا . وهناك وجهات نظر متباينة حول طولها وعرضها ، وعن حدود الحجاز شمالا وجنوبا ، لكن الشئ الثابت أن جبال السراة لا تتوقف من جهة الجنوب فى نجران أو صعدة وإنما تمتد الى أقصى بلاد اليمن (٥) ، ولكن ما يهمنا هو دراسة الجزء الواقع بين المنطقتين السابقتين الذكر (الحجاز واليمن) والذى سميناه (بلاد تهامة والسراة) نظرا لأن هذا الجزء لم يأخذ حقه فى التدوين ، ولم يأخذ أيضا نصيبه فى البحث عند المعاصرين ، لهذا قمنا - بعد التوكل على الله - ببذل الجهد ، لنعمل ما فى وسعنا على إبراز صورة لاقليم السراة وتهامة ، وإن اختلفت مواقع الحواضر فى تلك المنطقتين حسب ما ورد عند الجغرافيين . فالبعض منهم يرى أن جميع ما يقع غرب السراة يسمى بتهامة (٦) . وإذا أخذنا بوجهة النظر الثابتة ، فإن الأجزاء الغربية من بلاد السراة الممتدة على ساحل البحر الأحمر تعد جزءا من تهامة ، لهذا اسميناها بتهامة تمييزا لها عن المناطق الجبلية من السراة .

وممن تحدث عن بلاد السراة ابن الفقيه فى كتابه البلدان الذى ألفه فى القرن الرابع الهجرى حيث يقول « ... سراة بين تهامة ونجد أدناها بالطائف ، وأقصاها قرب صنعاء ، والسروات أرض عالية ، وجبال مشرفة على البحر من الغرب وعلى نجد من الشرق ، والطائف

من سراة بنى ثقيف ، وهو أدنى السروات الى مكة ، ومعدن البرم هي السراة الثانية ، بلاد عدوان فى بركة العرب وبها معدن البلور .» (٧) ويذكر ياقوت الحموى فى كتابه (معجم البلدان) معلومات جيدة ، ومكملة لما ذكره ابن الفقيه فيقول « . . . والسراة الثالثة أرض عالية وجبال مشرفة على البحر الأحمر من الغرب وعلى نجد من الشرق ، وسراة بنى شيباه .» (٨) ، ثم يشير الى بعض الأجزاء الواقعة الى الغرب من السروات فيورد « . . . وبأسفل السروات أودية تصب الى البحر الأحمر منها : الليث ، وقنونا ، والحسية ، وضنكان ، وعشم ، وبيش ، ومركوب ، وعليب » (٩) . ويتفق كل من القزوينى وياقوت الحموى على أن أهل السراة القاطنين من الطائف شمالا حتى صعدة جنوبا من أفصح الناس لغة ، وأكثر ممن اتسمت أسنتهم ببلاغة القول ، كهذيل القاطنة بجوار الطائف ، وبجيلة وثقيف والأزد فى وسط السراة (١٠) . وزيادة فى القول يضيف المقدسى ، من أبناء القرن الرابع الهجرى ، معلومات أكثر تفصيلا من سابقه ، فيذكر أسماء بعض المواقع ما بين صعدة ونجران جنوبا والطائف شمالا ، حيث يقول : « القبائل تأخذ من السروات نحو أهل الشام فتقع فى أرض الأغر بن هيثم ، ثم تخرج الى ديار يعلى بن أبى يعلى ، ثم الى سرحد ، ثم الى ديار عنز وائل فى بنى غزية ، ثم تقع فى ديار جرش ، والعتل وجلجل ، ثم الى ديار الشقرة بها خثعم ، ثم فى ديار الحارث . . . ثم فى شكر وعامر ، ثم فى بجيلة ، ثم فى فهم ، ثم فى بنى عاصم ، ثم فى عدوان ، ثم فى بنى سلول ، ثم فى مطار . . . » (١١) ويستدل بما ذكره المقدسى أنه ربط ما بين ذكر الأماكن الواقعة بين صعدة والطائف والقبائل القاطنة لها .

ويشير ابن الجاور ، من مؤرخى القرن السابع الهجرى ، الى معلومات تختص بالنواحي الحضارية لأهل تهامة والسراة ، لا نجدها عند غيره ، فيقول : - « فأما السرو فانهم قبائل وفخود من العرب ليس يحكم عليهم سلطان بل مشايخ منهم ، وفيهم بطون متفرقون . . . » (١٢) وفى مكان آخر يتحدث عن المناطق الواقعة بين صعدة والطائف ، وبخاصة الأجزاء السروية فيذكر أن جميع تلك المناطق قرى متقاربة

بعضها من بعض فى الكبر والصغر ، ثم أن كل قرية تكون وحدة بأهلها . وكل فخذ أو بطن من البدو يقيم فى قرية ، ولا يسكن قراهم ولا ينزلها أحد سواهم (١٣) ، ثم يواصل حديثه عن تلك الأجزاء السروية وأهلها فيقول « وقد بنى فى كل قرية قصر من حجر وجص وكل واحد من أهل القرية له مخزن فى القصر يخزن فيه جميع ما يكون له من حوزة ومملكة ، ولا يأخذ منه الا قوت يوم بيوم (١٤) ، ويكون أهل القرية محتاطين بالقصر من أربع ترابيعة ، ويحكم على كل قرية شيخ من مشائخها كبير القدر والسن ذو عقل وفطنة ، فاذا حكم بأمر لم يشاركه ولا يخالفه أحد فيما يشير عليهم ويحكم فيهم (١٥) ، وجميع من فى هذه الأعمال لم يحكم عليهم سلطان ، ولا يؤدون حراجا ، ولا يسلمون قطعة ، وكل واحد منهم مع هوى نفسه ، وبهذا لا يزال القتال دأبهم ويتغلب بعضهم على مال بعض ، ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو ، وهم طول الدهر على هذا الفن ، وجميع زرعهم الحنطة والشعير وشجرهم الكروم والرمان واللوز ويوجد عندهم من جميع الفواكه والخيرات ، واكلهم السممن والعسل ، وهم فى دعة الله وأمانه ، وهم فخذ يرجعون الى قحطان وغيرهم من الأنساب ... » (١٦) .

وقد أورد لنا ابن الجاور ، من رحالة القرن السابع ، نصا يؤكد ما تحويه منطقة السراة من حصون ومخازن لغرض الحرب وتخزين المواد الغذائية عند الحاجة . وما نشاهده الآن ما هو الا رموز تدل على صحة الروايات السابقة . وقد تبين لنا فى مقابلاتنا مع كبار السن فى عدة أماكن من تهامة والمبصرة حول الحصون ومهامها أن لها مهمتين ، الأولى مهمة حربية ، والثانية أنها تعد مستودعات لخزن الحبوب ، كما تبين لنا من الأقوال والمشاهدة أن البنية الاجتماعية فى تلك المناطق تعتمد على القبيلة التى تعد الوحدة الأساسية فى المجتمع ، ويعد شيخ القبيلة السيد الحاكم الذى لا ينازعه أحد فى سلطانه ، وهو الذى يعلن الحرب ، وهو الذى يطفئها مع المشايخ الآخرين . ولهذا ينعم بقية الأفراد فى المجتمع القبلى بالأمن بمقدار ما يمنحه الشيخ لهم ، ويصحب الحروب عادة السلب والنهب ، وتسود شريعة الغاب ، فالقوة هى الحق . وليس الحق هو القوة .

وينتقل ابن المجاور في حديثه عن بلاد السراة الى ذكر بعض الأجزاء التهامية ، فيذكر ميناء السرين (١٧) ، ويسميه بناية الفرس ، على ساحل البحر الأحمر (١٨) ، ولا ندري لماذا وصفه بهذه الصفة ، هل لأن مبانيه وبعض سكانه كانوا من الفرس ، أم ماذا ؟ ويشير أيضا الى بلدة حلى (١٩) ، وهي تقع الى الجنوب من السرين فيقول عنها هي « بلد فيه جامع ومنارة ، وأول من أخربها غازي بن متكلا من بني حارث الكردي في أيام دولة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب (٢٠) ، وبقى المكان على خاله الى أن أعاد بناءه موسى بن علي بن عطية ، وهو الى الآن مالكاها ، وجميع هذه الأعمال لبنى كنانة ٠٠٠ » (٢١) ولم يكن ابن المجاور هو الوحيد الذي انفرد بالحديث عن السرين وحلى وإنما أشار المقدسي الى هاتين البلدتين وأضاف اليهما بلدتي بيش وعثر ، ثم ذكر عن السرين أنها بلدة صغيرة لها حصن وبها جامع ثم قال عن علاقتها ببلاد السراة أنها « فرضة السروات ، والسروات معدن الحبوب والخيرات والتمور والغسل الكثير » ثم قال عن ديار السراة « ولا أدري هي مدن أم قرى لأنني ما دخلتها » (٢٢) ، وأشار الى حلى في عهده بأنها مدينة ساحلية عامرة (٢٣) ، أما بيش فوصفها بطيب الهواء وعذوبة الماء ، وأشار الى أن السلطان يقتنى بها بيتا الى جانب الجامع (٢٤) ، ويذكر (عثر) فيقول : « ناحية جليلة عليها سلطان يراسها ، ومدنها نفيسة ، وهي مدينة كبيرة طيبة مذكورة لأنها قصبة الناحية وفرضة صنعاء وصعدة ، بها سوق حسن وجامع عامر يحمل اليهم الماء من بعد ٠٠٠ » (٢٥) ويبدو أن المقدسي يمتاز بدقة المشاهدة والأمانة في الكلمة بدليل ما ذكره عن بلاد السراة عندما قال : - لا أدري هي مدن أم قرى لأنني ما دخلتها .

وفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري يبرز أحد الرحالة الكبار ممن ذاع صيتهم ، وهو ناصر خسرو الفارسي الذي حج أربع مرات فيما بين ٤٣٨-٤٤١ هـ ، ثم كتب رحلته المعروفة بـ (رحلة ناصر خسرو) فذكر فيها بعض المعلومات عن بلاد تهامة والسراة ، نقلا من بعض الرواة ، لأنه لم يغادر مكة المكرمة والطائف صوب الجنوب ، فقال عنها « اذا غادرت مكة وسرت جنوبا ، وصلت بعد مرحلة واحدة اليمن ،

وجل السواحل الواقعة على الساحل الجنوبي هي من أرض اليمن . وأرض الحجاز وأرض اليمن متصلتان ، وأهل الحجاز واليمن لسانهم العربية ، وتسمى أرض اليمن حمير ، وأرض الحجاز أرض العرب » ثم يقول في مكان آخر : « وأرض العرب تمتد من الكوفة الى مكة ، أما من مكة الى عدن فيسمى أرض حمير » (٢٦) .

وفي إشارة أخرى مما دونه ناصر خسرو عن هذه البلاد ، ذكر أن أرض حمير تنقسم الى ثلاثة أقسام ، القسم الأول : تهامة ويتضمن ساحل بحر القلزم ، ويقع هذا الجزء في الناحية الغربية من أرض حمير . والقسم الثاني من تهامة سماه نجدا ، ويذكر أن بهذا الجزء مناطق شديدة البرودة ، ومضائق جبلية ، وحصونا محكمة . أما القسم الثالث من تهامة ، فعلى حد قوله ، يقع الى الشرق من الجزئين الأولين ، ثم يذكر بعض حواضر ذلك الجزء مثل نجران وبيشة ، بل ويذكر أن بهذا الجزء قرى كثيرة ، وبوادي شاسعة ، كما أن في كل بادية حاكما مستبدا لا يخضع لأية سلطة مركزية . ثم يشير الى أن مساحة هذا الجزء من تهامة مائتا فرسخ طولا في مائة وخمسين فرسخا عرضا ، ثم يقول « ويكثر السكان في هذا الجزء الشرقي من تهامة » (٢٧) .

أما قول ناصر خسرو «اليمن وموقعها» فلعله يقصد حدودها من جهة الشمال على بعد مرحلة واحدة من مكة المكرمة صوب الجنوب . ومسمى اليمن مثار نقطة خلافية عند الجغرافيين والرحالة ، حيث يرى غير ناصر خسرو أن المقصود باليمن اليمن السعيد الذي يعود بأسمه الى كثرة انتاجه ، وهو يضم الحواضر الكبرى في اليمن ، كصنعاء ، وصعدة ، وزبيدة وغيرها . هذا في حين قال بعض الجغرافيين أن كل ما يقع جنوب الكعبة فهو يمتن . ولكن الرحالة ناصر خسرو لم يقف عند حد القول بهذا القول فقط ، وإنما أردف تسمية أخرى لليمن زيادة في الايضاح ، فسمى كل ما يقع جنوبي مكة ببلاد حمير ، وسمى أرض الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) بأرض العرب ، وهذا رأى لا تتفق معه فيه ، لأن حمير جزء من العرب ، ثم ان في عهده بعض قبائل حمير كانت تقطن المناطق الواقعة ما بين صنعاء ونجران وربما الى بيشة . أما غالبية المنطقة

الممتدة من مكة المكرمة والطائف شمالا وحتى جازان ونجران وصعدة جنوبا فمعظم سكانها من القبائل العربية الازدية المختلفة فى البطون والعشائر ، الى جانب قبائل عربية مضرية نزحت من المراكز والمناطق الواقعة فى شمال الجزيرة العربية ووسطها والممتدة الى جنوبها .

أما أرض حمير ، فى رأى ناصر خسرو ، فتقسم الى ثلاثة أقسام ، وهذه الأقسام الثلاثة هى المسماه عنده بتهامة . وحقيقة القول ، ان اسم تهامة لا يشمل الا الجزء الاول ، أما القسمان الآخران فهما من بلاد السراة ، وبخاصة الثانى . أما الثالث فهو منطقة النجود والبوادى الواقعة فى الأجزاء الشرقية من بلاد السراة . وأشار خسرو الى كثرة القرى بالأجزاء الشرقية ، وإلى استبداد شيوخ القبائل فى ذلك الجزء وهو بذلك يؤيد ما أشار إليه ابن الجاور فى أوائل القرن السابع الهجرى .

ويشير بعض الجغرافيين الى الحياة الاجتماعية عند بعض السروية أو التهامية فيذكر ابن الجاور عن لباس النساء فى بلدتى السرين وخلقى وما حولهما ، فيقول « ليس يلبس نساؤهم الا الأدم ، وذلك ان المرأة تأخذ طاقنتين من قديم تخطط بعضه الى بعض ثم تلبسه » (٢٨) ويتكلم فى مكان آخر عن نساء الأجزاء التهامية الساحلية ، فيشير الى أن مصاغهم (النحاس) والرصاص ، وجواهرهم الودع (٢٩) ، بل ان المرأة تطيل شعرها ، وتدهنه بالدهن ، وتغسله بالسدر ، فاذا طال صفيرته الى صفيرتين طويلتين (٣٠) . وكثرة الجلود ودباغتها فى كل من صعدة ونجران وجرش ، كانت تستخدم لباسا للجسد ، أو غطاء أثناء الليل ، بل وتصنع منها النعل وأدوات أخرى عديدة (٣١) . ومن الألبسة التى كان يلبسها أهل تهامة والسراة بعض الملاحف ، والأقنعة ، والجباب والبرد التى كانوا يجلبونها من الأسواق الكبيرة فى حواضر الحجاز واليمن (٣٢) ، كما يلبس الرجال والنساء البسة سميكة خاصة فى الحواضر الجبلية ذات المناخ البارد ، حيث يؤتى بهذه الألبسة من عدن أو من بعض المراكز الحضارية فى بلاد مصر أو الشام أو بلاد فارس والعراق .

ويذكر ابن المجاور بعض العادات التي كانت جارية بين أهل تهامة والسراة ، حيث كان الرجال يخضبون أيديهم وأرجلهم مثل النساء في مناسبات الأعياد والزواج وغيرها (٣٣) . كما ذكر عن السرويين بعض العادات في الجنائز فقال : « وأهل السراة يرثون البنت عند الموت ... وللقوم عصبية عظيمة إذا مات أحد لا يحمل جنازته إلا الشبان ، ومع ذلك يقولون : سلم سلمك الله هذا ما وعد الله نعم القاضي ! وهم يتداولون بالنعش الى المقبرة ، وهم الذين يخفرون القبر ... » (٣٤) ومن أطعمتهم اللحم ، والسمن ، والخبز ، ومن أكثر الأسماء شيوعا بينهم سالم ، وغانم ، وقاسم ، ومفرج ، ومفرح ، وراشد وناجي ، وجابر ، ولاحق وصابر ، وسعيد ، ومساعد ، وظافر ، وفاتك ، ومالك ، وغيرها أسماء كثيرة (٣٥) . ومن حسن اهتمامهم بالضيف أنه إذا أطمع لص أو قاتل ، زاد صاحب البيت ، فانه لا يقتل الا بعد خروجه من البيت ، ويكون ذلك بعد مدة من الزمن حتى ينتهى مفعول الزاد الذى أكله (٣٦) . ويشير ابن المجاور الى بعض عادات السرويين فى الكرم ، خاصة مما تغلب عليهم البداوة ، حيث يؤخرون الغداء أو العشاء من أجل ضيف يقدم عليهم ، فان حصل ذلك ، ينحر له على قدر مكانته ، فقد ينحر له جمل ، ويقدم له رأس الجمل ، وان كان غابر سبيل يذبح له شاه ، ويكسر صاحب الدار الرغيف الى ثلاث أو أربع كسرات يضعهن أمام الضيف تكريما له ، ثم يقدم له اللحم المطبوخ بعد أن يثرد عليه الخبز ، ويهرق عليه السمن أو المرق ، فيشرب بادىء الأمر المشروب ، ثم يوزع اللحم على الثريد ، وقد يطلق ، أحيانا ، على هذا الصنف من الطعام اسم العربية (٣٧) . ومن عادات السرويين أيضا أن يكون فى مخزنهم صنفان من الحبوب ، ذرة وقمح ، يقدم خبز القمح للضيف ، وخبز الذرة للأسرة ، وهذا السلوك ينم عن ايثار الضيف وتقديمه على الأهل . وما قصة الرجل الذى ينحر بعيده لضيوفه ، أو يقدم لهم أفضل ما لديه وهو فى حالة الفقر الا دليل واضح على أعلى مراتب الايثار ، وفى هذا يقول الشاعر : -

الجود طبعى ولكن ليس لى مال

وكيف يصنع من بالقوت يحتال

(مجلة المؤرخ العربى)

فهاك خطيب الى أيام ميسرتى دينا على ولى فى الغيب آمال

واشارة ابن المجاور وناصر خسرو الى أن بلاد تهامة والسراة كانت تحكم بشيوخ القبائل المستقلين بسلطتهم فى ديارهم ، قول نوافقهما عليه من حيث المبدأ ، ومن حيث المركز الاجتماعى الذى تحقق لشيوخ القبائل العربية على مر التاريخ قبل الاسلام وبعده (٣٨) ، ولكن فيما عرف فى ظل الدولة الاسلامية ، وبخاصة بعد انتقال الخلافة من الحجاز الى بلاد الشام ثم العراق فى العهدين الأموى ثم العباسى ، ان شبه الجزيرة العربية تحول الى عدة ولايات تابعة لمركز الخلافة ، ومن أكبر ولايات شبه الجزيرة منطقتى الحجاز واليمن ، وبخاصة الأجزاء التى تشمل الحواضر الحجازية واليمينية الكبرى ، وظلت المنطقة الواقعة بين المنطقتين السابقتين ، والتى هى محور دراستنا فى هذا البحث ، تابعة فى أغلب الأحيان لوالى الحجاز ، الذى اتخذ مكة المكرمة أو المدينة المنورة مقرا له (٣٩) . ومن الواضح فى بعض كتب التراث الاسلامى ، وبخاصة كتب الجغرافيا والرحلات ، ان منطقة تهامة والسراة كانت مقسمة الى مناطق أو مراكز حضارية ، أطلق على كل قسم اما مخلاف ، أو عمل وجمعه أعمال أو كورة وجمها كور (٤٠) . فاليعقوبى تحت عنوان سماه (مكة وأعمالها) قام بتعديد أجزاء تابعة من الناحية الادارية الى والى مكة المكرمة ، ومن تلك الأعمال الواقعة الى الجنوب من مكة والطائف ذكر ما يلى فى الأجزاء السروية : « تبالة وأهلها خثعم ، النجران لبنى الحارث بن كعب كانت منازلهم فى الجاهلية ، والسراة وأهلها من الازد (٤١) » . وفى الأجزاء التهامية أشار الى عشم ، وذكر أنها معدن الذهب ، وبيش ، والسرین ، والحسبة ، وعثر ، وكل هذه المناطق تقع على ساحل البحر الأحمر ما بين مكة المكرمة شمالا وجازان جنوبا (٤٢) . وفى موضع آخر ذكر أن لليمن أربعة وثمانين مخلافا ، وأغلبها حول حواضر اليمن الكبرى ، ولكنه أورد بعض الأجزاء التى تقع ضمن نطاق دراستنا ، كجرش فى بلاد السراة ، وبيش ، وقنونا ، وببه ، وضنكان ، والعرش من جازان فى الأجزاء التهامية (٤٣) . ويورد ابن خرداذبة بعض الايضاحات عن مخاليف مكة المكرمة ، فيذكر أن

الطائف ، وعكاظ ، وبيشة ، وتبالة ، وجرش ، والسراة ، ونجران فى
الأجزاء السروية ، وضنكان ، وعشم ، وبيش فى الأجزاء التهامية ،
وجميعها تابعة لامارة مكة المكرمة أو الحجاز بشكل عام (٤٤) . ويخالف
المقدسى اليعقوبى وابن خرداذبة فى بعض ما ذكر حيث يورد أن نجران ،
وجرش ، وتربة ، والسراة فى الأجزاء الجبلية ، وبيش ، وعثر ،
وحلى ، والسرين من مخاليف اليمن (٤٥) . ولكن الادريسي يخالف
المقدسى ويتفق مع اليعقوبى وابن خرداذبة فيقول عن بعض مخاليف
مكة ، وبخاصة الواقعة بين الطائف ونجران « ولما كان مخاليف وهى
الحصون فمنها بنجد الطائف ونجران . . . وتربة وبيشة وجرش والسراة »
ثم يضيف ضنكان ، والسرين ، وعشم ، وبيش فى الأجزاء التهامية (٤٦) .
وفى ضوء هذه الأقوال نستطيع القول أن بلاد تهامة والسراة كانت فى الغالب
تابعة لولاية مكة المكرمة ، بل لقد أثبتت بعض الروايات التاريخية ، أن
والى الحجاز كان فى بعض الأحيان يمنح تعيينا من الخليفة يتضمن
ولايته على الحجاز واليمن معا ، وأحيانا أخرى تضاف له ولاية بلاد
اليمامة الى جانب المنطقتين السابقتين (٤٧) . أما المنطقة التى تقع بين
الحجاز واليمن ، والتى أطلقنا عليها اسم (تهامة والسراة) فيدون
شك كانت تتبع اداريا والى مكة المكرمة من حيث دفع الزكاة الى بيت
مال المسلمين ، وبالتالي الولاء للخلافة الاسلامية . لكن الذى لا شك فيه
هو ما أشار اليه ابن الجاور وناصر خسرو من حيث اضطراب الأمن
وانتشار الفوضى بين أهل هذه البلاد واستفحال القلاقل بين سكانها . بل
أن شيوخ القبائل كانوا أقوى عنصر فى المجتمع فكانوا أصحاب الحل
والعقد ، واليهم تؤول جميع الأمور الخاصة بأبناء مجتمعاتهم ، فضلا
عن العلاقات الخارجية بينهم وبين غيرهم من خارج حدود منطقتهم .

ولم يكن سكان أهل تهامة والسراة منغلقيين على أنفسهم ، بل كان
بعضهم يسافر الى خواصر شبه الجزيرة العربية ، وبخاصة مدن النجى
الكبرى ، فيعملون بالتجارة ، ويؤدون الحج والعمرة ، بل لقد امتلك
بعضهم الدور والعقار (٤٨) . وقد ذكر لنا الجغرافيون والرحالة
المسلمون الأوائل بعض المعلومات القيمة التى تؤكد ذهاب اعداد كبيرة

من السرييين الى مكة المكرمة من أجل أداء الشعائر الدينية ، والمتاجرة فى بعض سلعهم التى يجلبونها معهم من بلادهم الى أسواق مكة أثناء مواسم العمرة فى رجب ورمضان وفى موسم الحج . وأول من شاهدتهم ودون لنا ملاحظاته عنهم فى أسواق مكة المكرمة ، الرحالة الفاسى ناصر خسرو خلال القرن الخامس الهجرى ، حيث أشار الى كثرتهم فى مكة أول رجب من كل سنة ، وفى عيد الفطر ، وفى موسم الحج (٤٩) . وفى القرن السادس الهجرى وبداية القرن السابع زار مكة المكرمة رحالة أندلسى ، هو محمد بن جبير ، فوصف أحوال السرييين الذين يأتون من من بلاد السراة الى مكة المكرمة ومنعهم قوافل الأرزاق ، والفواكه والتمر ، فأبدي سروره وأعجابه بذلك ، ووصف أولئك القوم البسطاء ، حسب ما شاهدتهم ، بالشجاعة ، والنجدة ، والمرؤة (٥٠) . ويؤكد الرحالة ابن الجاور ما أورده كل من ناصر خسرو وابن جبير ، فيشير الى أن السرييين اذا دخلوا مكة المكرمة ملئوها بالحنطة ، والشعير ، والسويق ، والعسل ، والذرة ، والدخن ، والزبيب ، واللوز ، وما يشابه ذلك . ولذلك يقول أهل مكة « حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب ، والسرو أمنا تكسب منه القوت » (٥١) . وعندما زار ابن بطوطة مكة المكرمة فى القرن الثامن للهجرة ، شاهد السرييين فى أسواقها يبيعون ويشترون ، وشاهدتهم يطوفون حول الكعبة يؤدون الحج أو العمرة ، وقد أورد فى رحلته نبذا مما شاهدته فى حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، فقال : « ... ويجلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب واللوز فترخص الأسعار بمكة ، ويرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق . ولولا أهل هذه البلاد - ويقصد أهل السراة - لكان أهل مكة فى شظف من العيش . ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم ، ولم يأتوا بهذه الميرة أجديت بلادهم ، ووقع الموت فى مواشيهم ، ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم ، وظهرت فيهم البركة ونمت أموالهم . فهم اذا حان وقت ميسرتهم وأدركهم كسل عنها ، اجتمعت نساؤهم فأخرجتهم ، وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين . وبلاد السرو مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات ، وأهلها فصحاء الألسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد . وهم اذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها ، متعلقين بأستارها ، داعين بأدعية تتصدع

لقوتها القلوب ، وتدمع العيون الجامدة فترى الناس حولها باسطي أيديهم ، مؤمنين على أدعيتهم ، ولا يمكن غيرهم الطواف معهم ، ولا أستلام الحجر لتزاحمهم على ذلك . وهم شجعان أنجاد ولباسهم الجلود ، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطرق مقدمهم ، وتجنبوا اعتراضهم ، ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم» (٥٢) وليس ابن بطوطة هو الذى أنفرد بهذه الصفحات بل ذكرها بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالة ، فاثنوا على خصوبة تربة السراة وكثرة خيراتها ، وعلى ما تحلى به أهلها من السلوك الجيد والقيم الطيبة (٥٣) . كما أشار الى فصاحة أسنتهم وخلوها من اللحن كل من الهمذاني وابن جبير والقزويني (٥٤) .

وكانت الصلات فيما بين أهل تهامة والسراة وجيرانهم مستمرة ودائمة لوجود الطرق التى تربط حواضر اليمن (صنعاء ، وصعدة ، وزبيدة ، وغيرها) بحواضر الحجاز (مكة المكرمة ، والطائف ، وجدة ، والمدينة المنورة) . ومن الطبيعى أن تلك الطرق الواصلة بين اليمن والحجاز لابد وأن تمر بمحطات ومراكز حضارية فى منطقة تهامة والسراة المعنية فى هذه الدراسة . وبعد البحث فى كتب الرحالة والجغرافيين الأوائل ، وجدنا غالبيتهم تشير الى طريقين أساسيين ، الأول الطريق التى تخرج من مكة المكرمة حتى الطائف ، ثم تأتى عبر الأجزاء الشرقية لبلاد السراة حتى تصل الى صعدة ثم صنعاء ، والثانى يخرج من مكة المكرمة عبر الساحل حتى تصل الى بلد العرش فى جازان ، ثم تواصل السير الى بلدة زبيد فى اليمن . ومن الجغرافيين الذين أشاروا الى هذين الطريقين ، ويخاصة الطريق الجبلية السروية ، ابن خرداذبة (٥٥) ، وقدامة (٥٦) ، والحربى (٥٧) ، واليعقوبى (٥٨) ، والهمذاني (٥٩) ، والمقدسى (٦٠) ، والادريسي (٦١) ، وجميع كتبهم أجمعت على أسماء أغلب المحطات التجارية الهامة الواقعة بين صعدة والطائف فى الأجزاء السروية ، ونوعا ما على المحطات الواقعة على الطريق الساحلى بين مكة المكرمة وجازان (٦٢) ، ولهذا آثرنا الاعتماد على كتاب الهمذاني (صفة جزيرة العرب) لنذكر المحطات على هذين الطريقين مع ارفاق رسم بياني بهما . والسبب الذى جعلنا نعتمد على

الهمداني دون غيره من المصادر التي ذكرنا والتي أشارت الى هذين الطريقين ، هو معرفته القوية ببلاد شبه الجزيرة العربية ، فلقد ولد وعاش أغلب حياته في بلاد اليمن ، ثم أنه سافر عدة مرات من حواضر اليمن الى حواضر الحجاز ، بل وكانت مهنته في شبابه جمالا يذهب مع التجار الذين كانوا يذهبون ويأتون ما بين الحجاز واليمن ، ولهذا لابد أن يكون للجغرافيين والرحالة معرفة بأحوال ومحطات وأطوال الطرق الواصلة بين مدن الحجاز ومدن اليمن والمارة ببلاد تهامة والسراة ، الى جانب أنه الجغرافي الوحيد الذي رسم لنا طول الطريق الجبلي الذي يأتي من صنعاء الى الطائف ثم مكة المكرمة ، فذكر المسافات بين كل مرحلة وأخرى بالأميال ، ومثل هذه الأسباب تجعلنا في عداد المنصفين اذا أعتمدنا على كتابة صفة جزيرة العرب في ذكر محطات هذين الطريقين الواصلين بين الحجاز واليمن ، مع العلم أننا لن ننسى ما ذكره الجغرافيون الآخرون عن رخاء بعض المحطات التي كانت على طول الطريقين .

ويشير الهمداني الى خروج الطريق الجبلي من صنعاء الى صعدة مع ذكر الأطوال بين هاتين المدينتين ، ثم يورد قوله : - « من صعدة الى العرفة اثنان وعشرون ميلا ، ومن العرفة الى المهجرة اثنا عشر ميلا ، ومن المهجرة الى أرينب ثلاثة عشر ميلا ، ومن أرينب الى سروم الفيض أربعة عشر ميلا ، ومن سروم الفيض الى الثجة ستة عشر ميلا ، ومن الثجة الى كتنة عشرون ميلا ، ومن كتنة الى يميم عشرون ميلا ، من يميم الى بنات حرب عشرون ميلا ، ومن بنات حرب الى الجسداء اثنان وعشرون ميلا ، ومن الجسداء الى بيشة احدى وعشرون ، ومن بيشة الى تبالة احدى وعشرون ميلا ، ومن تبالة الى القريحاء اثنان وعشرون ميلا ، ومن القريحاء الى كرى ستة عشر ميلا ، ومن كرى الى تربة الى الصفن اثنان وعشرون ميلا ، ومن الصفن الى الفتق ثلاثة وعشرون ميلا » (٦٣) (انظر الخريطة رقم (١)) .

أما طريق الساحل فلم يشر الهمداني فيه الى المسافات بين المحطات ، وانما ذكر الطريق القادم من مدن اليمن الكبرى حتى بلد



حكم فى جازان ، ثم الى الهجر ، فعثر ، فبيض ، فزنيف ، فضنكان ،
فالمعقد ، فحلى ، فالجو ، فالجوينية ، فنونا ، ثم دوقه ، فالسرين ،
فالمعجر ، فالخيال ، فيلملم ، فملكان ، فمكة المسكرمة (٦٤) () انظر
الخريطة رقم (٢) () .

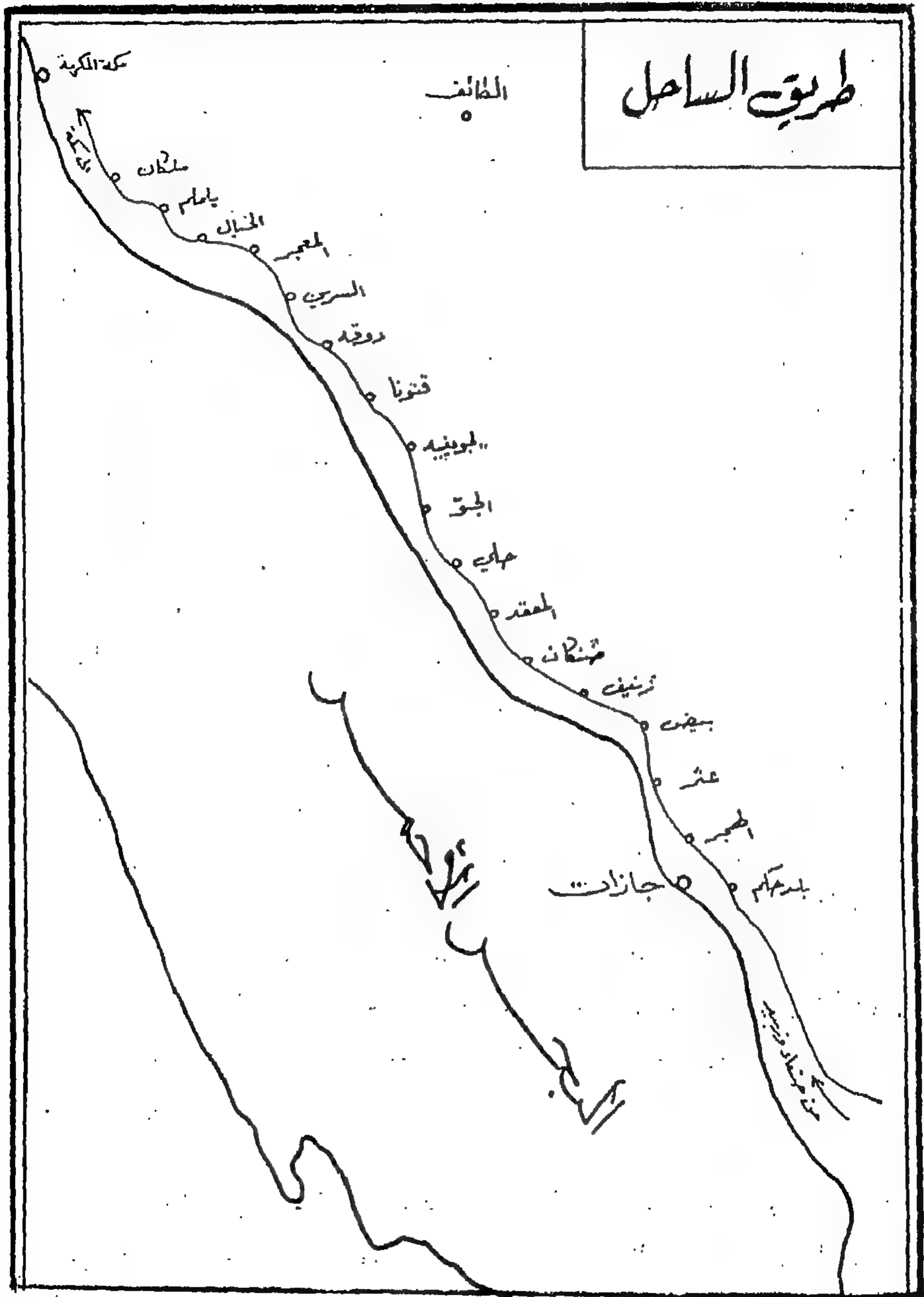
ويتحدث ابن خرداذبة ، وقدامة ، والادريسي عن الطريق السروية
التي تربط بين الطائف شمالا وحواضر اليمن الكبرى جنوبا ، والتي
كانت أنشط الطرق الواصلة بين الحجاز واليمن ، فكانت تستخدمها
الجيوش أثناء ذهابها وإيابها ما بين البلاد الحجازية واليمانية ، بل وكان
يستخدمها التجار وموظفو الدولة ، كالأمراء والقضاة ، والعلماء وجباة
الزكاة وغيرهم . ولهذا فقد أشاروا الى رخاء بعض المحطات التجارية
التي كانت على طول الطريق ، فأبن خرداذبة أشار الى أن الفتق وتربة
قريتان كبيرتان ، أما تبالة وبيشة فذكر أنهما مدينتان كبيرتان بهما من
العيون والنخيل الشيء الكثير وأورد بيت شعر عن بيشة لحميد بن ثور
الهلالى حيث يقول : -

إذا شئت عنتنى بأجزاء بيشة

الى النخل من تثليث أو بيمبما

وواصل حديثه عن الجسداء وبنات حرب ، وسروم راح التي أطلق
عليها الهمدانى سروم الفيض ، والتي تقع الى الشرق بثمانية أميال من
جرش ، فذكر تعدد الآبار بها ، وأشار الى أنها محطات تحتوى على
قرى وسكان من عشائر مختلفة (٦٥) .

ويورد لنا قدامة معلومات أكثر دقة من ابن خرداذبة حيث عدد
الاماكن التي ذكرها الهمدانى ، وأعطى بعض الأوصاف الحضارية لبعض
تلك المحطات فقال « .. ومن الفتق الى تربة ، وهى قرية عظيمة بها
عيون جارية وزروع ، وهى قرية خالصة مولاة المهدي ، ومن تربة الى
صفر ، وهى منزل فيه داران لصاحب البريد فى الصحراء ، وفيه ماء
عذب من بثرين ، ومن صفر الى كرى ، منزل فيه نخل وعين عذبة .



شكل (٢)

وليس الا منزل لصاحب البريد ، ومنزل القوافل ، وهى فى بطن واد كثير النخل ، ومن كرى الى رنية ، منزل فى صحراء ، ونخل وعين عظيمة عذبة ، وال عمران حولها ، ومن رنية الى تبالة قرية عظيمة كثيرة الأهل مضرية لقيس ، وفيها منبر وعيون وآبار ، ومن تبالة الى بيشة ، قرية عظيمة كثيرة الأهل فى بطن الوادى ، ظاهرة الماء من عيون وآبار ، مضرية قيسية ، ومن بيشة الى الجسداء ، قرية عظيمة ، منزل اعراب من قيس ، ومن جسداء الى بنات حرب ، قرية عظيمة فيها منازل كثيرة وزروع ، ومن بنات حرب الى يميم جرش نحو أربعة عشر ميلا ، ومنه الى كئبه قرية عظيمة ، ومنازل وقصور وآبار فى صحراء بينها وبين جرش ثمانية أميال ، ومن كئبه الى الثجه موضع البريد ، وفيه بئر ماء ينزله القوافل ، وهو فى بلاد زييد ، وحوله اعرابهم ، ومن الثجه الى سروم راح ، وهى قرية عظيمة فى صحراء فيها عيون كثيرة الكروم ، فيها فخذ من همدان يقال اهم جنب ، ومن سروم راح الى المهجرة ، وهى قرية عظيمة جبلية كثيرة العيون والأهل ، وفيما بينها وبين سروم راح شجرة تسمى طلحة الملك (٦٦) وهذه الشجرة حد ما بين اليمن والحجاز ، وهى شجرة تشبه شجرة الغرب ٠٠٠ ومن المهجرة الى العرقه وهى أول عمل اليمن ، وهى الى عمل صعدة (٦٧) ويتعرض الأدريسى لنفس الطريق والمحطات التى ذكرها الهمداني ، وابن خرداذبة ، وقدامة ، ويتفق مع قدامة فيما ذكر عن شجرة (طلحة الملك) التى قيل أنها كانت الحد بين الحجاز واليمن ، ويضيف معلومات أكثر عن مدينتى تبالة وبيشة ، فيذكر تبالة وما بها من عيون كثيرة ، ومزارع ، ثم يقول : - « وهى صغيرة فى منخفض اكمة » أما بيشة فهى أيضا مدينة صغيرة متحضرة جيدة المساكن ، حسنة البقعة ، وبها ماء ونخل كثير (٦٨) .

ويلاحظ على ما ذكر الأدريسى وقدامة وغيرهما رخاء بعض المدن التى تقع على قارعة الطريق الواصل بين اليمن والحجاز ، عبر الأجزاء السروية (٦٩) ، مع العلم أن قدامة أوضح لنا نقطة مهمة ، وهى وجود محطات للبريد ، ودور خاصة بالأعمال البريدية . ومما يؤكد قوله أن خلفاء المسلمين الأوائل ، وخاصة الأول من بنى العباس ، نشطوا البريد

الذى كان يربط أجزاء شبه الجزيرة العربية بعاصمتهم فى مدينة بغداد ، فكانوا يأمرهم باصلاح الطرق التى يرتادها بريد الخلافة ، ويزودون عمال البريد بكل ما يحتاجون اليه من زاد ورواحل ، ووسائل بريدية أخرى (٧٠) ، ولهذا فالطرق الجبلية الواصلة بين اليمن والحجاز كانت من أهم الطرق ، بل وفى بعض الأحيان كان يطلق عليها طريق السلطان ، ولذا فلا بد وأنها حظيت ببعض الاصلاحات لأجل استخدامها من قبل جيوش وموظفى الخلافة العباسية فى بغداد (٧١) .

ويلاحظ اختلاف بسيط بين ما ذكره قدامة والهمدانى حيث عدد الأخير المحطات الواقعة فى الأرض السروية القريبة من الطائف ، ومنها الى جهة الجنوب ، فذكر الفتق ثم الصفن ، ثم تربة ثم القريحا ، ثم تبالة الى أن ذكر كتنة ، فالثجة ، ثم سروم الفيض ، واستمر تعداده على باقى المحطات حتى وصل صعدة (انظر الخريطة رقم (١)) . اما قدامة فلم يسلك نفس الترتيب فى ذكر المحطات وإنما ذكر مدينة تربة بعد الفتق ، ثم قال : - « ومن تربة الى صفر » فكلمة صفر هنا ربما أنها صحفت من اسم الصفن الذى ذكره الهمدانى ، والتصحيح كثيرا ما يرد فى كتب التراث اما التقديم والتأخير فى ذكر المحطات فنميل الى قول الهمدانى لنفس الأسباب التى ذكرناها سابقا ، والتى جعلتنا نعتمد على كتابه (صفة جزيرة العرب) . وذكر محطة كثبة عند قدامة وكتنة عند الهمدانى ربما نتج عن قلب التاء ثاء ، وهذا كثيرا ما يحدث عند الكتاب أو النساخ ، وسروم الفيض عند الهمدانى أو سروم راح عند قدامة إنما تعنى منطقة واحدة تقع الى الجنوب من محطة الثجة التى أشار اليها كل من الهمدانى وقدامة . أما الإشارة الى شجرة طلحة الملك بأنها الحد بين اعمال الحجاز واليمن فهذا مما يؤكد أن نفوذ الوالى فى الحجاز كان يمتد جنوبا الى المناطق القريبة من شمالى مدينتى بجران وصعدة .

وبعد الإشارة الى ما سبق ذكره نجد أن الجغرافيين والرحالة المسلمين الأوائل حفظوا لنا بعض المعلومات الحضارية القيمة عن بلاد تهامة والسراة ، ولكن الذى استطعنا الحصول عليه فى هذه الدراسة لا يكاد يفى بالغرض ، فلا زالت أوضاع هذه المناطق المعنية مجهولة ،

مع العلم أنها من أغنى أجزاء شبه الجزيرة العربية بكثافة أشجارها ، وتنوع خيراتها ، وكثرة سكانها ، وصفاء هوائها ، وكثرة أمطارها ، الى غير ذلك من الصفات الملائمة لخلق ظروف مناخية واجتماعية مناسبة للعيش فيها ، وقد يقيض الله من أبناء هذه البلاد ، من يستكمل أو يعثر على مالم نستطع استكمالاه أو العثور عليه ، أو من يصوب ماقد أخطأنا فيه . ورغم أن جهدنا جهد المقل ، الا أننا نرى فيه بداية عمل لبحوث أخرى فى المستقبل ، وكل ما نرجوه التوفيق والسداد ، والله من وراء القصد .

« الضميمة الأولى »

أسماء محطات الطريق الساحلى التى وردت فى أغلب المصادر التى استقيناه منها بحثنا .

الهمداني	اليقوبى	الادريسي	ابن قدامة	ابن خرداذبة
ضنكان	ضنكان	ضنكان	ضنكان	ضنكان
حلى	—	حلى	حلى	حلى
قنونا	قنونا	قنونا	—	قنونا
دوقه	—	دوقه	—	دوقه
—	عليب	عليب	عليب	عليب
—	الليث	—	الليث	الليث
يلملم	يلملم	يلملم	يلملم	يلملم
ملكان	ملكان	ملكان	ملكان	ملكان
مكة	مكة	مكة	مكة	مكة

« الضميمة الثانية »

أسماء محطات الطريق الساحلى التى وردت فى بعض المصادر
دون المصادر الأخرى

ابن خرداذبة	ابن قدامة	الأدريسى	اليعقوبى	الهمدانى
خولان ذى سحيم	خولان ذى سحيم	خولان ذى سحيم	—	—
—	—	—	بيش	—
—	—	بيشة يقظان	—	—
—	بيشة	—	—	—
بيشة بعطان	—	—	ييه	—
ييه	ابن جاوان	الحسبة وتسمى اليوم بالأحسبة	—	—
بيشه ابن جاوان	—	بيشة حازان	—	—
الحسبة (الأحسبة)	—	—	—	—
—	—	—	—	—

« الحواشي والتعليقات »

(١) لمزيد من التفصيل عن بعض الجغرافيين والرحالة المسلمين الأوائل ، انظر .
أحمد رمضان أحمد . الرحلة والرحالة المسلمون (جدة : دار البيان العربى للطباعة
والنشر ، د . ت) ؛ عبد المجيد الدويب « الجغرافيون العرب ودورهم فى التعريف
بالجزيرة العربية » مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الثانى ، الأبحاث المقدمة
للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية فى ٥ - ١٠ جمادى الأولى
١٢٩٧ هـ الموافق ٢٣ - ٢٨ ابريل ١٩٧٧م ، قسم التاريخ كلية الآداب ، جامعة
الرياض ، ص ٢٨٥ - ٢٩٨ .

(٢) ومن المدن التى أشار إليها ابن بطوطة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر،
مدينة حلى ، حيث ذكر من كان يسكنها من القبائل ، بل وأشار الى بعض العلماء
الذين كانوا يسكنونها أثناء مروره بها ، كما تعرض لبعض الجوانب الاجتماعية فى
تلك المدينة ، كذكر بعض الأطعمة التى كان يقات بها السكان ، وبعض الالبسة التى
كانوا يلبسون . انظر أبو عبد الله محمد ابن بطوطة . رحلة ابن بطوطة ، المسماة
تحفة النظائر فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، تحقيق على المنتصر الكتانى ،
(بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ج ١ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ ، وللمزيد
من التفصيل عن مدينة حلى ، انظر ، أحمد بن عمر الزيلعى . « المواقع الاسلامية
المنثرة فى وادى حلى » ، حواشيات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية السابعة ،
الرسالة (٢٩) (١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م) ، ص ١١ - ١٩ .

(٣) ولأهمية مادون الهمدانى عن بلاد السراة ، وبخاصة ما ذكر فى كتابه
(صفة جزيرة العرب) فقد افردنا لذلك بحثا مستقلا حول ما رأى وشاهد ، أثناء
ذهابه وايابه فى تلك البلاد ، وسينشر هذا البحث فى أحد أعداد مجلة الدارة القادمة
(ان شاء الله) .

(٤) للمزيد من التوضيحات ، انظر . عبد الله بن عبد العزيز البكرى . معجم
ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، (بيروت : عالم
الكتب ، ١٣٦٤ هـ / ٢٤٥) مج ١ ، ج ١ ، ص ٦ وما بعدها ؛ شهاب الدين أبو عبد الله
ياقوت الحموى . معجم البلدان (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٤ هـ /
١٩٨٤م) ج ٢ ، ص ٦٣ - ٦٤ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ؛ صالح أحمد العلى « تحديد الحجاز
عند المتقدمين » ، مجلة العرب (١٣٨٨ هـ / ١٩٧٨م) ج ١ ، ص ١ - ٩ ؛ عبد الله
الوهيبي . « الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب » ، مجلة كلية الآداب ، جامعة
الرياض (١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠م) ج ١ ، ص ٥٣ - ٧٠ .

(٥) ياقوت ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٨ - ٢٢٠ ، ج ٣ ، ص ٢١٧ - ٢١٨ ، الوهيبى ، المصدر نفسه .

(٦) انظر مقالتى العلى والوهيبى السابقتى الذكر فى ملاحظة (٤) .
(٧) أبو بكر أحمد بن محمد بن الفقيه . كتاب البلدان ، تحقيق ، أم دى غوى (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤) ص ٣١ - ٣٢ .

(٨) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) زكريا محمد محمود التزوينى . أثار البلاد وأخبار العباد (بيروت : دار بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص ٨٩ : ياقوت ، معجم ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

(١١) شمس الدين أبو عبد الله المقدسى . أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، تحقيق ، أم . دى غوى (ليدن : مطبعة بريل ، ١٨٧٧م) ص ١٠٤ .

(١٢) جمال الدين يوسف بن المجاور . صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المسمى تاريخ المستبصر ، تحقيق ، أو . لو فجرين (ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٥١ - ١٩٥٤م) ج ١ ، ص ٢٦ .

(١٣) المصدر نفسه .

(١٤) يبدو أن وجود المخازن المسماة فى بعض المناطق الاسلامية (بالأمراء) أى صوامع الغلال ، هو المعمار الوحيد المنتشر فى البقاع الاسلامية لهذا الغرض ، لما امتاز به من حسن الموقع حيث يكون على مرتفع ، الى جانب حسن المناخ ، والبعد عن الأماكن الرديئة التهوية ، ولهذا كانت الحبوب تدوم فيها مدة طويلة دون أن يصيبها العطب والفساد . والمتجول فى وقتنا الحالى ، بالمنطقة الواقعة بين نجران والطائف يلاحظ جميع القرى وبها حصون مختلفة الاحجام ، وأغلبها كانت تستخدم لخرن الحبوب المتنوعة لأفراد القرية ، مع العلم أن هذه الحصون فى يومنا هذا ، اصابها الخراب والدمار ، لأنها لم تعد تستخدم ، ولم تجد أيضا من يوليها الاهتمام ويحافظ عليها من الانهيار .

(١٥) لقد عمل أهل السراة بما يمليه العرف القبلى ، فكان شيخ القبيلة من كبار السبن الذين يتمتعون بتجربة واسعة فى الحياة ، وما المثل العربى القائل عن مثل هذه الشخصية « حلب الدهر أشطره » الا بليل واضح على حسن الاختيار .

(١٦) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ج ١ ، ص ٣٧ .

(١٧) ميناء السرين من الموانئ المشيطة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ،

ويقع الى الجنوب من مكة المكرمة بحوالى خمس مراحل . وللمزيد من التفصيل عن هذا الميناء . انظر أحمد عمر الزيلعى . مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ - ٤٨٧ هـ) . (الرياض : عمادة شؤون المكتبات - جامعة الرياض ، ١٩٨١م) ، ص ١٨٤ - ١٨٦ .

(١٨) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٣ .

(١٩) وللمزيد من التوضيح عن مدينة حلى ، انظر . الزيلعى « المواقع الاسلامية المنشرة فى وادى حلى » ص ١١ وما بعدها .

(٢٠) لمزيد من التفصيل عن السلطان طغتكين بن أيوب ، وبخاصة عندما عين سبطانا علي بلاد اليمن في عهد أخيه صلاح الدين الأيوبي عام (٥٧٩ هـ) ، انظر . القاضي عبد الله بن عبد الكريم الجسرافى . المقتطف من تاريخ اليمن (بيروت : منشورات العصر الحديث ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ص ١٢٩ - ١٣١ ؛ محمود كامل . اليمن شماله وجنوبه ، تاريخه وعلاقاته الدولية (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٨م) ص ١٨٠ - ١٨٤ .

(٢١) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢٢) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٨٦ .

(٢٣) المصدر نفسه .

(٢٤) المصدر نفسه .

(٢٥) المصدر نفسه .

(٢٦) انظر . أبو معين الدين ناصر خسرو . سفرنامه (رحلة ناصر خسرو) ترجمه من الفارسية وحققه ، أحمد خالد البدلى (الرياض : عمادة شؤون المكتبات - جامعة الملك سعود ، ١٩٨٣م) ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٢٧) المصدر نفسه .

(٢٨) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٢ .

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٣١) انظر : المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٨٧ ؛ الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني . نصفة جزيرة العرب ، تحقيق ، محمد بن على الأكوخ الحوالى (الرياض : دار اليمامة لبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ٢٦٠ .

(٣٢) أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقى . أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدى ملخص ، ط ٤ ، (مكة المكرمة : مطابع دار الثقافة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ج ٢ ، ص ٢٢٩ : ناصر خسرو ، الرحلة ، ص ١٣٦ : ابن الجاور ، المصدر السابق . ج ١ . ص ٥ - ٦ .

(٣٣) ابن الجاور ، ج ١ ، ص ٧ ، ومثل هذه العادة لازالت مألوفة بين بعض السكان فى الأجزاء التهامية والسروية ، وبخاصة عند كبار السن من الرجال .

(٣٤) ابن الجاور . ج ١ ، ص ٢٥ . وهذه العادة أيضا لازالت تمارس عند بعض الاسر والعشائر والأقحاذ الساكنة فى البلاد السروية والتهامية على وجه العموم .

(٣٥) ابن الجاور ، ج ١ ، ص ٦ . ومن يتجول فى بلاد السراة أو تهامة فى وقتنا الحالى يجد أسماء لكثير من الأسر ، وبخاصة أجدادهم الأوائل ، وسيجدها على منوال ما ذكر ابن الجاور ، بل ويجد أسماء مستمدة من أسماء الطبيعة ، كحجر ، وفارس ، وعصفور ، وريحان وغيرها من أسماء الرجال ، أما أسماء النساء فمنها ريحانة ، وعصفورة ، وعفارة ، وضرة وغطرة وغيرها من الأسماء . ويا حبذا ان يتصدى أحد الباحثين فى المنطقة لبثل هذه الأسماء وغيرها فيدرسها مع تتبع جذورها من العهود القديمة ، ثم أيضا يدرس علاقتها بالسكان والبيئات التى تستخدمها .

(٣٦) ابن الجاور ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

(٣٧) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ، ولازال الكرم صفة حميدة بين أهالى بلاد تهامة والسراة الى وقتنا الحالى .

(٣٨) للمزيد من التفصيل عن شيخ القبييلة ودوره فى المجتمع منذ العصر الجاهلى ، انظر . جواد على . الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٠م) ج ٤ ، ص ٥ - ٢٧١ ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ - ٣٣٣ .

(٣٩) للمزيد من التوضيح عن ولاية الحجاز وكيف كان بعضهم يعين من قبل الخليفة الأموى أو العباسى فى كل من اليمامة والحجاز واليمن ، وأحيانا بلاد البحرين ، انظر . تقى الدين محمد الفاسى . شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، تحقيق لجنة من كبار العلماء ، (بيروت : دار الكتب العلمية د . ت) ج ٢ ، ص ١٦٢ وما بعدها ، انظر أيضا :

G.A. Jrais

"The Governorship in the Hijaz During the Early Abbasid Period.

Ages (مجلة العصور) Vol. (7) January, 1992.

(مجلة المؤرخ العربى)

(٤٠) والكورة ، أو المخلاف ، أو العمل جمع أعمال ، تساوى ما يسمى اليوم بالمحافظة ، أو الامارة ، وكانت ولا زالت تسمى فى المغرب بـ (الحوز) وفى الجزائر بـ (العمالة) .

(٤١) أحمد بن يعقوب اليعقوبى . كتاب البلدان ، تحقيق ، أم . دى غوى (ليدن : مطبعة برييل ، ، ١٢٨٩٢م) ص ٣١٦ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٣١٦ ، ٣١٨ .

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٤٤) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن جرداذبة . كتاب المسالك والممالك ، تحقيق ، أم . دى غوى (ليدن : مطبعة برييل ، ١٢٠٦هـ / ١٨٨٩م) ص ١٣٣ .

(٤٥) المقدسى ، احسن التقاسيم ، ص ٦٩ - ٧٠ ، ٨٨ .

(٤٦) محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسى . كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٤٧) انظر ، الفاسى ، شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ١٦٢ وما بعدها .

(٤٨) ولزيد من التفاصيل عن اتصال أهل تهامة والسراة بأسواق مكة ، انظر . الأزرقى ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠ ؛ محمد بن أحمد بن جبير . رحلة ابن جبير (بيروت : دار الكتب - دت) ص ١٠٢ وما بعدها .

(٤٩) ناصر خاسرو ، الرحلة ، ص ١٣٦ .

(٥٠) ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ١٠٢ - ١٠٥ .

(٥١) ابن الجاور ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(٥٢) انظر ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

(٥٣) للمزيد من التفاصيل عن توافر الحبوب والخيرات فى بلاد تهامة والسراة . انظر : عرام بن الأصبح السلمى : كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها ، تحقيق ، عبد السلام هارون (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م) ص ٤١٧ ، ٤٢٠ - ٤٢١ ؛ القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٨٩ ؛ ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٠٤ ؛ ياقوت ، معجم ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن الجاور ، ج ١ ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٥٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ، ابن جبير الرحلة ، ص ١٠٤ ؛ القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٨٩ .

- (٥٥) المسالك والممالك ، ص ١٣٤ - ١٣٦ ، ١٤٨ - ١٤٩ .
- (٥٦) أبو الفرج قدامة : نبد من كتاب الخراج ، ضمن كتاب المسالك والممالك لابن خردادبة ، تحقيق ، أم . دى غوى (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩ م) ص ١٨٨ - ١٨٩ ، ١٩٢ - ١٩٣ .
- (٥٧) أبو اسحاق الحريى . كتاب « المناسك » وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، تحقيق حمد الجاسر . (الرياض : دار اليمامة لبحث والترجمة والنشر ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م) .
- (٥٨) البلدان ، ص ٣١٧ .
- (٥٩) صفة جزيرة العرب . ص ٣٣٩ - ٣٤١ .
- (٦٠) احسن التقاسيم ، ص ١١١ - ١١٢ .
- (٦١) نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ١٤٥ - ١٤٨ .
- (٦٢) أجمعت المصادر على ذكر أغلب المحطات التى تقع على الطريق الجبلى السروى ، أما الطريق الساحلى فقد ذكرته بعض المصادر ، لكن ظهر بعض الاختلاف فى ذكر أسماء بعض المحطات على تلك الطريق ، ولهذا الأمر الحقنا بالبحث ضميمتين ، الاولى تبين أغلب أسماء المحطات التى وردت فى المصادر التى استقيناه منها بحثنا حول هذا الطريق ، والثانية تبين أسماء المحطات التى وردت فى بعض المصادر دون المصادر الأخرى .
- (٦٣) الهمدانى : المصدر السابق ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .
- (٦٤) المصدر نفسه ، ص ٣٤١ .
- (٦٥) ابن خردادبة ، المسالك ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .
- (٦٦) وطلحة الملك لازالت الى يومنا هذا تعرف باسم قرية طلحة ، وتقع فى الاجزاء الشرقية من ظهران الجنوب فى بلاد قحطان ، والى الشمال من مدينة نجران .
- (٦٧) قدامة ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .
- (٦٨) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .
- (٦٩) وقد يعود رخاء هذه المدن الى موقعها التجارى ، وكثرة القادمين اليها ، لبيع سلعهم ، أو لشراء سلع منها ، أو للمبيت فيها ، والانفاق طيلة اقامتهم بها . وبعض هذه المحطات مثل (بيشة ، ورنبة ، وتربة ، وغيرها) مازالت الى يومنا هذا تؤدي خدماتها للمارة بها ، وكلما تحسنت خدماتها ، كلما أدى الأمر الى ازدهارها .

(٧٠) للمزيد من التفصيل عن أحوال البريد خلال العصر العباسي وما جرى عليه من اصلاحات ، انظر • حسن ابراهيم حسن • تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤م) ج ٢ ، ص ٢٦٨ - ٢٧١ •

(٧١) والأمر الذي يجعلنا نجزم بأن تلك الطريق حظيت ببعض الاصلاحات ، وبخاصة ، خلال العصور العباسية الأولى ، هو ما بذله خلفاء بني العباس الأوائل في اصلاحات بعض الطرق الأخرى ، كطريق العراق الحجاز ، أو طريق العراق الشام الحجاز أو غيرها ، ثم ان بلاد اليمن كانت من الاجزاء المهمة لدى خلفاء بني العباس الاول لتكون تحت حوزتهم فكانوا يرسلون اليها الولاة وغيرهم من موظفي الدولة ، بل ويسعون الى قمع أى ثورة تظهر فيها ، وربما نتج ذلك الاهتمام عن حرصهم على ضم شمل دولتهم ، بل وعن معرفتهم بغنى أرض بلاد اليمن وما بها من خيرات قد تعود زكاتها وجبايتها الى بيت مال المسلمين فى بغداد •

كناش الكشكرى : وثيقة مهمة عن التطبيب العملى فى بعض بيمارستانات بغداد فى القرنين الثالث والرابع الهجريين

بقلم
دكتور مريزن سعيد مريزن عسيرى(*)

المقدمة :

حفل تاريخ الفكر الاسلامى بالعديد من المبدعين الذين وضعوا
الأسس الأولى للعلوم الحديثة ، وكان لمساهماتهم أكبر الأثر فى تطور هذه
العلوم ، حتى وصلت الى المستوى الذى تمكنت بواسطته الحضارة
الاسلامية من افادة مجتمعتها والمجتمع الانسانى بنتاج فكرها ، واضحى
ذلك التطور العلمى من أهم ما يميز الحضارة الاسلامية بين حضارات
العالم .

والطب كان واحداً من تلك العلوم ، الا أنه حظى طوال العصور
الاسلامية بمكانة عالية بين سائر العلوم التطبيقية ، كما حظى الأطباء
الحقيقيون بمكانة مرموقة بين كافة الأوساط الاجتماعية لم يرق اليها
الا القليل من العلماء .

والدراسات الحديثة المعنية تظهر لنا كل يوم الجديد فيما يخص
الدراسات الطبية عند المسلمين ، مما يشير الى الكثير من الاكتشافات
والحقائق الطبية التى توصلوا اليها وسبقوا بها الغرب قبل قرون عديدة .

وفى ظل اهتمامى بدراسة تاريخ العلوم الاسلامية لا سيما علم
الطب ، اطلعت على كتاب طبى مخطوط بنسخة فريدة معنون

(*) استاذ مشارك بقسم الحضارة والنظم الاسلامية بجامعة أم القرى بمكة
المكرمة .

بـ « الكناش فى الطب » لمؤلفه يعقوب الكشكرى من رجال القرن الثالث والرابع الهجريين ، ولاحظت أن هذا الكتاب الطبى يتميز عن الكثير من الكنائش الطبية للأطباء المسلمين باحتوائه على مادة علمية غزيرة فيما يخص التطبيب العملى ، والتجارب الطبية المختلفة ، والمجريات الدوائية العديدة التى قام بها المؤلف أو شاهدها من زملاء المهنة فى بیمارستانات بغداد بشكل خاص ، وفى بعض مدن العراق الأخرى كحالات فردية ، فقد وصف لنا الكثير من المعالجات ، وأعطانا صورة واضحة عن الحالات المرضية الموجودة فى أيامه ، وكيف كانت تتم المعالجة لكل حالة على حدة ، ذكراً أسماء تلك الحالات ، وبعض أسماء أصحابها ، وكيف تعامل معها ، وكيف تمت المعالجة ، وكيف كانت النتيجة .

كما عرض لنا المؤلف دراساته وتجاربه الطبية بكافة أنواعها فى بیمارستانات الثلاثة ، ومع بعض الشخصيات المشهورة آنذاك ، لا سيما أولئك الذين تربطه بهم رابطة الصداقة ، حتى أنه أصبح ملازماً لبعضهم ومشرفاً على معالجتهم وتطبيبهم .

والمتتبع لدراساته وتجاربه تلك يدرك أن يعقوب الكشكرى كان واحداً من الأطباء المهرة المتمرسين فى عصره علماً وعملاً وتجربة ، فقد كان موفقاً فى معالجاته الى حد بعيد ، وأوصلته تجاربه العملية الى نتائج علاجية كانت تفوق توقعاته .

ولقد قسمت الدراسة الى قسمين :

خصصت القسم الأول لتحقيق شخصية المؤلف ، حياته ، عصره ، وثقافته .

وأفردت القسم الثانى للحديث عن كتابه الكناش ، أهميته ومصادره المختلفة ، والحققت بهذا القسم دراسة عامة لأهم تجاربه ودراساته وأعماله الطبية فى بیمارستانات بغداد ، ومع تلك الشخصيات المشهورة التى عاصرها فى زمنه .

أرجو أن تكون هذه الدراسة قد أسهمت بإضافة جيدة لتاريخ العلوم عند المسلمين ، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

القسم الأول

التعريف بالكشكرى : حياته ، عصره ، ثقافته ، ومصنفاته .

حياته وتحقيق شخصيته :

على الرغم أن كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة يعتبر مصدراً أولياً وجامعاً للكثير من مشاهير الطب فى تاريخ الاسلام ، الا أنه يبدو من خلال نظرنا فى بعض الكتب الطبية الأخرى أنه صب اهتمامه أو اقتصر على ذكر أولئك الأطباء الذين اشتهروا شهرة واسعة واقتترنت شهرتهم بمؤلفاتهم الطبية التى لقيت انتشاراً بين الناس ، أما تلك الفئة الأخرى من أطباء المحققين الذين اشتهروا بأعمالهم الطبية ومعالجتهم فى الميدان العملى سواء أولئك الذين كانوا يطببون الناس فى منازلهم أو أولئك الذين اشتهروا بمداواتهم فى بیمارستانات المنتشرة فى المشرق والمغرب ، ولم يكن لهم مصنفات تنشر أسماءهم بين الناس ، هذه الفئة من الأطباء العمليين المهرة لم نجد لها ذلك الاهتمام فى كتابه « عيون الأنباء » .

ولعل سبب ذلك يعود الى المنهج الدقيق الذى انتهجه ابن أبى أصيبعة فى كتابه ، اذ أنه كان يهدف الى الوصول الى أدق المعلومات وأصدقها فى ترجمة لأعلام الأطباء ، فنلاحظ غالباً أنه كان يربط فى تحقيق شخصيات كتابه بالاعتماد على مصنفاتهم الطبية ومدى شهرتها بين الناس ، فى سبيل الكشف عن مدى انتمائهم لمهنة الطب ، واعطاء أفضل المعلومات عن حياتهم .

انه بالقاء نظرة سريعة على كتاب « الكناش » للكشكرى ، يعطينا صورة واضحة للكثير من أسماء الأطباء الحذاق الذين كانوا يعملون فى بیمارستانات بغداد ومدن العراق الأخرى ولم تجد تلك الأسماء طريقاً الى كتاب ابن أبى أصيبعة (١) .

والكشكرى كان واحداً من مهرة الأطباء العمليين المغمورين ، والذى

قضى شطراً كبيراً من حياته فى المعالجة والتطبيب ، وتقلب بين
بیمارستانات بغداد الشهيرة مثل : « مارستان صاعد رحمه الله (٢) »
ومارستان بدر رحمه الله (٣) ، ومارستان السيدة أم أمير المؤمنين
المقتدر (٤) أعزهما الله « (٥) ، كما أنه خدم عدداً من الخلفاء الى جانب
مجموعة من الأطباء (٦) أمثال : « جابر المتطبب الذى كان فى دار
الخلافة ، وكان تلميذ حبیش ، وكان يدخل الى المعتصم مع حبیش
الأعسم » (٧) ، واشتهر حتى أنس بمعالجته وتطبيبه الوزراء والقواد ،
أمثال الوزير القاريطى (٨) فقد كان هذا الوزير يعتمد عليه فى المداواة
الى حد بعيد (٩) ، ومن الكبراء أشرافه على معالجة أبى الفوارس ياقوت ،
اذ تدل النصوص المتكررة على أنه لازمه مدة طويلة (١٠) ، وأبى على
عمر بن يحيى العلوى (١١) ، والقشورى (١٢) ، وأمثالهم .

وبتتبع كتاب ابن أبى أصيبعة نجده لا يذكر ما يشير الى شخصية
الكشكرى ولم ينبه الى أية معلومات تكشف لنا شخصيته وحياته ومولده ،
وأين عاش ، سوى أنه أعطى إشارة سريعة فى ترجمته لسهل الكوسج
الطبيب وذكر أنه كان من أقرانه عدد من الأطباء من بينهم « يعقوب
صاحب البیمارستان (١٣) ولا نعلم حقيقة هل قصد به مؤلفنا أم لا ، لأن
الفترة التى عاش فيها هؤلاء الأطباء جميعاً كانت الى حدود السنة
٢٥٠هـ / ٨٦٤م ، والدلائل تشير الى أن يعقوب الكشكرى اشتهر وبرز فى
نهاية القرن الثالث وشطراً كبيراً من القرن الرابع الهجرى .

كما أننا لا نستطيع أن نقطع باليقين فى كشف شخصيته بما أشار
اليه ابن أبى أصيبعة فى ترجمته لأبى الحسين بن كشكرايا والذى اثنى
عليه بأنه : كان طبيباً عالماً مشهوراً بالفضل والاتقان لصناعة الطب
وجودة المزاولة لأعمالها « (١٤) .

وإذا اعتبرنا المعلومات التى أوردتها ابن أبى أصيبعة عن أبى
الحسين بن كشكرايا ، وقارناها بتلك المعلومات التى أوردتها يعقوب
الكشكرى فى كتابه الكناش لوجدنا هناك تقارباً وتجانساً بين الشخصيتين
الى حد ليس بالقليل ونستطيع أن نجمل تلك القرائن فى النقاط التالية .

★ أن الاثنين عاشا تقريبا في فترة واحدة نستطيع تحديدها بشكل نسبي منذ نهاية القرن الثالث الهجري وحتى نهاية القرن الرابع الهجري .

★ يلاحظ أن ابن كشرايا تلقى تعليمه على يد سنان بن ثابت بن قرة (١٥) ، كما أن الكشكري تلقى تعليمه على يد ثابت بن قرة (١٦) والد سنان ، والزيادة والتصحيح والسقط ، والخطأ والنسيان وارد بشكل أو آخر على يد النساخين كما هو معلوم .

★ يذكر ابن أبي أصيبعة أن ابن كشرايا كان : « له حقنه تنفع من قيام الأغراس والمواد الحادة ، ويعرف بصاحب الحقنة » (١٧) ، ويعقوب الكشكري يذكر أنه كان له دربة جيدة بالعمل « بالزراعة - المحقنة (١٨) وقد عالجت أنا بهذه الصفة لمن تقوم له المدة (١٩) في المقعدة في أول المعال المستقيما » (٢٠) .

★ يذكر ابن أبي أصيبعة أن لابن كشرايا من التصانيف : كناشة المعروف بالحاوي ، وكناش آخر باسم من وضعه اليه (٢١) ، وما هو معروف ليعقوب الكشكري من المصنفات كتابه الأقرباذين (٢٢) أشار اليه في كتابه هذا المعروف بالكناش (٢٣) .

ومما يلفت النظر في كناش يعقوب الكشكري أنه كتب في أول ورقة فيه تصحيحاً « كتاب كناش بن سرافيون » كما يوجد بعد ذلك قوله : « الباب الأول من هذا الكتاب في تولد الشعر في سائر البدن من كناش ابن سرافيون الكبير » (٢٤) ، والسؤال المراد طرحه هنا هل أن ابن أبي أصيبعة كان يقصد هذا الكناش عندما قال في حق ابن كشرايا : بأن له كناش آخر باسم من وضعه اليه (٢٥) ، فمن المحتمل جداً أن يكون ابن أبي أصيبعة قد اطلع على هذه النسخة الفريدة أو نسخة منقولة عنها وهي كناش الكشكري لا سيما وأن تاريخ نسخها هو سنة ٥٩٧هـ / ١١٧١م والمعروف أن ابن أبي أصيبعة توفي سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م .

ولعله من أقوى القرائن التي توجي بتقارب الشخصيتين ، أن ابن

أبى أصيبعة ذكر أن أبا الحسين بن كشكرايا كان فى خدمة الأمير سيف الدولة بن حمدان ت ٢٥٦هـ / ٩٦٦م ثم انتقل بعد ذلك الى بغداد (٢٦) ، ونجد أن يعقوب الكشكرى يقول : انه عالج جارية محمد بن على بن مقاتل (٢٧) ، وابن مقاتل هذا كان أحد قواد الدولة الحمدانية بالموصل (٢٨) .

فما أشرنا اليه آنفاً اضافة الى القرائن السابقة ، تلقى أضواء جيدة بصورة أو بأخرى تجعل الشك يقرب الى اليقين أن ابن كشكرايا ويعقوب الكشكرى اسمين لشخصية واحدة بدأ حياته الطبية فى الموصل ، أو واسط اللتين سيطر عليهما الحمدانيون آنذاك ، ثم انتقل الى بغداد وهناك اشتهر وبدأ دوراً جديداً فى حياته .

ويبدو أنه من المؤكد أن يعقوب الكشكرى عاش فى الفترة الواقعة بين سنتى ٢٧٠هـ / ٨٨٣م و ٣٧٠هـ / ٩٨٠م ويظهر ذلك واضحاً من خلال كتابه الكناش ، إذ أنه ذكر فيه أحداثاً وقعت له فى هذه الفترة وذلك من خلال عمله فى بیمارستان صاعد ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م ، وبیمارستان السيدة والدة الخليفة المقتدر ت ٣٢١هـ / ٩٩٣م وبیمارستان بدر غلام المعتضد ت ٢٨٩هـ / ٩٠١م ، هذا بالاضافة الى ذكره للعديد من أعلام الفترة الذين كان يعالجههم أو تربطه بهم رابطة الصداقة أمثال شفيح (٢٩) ، ومحمد ابن أحمد القراريطى الوزير ت ٣٢٩هـ / ٩٤٠م ، وأبى الفوارس ياقوت المدبر (٣٠) الذى يبدو أنه لازمه فترة طويلة للمعالجة والتطبيب حتى أثناء حروبه فى الكوفة (٣١) ، وأبى عبد الله البريدى (٣٢) ، وأحمد ابن نصر القشورى حاجب الخليفة المقتدر (٣٣) ، وابن مقاتل ، كما ذكر لنا يعقوب الكشكرى فى كتابه هذا العديد من أسماء الأطباء الذين كانوا يعملون معه فى بیمارستانات بغداد ، وكان بالامكان الاستفادة منها بشكل كبير لتحديد ولادة أو وفاة الكشكرى أو على الأقل تحديد فترة حياته بدقة أكثر ، الا أن المصادر المهمة بتراجم الأطباء لم تعطنا معلومات كافية عن أولئك الأطباء ، ولم تذكر على الأقل سنة ولادة أو وفاة واحد منهم ، هذا بالاضافة الى أن الكشكرى لم يعطنا أسماءهم كاملة مما سيعين على كشف شخصياتهم وحياتهم ، بل نجده يكتفى أحياناً بذكر الاسم فقط مثل

حارث (٣٤) حسن (٣٥) جابر المتطبيب (٣٦) سليمان الجرائحي (٣٧) ،
ان هذه أسماء وأمثالها كثير لم نضعها المصادر باعطاء أى معلومات
عنهم البتة .

أما بالنسبة لسنة ولادة يعقوب الكشكري فلا نستطيع تحديدها بسنة
معينة الا أنه اخبرنا أنه تلقى تعليمه على يد الطبيب الماهر ثابت بن قرة
المتوفى سنة ٢٨٨هـ / ٩٠٠م ، وبمقارنة هذا التاريخ مع تواريخ وفيات من
عصرهم من المشاهير ، تفيد أن يعقوب درس على يد ثابت وهو لازال
يافعا فى أول حياته ، ويبدو أن ذلك كان فى أواخر سنى ثابت بن قرة ،
مما يعطينا يقينا أن يعقوب الكشكري ولد بعد أو قبل سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م
بسنوات قليلة .

ثقافته ومصنفاته :

مما سبق ظهر لنا أن يعقوب الكشكري عاش خلال الربع الأخير من
القرن الثالث الهجرى وحتى ما بعد منتصف القرن الرابع الهجرى وكانت
من فترات العصر العباسى الثانى التى شهدت سيطرة العناصر الأجنبية ،
وضعف الخلافة ، وتدهور الأوضاع السياسية الذى أعطى الفرصة للكثير
من الطامعين كالقواد الأتراك الذين سيطروا على الأمور بعد مقتل المتوكل
سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م (٣٨) سيطرة كاملة ، وزادت بينهم المشاحنات
والمؤامرات والدسائس ، وكثرت الفتن وقل الأمن ، وأدى ذلك الوضع
المتدهور الى ظهور ثورة الزنج (٣٩) التى أثارت الرعب فى حاضرة
الخلافة العباسية بقيادة العلوى المزعوم ، واستمرت هذه الفتنة حتى
قضى عليها أبو أحمد الموفق بعد خرب استمرت سنين عديدة وذلك سنة
٢٧٠هـ / ٨٨٣م (٤٠) .

ثم كانت حركة القرامطة والتى بدأت نيرانها تضطرم سنة ٣١٦هـ /
٩٢٨م (٤١) ، بالاضافة الى ذلك فان هذا العصر شاهد استقلال العديد من
الدويلات بالشرق الاسلامى كالدولة الطاهرية ، والزيدية ، والصفارية ،
والسامانية ، وانتهى الأمر بظهور الدولة البويهية التى سيطرت على
مقاليد الأمور فى بغداد ودار الخلافة العباسية منذ عام ٣٣٤هـ /

٩٤٥م (٤٢) ، وبدخول البويهيين بغداد بدأت مرحلة جديدة من مراحل الانحلال السياسى فى دار الخلافة العباسية والمشرق الاسلامى ، الا أنها كانت العصر الذهبى للمشرق الاسلامى فى ميادين الفكر والعلم والأدب ، اذ لا شك أنه كان من أهم حركات البويهيين سلاطينهم وأمراءهم ووزرائهم هو اهتمامهم بالعلم والأدب وتشجيعهم للعلماء والشعراء ، وتبنيهم للمفكرين على مختلف فئاتهم وانتماءاتهم ، وأدى ذلك حقيقة الى أن يجتمع فى هذا العصر من الاجلاء والمبدعين منهم ما لم يجتمع فى غيره من العصور .

عاش يعقوب الكشكرى فى هذه الفترة المضطربة سياسياً ، المستنيرة فكراً وعلماً ، أنها فترة مخضمة شهدت اكتمال حركة الترجمة من العلوم الأجنبية الى اللغة العربية فى كافة ميادين العلم والمعرفة ، وبداية الانتفاضة العلمية العربية الاسلامية ، التى ظهر للناس فيها علم جديد ومفيد . على يد المفكرين المسلمين الذين جعلوا من المنهج التجريبى طريقهم الأول للتعامل مع العلوم الصرفة والتطبيقية لجنى ثمار المعرفة فى افادة الانسان ورفاهيته (٤٣) .

وبلا شك أن من يعيش من طلاب المعرفة فى مثل هذا المناخ العلمى النشط ، الذى عمر مدن العراق وأقاليم المشرق الاسلامى فى هذه الفترة لابد له أن يتأثر به وينطبع بطابعه ، وهذا ما حدث ليعقوب الكشكرى الذى استقى من علوم عصره ، وتلقى تعليمه فى الطب وعلومه المساعدة من منطق وخلافه على يد ثابت ابن قرة أحد كبار الأطباء فى عصره قاطبة ، ولقد ظهر ذلك واضحاً فى كتابه هذا الكناش فان من يطلع عليه ويتصفح أوراقه ويحقق دراساته يدرك أن مؤلفه كان على جانب كبير من التقدم فى علوم الفلسفة والمنطق ، وعلم تقويم البلدان ، والنجوم ، والطبيعة ، أما فيما يخص العلوم الطبية فيتضح تماماً أنه كان متفنناً فى بابها متقناً لأصولها وفروعها ، اذ أن مصادره (٤٤) فقط فى هذا الكتاب تخبرنا ما كان عليه الرجل من ثقافة وسعة أفق وتبحر فى علوم الطب ، هذا عوضاً عما أودعه فى أبوابه وفصوله من دراسات جادة وتجارب رائعة فى المعالجة والتطبيب والأدوية (٤٥) .

أما مؤلفاته فهي هذا الكناش .

كتاب الأقرباذين ، ذكره في كتابه الكناش (٤٦) .

وعلى الرغم من قلة مؤلفاته ، إلا أنها ذات أهمية كبيرة في الطب العملى ، كما أن ذلك يؤكد لنا أن الكشكرى لم يكن لديه ذلك التوجه في الكتابة الطبية ، أو أنه لم يكن لديه الوقت الكافى للتأليف بسبب انشغاله فى بیمارستانات الثلاثة ، وعمله مع بعض الكبراء فى عصره ، اذ يبدو أنه كان يهتم بالممارسة العملية والتطبيب أكثر من اهتمامه بالطب الأكاديمى التأليفى، ولعل ذلك كان من أهم الأسباب فى غموض شخصيته .

القسم الثانى

التعريف بكتاب الكناش ليعقوب الكشكرى وتحقيق نسبته :

ان النسخة الوحيدة المعروفة الى الآن من كتاب الكناش للكشكرى موجودة فى مكتبة آياصوفيا برقم ٣٧٦١ (٤٧) ، وكتب على الورقة الاولى منه تصحيحاً كتاب كناش بن سرافيون فى الطب « ، كما كتب فى الباب الاول (٤٨) « الباب الاول من هذا الكتاب فى تولد الشعر فى سائر البدن من كناش بن سرافيون الكبير » ، وهذا حقيقة ما حدا ببروكلمان الى الاعتقاد بأن هذا الكتاب هو الكناش الكبير ليحيى (يوحنا) بن سرافيون (٤٩) ، كما ورد ذلك أيضاً فى كتاب - فهرس مخطوطات الطب الاسلامى فى مكتبات تركيا (٥٠) ، اذ نسب الكتاب الى يحيى بن سرافيون .

والكتاب حقيقة ليس لابن سرافيون انما مصنفه هو يعقوب الكشكرى ، فقد اشار الكتاب الى ذلك مرات عديدة اذ يقول : « قال يعقوب الكشكرى » ، واحداها أكدت يقيناً نسبة الكتاب اليه حيث قال : « قال يعقوب الكشكرى جامع هذا الكتاب » (٥١) .

ويقع هذا الكناش فى ٢٩٣ ورقة بمقياس ٦١١ X ١٨٧ سم وكتب بخط نسخ ليس فيه غناية ولا جمال ، وكان نسخه سنة ٥٩٧ هـ ، أما

عدد الأسطر فلا يتجاوز واحداً وعشرين سطرًا ولا يقل عن تسعة عشر سطرًا .

وكتب على الورقة الأولى عنوان الكتاب خطأ حيث نسب إلى ابن سراجيون كما مر ، أما بقية الأوراق حتى الورقة ٦٦ فقد خصصت لذكر فهرس الكتاب ، بخط سيء غير واضح وكتب بقلم غير ذاك الذى كتب به المتن ، ويبدو أن هذه الأوراق ليست ضمن أصل الكتاب ، إنما أضيفت على يد أحد النساخ فيما بعد ، كما يلاحظ وجود بعض الحواشى على جانبي الأوراق كتصحيح أو تعليق أو تفسير لبعض الكلمات أو اكمال لبعض الجمل الناقصة .

والمتتبع لأبواب وأوراق الكتاب بدقة يدرك تماماً أن النسخ له نسخه من مخطوط آخر يكثر فيه النقص ، وعدم الدقة والتنظيم ، والتقديم والتأخير فى أبوابه وأوراقه ، مما استنفذ وقتاً طويلاً لمحاولة ربط موضوعات الكتاب بشكل يؤدي إلى تحديد الوحدة الموضوعية لكل مادة ، وذلك لمعرفة المنهج العلمى الذى اتبعه المؤلف فى معالجة موضوعات الكتاب لأن معرفة ذلك سيؤدي بالتأكيد إلى الاستفادة منه بشكل جيد .

مصادر الشكرى فى كتابه الكناش :

لعله من أهم المزايا التى اتصف بها العلماء والمفكرون المسلمون ، أمانتهم العلمية وأخلاقهم الكريمة وسيرتهم القدوة ، وحسن أدبهم مع معلمهم ، وتقديرهم لمن سبقهم من المفكرين الذين أسدوا خدمات جليلة فى تاريخ العلم .

وفى القرن الثالث الهجرى ، كانت كتب القدماء لا تزال مصدراً أولياً للعلماء المسلمين فى كافة جوانب العلوم الصرفه والتطبيقية على الرغم من التطور الكيفى الذى حدث لتلك العلوم على أيدي العلماء المسلمين بعد معرفتهم وتطبيقهم المنهج التجريبي فى التعامل مع تلك العلوم ، ألا أن أفاضل من علماء اليونان فى الفلسفة والطب والطبيعيات كانت لا تزال كتبهم هى المنبع الوحيد للعلماء المسلمين فى العلوم الحكمية ، فكثيراً ما نجد فى كتب جابر بن حيان الكوفى وحنين بن

اسحاق العبادى ، وثابت بن قرة ، وابن ربن الطبرى ، وأبى بكر الرازى ، وأمثالهم من الأطباء قولهم : قال المعلم ابقرط ، قال الفاضل جالينوس ، قال الأستاذ ، قال الحكيم ، فكانوا يعترفون لأهل الفضل بفضلهم ، ويقرون لأهل العلم بعلمهم ، وكانوا هم أهل الفضل والعلم .

ولقد كان يعقوب الكشكرى واحداً من أولئك الأطباء المسلمين الذين نهلوا وتعلموا وتأثروا بفكر العصر الذى اتسم برواج المعارف اليونانية القديمة وكتبها ، فى ظل حركة الترجمة النشطة فى القرن الثالث الهجرى . . .

ولذلك نلاحظ أن كتابه الكناش هذا اعتمد فى تصنيفه بشكل كبير على كتب ، وأقوال ، وإشارات العلماء والمفكرين الأغريق القدماء ، وذلك فى الجانب النظرى ، أما فى الجانب العملى فبطبيعة الحال لابد أن يكون مصدره الأولى هو ما ثبت نفعه وفائدته بالتجريب على يد الأطباء المسلمين الذين عاصروهم وأخذ عنهم فى هذا العصر ، إضافة إلى اعتماده على كتب البعض منهم فى الجانب النظرى والعملى على حد سواء .

ونستطيع أن نقسم مصادرنا إلى قسمين :

أولاً : المصادر اليونانية .

ثانياً : المصادر العربية .

أولاً : المصادر اليونانية :

مصنفات جالينوس : وجالينوس آخر كبار الأطباء الذين ظهروا فى العصور القديمة ، بل أنه أفضلهم جميعاً ، ولم يأت بعده من الأطباء إلا من هو دون منزلته ومتعلم منه ، وكان زمان ولادته بعد أبقرط بنحو ٦٥٠ سنة ، أى بعد زمان المسيح عليه السلام بنحو مئتين سنة ، جدد العلوم الطبية بعد اندثارها وانحساء محاسنها ، وصنف مالا يقل عن مائة وعشرين كتاباً فى الطب والعلوم الحكيمية (٥٢) ، وظلت مصنفاته من

أهم مصادر تعليم الطب حتى القرون الأربعة الهجرية الأولى (٥٣) حين ظهرت كتب المبدعين من الأطباء المسلمين أمثال الرازي ، وابن سينا ، والزهرراوى وغيرهم ، أما كتبه تلك التى اعتمدها الكشكرى كمصادر لتأليف كتابه الكناش فإن أغلبها كانت من ضمن تلك الكتب التى قررها أطباء الاسكندرية لتعليم الطب ، وكانت أهم مصادر عصره للتعليم والتأليف الطبى وهى على النحو التالى :

١- كتاب تركيب الأدوية : وقد سماه الكشكرى « الأدوية المركبة » وكتاب جالينوس هذا سبع عشرة مقالة ، السبع الأولى منها عرفت لدى الأطباء المسلمين باسم « كتاب قاطاجانس » ، والعشر مقالات الأخرى عرفت لديهم باسم « كتاب الميامز » (٥٤) .

ولقد اعتمد الكشكرى على كتاب جالينوس هذا فى أكثر من أربعين موضعاً مما يظهر أهمية كبيرة لهذا الكتاب فى هذه الفترة باعتباره المصدر الأول لعلم الصيدلة وتركيب الأدوية .

٢ - كتاب جالينوس الى أغلوqn فى التانى لشفاء الأمراض : واغلوqn كان من الفلاسفة على عهد جالينوس ، وكان يجمعهما حب العلم وتمجيد الحكمة فطلب منه أن يؤلف له كتاباً فى الطب ، وترجم هذا الكتاب الى العربية حنين بن اسحاق العبادى ، واعتمد عليه الكشكرى فى أكثر من عشرة مواضع (٥٥) .

٣ - كتاب حلية البرء : وهو أربع عشرة مقالة ذكره الكشكرى فى سبعة مواضع ، ترجمه حبش الأعسم ، وصححه حنين بن اسحاق (٥٦) .

٤ - كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة : ترجمة سرجس ، وكانت ترجمته غير دقيقة ، ثم ترجمه حنين بن اسحاق ، وترجمه أيضاً حبش الأعسم الى العربية (٥٧) .

٥ - كتاب الأدوية المفردة : ترجم الكتاب الى العربية والى السريانية فى القرن الثانى من الهجرة ، على أن أفضل ترجمة له بالعربية هى تلك التى قام بها حبش الأعسم ترجمه لأحمد بن موسى (٥٨) وقد اعتمد

الكشكرى على هذا الكتاب فى تحقيق المعالجة بالأدوية المفردة وذلك فى مواضع متعددة .

٦ - كتاب أصناف الحميات : ترجمه حنين بن اسحاق الى العربية والسريانية (٥٩) .

٧ - كتاب المواضع الآلة : لم أجد فى رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحيى ، ولا فى الفهرست للنديم ، ولا فى عيون الأنباء كتاباً بهذا الاسم لجالينوس ، ولعل الكشكرى قصد بهذا الكتاب العشر مقالات الأخيرة من كتاب تركيب الأدوية لجالينوس وهى المعروفة بالميامر وقد جعل جالينوس عنوانها « فى تركيب الأدوية بحسب المواضع الآلة » ، ويوجد بعنوان « كتاب المواضع الآلة من كتب جالينوس » نسخة فى آيا صوفيا برقم ٣٥٨٩ (٦٠) .

٨ - كتاب ابدال الأدوية ، كذلك لم أجده فى رسالة حنين ، والفهرست ، ذكر ابن أبى أصيبعة أنه مقالة واحدة ، توجد منه أوراق فى سليم آغا بتركيا برقم ٨٨٣-٣ (٦١) .

٩ - كتاب الأعضاء المتشابهة : واسمه كتاب فى اختلاف الأعضاء المتشابهة الأجزاء « وهى مقالة ترجمها عيسى بن يحيى (٦٢) .

١٠ - كتاب تدبير الأصحاء : ذكره النديم فى كتابه بهذا العنوان وهو من ترجمة حبيش الأعسم ، ويقع فى ست مقالات (٦٣) ، وسماه حنين ابن اسحاق « كتاب فى الحيلة لحفظ الصحة » وذكر له ترجمات متعددة الى السريانية ، كما ذكر أنه ترجمه ابنه اسحاق الى العربية بالاضافة الى ترجمة حبيش الأعسم له لمحمد ابن موسى (٦٤) .

١١ - مقالة فى صفات لصبى يصرع : ترجمها ابراهيم بن الصلت الى السريانية والعربية (٦٥) ، وسماها الكشكرى « مقالة فى تدبير صبى يصرع » .

١٢ - كتاب النبض الكبير : من أهم كتب جالينوس الطبية ، ترجمه العديد من الأطباء الى السريانية والى العربية مثل أيوب الزهاوى وحنين ابن اسحاق ، وحبيش الأعسم (٦٦) .

١٣ - كتاب قوى الأغذية : سماه الكشكرى كتاب الأغذية ترجمه
حنين الى السريانية والعربية ثم ترجمه حبيش الأعمى بشكل أدق لمحمد
ابن موسى (٦٧) .

١٤ - كتاب الترياق : لجالينوس كتابان فى الترياق أحدهما «كتاب
فى الترياق الى بمفوليانس» وترجمه عيسى الى العربية ، والآخر
« كتابه فى الترياق الى فيسن » ترجمه يحيى بن البطريق الى
العربية (٦٨) ولا نعلم أى الكتابين يقصد الكشكرى .

١٥ - مقالة فى الرعشة والنافض والاختلاج والتشنج : ترجمة حبيش
الأعمى الى العربية (٦٩) .

١٦ - كتاب الصناعة الصغيرة : مقالة واحدة أوجز فيه جالينوس
علم الطب ، وجعله بذلك نافعا للمتعلمين وللمستكملين ، ترجمة العديد
من التراجمة الى السريانية وترجمه حنين الى العربية لمحمد بن
موسى (٧٠) .

١٧ - كتاب الفرق : مقالة واحدة ، جعله جالينوس أول كتاب يجب
على متعلم الطب قراءته ابتداء ، ليعلم الطالب فرق الطب وآرائهم من
أصحاب التجربة ، والقياس ، والحيل ، ترجمه حنين الى العربية
لمحمد بن موسى (٧١) .

١٨ - كتاب فى المرة السوداء : ترجمه اصطفى الى العربية ، ثم
ترجمه حنين بن اسحاق بعد ذلك (٧٢) .

١٩ - كتاب الميامر (٧٣) .

٢٠ - كتاب النبض : فى ثمان مقالات ذكر حنين أنه لم ير له
نسخة باليونانية (٧٤) .

٢١ - كتاب النبض الصغير : وهو اختصار لكتابه النبض الكبير ،
بحيث جعله مقالة واحدة ، ترجمها سرجس الى السريانية (٧٥) .

مصنفات ابقراط :

ومن ضمن الكتب اليونانية التي اعتمد عليها الكشكري في تصنيف كتابه الكناش، بعض مؤلفات ابقراط الطبيب المعروف الذي عاش قبل المسيح عليه السلام بنحو ٤٥٠ سنة وكان على أيام الملك الفارسي بهمن اردشير، يعتبر ابقراط من رواد الأطباء في العالم ، فقد جاء في وقت اندثرت فيه الصناعة الطبية بسبب انحصارها في أسرة آل اسقليبيوس ، فعمل ابقراط على نشرها في عامة الناس فيمن تتوفر فيه الشروط اللازمة لأن يكون طبيباً ماهراً ، ألف في حدود ثلاثين كتاباً في الطب قرر أطباء الاسكندرية اثنا عشر كتاباً منها لتعليم الطب للمتعلمين بعد كتب جالينوس الستة عشر (٧٦) ، وكانت كتبه التي قررها أطباء الاسكندرية من أهم مصادر تعليم الطب في عصر يعقوب الكشكري ، بل ان كتبه تلك لم تفقد أهميتها التعليمية لدى بعض الأطباء المسلمين في العصور اللاحقة وقد اعتمد الكشكري في كتابه هذا على عدد منها وهي كالآتي : -

١ - كتاب الفصول : اختصر فيه ابقراط عدداً من كتبه الطبية ، ظل كتابه هذا ذا قيمة علمية للمتعلمين حتى ألف الرازي كتابه «الفصول» فأقبل عليه طلبة الطب وأهملوا فصول ابقراط ، وقد اعتمد الكشكري على الفصول لأبقراط كثيراً اذ كان من كتبه المقررة للمتعلمين ، ترجمه حنين بن اسحاق الى العربية (٧٧) .

٢ - كتاب ابديما : ويسمى أيضاً الأمراض الوافدة، فسر جالينوس وترجمه حنين بن اسحاق الى العربية (٧٨) .

٣ - كتاب الأمراض الحادة : ويسمى أيضاً « تدبير الأمراض الحادة لجالينوس » ترجمه حنين بن اسحاق الى العربية (٧٩) .

٤ - كتاب عهد ابقراط الى أهل صناعة الطب ، ويعرف أيضاً بكتاب الايمان ، جعله ابقراط للمتعلمين ، وللمعلمين ، بحيث لا يخالفوا ما شرطه عليهم فيه (٨٠) .

مصنفات يونانية أخرى :

١ - كتاب طيماوس : لأفلاطون بن أرسطن الفيلسوف اليونانى المعروف (ت ٣٤٧ ق م) وكتابه هذا فى الطب بعث به الى تلميذه طيماوس (٨١) ، واعتمد الكشكرى على كتابه هذا فى مواضع عدة .

٢ - كتاب فى داء الما ليخوليا : لروفس الحكيم الطبائعى من أشهر الأطباء والحكماء بعد ابقراط وقبل جالينوس ، وهو من مدينة أفسس له الكثير من الكتب فى الحكمة والطب (٨٢) .

٣ - مقالة فى الألبان : لروفس الحكيم (٨٣) .

٤ - كتاب الأحجار : للفيلسوف أرسطو طاليس بن نيقوماخس ، صاحب دار التعليم المنسوبة الى الفلاسفة المشائين ، أخذ الحكمة عن افلاطون واشتهر حتى أصبح من أساطين الحكمة المعروفين ببلاد اليونان (٨٤) .

٥ - كتاب الكى : لأفلاطون المعروف بصاحب الكى ، قيل ان جالينوس أخذ عنه (٨٥) .

٦ - كتاب الكناش فى الطب : لفولس الأجانيطى ، ولا يعتبر من أطباء اليونان لأن حياته كانت فى بداية ظهور الاسلام ، عاش بالاسكندرية وكان يعرف بالقوابلى لأنه كان خبيراً بعلل النساء ، كتابه هذا ترجمه حنين بن اسحاق الى العربية (٨٦) ، واعتمد عليه الكشكرى فى مواضع عدة .

نقولات ومقولات يونانية :

كما واعتمد يعقوب الكشكرى فى تصنيفه لكتابه الكناش على العديد من النقولات والمقولات لبعض الأطباء والحكماء اليونانيين ، دون أن يحدد لنا المصدر الذى استقى منه معلوماته تلك ، انما يشير الى اسم صاحب المقولة أو الكتاب فيقول : فأما فلان فانه زعم ، وقد وصف فلان ، كما ذكر فلان ، وقد عمله فلان ، مثل الدواء الذى ألفه فلان ، وفسره فلان ، وقال فلان ويفهم من كلام فلان ... الخ .

وقد أكثر من الاستشهاد والنقل عن كتب جالينوس ، فقد اعتمد عليه فى أكثر من خمسين موضعاً ، أما أبقراط فقد اعتمد على كتبه فى عشر مواضع .

هذا بالإضافة الى اعتماده على مصنفات العديد من الأطباء والحكماء اليونانيين الآخرين أمثال : اسقليبادوس ، وارسطو طاليس وذيسقوريدس ، وارسيجانس ، ولوغازيا ، وبادريطوس ، وروفس ، واندروماخس ، وthumbريوس ومغنيس رئيس الأطباء على عهد جالينوس .

ويلاحظ أن هؤلاء جميعاً كما يتضح ذلك من تراجمهم كانوا من أشهر الأطباء فى أزمانهم ، فقد تركو العديد من الكتب الطبية والحكمية ، والعشبية ، وترجمت أغلب مصنفاتهم الى العربية فكانت المعين الأول للدراسة والتأليف الطبى فى العصر الذى عاش فيه يعقوب الكشكرى ، وهو العصر الذى بدأت تظهر فيه المصنفات والموسوعات الطبية الاسلامية .

المصادر العربية :

مصنفات يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ / ٨٥٧م) أحد أشهر أطباء القرن الثالث الهجرى ، تولى أحد بيمارستانات بغداد ، وأصبح الطبيب الخاص للخلفاء من المأمون الى الواثق ، ترجم الكثير من المصنفات اليونانية (٨٧) أما كتبه التى اعتمدها الكشكرى فهى :

١ - كتاب الكامل الكبير : واعتمد عليه الكشكرى فى مواضع عدة (٨٨) .

٢ - كتاب الحميات (٨٩) .

٣ - كتاب الكمال والتمام (٩٠) .

مصنفات حنين بن اسحاق العبادى :

أشهر المترجمين فى تاريخ الاسلام على الاطلاق ومن كبار أطباء القرن الثالث الهجرى ، وأشتهر بين الأطباء بعلمه وتأليفه الطبية المتقنة ، ولم يشتهر كطبيب عملى (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٣م) وله العديد من المصنفات

الطبية ، أشتهر بعضها وظل من أهم مصادر التعلم والامتحان الطبى لقرون عديدة ، مثل كتاب العشر مقالات فى العين ، وكتاب المسائل (٩١) ، أما كتبه التى اعتمد عليها الكشكرى فهى :

٤ - كتاب المسائل ، أو المدخل الى صناعة الطب ، بدأ حنين فى تصنيفه وأكمّله ابن أخته وتلميذه حبيش ، وكان هذا الكتاب من ضمن الكتب المهمة التى وضعها حنين للمتعلمين على طريق السؤال والجواب (٩٢) .

٥ - كتاب الأغذية : وسماه ابن أبى أصيبعة : كتاب قوى الأغذية (٩٣) .

مصنفات طبية عربية مختلفة :

٦ - كناش الساهر : واسمه يوسف ويعرف بالقس ، من أطباء القرن الثالث المعدودين ، اشتهر على أيام المكتفى ، واقترن اسمه بكناشه المعروف والمشهور بين الأطباء ، والذى احتوى على الكثير من تجاربه (٩٤) ، وقد اعتمد الكشكرى على كتابه هذا فى أكثر من عشرة مواضع .

٧ - الكناش الكبير : ليوحنا سراييون ، ألفه بالسريانية ونقله الى العربية موسى ابن ابراهيم الحديثى سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م ونقله أيضاً الى العربية الحسن البهلول ، وأبو البشر متى (٩٥) ، وقد واعتمد عليه الكشكرى فى عدة مواضع .

٨ - كتاب فردوس الحكمة : لأبى الحسن على بن سهل بن ربن الطبرى ، كان على أيام الخليفة المعتصم وأسلم على يديه ، وأصبح له المكانة العالية على أيام المتوكل ، ويعتبر كتابه هذا من أوائل الكتب الطبية التى ألفت فى الطب الطبائعى (٩٦) ، وكان لكتابيه هذا منزلة معروفة لدى الأطباء فى القرن الثالث الهجرى .

٩ - كتاب الذخيرة فى علم الطب : لثابت بن قرة الحرانى (ت

٢٨٨هـ/٩٠٠م) ، وكان ثابت من كبار الأطباء والحكماء فى القرن الثالث الهجرى ، وصنف عشرات الكتب فى الطب والحكمة والهندسة والفلك والرياضة (٩٧) ، وكتابه هذا عبارة عن كناش طبى ألفه لابنه سنان ، ويعد حقيقة من أهم مصادر الطب وتعلمه فى القرن الثالث الهجرى .

١٠ - كتاب اصلاح الادوية المسهلة : لحبيش بن الحسن الدمشقى تلميذ حنين بن اسحاق وابن أخته (٩٨) .

١١ - الاقرباذين السابورى : لسابور بن سهل ، كان من الفضلاء فى مهنة الطب علماً وعملاً ، واشتهر على أيام الخليفة المتوكل العباسى حيث لازمه ومن بعده من الخلفاء الى المهتدى بالله ، ولازم العمل فى بیمارستان جند يسابور (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م) وعلى الرغم من أن الأطباء وتلامذة الطب فى عصر الكشكرى كانوا يعتمدون بشكل كبير فى دراساتهم ومصنفاتهم الطبية على كتب اليونان ، الا أن الكثير من الكتب الطبية التى صُنفت منذ بداية القرن الثالث الهجرى فى الدولة الاسلامية كانت لا تقل أهمية عن تلك اليونانية ، بل أن بعضها كان من الأهمية ما فاق المصنفات اليونانية من حيث المنهجية ، والبناء العلمى الذى اعتمد التجريب ، لا سيما تلك المصنفات المتقنة التى لم تفقد أهميتها حتى بعد ظهور الموسوعات الطبية التى برزت كمصنفات طبية أولية فى القرن التالى ، مثل كتاب الذخيرة لثابت بن قرة ، والمسائل فى الطب لحنين بن اسحاق ، وفردوس الحكمة لأبى الحسن على ابن سهل . هذه المصنفات لم تفقد أهميتها التعليمية والطبية فى القرون التالية .

نقولات ومقولات لبعض الأطباء العرب :

وبالإضافة الى المصادر العربية السابقة الذكر ، نجد أن الكشكرى اعتمد أيضاً على عدد كبير من المقولات والنقولات لمجموعة من الأطباء والحكماء العرب والمسلمين دون أن يحدد لنا مصدره فى ذلك ، وأحياناً يحدد لنا اسم القائل أو اسم مؤلف الكتاب الذى اعتمده ، وأحياناً أخرى يهمل الاسم .

كما أننا لا نستطيع تدقيق بعض مصادره المقولة والمنقولة تلك ،

أهو سمعها مباشرة من أصحابها ؟ أو قرأها ؟ أو رويت له ؟ أو قرئت عليه ؟ فيقول أحياناً « ذكر رجل رومى » (١٠٠) ، « وذكر بعض الأطباء الكحالين » (١٠١) ، « وذكر بعض الأطباء » (١٠٢) ٠٠٠ الخ .

هذا بالاضافة الى أنه أحياناً أخشى ينسب المقولة أو المعلومة المستقاة الى عدد من الأطباء جملة ، ولا نعلم نوعية مصدره فى ذلك هل هو عن طريق المصادر المكتوبة ؟ أو المسموعة ومثال ذلك قوله : « صفة كحل تسمية الكحالين بالبصرة » (١٠٣) وقوله : « وهو من أسرار الكحالين بالبصرة » (١٠٤) ، وقوله « وهذا يسميه كحالو البصرة ٠٠٠ » (١٠٥) .

أما الغالب الأعم من تلك النقول فنجده يحدد أسماء قائلها دون ذكر اسم مؤلفاتهم وهى كثيرة جداً منها قوله : « وجابر بن حيان الصوفى يقول فى بعض كتبه » (١٠٦) ، وقوله : « وكان سنان يعمل جوارشن » (١٠٧) ، وقوله : « وهذه نسخة أبو سعيد سنان بن- ثابت » (١٠٨) ، وقوله : « صفة قرص ذكره ثابت بن قرة » (١٠٩) .

دراسات الكشكرى وتجاريه وأعماله الطبية :

لقد سبقت الإشارة الى أن يعقوب الكشكرى يعد من أطباء القرن الثالث الهجرى ، الذين كان لهم تجارب وخبرات عملية وافرة ، وذلك من خلال عمله الذى استمر زمناً طويلاً فى بیمارستانات بغداد، فقد هيا له ذلك فرصة جيدة للالتقاء بالكثير من أطباء عصره ، وبالكثير من المرضى الذين يطيبهم ويشرف على معالجتهم ، وبالتالى فان « تجارب ، ومعالجات ، وأحداث ومشاورات طبية مختلفة قد حدثت له بالضرورة، وكان ما رآه وعايينه ، ومنها ما سمعه أو وصف له ، فكانت بذلك من ضمن أهم مصادره فى تأليف كتابه هذا (١١٠) ، فان من يطلع عليه سيدرك مدى اهتمام المؤلف بهذا النوع من الدراسة الميدانية .

ان هذا الكتاب تنطوى أهميته على ما أودعه فيه المؤلف من دراسات طبية جادة ، فقد أعطى صورة مشرفة عن الفكر الطبى خلال

ذلك العصر ، اذ تشير مباحث الكتاب الى الكثير من الأفكار الطبية الجديدة ، والمعالجات الغربية المتطورة التي تناقش بعض القضايا الطبية التي تشغل بال الأطباء في العصر الحديث ، والتي لازالت دراساتها في سبيل التطور والبحث ، فالكتاب تناول مثلاً وفي أماكن كثيرة الجراحة التجميلية ، وأعطى أنواعاً من الوصفات الطبية التي تتناول وتعالج هذا الجانب من الطب ، وكان لها أثراً ايجابية بشكل مثير .

أما ما تفرد به هذا الكتاب عن كثير من كتب الطب العربى فانه قدم لنا وصفاً رائعاً وشيقاً عن التطبيب العملى ، والمعالجة ، وكيفية التعامل مع المرضى والأمراض ، والأدوية فى بیمارستانات بغداد فى القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، وهذا حقيقة مالا نجده فى كتب الطب الأخرى للأطباء المسلمين ، فالكشكرى هنا يصف لنا الأمراض التى تناولها فى كتابه ، ويعطينا عنها دراسة علمية واضحة معتمداً فى ذلك على أمهات مصادر الطب فى عصره ، ثم نجده بعد ذلك يوضح لنا الطريق الأمثل فى التعامل مع كل مرض وكيفية علاجه ، ذاكراً العديد من الأمثلة عن معالجاته الطبية ، وأسماء الحالات المرضية والكثير من أسماء أصحابها ، وكيف تمت المعالجة وكيف كانت النتيجة ، وهو فى ذلك كله لا يقتصر على معالجاته فقط ، بل يذكر لنا الكثير مما شاهده وعايينه فى بیمارستانات بغداد من مرضى وحالات مرضية مختلفة ومعالجات لأطباء آخرين .

وسنعرض لأهم ما ورد فى كتابه هذا من دراسات طبية ، ومعالجات ومجربات ، لا سيما تلك التى تتسم بالسمة العملية وكان لها قيمة طبية جيدة .

فنجده يتحدث فى الباب الأول عن أسباب وجود الشعر فى جسم الانسان ويعلل سبب اختلاف الشعر عند البشر ما بين كثيف وقليل ، وجعد وسبط ، وأسود وأشقر وأبيض ، فيعلل سبب ذلك الى اختلاف أمزجة الأجسام ، وما يتبع ذلك من اختلاف الأقاليم وتأثيرها على

السلالات البشرية ، ويضرب لنا بذلك الأمثلة على أهل الحبشة والهند والصقالبة (١١١) .

على أن أهم ما تعرض له فى هذا الجانب هو مناقشته لمسألتين مهمتين هما : -

الأولى : الأمراض التى تصيب الأماكن التى يتولد فيها الشعر كالرأس وبعض أجزاء الجسم كمرض داء الثعلب - الثعلبة - اذ يقول عنه : « فاما داء الثعلب فمن الأمراض التى تخص الرأس فيتقرع الشعر ، وربما تعدى فيتقرع أيضاً شعر اللحية والأجفان والحواجب وسائر البدن حتى يصير الجلد أملس براق ... ومولدها عن رطوبة رديئة متعفنة » (١١٢) .

وتناول داء الحية والفرق بينه وبين داء الثعلب فذكر أن داء الحية يسبب الصلع ، الا أن مسببات أقوى تؤدى مع الصلع أيضاً الى انسلاخ وتقشر فى الجلد ، وقد رأى ذلك بنفسه فيقول : « وهذا الصنف من داء الحية رأيته فى بیمارستان صاعد برجل قد سعى هذا المرض فى سائر بدنه ، وتشكل بشكل سلخ الحيات وتشققت أطراف أصابعه ، وذكر أصحابنا أنها صنف من داء الحية » (١١٣) ، ثم أعطى الكثير من الوصفات الطبية المختلفة لمعالجة كل مرض على حدة ، ويؤكد أن لبعضها قوة شفاءية عجيبة بعد أن اختبرها وجربها (١١٤) ويؤكد ذلك قوله : « فأول ما ينتفع به صاحب هذه العلة ... » (١١٥) .

الثانية : وقد أولى أثناء حديثه عن تلك الأمراض ومعالجتها الجانب التطبيقى الدوائى اهتماماً كبيراً ، لا سيما تلك الأدوية التى جربها والتى تهتم بالطب التجميلى نظراً لما تتركه تلك الأمراض من آثار خلقية ، ومن تشويه لأجزاء الجسم مثل الصلع ، وتساقط الشعر ، واكتسابه اللون الأبيض .

وساقه هذا الاهتمام الى أن أفرد أبواباً وعناوين تعالج نظافة الشعر والاهتمام به ، ذكراً أنواعاً كثيرة من الأدوية ومن الوصفات الطبية التى تخدم الطب التجميلى .

فنجده يتحدث عن مرض تساقط الشعر والذي تسببه تلك الأمراض ،
مما حدا به الى أن جرب العديد من الوصفات الطبية التي تمنع تساقطه ،
وكان يقوم بعمل تلك الأدوية بنفسه ثم يجربها ، وقد أوصلته التجربة
الى معرفة أنواع من الأدوية لها قوة شفاءية رائعة فنجده يقول : « وما
رأيت دواء أفضل فى علاج تساقط الشعر من دواء يتخذ من اللادن (١١٦)
ومن دهن شجرة المصطكى . . . » (١١٧) ، ويسوق لنا بعد هذا أدوية
أخرى كثيرة ومجربة لعلاج تساقط الشعر الى أن يقول بآخرها : « قال
يعقوب مؤلفه وجامعه : هذا ما وجدته وأضفته الى قول جالينوس فى
علاج هاء الحية ، وداء الثعلب ، والصلع » (١١٨) .

ثم يفصل فى عناوين متفرقة أنواعاً من الأدوية المركبة منها
ما يساعد على انبات الشعر وتطويله ، ومنها ما يمنع انتشار الشعر ،
وأدوية أخرى تستخدم لغسل الرأس ، وتساعد على إزالة الأوساخ
والأبرية ، والحزازة (١١٩) ، والسعفة (١٢٠) .

وتحدث عن مجربات ومشاهدات حدثت له مع أدوية الزينة
كالخضابات التي تسود الشعر ، فقد رأى بعض الأطباء يستخدمون نوعاً
منها خضبوا بها شعر رؤوسهم ولحاهم فاكسبت اللون الأسود ، ومنعت
تساقط الشعر (١٢١) .

كما أنه شاهد طبيباً كان نصرانياً ثم أسلم واسمه حبرون وكان
أبيض الشعر ، وكان يستخدم خضاباً يسود شعره فسأله عن كيفية صنعه
فأخبره بذلك (١٢٢) .

وأخذ تركيبة مجربة من أحدهم عندما كان بالكوفة ، وكان الرجل
يخضب بها لحيته فتسود وتبقى على ذلك أياماً كثيرة لا يتغير
لونها (١٢٣) ، وقد أكثر من ذكر هذه المجربات من الخضابات التي تسود
الشعر تسويداً شديداً (١٢٤) .

وذكر أنواعاً مختلفة من أدوية الزينة المجربة التي يستخدمها
النساء والتي أكد أن لها مفعولاً عجيباً ، منها تلك الملونة للشعر فتجعله

أشقرأ ، أو أحمرأ وأدوية أخرى تجعله جعدا متفرقا ، وأخرى تجعل الشعر المجعد سبطا ناعما ، ومنها ماله تأثير عجيب فى إزالة الشعر الزائد من الجسم ، كما أنه لا ينبت اذا طلى الموضع مرارا (١٢٥) .

ثم يعقد الكشكرى فى الفصل الحادى عشر من كتابه الكناش (١٢٦) دراسة علمية عن العين وتركيبها ، وطبقاتها ، وأعصابها ، وعروقها ، وأمراضها ، وكيفية الابصار وما لذلك كله من علاقة بالدماغ .

على أن ما يهمنى فى دراسته تلك هو ما أورده فيها من تجارب وملاحظات فى علاج أمراض العيون المختلفة ، والكثير من تلك المعالجات والمجريات تمت معالجة أصحابها فى بیمارستانات بغداد ، فيذكر أنواعا مختلفة من الأدوية المفردة والمركبة كالكحال ، والأشياف ، والسعوطات ، والذرورات (١٢٧) وأدوية أخرى تم استخدامها بعد تجربتها فى علاج أمراض العيون ، وكان لها نتائج علاجية جيدة ، والكثير من تلك المعالجات كان يعملها بنفسه ، والبعض منها تمت بحضرته وكان يقوم بها بعض أطباء من زملائه فى تلك بیمارستانات ، فأما ما جرب من تلك الأدوية فهى كثيرة وصفها بالجودة وحسن المعالجة فيقول : « وهى نسخة مجربة » (١٢٨) ويقول : « فانه صحيح مجرب » (١٢٩) .

وأما الأدوية التى كانت تتركب فى بیمارستانات التى عمل بها فذكر منها أنواعا مختلفة وسماها « نسخة بیمارستانات » وبعضها ينسب تركيبها الى بعض زملائه فى هذه بیمارستانات ، ويبدو أنها كانت مشهورة وجيدة حتى أنها عرفت بأسمائهم فيقول « نسخة حارث ، كنا نستخدمها فى بیمارستانات صاعد » (١٣٠) ونسخة « ابراهيم بن زيتونة البصرى الذى كان معنا فى مارستان صاعد رحمه الله » (١٣١) ، وكانت وصفات بیمارستان تلك نافعة جدا منها ما يمنع سيلان الدموع ، ويسكن الصداع ، ومنها ما يعالج القروح ، والرمد ، ويقطع المدة (١٣٢) من العين ، ومنها ما كان يعالج الشبكره (١٣٣) ، وبعضها يمنع نزول الماء فى العين ، وابتداء نزوله (١٣٤) .

ومن ضمن مشاهداته وملاحظاته الطبية عن أمراض العيون ما كان

يخبره به بعض الأطباء عن أدوية ومعالجات حدثت لهم ، مثل اسماعيل الكحال الذى عالج بدر غلام المعتضد من شبة قديمة كانت به (١٣٥) ، كما يتحدث عن أمراض وتجارب طبية شاهدها بنفسه وهى كثيرة ، وأعجب ما أورده منها ، مما يدل على شدة ملاحظته « القمر الذى يحدثه الثلج فتجمد الحدقة منه فلا يبصر الانسان » (١٣٦) فيقول : « يقول المصنف اننى قد رأيت هذا العارض بارمينية واذريجان » (١٣٧) .

وسبق وأن ذكرنا زيارة المؤلف لجنوب العراق مع ياقوت المدبر (١٣٨) ، ولاحظ كثرة مرضى العيون بالبصرة فيقول عن كحاليها : « ان كحالى البصرة حذاق بعمل الكحل لكثرة أمراض العين عندهم ... ولهم كحل ربما ذروه فى اخراج المدة اذا خرجت فى الطبقة القرنية قرحة وشد برفادة فتخرج المدة بسرعة » (١٣٩) ، ويتحدث أيضا عن كحل آخر من عمل أطباء البصرة له ميزة خاصة فى علاج البثرة (١٤٠) فيقول عنه : « وهو من أسرار الكحالين البصريين ، لأن أهل البصرة بكثرة أوجاع أعينهم من الحر فيها ... » (١٤١) .

ويبدو أن الكشكرى كان مع دربه الطويلة جراحاً ماهراً ، فقد أفرد صفحات عديدة يتحدث فيها عن الكثير من العمليات الجراحية الدقيقة التى تتم فى العين ، والتى كان يجربها لمرضاه ، وعنون عملياته تلك بـ « فى علاجات العين باليد وكيف ينبغى أن يستعمل العلاج » (١٤٢) .

والمتتبع لتلك الصفحات يدرك أن مؤلفها كان ذا معرفة واسعة بعلم التشريح ، وأنه بلا شك كان يجرى تلك العمليات فى بیمارستانات بصفة دائمة ، فقد أعطى وصفا غاية فى الدقة لكل عملية ، وكيف يجب أن تتم ، شارحاً الأوضاع التى ينبغى أن يكون عليها المريض ليضمن نجاح العملية ، وكيف يتوجب على الطبيب السيطرة على حركة العين خوف الخطأ ، وفى أى اتجاه يكون الطبيب ، وكيف يمسك الأدوات الجراحية ، ومن أى جهة يكون ذلك ، ذاكراً أسماء الأدوات المستخدمة فى كل عملية نوعها ، ونظافتها ، وكيفية التعامل معها لضرورة اتقان صنعها ونظافتها ،

انه يعطى صورة كاملة تكاد تكون مرئية لكل تلك العمليات خطوة خطوة من أولها وإلى أن تتم خياطة الجرح ، ووضع الدواء وتضميد العين .

ونجده يناقش ويبدى رأيه ، وينتقد جالينوس ويخالفه فى معالجة انسداد الأذن وما يسببه من ثقل فى الرأس فيقول : « فالصواب أن يخلط مع الأدوية التى يعالج بها رغوّة البورق ، والنطرون (١٤٣) ودهن اللوز المر ، وسائر الأدوية التى تفتت الحصى تفتح السدد العارض فى ثقب الأذن » (١٤٤) .

ويشرح لنا الكثير من العمليات النافعة لازالة الأوساخ المتحجرة فى الأذن التى تمنع السمع ، وكيف ينبغى أن تتم العملية ، ويطينا أمثلة لذلك منها معالجته للقراريطى الوزير حين ثقل عليه سمعه وعالجه وأسترد سمعه (١٤٥) ، ويقول فى مكان آخر : « فقد عالجت فتى قد كان له عسر فى سمعه . . فاسقيته حب الصبر ، ثم فتحت أذنه وجعلت فيها قتيلة شربتها بذهن النادرين (١٤٦) فعاداليه سمعه وقد كان فقد سمعه شهوراً كثيرة فسر ذلك الفتى غاية السرور » (١٤٧) . وكان يقوم بأجراء تلك العمليات بنفسه ذاكراً العديد من الأدوية المجربة لمعالجة الأمراض المختلفة التى تصيب الأذن (١٤٨) .

ويتحدث المؤلف فى مواضع كثيرة من كتابه هذا عن معالجاته للكثير من الأمراض الجلدية التى تكون فى الوجه وفى الجسم عامة ، وعن العديد من أدوية الزينة المجربة التى أفادت مرضاه لمعالجة الكلف ، والنمش (١٤٩) وآثار الجدري ، والبثور ، والقوابى (١٥٠) وغيرها ، ولم يقتصر على الأدوية بل تحدث عن الأغذية المختلفة التى تمنع مثل هذه الأمراض وتحافظ على حيوية البشرة ، وهذا يعد باباً مهماً فى العلوم الطبية فى العصر الحديث .

ويلاحظ أنه أثناء استعراضه لمجرباته تلك يوصى بالابتعاد عن بعض الأدوية مما عرف فى كتب القدماء ، لأنه وجد لبعضها آثاراً سيئة على الأمراض كما يبين ذلك حديثه عن بعض الأدوية المستخدمة فى مداواة القوابى (١٥١) ، أما الأدوية الأخرى التى جربها مع مرضاه ولم يكن لها

أية آثار جانبية لا على الجلد أو المرض ذاته كالقروح والبثور وأمثالها فانها كثيرة جداً ، وكان لأغلبها آثاراً ايجابية وسريعة لمعالجة تلك الأمراض الجلدية فمجرباته التي كانت تعالج الكلف كثيرة وناجحة (١٥٢) ، أما الأدوية التي كان يستخدمها مع زملاء مهنته في البيمارستات لعلاج الجرب فذكر ان منها له من القوة ما يقلعه ويزيله لساعة (١٥٣) ، ومنها اذا ما طلى به « الجرب والسعفة قلغها قلغاً عجيباً (١٥٤) » ، ويحدثنا عن ابن البريدى ومعاناته من قوَاب كانت به فطلاها مرات بدهن الحنطة فبرأ (١٥٥) ، ويذكر أدوية مجربة أخذها من زميله سليمان الجرائحى ، وابن المائى ، وكان يستخدمها في البيمارستان ومع مرضاه خارجه ، فذكر تركيبة لمرهم مجرب كان له تأثير فعال فى أكل اللحم الزائد كالثآليل فيقول : انه عالج به جارية ابن مقاتل من توثه كانت تجدها فبرئت بعد أيام ، من دون استخدام دواء آخر (١٥٦) .

أما علاج النمش فيذكر أن أطباء الكوفة كانوا يسقون النساء بعض الأدوية التي تسمن ليذهب النمش (١٥٧) ، وقد عالج بهذه الطريقة جارية فى دار العلوى كان بوجهها نمش ، فكان يعطيها بعض الأدوية المسمنة (١٥٨) . على أن أفضل المجربات التي كان يستخدمها فى معالجة النمش هو ما أخذه من أبجد زملائه فى بيمارستان صاعد ، فذكر أنه كان يطلى النمش بعسل البلاذر (١٥٩) ويتركه لساعة ثم يغسله ويطلّيه بمرهم الاسفيداج (١٦٠) والكافور (١٦١) فيزيل النمش (١٦٢) .

وأورد لنا عدداً من السنونات ، وهى أدوية مركبة تستخدم لتنظيف الأسنان وحفظها من التآكل والتسوس ، وأوصى فى استخدامها بأن توضع على السواك ثم تجلى به الأسنان (١٦٣) ، ويسوق اليها مركبات أخرى من الأدوية التي لها من الأثر ما يمكن معه قلع الضروس المتآكلة بغير حديد ، وأخرى يمكن استخدامها فى قلع الضروس من غير ألم (١٦٤) ، وذكر عدداً من الأدوية المجربة فى البيمارستانات والتي كان يستخدمها مع مرضاه لعلاج أمراض الفم المختلفة كالبتور ، والقروح (١٦٥) ، والتهاب الحلق (١٦٦) والسعال (١٦٧) والأدوية التي تقوى اللثة وتقطع الدم المنبعث منها (١٦٨) ، وسنناق لنا حكايته عن الدواء الذى عمله

للاستاذ أبى القوارس ياقسوت وكان له منفعة عظيمة فى معالجة الخناق (١٦٩) الذى كان يعانى منه (١٧٠) .

وعقد الكشكرى دراسة رائعة عن المعدة وأمراضها ومداواتها ، واتسمت دراسته تلك بالطابع العملى بشكل كبير لا نجده فى أغلب موضوعات كتابه ، فذكر أمراض المعدة المختلفة ، وكيفية علاجها وذكر الكثير من الوصفات الطبية المفردة والمركبة والتي كان يعدها بنفسه ذاكراً أهميتها وقدرتها الدوائية بعد التجريب .

ونجده هنا يناقش بعض مسائل الطب ويطرح وجهة نظر من سبقه من الأطباء اليونانيين ، ثم يبدى وجهة نظره ويؤكد خطأ من سبقه من الأطباء وصحة وجهة نظره المدعومة بالتجريب ، فشكوكه ووجهات نظره تلك جاءت من باب إيمانه وقناعته بالتجريب ، ومن باب طول الخبرة وكثرة الممارسة فى الأعمال الطبية ، ومن ذلك ما أكدته أثناء استعراضه لأراء بعض الأطباء فى كيفية استخدام الصبر (١٧١) واختلافهم فى ذلك فيذكر ما صح عمله وأثبتته التجربة قائلاً : « فأما نحن فينبغى أن نعلم أن الصبر الذى لم يغسل أوفق وأصلح للبطن » (١٧٢) .

وفى موقع آخر يؤكد خطأ ما ذهب إليه ابقراط فى إحدى معالجاته فيقول : « قال المصنف : ليس هذا من علاج البيمارستان وإنما كتبته ليعرف ما قال ابقراط ، ولم تجر العادة باستعماله فلا تستعمله » (١٧٣) .

ولطول دربه فى المعالجة يلاحظ معرفته وأدراكه لأنواع الأدوية كيف تستخدم ، ومتى ينبغى ذلك ، وما هى الحالات التى يمكن أن تعطى فيها تلك الأدوية فنجده يحذر ويوصى بعدم استخدام الكندرس (١٧٤) والخريق (١٧٥) مع أدوية القيء لأنها تحدث للمريض « القيء المنكر الذريع البالغ فيعرض من ذلك التشنج » (١٧٦) .

وكان شديد الحرص فى أعماله الطبية ومعالجاته على سلامة المريض ، وتجنب الخطأ فى المعالجة ، لعظم المسؤولية الملقاه على على الطبيب فى عمله ، فيحذر قائلاً ، « قال يعقوب ان استعمال الفصد فى

هذا المرض من جهات فلا تستعمله ، فان أطباء هذا البلد يخطئونك ، وينسبونك انك أعنت على قتله «(١٧٧) .

وفى مداواته لعل المعدة يذكر لنا أصنافاً من الأدوية المجربة النافعة منها وصفات كان يعالج بها بعض الكبراء فى وقته ، ومنها وصفات مجربة أخذها من زملائه الأطباء ، وهناك التجربات التى كان يستخدمها فى البيمارستانات مع المرضى ، وهناك بعض الأدوية التى كان يقوم بتركيبها بنفسه ويعالج بها عامة المرضى . فيذكر أن أبا الفوارس ياقوت كان مع كبر سنه يعانى من آلام فى معدته وسوء هضم فعمل له دواء مركباً ونجد منفعته كبيرة (١٧٨) ، وكذلك عمل دواء لأبى على عمر بن يحيى العلوى كان يأخذه بعد الغذاء وكان يساعده على هضم الطعام ، وتحليل الرياح التى تتولد فى المعدة والأمعاء (١٧٩) ، كما أنه كان يركب الكثير من أنواع الجوارشنات (١٨٠) والتى كان يهديها لأصدقائه (١٨١) .

وكان من ضمن أدوية المعدة ما كان يأخذ صفته من زملاء المهنة فيذكر صفة جوارشن الأترج وماله من سمات طبية جيدة ، يقول أنه أخذ نسخته من جابر المتطبب الذى كان فى دار الخلافة (١٨٢) ، وكذلك شراب المصطكى الذى أخذ نسخته من عيسى متطبب شفيح وعمله الإثنان للأستاذ أبى الفوارس ياقوت (١٨٣) .

وذكر أصنافاً متعددة من الأدوية المفردة والمركبة التى كانت تتركب فى البيمارستانات التى كان يعمل فيها ، وأشار الى أن بعض هذه الأدوية كان يقوم بتركيبها مباشرة بعض زملائه مثل ابراهيم بن صدقه الذى كان يعمل الأدوية والأشربة فى بيمارستان صاعد ، ومارستان السيدة (١٨٤) ، والبعض منها كان ضمن قائمة الأدوية المعدة مسبقاً فى البيمارستانات التى كان يقوم الصيادلة بتركيبها باستمرار لكثرة الطلب عليها ، وكانت هذه الأدوية من ضمن أشهر الأدوية التى اتفق على أهميتها وضرورتها الأطباء والصيادلة لما لها من قوة شفائية فى معالجة الأمراض المختلفة التى تصيب المعدة (١٨٥) . على أن أهم ما أورده من تلك الأدوية والذى أثبت قوته الشفائية بعد التجريب هو : « ترياق الأربعة (١٨٦) الذى يقول عنه : « وجربته أنا ، وضح على يدي ، وقد قابلت به النسخ (مجلة المؤرخ العربى)

المعمولة فى البيمارستانات ، ولهذا الترياق المعروف بالأربعة منافع من الرياح الغليظة التى تحدث فى المعدة ، ومن السموم القاتلة المشروية ... « (١٨٧) » .

وأشار الى العديد من المجرىبات الأخرى التى تخفف آلام المعدة بشكل عام ، وجربها وكانت منفعتها جيدة مثل شراب التفاح (١٨٨) ، وبعض الجوارشنات اللطيفة التى كانت تعطى للمرضى الذين يكرهون شرب الأدوية شديدة المرارة (١٨٩) . وأدوية أخرى مركبة تخلط مع الصبر (١٩٠) تنفع من آلام المعدة ، وتحلل الرياح التى تتولد فيها (١٩١) ومن أهم ما ذكره مما يخص هذه الرياح : « قال يعقوب : قد رأيت فواقاً (١٩٢) من ريح حدثت ، تولدت فى المعدة من غذاء يولد رياحاً ، فدفعت الى من أصابه ذلك صعتر (١٩٣) وكمون كرمانى (١٩٤) بماء حار فسكن الفواق لساعته » (١٩٥) ، ويذكر أيضاً تركيبة دوائية تعمل أقراصاً كانوا يستخدمونها فى البيمارستان للمرضى الذين يعانون التهاب المعدة ونفث الدم وسماها « أقراص الكرياء » (١٩٦) ، ومن ضمن ما أشار اليه من الأدوية التى لاحظ قوتها الشفائية تلك الوصفة الدوائية التى أخذها من بعض الأطباء ، وكان لها منفعة جيدة للمعدة وللحميات الحادة يقول عنها : « وقد عملته أنا بالكوفة وكان نافع طيب » (١٩٧) .

ولم يكن الكشكرى من الأطباء الذين يأخذون بالموروثات الطبية كمسلمات وحقائق غير قابلة للنقاش ، بل أنه كان ينتقد ويصحح ويجرب ويقيس فيقول منتقداً ومصححاً : « ذكر بعض المتطبيين اليونانيين أن اسم النشأ باليونانية - أملن - (١٩٨) وأن الناسخ غلط فى وقت نسخه فأسقط نصف الاسم من الشبرم ، واسمه باليونانية - توث أملن - قال يعقوب انه لم يكن فى القديم نشأ وإنما كان فيه شبرم (١٩٩) وإنما غلط الناسخ الذى نقل من اليونانية الى العربية » (٢٠٠) .

ويسوق إلينا الكثير من الأدوية المختلفة من مجربات البيمارستان مثل حب العدد الذى كان يداوى به المستسقين (٢٠١) ، وأدوية أخرى

لمعالجة التهابات الكلى والمثانة (٢٠٢) ، وصفات طبية متعددة لمداوة
أمراض الدم ، وأخرى لمنع الحمل (٢٠٣) .

ويبدو من خلال حديثه عن الأمراض التي تحدث في المستقيم
كالبواسير والتوت وأمثالها أنه كان خبيراً بها إلى درجة بعيدة ، فقد
اشتهر بمحققته التي توضع فيها الأدوية ويحقن بها المرضى الذين كانوا
يعانون من القروح والتوت في المستقيم ، ويذكر أنه أخذ تلك الطريقة
في المعالجة من ابن الماي الطبيب قائلاً : « وقد عالجت بهذه الصفة لمن
تقوم المدة في المقعدة في أول المعالمة المستقيم ... وجعلته في المحقنة
وعالجت به فنفع » (٢٠٤) .

ويذكر في ثانيا حديثه الكثير من الوصفات الطبية لأدوية مفردة
ومركبة لبواسير والتوت والتهابت المستقيم وقروحه ، بعضها كان يعمل
بنفسه وجربها مع مرضاه ووصفها بأنها كانت قسوية وعجيبة
المعالجة (٢٠٥) ، ومنها ما كان مخصصاً لقلع التوت وأكل اللحم
الزائد (٢٠٦) ، والبعض الآخر كان يعطيها للمرضى الذين يعانون الزحير
وأمراض الأمساك المزمن (٢٠٧) ، وأغلب تلك الأدوية كان من مجرباته
وبعضها أخذ وصفاتها من زملائه الأطباء (٢٠٨) والبعض كان ضمن أدوية
البيمارستانات التي كان يعمل فيها (٢٠٩) .

لقد كانت البيمارستانات الثلاثة ميداناً رحباً لأجراء تجاربه
بالمشاوره بينه وبين زملائه الأطباء ، والظاهر أن أغلب المعالجات
والأدوية لم يكن يسمح بوضعها في قائمة أدوية البيمارستانات حتى تثبت
قدرتها العلاجية بشكل أفضل من غيرها ، وأن لا تترك أثراً ضاراً على
حياة الناس وصحة أبدانهم فتجذده يقول بعد أحد تجاربه الدوائية
الناجحة : « وانا مثبت ما استعملته وجربته في علاجى لهذا المرض
أعنى : الوشواس السوداوى (٢١٠) في البيمارستانات التي خدمت
فيها ... » (٢١١) وأكد أن الكثير منها من عمله وتوليئه وكانت نتيجة
خبراته وتجاربه (٢١٢) .

ويلاحظ أنه كان يقارن بين ما توصل اليه من نتائج في معالجاته

المبنية على التجربة ، وبين ما كان يأخذه من زملاء المهنة من وصفات مختلفة ، أو ما كان يجده في أقرباذه في البيمارستان من وصفات أخرى ، فيتحدث عن الفرق الحاصل بينها في العمل والمعالجة فيقول : أنه وجد في بعض الوصفات الموجودة في البيمارستان مفردات أخرى زائدة عن الحد الذي يتوجبه صنع ذلك الدواء (٢١٣) .

ويحذر من استخدام بعض الأدوية القوية على الأبدان والمغيرة للأمزجة إلا بعد أن تكون الأبدان مستعدة لقبول تلك الأدوية فهو يقول : « قال يعقوب المصنف الكشكراني : ليس يجب أن يسقى مفلوج (٢١٤) أو من به لقوه (٢١٥) أو صرع ايارج (٢١٦) لوغاديا إلا بعد أن ينقى البدن » (٢١٧) .

واستعرض لذكر بعض الحالات المرضية الغربية التي صادفته أثناء عمله في البيمارستانات ، وقارن بينها وبين ما لديه من علم نظري ، وساق منها بعض الأخبار التي تؤكد التوافق العلمي بين ما يدلى به من آراء نظرية وبين تلك الحالات التي تشهد بصدق ما ذهب إليه ، بل أنه يعارض أحيانا ما ذهب إليه الأطباء ولم يعاينه فيقول أثناء كلامه عن التشنج وآثاره السيئة على الإنسان : « فقد رأيت في بيمارستان صاعد جماعة لصوص قطعت أيديهم فتشنجوا فما عاش واحد منهم » (٢١٨) ، ويقول في موضع آخر لكلامه ومخالفاً لرأي ابقراط : « ويعقوب الكشكري يقول : اننا لم نر هذه الحميات في خدمتنا لبيمارستانات عرضت لأحد ... » (٢١٩) ، أما ملاحظته في بيمارستانات بغداد من أعمال جيدة ومعالجات رائعة لبعض زملائه الأطباء ، فقد أوردنا منها البعض وأسوق أخيراً شهادته بذكر تقدم وفضل أحد أطباء الحجاز ومهارته قائلاً : « وقد كان معنا في بيمارستان السيدة أم أمير المؤمنين المقتدر أيدهما الله رجل من أهل الحجاز كان يحسن أخراج العرق المديني (٢٢٠) ومداواته حتى لا يبقى منه شيء البتة » (٢٢١) .

الهوامش

(١) سنتعرض لهذه الأسماء أثناء الحديث عن مصادره .

(٢) لم أجد من المشاهير والذي كان له عناية بالأطباء ، وكان يحب الخير وينفذ الصدقات كل يوم على الفقراء سوى الوزير الملقب بذي الرياستين صاعد بن مخلد . كان كريما عطوفا على الفقراء محبا لهم ، فيبدو أنه هو الذي أنشأ هذا المستشفى . وقد عاش الكشكري في أواخر أيامه ، توفي سنة ٢٧٦هـ / ٨٨٩م . ابن الجوزي : المنتظم ج ١٢ ، ص ٢٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٢٧ - ٣٩٣ - ٤١١ - ٤١٤ .

(٣) بدر بن عبد الله الحمامي ، يلقب بابي النجم كان مولى للمعتضد بالله ، اشتهر بالشجاعة وحب العلم والعلماء ، تدرج حتى أصبح بمنزلة كبيرة من دار الخلافة ، تولى الشرطة ، وتولى الامارة في العديد من البلدان كفارس ، ومصر مع ابن طولون . توفي ٢٨٩هـ / ٩٠١م ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٧ ، ص ١٠٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٥٤٦ - ٤٨٠ - ٥٠٩ - ٥١٧ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٤) مارستان السيدة ، واسمها شغب ، كانت جارية للمعتضد بالله ثم تزوجها بعد عتقها ، وكانت متنفذة متصرفة في أمور الخلافة على أيام ابنها المقتدر ، وكانت حازمة صالحة كثيرة الخير والبر ، توفيت سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٤٧٤ ، ج ٨ ، ص ١١ - ١٤٧ - ١٥٨ - ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٤١ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٨٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٦٤ - ١٩٣ - ٢٠٤ - ٢٢٣ - ٢٣٩ .

(٥) الكشكري : الكنash ، الورقة ١٣٠ ب .

(٦) ن . م . س . الورقة ٧٦ ب .

(٧) ن . م . س . الورقة ١٠٢ ب .

(٨) محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الاسكافي ، استوزره المتقي العباسي بموات عديدة وكان أولها سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠م ، اشتهر بالشجاعة والغلظة . ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٤٩ - ٣٠٥ - ٣٧٥ - ٣٧٩ - ٤٠٤ - ٤٦٨ .

(٩) الكشكري : الكنash ، الورقة ٦٠ ب .

(١٠) انظر مثلاً ن . م . س . الورقة ١٠٥ ب - ١٠٦ ب .

- (١١) ن . م . س ، الورقة ١٠٨ ب .
- (١٢) ن . م . س ، الورقة ١٠٥ ب ، والقشوري هو أحمد بن نصر وكان حاجبا للخليفة المقتدر ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ١٩٨ - ٢١٩ .
- (١٣) عيون الأنباء ، ص ٢٢٩ .
- (١٤) ن . م . س ، ص ٢٢١ .
- (١٥) ن . م . س ، ص ٣٢٢ .
- (١٦) الكشكري : الكناش ، الورقة ١٧٨ ، وكانت وفاة ثابت بن قرة سنة ٢٨٨هـ / ٩٠٠م . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٧ .
- (١٧) عيون الأنباء ، ص ٣٢٢ .
- (١٨) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٤٠ ، أحمد عيسى بيك : آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب ، ص ٩ .
- (١٩) المدة : (بكسر الميم) هو قبيح لم يكتمل نضجه ، الخطابي : الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الاسلامي ، ص ٥٧٩ .
- (٢٠) الكشكري : الكناش . الورقة ٧٨ ب .
- (٢١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٢٢ .
- (٢٢) الاقربانين : معجم لاسماء الادوية .
- (٢٣) الورقة ٢٨٧ ب .
- (٢٤) الورقة ٧ ب .
- (٢٥) عيون الأنباء ، ص ٣٢٢ .
- (٢٦) عيون الأنباء ، ص ٣٢٢ .
- (٢٧) الكناش . الورقة ١٧٧ ب .
- (٢٨) ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٤١٧ ، أخبار سنة ٣٣٢ هـ ، والموصل مدينة معروفة تقع شمال العراق .
- (٢٩) الكناش : الورقة ٢٠٥ ب . وشفيع هنا هو شفيع اللؤلؤي ، اشتهر على أبا الخليفة المقتدر العباسي . وكان يتولى البريد وغيره من الأعمال ت ٣١٢هـ / ٩٢٤م ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ١٥٧ .
- (٣٠) كان ياقوت المدير أشهر قواد عصره ، وكان له دور بارز في حسب القرامطة في الكوفة وجنوب العراق ، تولى عدة مناصب أبان خلافة المقتدر العباسي ، قتله جنود البريدي سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٥م ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٣١٥ .

- (٣١) الكناش ، الورقة ١٧ ١ - ٧٢ ب - ٢٥٠ ب .
- (٣٢) ن . م . س ، ١٧٤ ، وكان البريدى من كبار القواد على عهد المقتدر والظاهر ، والراضى والمتقى ، برز نجمه واخوته على عهد وزارة ابن مقله فى خلافة المقتدر ت ٣٣٢هـ / ٩٤٣م . ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٤١٠ .
- (٣٣) الكناش ، الورقة ١٠٩ ١ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ١٩٨ - ٢١٩ .
- (٣٤) الكناش ، الورقة ١٤٨ ١ .
- (٣٥) ن . م . س ، الورقة ٢٠٣ ب .
- (٣٦) ن . م . س ، الورقة ١٠٢ ب .
- (٣٧) ن . م . س ، الورقة ٧٦ ب .
- (٣٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٩٥ .
- (٣٩) لمعلومات موسعة عن هذه الثورة . انظر ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، صص ٢٠٥ - ٤٠٦ .
- (٤٠) ن . م . س ، ج ٧ ، ص ٣٩٩ - ٤٠٦ .
- (٤١) ن . م . س ، ج ٨ ، ص ١٨١ .
- (٤٢) مسكويه : تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٨٥ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٤٩ .
- (٤٣) لمعلومات مفصلة عن الحركة الفكرية والعلمية فى هذا العصر انظر ، متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ١ ، ص ٣١٩ - ٥٠٩ ، ج ٢ ، صص ٧ - ١٨ ، لوبون : حضارة العرب صص ٤٣٣ - ٤٩٤ .
- (٤٤) سيأتى الحديث عنها بالتفصيل فى بابها .
- (٤٥) سيأتى الحديث عن ذلك فيما بعد أيضا .
- (٤٦) الورقة ٢٨٧ ب .
- (٤٧) طبعت بالتصوير ، ضمن منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية ، فى فرانكفورت ، بألمانيا الاتحادية ، من اصدار البروفسور فؤاد سزكين ١٤٠٥ هـ .
- (٤٨) الورقة ٧ ب .
- (٤٩) من أطباء القرن الثالث الهجرى ، له من الكتب الكناش الكبير ، والكناش الصغير نقلها هو من السريانى الى العربى ، النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ج ٤ ، ص ٢٦٩ .

(٥٠) ص ٤٤ .

(٥١) الكناش ، الورقة ٩٢ .

(٥٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٧ وما بعدها ، ابن فاتك : مختار الحكم ومحاسن الكلم ، ص ٢٨٨ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، صص ١٠٩ - ١٤٩ .

(٥٣) العسيري : تعليم الطب في المشرق الاسلامي ، نظمه ومناهجته حتى نهاية القرن السابع الهجري ، ص ٢٤ وما بعدها .

(٥٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٥٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٨ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٣٤ - ١٣٥ . وهذا الكتاب مطبوع بتحقيق د/محمد سليم سالم ، ضمن جوامع الاسكندرانيين ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢ م .

(٥٦) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم ، ص ١٥٧ ، النديم الفهرست ، ص ٣٤٨ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٣٧ .

(٥٧) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٥٥ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٣٦ .

(٥٨) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٦٥ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٤١ .

(٥٩) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٦١ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٣٩ .

(٦٣) الفهرست ، ص ٣٤٨ .

(٦٤) رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٦٥) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٦٩ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٤٣ .

(٦٦) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٥٥ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٣٦ .

(٦٧) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٦٩ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٤٣ .

(٦٨) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن أبي اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٧٠ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٤٤ .

- (٦٩) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٦٦ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٤٢ .
- (٧٠) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٥١ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٢٤ .
- (٧١) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٥٠ - ١٥١ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٢٤ .
- (٧٢) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٦٧ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٤٢ .
- (٧٣) انظر كتاب تركيب الأدوية رقم (١) من كتب جالينوس التي اعتمدها الكشكري في مصادره .
- (٧٤) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٦٧ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٤٢ .
- (٧٥) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى ، ص ١٦٧ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٤٢ .
- (٧٦) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٦ ، ابن فاتك : مختار الحكم ، ص ٤٤ ، القفطي : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٦٤ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٣ وما بعدها .
- (٧٧) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٤ ، فهرس مخطوطات الطب الاسلامي في مكتبات تركيا ، ص ٧ .
- (٧٨) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٤ ، فهرس مخطوطات الطب الاسلامي في مكتبات تركيا ، ص ٢ .
- (٨٠) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٥ ، فهرس مخطوطات الطب الاسلامي في مكتبات تركيا ، ص ٦ .
- (٨١) ابن جلجل : طبقات الاطباء والحكماء ، ص ٢٣ ، النديم : الفهرست ، ص ٣٠٦ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٨١ .
- (٨٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٠ ، القفطي : اخبار العلماء ، ص ١٢٧ .
- (٨٣) انظر الحاشية السابقة .
- (٨٤) ابن جلجل : طبقات الاطباء والحكماء ، ص ٢٥ ، النديم : الفهرست ، ص ٣٠٧ ، القفطي : اخبار العلماء ، ص ٢١ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٨٦ .

- (٨٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٥١ .
- (٨٦) النديم : الفهرست ، ص ٣٥١ ، القفطى : أخبار العلماء ، ص ١٧٢ .
- (٨٧) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ص ٢٤٦ - ٢٥٥ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ج ٤ ، ص ٣٦٤ ، القفطى : أخبار العلماء ، ص ٢٤٩ .
- (٨٨) القفطى : أخبار العلماء ، ص ٢٤٩ .
- (٨٩) انظر حاشية ١ ، ٢ .
- (٩٠) سماه القفطى « كتاب التمام والكمال » ، انظر الحواشى ١ - ٢ - ٣ .
- (٩١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٥٧ - ٢٧١ .
- (٩٢) ن . م . س ، ص ٢٧٦ .
- (٩٣) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٣ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٣ .
- (٩٤) النديم : الفهرست ، ص ٢٥٦ ، القفطى : أخبار العلماء ، ص ٢٥٧ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٨ .
- (٩٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، القفطى : أخبار العلماء ، ص ٢٤٨ . ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٥٨ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ج ٤ ، ص ٢٦٩ .
- (٩٦) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، وسماه على بن رطل ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤١٤ .
- (٩٧) القفطى : أخبار العلماء ، ص ٨٠ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٥ وما بعدها .
- (٩٨) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٥ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٦ .
- (٩٩) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٥ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٣٠ .
- (١٠٠) الكنز ، الورقة ٣٤ ب .
- (١٠١) ن . م . س ، الورقة ٤٣ ١ .
- (١٠٢) ن . م . س ، الورقة ٨٧ ١ .
- (١٠٣) ن . م . س ، الورقة ٥٢ ١ .
- (١٠٤) ن . م . س ، الورقة ٥٢ ب .
- (١٠٥) ن . م . س ، الورقة ٥٢ ١ .

- (١٠٦) الكناش ، الورقة ١٨٤ .
- (١٠٧) ن . م . س ، الورقة ١١٠٩ .
- (١٠٨) ن . م . س ، الورقة ١٢٦٥ .
- (١٠٩) ن . م . س ، الورقة ١١١٦ .
- (١٠٩) ن . م . س ، الورقة ١١١٦ .
- (١١٠) وسنتعرض لذلك بالتفصيل والاستشهاد عند الحديث عن أهم دراساته وتجاريبه العملية .
- (١١١) الكناش ، الورقة ٧ ب - ١٨ ب - ١٩ .
- (١١٢) الكناش ، الورقة ١١٠ .
- (١١٣) ن . م . س ، الورقة ١١ ب .
- (١١٤) الكناش ، الورقة ٩ ب .
- (١١٥) ن . م . س ، الورقة ١١ ب .
- (١١٦) اللادن : نوع من الشجر يستخرج منها مادة صمغية يعمل منها البعض أقراصا تستخدم كدواء ، ابن البيطار : الجامع لفردات الأدوية والأغذية ، ج ٤ ، ص ٣٥٩ .
- (١١٧) الكناش ، الورقة ٩ ب .
- (١١٨) ن . م . س ، الورقة ١٣ ب - ٢١ ب . وداء الحية : أن يتقشر الجلد مع تناثر الشعر ، وداء الثعلب : أن يتناثر الشعر من الرأس والحية حتى يتعري مكانه . العمرى : التنوير فى الاصطلاحات الطبية ، ص ٦١ .
- (١١٩) الابرية ، والحزاز : الفخالة التى تتكون فى الرأس ، وهو ما هو معروف الآن بالقشرة ، ابن سينا : القانون ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ .
- (١٢٠) السعفه : بثور وتقرحات تحدث فى الرأس وتصاحبها حكة ، ن . م . س ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ .
- (١٢١) الكناش ، الورقة ١١٧ .
- (١٢٢) ن . م . س ، الورقة ١٤٠ .
- (١٢٣) الكناش ، الورقة ١٨ ب .
- (١٢٤) ن . م . س ، و ١١٦ - ١١٩ ب .
- (١٢٥) ن . م . س ، الورقة ٢٠ ب - ٢١ .

- (١٢٦) ن . م . س ، الورقة ١٢٣ .
- (١٢٧) الاشياف : كلمة يونانية تعنى المعجونة والمستخدمه لعلاج العيون وقد يطلق على ما يتحمل فى المقعدة ، حنين بن اسحاق : كتاب العشر مقالات فى العين ، ص ١٩٥ ، القمرى : التنوير ، ص ٧٩ .
- والسقوط : كلمة يونانية « بطو منقى » ومعناه المعطس ، ابن البيطار : الجامع ، ج ٣ ، ص ٢١ .
- الذرورات : الادوية المسحوقة ومنها ما يستخدم لعلاج العين ، الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٤٠ ، القمرى : التنوير ، ص ٧٨ .
- (١٢٨) الكناش ، الورقة ٤٨ ب .
- (١٢٩) ن . م . س ، الورقة ١٤٢ .
- (١٣٠) الكناش ، الورقة ٤٨ ب .
- (١٣١) ن . م . س ، الورقة ٥٢ ب .
- (١٣٢) المدة : الحديد .
- (١٣٣) الشبكرة : لفظة فارسية ومعناها عمى الليل ، واصليها شوكونرا ، الحموى : نور العيون وجامع الفنون ، ص ٥٠٦ .
- (١٣٤) الكناش ، الورقة ١٤٣ ب ، ١٤٤ - ٤٨ ب - ٥٢ ب .
- (١٣٥) ن . م . س ، الورقة ١٥١ .
- (١٣٦) ن . م . س ، الورقة ١٤٨ ، والقمر : يقول ابن منظور القمن تحير البصر من الثلج ، وقمر الرجل : حار بصره فى الثلج فلم يبصر ، لسان العرب ج ٥ ، ص ١٤٤ .
- (١٣٧) الكناش ، الورقة ١٤٨ .
- (١٣٨) ص ٥ .
- (١٣٩) الكناش ، الورقة ١٥٢ .
- (١٤٠) البثر : نفاخات مائية فى بعض قشور القرنية ما بين قشرتين ، لمعلومات موسعة انظر : الحموى : نور العيون وجامع الفنون ، ص ٣٣٩ .
- (١٤١) الكناش ، الورقة ٥٢ ب .
- (١٤٢) ن . م . ش ، و و ٥٣ ب - ١٥٩ .
- (١٤٣) عن البورق ، النطرون . انظر على التوالى ابن البيطار : الجامع ، ج ١ ، ص ١٧٠ ، ج ٤ ، ص ٤٧٩ .

- (١٤٤) الكناش ، الورقة ٦٠ ب
- (١٤٥) الكناش ، الورقة ١٦١
- (١٤٦) ابن البيطار : الجامع ، ج ٤ ، ص ٤٧١
- (١٤٧) الكناش ، الورقة ٦٠ ب
- (١٤٨) الكناش و و ٦٠ ب - ١٦٤
- (١٤٩) يقول ابن سينا : انه اذا احتقن الدم تحت أعلى الجلد في موضع فان الجلد يتأذى ويتغير لونه فما هو الى الحمرة يكون نمشا ، واللطخ منه او النقطة يسمى كلفا • القانون ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ ، القميرى : التنوير في الاصطلاحات الطبية ، ص ٦
- (١٥٠) القوابى : بثور قرحية مجتمعه ترشح ماء قليلا اذا جكت ويكون مثل الدواير في الأكثر • ابن سينا : القانون ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ ، القميرى : التنوير ، ص ٦٣
- (١٥١) الكناش ، الورقة ٧٥ ب
- (١٥٢) الكناش ، الورقة ١٧١
- (١٥٣) ن • م • س ، الورقة ٢٣٥ ب - ٢٣٦
- (١٥٤) ن • م • س ، الورقة ١٧٨
- (١٥٥) ن • م • س ، الورقة ٧٤ ب
- (١٥٦) ن • م • س ، الورقة ١٧٧ ب ، ٧٨ ب
- (١٥٧) ن • م • س ، الورقة ١٧٨
- (١٥٨) ن • م • س ، الورقة ٧٧ ب
- (١٥٩) ابن البيطار : الجامع ، ج ١ ، ص ١٥٤
- (١٦٠) ن • م • س ، ج ١ ، ص ٤٢
- (١٦١) ن • م • س ، ج ٤ ، ص ٢٩٦
- (١٦٢) الكناش ، الورقة ٢٣٧
- (١٦٣) ن • م • س ، الورقة ٨٣ ب
- (١٦٤) الكناش ، الورقة ٨٣ ب
- (١٦٥) ن • م • س ، الورقة ٢٨٧
- (١٦٦) ن • م • س ، الورقة ٨٩ ب

- (١٦٧) ن ° م ° س ، الورقة ١٥٢ ب — ١٥٦ ب °
- (١٦٨) ن ° م ° س ، الورقة ٨٨ ب °
- (١٦٩) الخناق : هو امتناع التنفس وله أسباب متعددة منها الالتهابات الشديدة
الحادثة فى الحلق واللوزتين فتسبب انسداد مجارى التنفس ° ابن سينا : القانون ،
ج ٢ ، ص ١٩٨ °
- (١٧٠) الكناش ، الورقة ١٩٢ °
- (١٧٠) الكناش ، الورقة ١٩٢ °
- (١٧١) ابن البيطار : الجامع ، ج ٣ ، ص ١٠٤ °
- (١٧٢) الكناش ، الورقة ٩٣ ب °
- (١٧٣) الكناش ، الورقة ١٢٤ ب °
- (١٧٣) ابن البيطار : الجامع ، ج ٤ ، ص ٣٤٨ °
- (١٧٥) ن ° م ° س ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ — ٣٢١ °
- (١٧٦) الكناش ، الورقة ١١٣ ب °
- (١٧٧) ن ° م ° س ، الورقة ١٢٣ ب °
- (١٧٨) ن ° م ° س ، الورقة ١٠٦ ب — ١١٢ ب °
- (١٧٩) الكناش ، الورقة ٢٠٩ ب °
- (١٨٠) الجوارشن : كلمة فارسية تعنى هاضم الطعام ، وأكثر ما يقع هذا
الاسم على المعجونات التى فيها الافاوية والزنجبيل ، وتكون عذبة الطعم طيبة الرائحة °
القمرى : التنوير ، ص ٨٧ °
- (١٨١) الكناش ، الورقة ١٠٠ ب °
- (١٨٢) ن ° م ° س ، الورقة ١٠٣ ب °
- (١٨٣) ن ° م ° س ، الورقة ١٠٧ ب °
- (١٨٤) ن ° م ° س ، الورقة ١٠٥ ب °
- (١٨٥) ن ° م ° س ، الورقة ٩٧ ب — ١٠٠ ب — ١٠٥ ب °
- (١٨٦) الترياق : مشتق من تيريون باليونانية ، وهو اسم لما ينهش من الحيوان
كالأفاعى ونحوها ، وترياق الأربعة سمي بذلك لأنه مركب من أربعة أخلاط من الادوية °
الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٣٩ °
- (١٨٧) الكناش ، الورقة ١٠١ ب °

- (١٨٨) ن . م . س ، الورقة ١٠٦ ب .
- (١٨٩) الكناش ، الورقة ١٠٧ ب - ١١٠٨ .
- (١٩٠) الصبر ، معروف ، ذكر ابن البيطار أن له فوائد جمة في معالجة الكثير من الأمراض . الجامع ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .
- (١٩١) الكناش ، الورقة ١٩٧ .
- (١٩٢) القواق : يقول ابن سينا أنه : حركة مختلفة مركبة كتشنج انقباض مع تمدد انبساطي كان في فم المعدة ، أو جميع جرمها ، أو المرئ منها يجتمع الى ذاتها بالتشنج هربا من المؤذي . القانون ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ .
- (١٩٣) ابن البيطار : الجامع ، ج ٣ ، ص ١١١ .
- (١٩٤) ن . م . س ، ج ٤ ، ص ٣٤٦ حيث ذكر نقلا عن ابن سينا أن من أنواع الكمون ما يسمى بالكرمانى .
- (١٩٥) الكناش ، الورقة ٩٤ ب .
- (١٩٦) ن . م . س ، الورقة ١٥٦ ب - ١٥٨ ب ، وعن الكارباء ، انظر ابن البيطار : الجامع ، ج ٤ ، ص ٢٩٩ .
- (١٩٧) الكناش ، الورقة ٢٥١ ب .
- (١٩٨) ابن البيطار : الجامع ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .
- (١٩٩) ن . م . س ، ج ٣ ، ص ٦٧ .
- (٢٠٠) الكناش ، الورقة ٢٤٥ ب .
- (٢٠١) ن . م . س ، الورقة ٢٦٤ ب ، والاستسقاء : هو انتفاخ البطن وهو انواع زقى ، وطبلى ، ولحمى . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٣٢ .
- (٢٠٢) الكناش ، الورقة ٢٦٩ ب .
- (٢٠٣) ن . م . س ، الورقة ٢٧٩ ب .
- (٢٠٤) الكناش ، الورقة ١٧٩ ب .
- (٢٠٥) ن . م . س ، الورقة ٢٥٧ ب .
- (٢٠٦) ن . م . س ، الورقة ١٧٧ ب .
- (٢٠٧) ن . م . س ، الورقة ٢٥٤ ب - ٢٥٦ ب .
- (٢٠٨) ن . م . س ، الورقة ٢٥٤ ب .
- (٢٠٩) ن . م . س ، الورقة ٢٥٦ ب .

(٢١٠) الوسواس السوداوى : وهو ما يعرف بالماليخوليا ، وهو مرض يضر بالفكر من غير تعطل الأفعال . القمري : التنوير ، ص ٥٢ .

(٢١١) الكناش ، الورقة ١٣١ .

(٢١٢) ن . م . س ، الورقة ١٣٦ .

(٢١٣) الكناش ، الورقة ١٧٨ .

(٢١٤) الفالج : هو استرجاء أحد الجانبين من الانسان ، وقد فلج إذا ذهب الحس والحركة عن بعض أعضائه . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٣١ ، وهو ما يعرف اليوم بالشلل النصفي .

(٢١٥) اللقوه : ان يتعوج وجه الانسان فلا يقدر على تغميض إحدى عينيه . ن . م . س ، ص ١٣١ ، القمري : التنوير ، ص ٥٤ .

(٢١٦) الأيارج : أو الأرياج تركيبة من الأدوية تزداد فيها الحرارة ويغلب عليها شحم الحنظل . الزهراوى : التصريف لمن عجز عن التأليف ، الورقة ١٩٦ .

(٢١٧) الكناش ، الورقة ١٢٧ .

(٢١٨) ن . م . س ، الورقة ١٤٥ ب .

(٢١٩) ن . م . س ، الورقة ١٧٢ ب .

(٢٢٠) العرق المدينى : عرق يبرز من مكان الى مكان فى الرجل أولا فأولا ثم ينقطع . القمري : التنوير ، ص ٦٠ .

(٢٢١) الكناش ، الورقة ٢٩٠ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر المخطوطة :

- الزهراوى : خلف بن عباس (ت ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) « التصريف لمن عجز عن التأليف » مخطوط بشير آغا رقم ٥٠٢ ، مكتبة السليمانية ، استانبول .
- الكشكرى : يعقوب (ت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) « الكناش » مخطوط آيا صوفيا رقم ٣٧١٦ ، مكتبة السليمانية ، استانبول ، نشره مصورا معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية ، جامعة فرانكفورت ألمانيا ، من اصدار البروفسور فؤاد سزكين .

ثانيا : المصادر المطبوعة :

- ابن أبى أصيبعة : أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة (ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م) « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » تحقيق د/نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
 - ابن الأثير : عز الدين على بن محمد الجزرى (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) ، « الكامل فى التاريخ » دار بيروت للطباعة والنشر ، دار صادر بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
 - ابن البيطار : ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسى المالقى (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
 - ابن تغر بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف الاتايبكى (ت ٨٧٤هـ / ١٣٦٩م) « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .
- (مجلة المؤرخ العربى)

- ابن جلجل : أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (بعد ٣٧٧هـ / بعد ٩٨٧م) « طبقات الأطباء والحكماء » ، تحقيق / فؤاد سيد ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- الحموي : صلاح الدين بن يوسف الكحال (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) « نور العيون وجامع الفنون » تحقيق د/محمد ظافر الوفائي ، الطبعة الأولى ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- حنين : أبو زيد بن اسحاق العبادي (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٥م) ، « رسالة حنين بن اسحاق الى علي بن يحيى في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم » نشره الدكتور/ عبد الرحمن بدوي ضمن كتاب « دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب » ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨١م .
- الخطيب البغدادي : الحافظ أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) « تاريخ بغداد » دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، (بد ت) .
- ابن سينا : الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن علي (ت ٤٤٨هـ / ١٠٣٦م) « القانون في الطب » دار صادر ، بيروت (بد ت) .
- المبشر بن فاتك : أبو الوفاء الأمرى (ت أواخر المئة الخامسة من الهجرة) « مختار الحكم ومحاسن الكلم » تحقيق/عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الثانية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠م .
- القفطي : الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) « كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء » دار الآثار لطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان (بد ت) .
- القمري : الحسن بن نوح (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) « التنوير في

الاصطلاحات الطبية « مكتب التسمية العربية لدول الخليج ،
الرياض ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

— مسكويه : أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م) « كتاب
تجارب الأمم » ، دار الكتاب العربي ، القاهرة (بدت) .

— ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (ت
٧١١هـ / ١٣١١م) ، « لسان العرب » ، دار صادر ، الطبعة الأولى
بيروت ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

— النديم : محمد بن اسحاق (ت ٤٣٨هـ / ١٠٤٦م) « الفهرست »
تحقيق رضا تجدد ابن علي المازندراني ، دار المسيرة ، الطبعة
الثالثة ١٩٨٨م .

ثالثا : المراجع العربية والمعرية :

— بروكلمان : كارل : « تاريخ الأدب العربي » ترجمة د/سيد يعقوب
بكر - د/رمضان عبد التواب ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ،
القاهرة ، (بدت) .

— بيك : أحمد عيسى : « آلات الطب والجراحة والكحالة عند
العرب ، القاهرة ١٩٢٥م .

— الخطابي : محمد العربي : « الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب
الاسلامى » دار الغرب الاسلامى ، الطبعة الأولى ، بيروت ،
بيروت ، ١٩٩٠م .

— ششن : رمضان وآخرون : « فهرس مخطوطات الطب الاسلامى فى
مكتبات تركيا » اشراف أكمل الدين احسان ، استانبول ١٤٠٤هـ /
١٩٨٤م .

— عسيرى : مريزن سعيد : « تعليم الطب فى المشرق الاسلامى نظمه
ومناهجه حتى نهاية القرن السابع الهجرى » معهد البحوث
الاسلامية واهياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة
١٤١٢ هـ .

— لويون : الدكتور غوستاف : « حضارة العرب » ترجمة عادل زعيتر ، طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه (بدت.ن) .

— متر : الأستاذ آدم : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ترجمة/محمد عبد الهادى أبو ريده ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

أضواء على مدينة الري في صدر الاسلام (٣٠ هـ - ٣٣٠ هـ)

بقلم

دكتور حسين على المسري(*)

مقدمة :

تحتوي مصادر التاريخ الاسلامي ، أثناء حديثها عن المدن الفارسية في المشرق ، اشارات متناثرة عن مدينة الري ، وهي اشارات تتضمن معلومات ترتبط بجوانب الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية ، وقد ولدت هذه المعلومات شعوراً بأهمية هذه المدينة ، فكانت دافعا لجمع المزيد من المعلومات في هذا المجال ، لبناء هذا البحث الذي يعالج تاريخ مدينة الري في عصر من أبرز عصور التاريخ الاسلامي نشاطا وحيوية .

ولعل الموقع الجغرافي الهام الذي تتمتع به مدينة الري ، كان من العوامل التي ساعدت على اكسابها مثل هذه الأهمية ، فهي تقع على الممر التجاري العالمي الذي يربط بلدان الشرق الأقصى ، أعنى بذلك بلاد ما وراء النهر والصين بأوروبا ، وهو الطريق المعروف بطريق الحرير Silk Road ، هذا فضلا عن موقعها الهام في قلب بلاد فارس مما يجعلها حلقة الوصل بين العديد من المدن ، التي تمر بها وتربط بينها .

وهكذا فان هذه الأهمية الاستراتيجية التي حظيت بها مدينة الري ، جعلتها تتفاعل مع الاحداث ، سواء كان ذلك على الصعيد السياسي أو الديني أو الاقتصادي .

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الكويت .

اما الفترة الزمنية التي يعالجها هذا البحث ، فانها تبدأ بالفتح الاسلامى لمدينة الرى ، وتمتد وحتى نهاية العصر العباسى الاول ، وقد ركزنا فيها على الجوانب السياسية ، مع العناية بتحليل احداثها ، فضلا عن الجوانب الدينية والاقتصادية وما حفلت به من تيارات ، وذلك بدءا بالتعريف . وقد بدأنا الحديث بالتعريف بالمدينة ، من حيث نشأتها وأصل تسميتها .

على أننا رأينا أن نبدأ بالإشارة الى المصادر التي أستقينا منها هذه المعلومات وهى :

أولاً : كتب الفتوح ، فقد افادتنا كثيراً فى إبراز الدور الذى قامت به مدينة الرى على الصعيد السياسى ، ومن هذه الكتب ، كتاب فتوح الاسلام لبلاد فارس للواقدي . وكتاب ، فتوح البلدان للبلاذرى ، بالإضافة الى كتب التاريخ التى عززت هذه المعلومات وأكدتها مثل كتاب : تاريخ الطبرى ، وكتاب الفتوح ، لابن اعثم الكوفى ، وتاريخ خليفة بن خياط ، والكامل فى التاريخ لابن الاثير ، وغير ذلك من كتب التاريخ .

ثانياً : كتب الجغرافيا والرحلات ، ويعود لها الفضل فى التعريف بمدينة الرى من حيث التسمية والموقع ، هذا فضلا عن المعلومات المتعلقة بالنواحى الاقتصادية لمدينة الرى التى لابد منها لهذا البحث ، وقد افادتنا هذه المصادر أيضاً فى تحقيق بعض المواضع الجغرافية التى لها علاقة بمدينة الرى ، مثل كتب المعاجم الجغرافية .

ثالثاً : المعاجم اللغوية ، التى افادتنا كثيراً فى تفسير وتحقيق بعض الألفاظ التى صعب علينا فهمها ، كذلك كتب الطبقات والأنساب ، افادتنا فى تحقيق بعض الشخصيات العامة وبخاصة من الفقهاء والعلماء وقادة الفتح الاسلامى .

ملخص البحث :

مدينة الرى من المدن الفارسية القديمة ، وقد أجرينا فى هذه الدراسة تحقيقاً تاريخياً حول تأسيسها وأول من قام ببنائها وتحديث

موقعها الجغرافى ، وتحديثنا بعد ذلك عن الرى فى صدر الاسلام ، وأوضحنا كيف تم فتحها زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، وأقوال المؤرخين فى ذلك ، واستمر الحديث عن هذه المدينة طوال العصر الراشدى ، ولم يكن الاسلام قد انتشر خلال هذه الفترة فى جميع ربوع مدينة الرى ، لذلك فإن الأوضاع لم تكن مستقرة فيها عندئذ ، إلا أن ظاهرة عدم الاستقرار هذه اختفت تقريباً فى العصر الأموى لدخول معظم أهلها فى الاسلام .

وكان النفوذ الأموى على مدينة الرى ضعيفاً بصورة عامة لا سيما فى عهد يزيد بن معاوية والفترة التى أعقبته ، أى قبل أن يستتب الأمر لآل مروان ، وذلك بسبب النزاع الدائر بين الأمويين وآل الزبير وجماعة المختار بن عبيد الثقفى ، مع حزب الخوارج ، فكان العالم الإسلامى يموج بالفتن والاضطرابات الداخلية خلال هذه الفترة .

ثم جاء العباسيون الذين أحكموا سيطرتهم على الولايات الإسلامية لا سيما فى العصر العباسى الأول ، وبخاصة الجهات الشرقية من الحاضرة بغداد زمن أبى جعفر المنصور ، وكثيراً ما كانت مدينة الرى تتأثر بالنزاعات التى تقع بين الخلفاء ، كما حدث أثناء الفتنة التى حدثت بين الأخوين الأمين والمأمون .

وكان لمدينة الرى مساهمات فعالة فى الحياة الدينية والثقافية عندئذ ، فهى تعد واحدة من كبرى مراكز الثقافة والعلم فى العالم الإسلامى ، فكان لذلك تأثيراته الإيجابية على الحركة العلمية بمدينة الرى ، انجبت العديد من العلماء ورجال الدين الذين حملوا راية الحركة العلمية .

وكانت الحياة الاقتصادية بمدينة الرى مزدهرة ، فهى تنتج العديد من المحاصيل الزراعية فضلاً عن الثروة المعدنية ، وقد قامت على هذه المنتجات بعض الصناعات ، مثل صناعة النسيج والأوانى ، وسرعان ما غدت مدينة الرى من كبرى مراكز التجارة فى العالم ، فهى تقع على الطريق التجارى الهام الذى يربط أواسط آسيا وبلدان الشرق الأقصى ،

الصين والهند بأوروبا ، فكانت أسواقها مملوءة بأصناف السلع التجارية والبضائع الهامة التي أشتد الطلب عليها في حركة التجارة العالمية .

أولا : التعريف بمدينة الري :

الري مدينة فارسية قديمة ، وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ نشأتها وبنائها ، ومن المعروف أن الروايات التي تتناول الأمور والقضايا البعيدة زمنيا تنقصها الدقة ولا تتوفر فيها الموضوعية ، بمعنى أنها أقرب الى الأساطير . من ذلك ترد في بعض المصادر من أن : مهلائيل بن قنان ، ويعرف بـ « أوشنج » ، أحد ملوك الفرس القدماء هو الذي بنى الري ، وقد ملك الأقاليم السبعة ، وكانت أول مدينة بنيت بعد مدينة « جيومرت » ، وهي مدينة قديمة ، ولم تحدد تلك الروايات التاريخ الذي بنيت فيه مدينة الري (١) ، كذلك قيل : ان أول من بناها هو فيروز بن يزدجرد ، وسماها « رام فيروز » (٢) ، وذكر قدامة بن جعفر ، فقد ذكر ان الاسكندر المعروف بذي القرنين لما وصل الى جرجان ، أمر ببناء مدينة الري (٣) .

وكانت عادة ملوك الفرس أنهم يضعون اسماءهم على المدن التي يشيدونها أو يفتحونها ، وهناك عدة آراء حول بناء مدينة الري ، فمن أقوالهم : ان الملك فيروز هو الذي بناها أو اعاد بناءها، ووضع اسمه عليها، كما أشرنا الى ذلك من قبل (٤) . وقيل ان الذي بناها هو الملك اردشير، وكانت تسمى (ري اردشير) وقد عثروا على آثار هذا الملك في هذه المدينة (٥) ، كذلك قالوا : ان الذي بناها ، راز بن خراسان ، وقد أكدوا هذا القول ، بأن النسبة اليها « رازي » (٦) . وجاء في كتابات اليونان ان سلوق نقاتوري Seleucus Nicator (٣١٢ - ٢٨٠)

اعاد بناء راكاي Rhagae ، وسماها أوربوس Europos تخليداً لذكرى مسقط رأسه مقدونيا (٧) .

أما عن سبب التسمية ، فذكروا ان الري عرفت بهذا الاسم ، نسبة الى رجل اسمه (ري) ، من بني شيلان بن اصبهان بن فلوج (٨) ، فاخذت اسمها عن هذا الرجل ، وكان اسمها قبل ذلك (بورانجير) ،

وهى كلمة فارسية من مقطعين (انجير) ، وتعنى تين ، و (بور) ، وتعنى طائر ، واسم هذا الطائر بالعربية (دراج) (٩) ويمرور الوقت حولوا اسمها الى (رى) ، وكان اسمها فى العصور القديمة (ارازى) (١٠) ، وهى تعنى الشئ الجميل (١١) ، وفى كتابات اليونان ، ان هذه المدينة سميت من جديد باسم (أرساكيا) Arsakia بعد مجيئ الفرثيين ، وقد ورد ان الملوك الفرثيين كانوا يمضون الربيع فى راکای Rhagae ، أى الرى ، والشتاء فى بابل Babylon (١٢) ويتضح مما تقدم ان اسم مدينة الرى تعرض لكثير من التغير والتبدل تبعا للظروف السياسية والدينية .

أما عن الموقع فقد ورد ان مدينة الرى تتبع اقليم الجبل ، وهو الاقليم الذى يضم الرى وطبرستان (١٣) وقزوین (١٤) وزنجان (١٥) وقم (١٦) واصبهان (١٧) وهمدان (١٨) ونهاوند (١٩) والدينور (٢٠) وحلوان (٢١) وماسبذان (٢٢) ومهرجان قذ (٢٣) وشهرزور (٢٤) والصامغان (٢٥) واذربيجان (٢٦) وهذه التقسيمات الادارية وردت فى تاريخ اليعقوبى كما وردت فى (أحسن التقاسيم) (٢٧) ، معظم هذه المدن تتبع اقليم بلاد الجبل ، ومدينة الرى ، تقع فى الطرف الشمالى الشرقى من هذا الاقليم ، فى آخر هذه المقاطعة حتى ان البعض اعتبرها من اقليم خراسان (٢٨) ، وقال المقدسى فى هذا الصدد : « أول مدن خراسان الرى » (٢٩) ، وفى « الروض المعطار » تأكيدا لهذه المعلومة ، فيذكر : « أنها تنسب الى الجبل وليست منه ، بل هى أقرب الى خراسان » (٣٠) ، وقد وردت مدينة الرى فى كتابات الجغرافيين مقترنة دائما « بال » التعريف « ، وهى مدينة ريجس Rhages عند اليونان (٣١) ، وقد قدرت المسافات بين هذه المدن بالفراسخ (٣٢) ، كما قدروا المساحة التى تشغلها مدينة الرى ، وفق ما جاء فى الجغرافيا القديمة لبطلیموس القلوذى (٣٣) .

أما الاصطخرى وابن حوقل ، فيذكران أن مدينة الرى تتبع بلاد الديلم (٣٤) ، وهى تضم مدينة قزوین وقومس (٣٥) ، وطبرستان والرى (٣٦) ، ويؤكد ابن حوقل ، ان مدينة الرى لا تتصل باقليم الجبال

ودليله على ذلك ان هناك سلسلة من الجبال على شكل منحني تفصل بين اقليم الجبل وبلاد الديلم ، وتقع مدينة الري وقزوین وزنجان خلف هذه السلسلة من الجبال ، أى ضمن بلاد الديلم (٣٧) .

ولو قارنا بين قول اليعقوبى السابق وقول كل من الاصطخرى وابن حوقل ، لوجدنا أن القول الأخير أكثر دقة من قول اليعقوبى فى تحديد موقع مدينة الري ، حيث أن الرأى الأخير مبنى على دراسة ميدانية قام بها كل من الاصطخرى وابن حوقل لتلك المناطق بصورة عامة ولمدينة الري بصورة خاصة ، هذا فضلا عن أنهما أكثر تخصصا ودراية فى علم الجغرافيا من اليعقوبى (٣٨) .

وظلت مدينة الري على مر عصور التاريخ محتفظة بأهميتها رغم تعرضها لمحن وكوارث عديدة، فلما زارها الاصطخرى وكذلك ابن حوقل، فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، أشادا بجمالها وكثافة السكان والعمران بها ، كما تحدثا عن تجارنها وتجارها ، وقال الاصطخرى انها أفضل مدينة فى اقليم الديلم (٣٩) ، وقد ازدادت أهمية مدينة الري على يد البويهيين حکام بغداد، فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى، فكانت دواوين الدولة بمدينة الري ، وأدى ذلك الى ازدهار الحياة بها ، كذلك أعجب ابن حوقل بجمالها ومكانتها ، فقال : « ليس بعد بغداد فى المشرق مدينة أعمر من الري » (٤٠) .

وقد تحدث الاصطخرى عن بناء الدور ، فذكر أن أهل مدينة الري يعتمدون على الطين ممزوجا بالحص ، كما يستعملون طابوق الآجر ، وكانت مدينة الري محاطة بسور ، كما كانت العادة المتبعة قديما فى تسوير المدن ، وهى تتصل بجيرانها عن طريق أبواب مشهورة ، فمن أبوابها : باب طاق ، يصلها باقليم الجبال ومنه الى العراق ، وباب بليسان ، يصلها بمدينة قزوین ، وباب كوهكين ، يؤدى الى مدينة طبرستان ، وباب هشام الى مدينة قومن وخراسان ، وباب سين يصلها بمدينة قم ، وهذه هى المخارج والمداخل الرئيسية لمدينة الري (٤١) .

كذلك كان لمدينة الري أسواق وخانات تجارية كثيرة ، تتمركز

جميعها في شارع رئيسى واحد يمتاز بالسعة والضخامة ، وتتوفر فيه جميع صنوف الأمتعة والسلع التجارية ، أما العملة المتداولة فكانت الدرهم والدينار ، وفى شربهم وريهم كانوا يعتمدون على نهريّن يخرقان المدينة ، أحدهما عرف باسم « سورقنى » والآخر « الجيلانى » .

وأحاطت بمدينة الرى ، عدة مدن صغيرة تابعة لها ، من هذه المدن ، « الخوار » ، وكانت أهلة بالسكان وبها ضياع وبساتين ، ومدينتا « يمه » و « شلنبه » وهما أصغر حجما من « الخوار » ، تكثر فيهما البساتين والمزارع والمياه (٤٢) ، ومن أكثر الرساتيق فيها خصوبة ، رستاق « روزه » أو « الروذه » ، و « رامين » الذى صار من أكبر مدن ذلك الاقليم ، وحلت محل مدينة الرى فيما بعد ، و « رامين » ، اسم لقريتين على بعد مسيرة يوم من مدينة الرى ، والقريتان هما : « ديزة القصرين » أو « ديزة رامين » ، ومدينة « بشاويه » ، ومازالت هذه المدينة قائمة الى الآن ، وهى تعرف باسم « قشاوية » ، ومن مدنها « قوسين » (٤٣) .

والى جانب هذه المدن تحيط بها هناك عدد من القرى ، التى كانت مساحة تحذف بعضها تزيد عن مساحة بعض المدن ، واشتهرت هذه القرى « سد » و « أرنبويه » و « ورزنيو » « دزاه » (٤٤) .

اما موقع مدينة الرى على الخريطة ، فقد ورد فى كتب الجغرافيا القديمة أنها تقع فى أقصى شمال عراق العجم (٤٥) وهذا التحديد يبدو غير دقيق . ان لفظة عراق اصطلاح جغرافى قديم يحمل معانى كثيرة ، فكلمة « عراقان » ، تعنى البصرة والكوفة ، و « عراق » ، تعنى ما قرب من البحر وبعد عن « نجد » و « عراق » ، تعنى المناطق المشرفة على شواطىء نهري دجلة والفرات ، وتعنى أيضا المناطق القريبة من البحر . وكانوا يطلقون على وسط مملكة الفرس « العراق » ، كما أن هذه الكلمة تعنى الاستواء فى الأرض ، ومن المتعارف عليه عند الجغرافيين القدامى ، ان « العراق » تعنى أرض بابل فقط ، وهى إحدى مدن العراق فى الوقت الحاضر (٤٦) .

وقد اتخذ هذا اللفظ في العصر الأموي مفهوماً جديداً ذا صبغة سياسية ، فصار المقصود « بالعراق » تلك الأقليم الممتدة من مدينة هيت (٤٧) بالعراق ، حتى حدود الصين ، بمعنى أن وإلى العراق في ذلك العصر كان مسئولاً إدارياً وسياسياً عن هذه الأقاليم فهو الذي يعين العمال عليها ، وهي تتبع من الناحية الإدارية ولاية العراق (٤٨) .

ولا يفوتنا أن نذكر أن كتب المسالك والممالك لها أهمية في تحديد المواضع ومواقع المدن ، وفي أثناء تعرضها للطرق والممرات التي تربط المدن ببعضها ، أشارت إلى موضع مدينة الري (٤٩) ، كما وصفت الطريق الذي يربط بغداد بمدينة الري (٥٠) .

أما عن موضع مدينة الري في الوقت الحاضر ، فإنها تبعد عن العاصمة الإيرانية طهران بحوالي ٨ كيلو متر ، وبها ضريح الحسين بن علي بن موسى الرضا ، وعلي بن موسى هو أحد الأئمة الاثني عشر وهو الإمام الثامن بينهم ، كما يوجد في ضواحيها ضريح إمام زاده عبد العظيم ، أحد أبناء الأئمة من آل البيت النبوي الشريف ، وهو المعروف بشاه عبد العظيم ، ويعتبر من المشاهد المكرمة عند أهل مدينة طهران وسائر الشيعة . وقد اقترن اسمه بالمدينة ، فصارت تعرف « بشاه عبد العظيم » ، وهو الاسم الحديث للمدينة بدل الري ، وتعد « شاه عبد العظيم » من المدن المقدسة في إيران ، حتى أن شاه إيران السابق حرص على إقامة مقبرة ملكية ضخمة في هذه المدينة ، لدفن والده « شاه رضا بهلوي » (٥١) .

ثانياً - الدور السياسي لمدينة الري :

حتى نتمكن من توضيح الدور السياسي لمدينة الري ، لابد لنا من عرض مراحل الفتح الإسلامي لبلاد فارس ، منذ العهد الراشدي والعهد التي تلتها ، وذلك لما كان لمدينة الري من مساهمات فعالة في مساندة ومساعدة الجيش الفارسي قبل أن يصل إليها الجيش الإسلامي ، وقد قدمت الري هذه المساعدة النشطة لتدراً عن نفسها الخطر ، بمعنى أنها

محاولة منها ومن باقى مدن فارس لتجهز على المد الاسلامى قبل ان يصل الى حدودها . ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل .

١ - العهد الراشدى :

لم يكن للجىوش الاسلامية وجسود فى بلاد فارس زمن الخليفة أبى بكر ، ولكن فى ضوء المعلومات التى نقلها المثنى بن حارثة بن سلمه بن ضمضم الشيبانى ، كان الخليفة أبو بكر على علم بالاضاع السياسية للعراق تحت النفوذ الفارسى ، ويبدو أن هذه الاوضاع شجعت الخليفة على التفكير فى غزو بلاد فارس ، الا أن المرض لم يمكنه من ذلك ، فأوصى عمر بن الخطاب بارسال الجيوش الى العراق (٥٢) .

وبعد أن تولى عمر بن الخطاب الخلافة ، أخذت جيوش المسلمين تتجه صوب المشرق ، وقد حققت انتصارات عظيمة فى معاركها مع الفرس ، انتصرت فى معركة القادسية والمدائن وجلولاء ، وقد دارت هذه المعارك فى سنة ١٦ هـ (٦٣٧م) (٥٣) ، كانت القادسية والمدائن بقيادة سعد بن أبى وقاص ، أما جلولاء فكانت بقيادة هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، ابن أخى سعد ، وهو الذى بعثه لقتال الفرس فى هذه المعركة ، ولكن النويرى فى « نهاية الأرب » يقول : ان سعد بن أبى وقاص باشر هذه المعركة بنفسه (٥٤) ، وحلوان التى فتحت صالحا سنة ١٩ هـ (٦٤٠م) ، فتحها جرير بن عبد الله البجلي (٥٥) .

فى أعقاب هذه الهزائم المتلاحقة التى ألمت بالفرس ، أحست المدن الفارسية التى لم يصل اليها الفتح الاسلامى بالخطر ، فأرادت أن تفعل شيئا لتوقف المد الاسلامى على الأقل ، ومن أجل ذلك قام الملك يزدجرد الثالث ، بمكاتبة أمراء المدن الفارسية ، فبعث برسائل الى مدينة الرى وقوس واصبهان وهمدان وغيرها ، وقد استجابت مدينة الرى لهذا النداء ، فقدمت المساعدات العسكرية وخذت حذوها باقى المدن الفارسية ، كان ذلك فى سنة ٢٠ هـ (٦٤١م) ، وقد اختلف المؤرخون فى تقدير العساكر التى تجمعت عندئذ ، بين مكثر ومقل ، فحصرها ما بين (٥٠ و ١٥٠ ألف مقاتل) (٥٦) . والواقع أن هذا الحشد

الهائل كان له ما يبرره في نظر الفرس ، اذ أرادت مدينة الري وبقاى مدن الفرس أن يوحدوا صفوفهم ليتمكنوا من إعادة مجدهم السياسى ، وقد عبر سعد بن أبى وقاص عن ذلك مخاطبا الخليفة عمر بن الخطاب فقال : « انهم انما جمعوا للنقمة » (٥٧) .

وعندما سمع الخليفة عمر بن الخطاب بأمر هذه الجموع الكثيفة اجتمع بأصحابه للأخذ برأيهم ومشورتهم ، وانتهى الاجتماع الى الأخذ برأى على بن أبى طالب ، الذى نادى بالاعتماد على الكوفة والبصرة ، فيأخذوا من كل مدينة الثلث من رجالها المقاتلين ، ويبقى الثلثان فى كل مدينة للحماية (٥٨) ، وتم اعداد هذا الجيش بقيادة النعمان بن عمرو بن مقرن المزنى ، حتى انتصر المسلمون على الفرس فى المعركة التى جرت على أرض « نهاوند » وقد اقترن اسم المعركة بهذا الموضع ، فصارت تعرف باسم « معركة نهاوند » ولم يتفق المؤرخون فى تحديد السنة التى جرت بها هذه المعركة ، الا أنهم حصروها فى سنوات (١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١) (٥٩) .

ولا شك فى أن هذه الانتصارات الرائعة التى حققها المسلمون فى معركة نهاوند ، كان لها آثارها السلبية على الصنعيدين السياسى والاجتماعى ، بعد أن انهزم الملك يزدجرد الى مناطق نائية بعيدا عن الخطر ، كما ولدت هذه الهزائم ردود فعل سيئة بين أوساط العامة والخاصة فى مدينة الري وفى غيرها من المدن ، فى ظل هذه الاوضاع توجه القائد نعيم بن مقرن الى مدينة همذان ، فتمكن من فتحها صلحا (٦٠) ، ثم نقضت الصلح ، فعاد وفتحها (٦١) .

وبعد سقوط مدينة همذان أصبح الوضع بمدينة الري حرجا وخطرا فى نفس الوقت ، لا سيما وان همذان تقع بالقرب من مدينة الري ، لذلك فانها أخذت تعمل على الصنعيدين السياسى والعسكرى بما يوائم هذه الظروف ، فعقدت تحالفا عسكريا يضم ، بلاد الديلم وأذربيجان ومدينة الري ، وكان الهدف من هذا التحالف محاولة انقاذ ما يمكن انقاذه ، فهى محاولة قد تكون يائسة فى نظر قادة مدينة الري وغيرها ،

ولكنها محاولة مدامت تعبر عن رأى الأغلبية التى تريد أن تحقق الحلم
الفارسى المنشود(٦٢) .

وكان أن تقدمت جيوش الفرس المتحالفة وعسكرت فى موضع
يقال له « واج الروذ »(٦٣) بقيادة قائد مدينة الرى ، الزينبى
أبو الفرخان ، وقائد بلاد الديلم موتا أو موثا ، وقائد أذربيجان ، يقال
له اسفنديار ، ولقد انتصر المسلمون فى معركة « واج روذ » سنة ٢٢ هـ
(٦٤٢م) بقيادة نعيم بن مقرن ، وهى المعركة التى وصفت بالشدة
والضراوة ، حتى ان الخليفة عمر بن الخطاب كان قلقا على المسلمين ،
فهى تعد من المعارك الفاصلة فى تاريخ الفتوح الاسلامية التى جرت فى
العصر الراشدى ، اذ تكبد الفرس فيها خسائر فادحة فى الأرواح
والأموال(٦٤) .

وفى اعقاب معركة « واج روذ » جاءت رسالة من الخليفة عمر بن
الخطاب الى نعيم بن مقرن تدعوه للتوجه الى مدينة الرى لفتحها ،
فتنهيا للذهاب ، وترك على مدينة همذان بكير بن عبد الله بن سماك بن
خرشه(٦٥) ، وكذلك تضمنت هذه الرسالة بعض الوصايا العسكرية فيما
يتعلق بمدينة الرى ، من ذلك قول الخليفة عمر بن الخطاب للقائد نعيم:
« أقم بها فانها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد »(٦٦) .

هذه العبارة تؤكد أهمية موقع مدينة الرى فى النواحي العسكرية،
فضلا عن موقعها كمركز تجارى هام ، وهو أمر يأتى الحديث عنه فيما
بعد ، وقد أدرك الخليفة عمر هذه الأهمية الاستراتيجية العسكرية لمدينة
الرى ، نظرا لموقعها الذى يتوسط المدن الفارسية ، وهى الأهمية التى
أكدها الرحالة والجغرافى المقدسى بقوله : « الرى واسطة خراسان
وجرجان والعراق » ، ونفهم من ذلك أن السيطرة على مدينة الرى ،
تعنى احكام السيطرة على باقى المدن الفارسية المجاورة لها(٦٧) .

لذلك حرص القائد نعيم على اخضاع مدينة الرى ، فتوجه اليها
بجيشه سنة ٢٢ هـ . وكانت المدينة على استعداد للقائه ، ولكن حدثت
خلافات بين قادة مدينة الرى ، ذلك أن القائد الزينبى أبو الفرخان

تمرد على ملك الري المدعو : سياوخش بن مهران بن بهرام شوبين ،
فترك القائد الزينبي المدينة والتحق بجيش المسلمين فى موضع يقال له
« قها » (٦٨) لاجئاً يطلب الأمان ، فأمنه القائد نعيم (٦٩) .

... ومن المؤكد أن المسلمين استفادوا عسكرياً من وجود القائد الزينبي
بينهم ، بوصفه على علم ودرايه كبيرة بأمور مدينة الري ، فضلاً عن
كونه قائدها العسكرى ، وسرعان ما أدرك أمير مدينة الري سياوخش
خطورة الموقف ، فهو أمام جيش قوى مدرب وله خبرة ودراية فى
الحروب فى مثل هذه المواضع وسبق له أن حقق انتصارات كثيرة ، فضلاً
عن انشاق القائد الزينبي ، وكان أن دفعه ذلك الموقف الى طلب المساعدة
من جيرانه ، مثل : دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان ، فراح يتفاوض
معهم ، مبيناً لهم خطورة الموقف عليهم وعليه ، ومما جاء فى أقواله
لهم : « قد علمتم ان هؤلاء ان حلوا بالري ، أنه لا مقام لكم » (٧٠) .

وتوحى هذه العبارة الأخيرة بالأهمية التى تتمتع بها مدينة الري
بالنسبة إلى المدن المجاورة لها ، ولذا استجاب حكام المدن المجاورة
لطلب سياوخش ، وقدموا المساعدات العسكرية ، فبعثوا بجيوشهم
وتجمعت هذه العساكر عند سفح جبل مدينة الري ، ويبدو أنهم شكلوا
قوة كبيرة فاقت قوة المسلمين بكثير ، مما بعث فى نفوسهم الغرور ،
فراحوا يتحرشون بجيش المسلمين ويستعجلونهم القتال ، وعندما بدأت
المعركة ، لاحظ القائد الزينبي أبو الفرخان هذا التباين الشديد بين
جيوش الطرفين ، ولم يكن من صالحه أن ينهزم الجيش الاسلامى ،
فعرض على القائد نعيم بن مقرن أن يبعثه مع مجموعة من العساكر
ليدخل المدينة من أحد أبوابها السرية ، فيكون من الخلف والمسلمون من
الامام ، فاستصوب القائد نعيم رأيه وبعثه فى المساء مع خيل بقيادة ابن
أخيه المنذر بن عمرو ، فتمكنوا من دخول المدينة وأخذوا مواقعهم فى
مؤخرة الجيش الفارسى ، وأدت هذه الخطة الى هزيمة نكراء ، فسقطت
مدينة الري ودخلتها جيوش المسلمين ، وغنموا أموالاً كثيرة (٧١) .

وبعد أن حقق المسلمون هذا النصر بعث القائد نعيم بكتاب الى

الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بفتح مدينة الري ، وقد حمل هذا الكتاب ، شخص يقال له ، مضارب العجلى ، وبعد ذلك بعث بالآخماس والغنائم التى حصل عليها المسلمون فى هذه المعركة ، وقد قام بنقلها عتبه بن النحاس وأبى مفزر ، مع وجوه من أهل الكوفة (٧٢) .

والواقع ان المسلمين استفادوا من الخلافات التى وقعت بين الأسر الفارسية والمسئولين فى مدينة الري ومع ذلك يبدو أن الجيش الفارسى قد أبدى مقاومة عنيفة ، بقيادة سياوخش بن مهران بن بهرام شوبين ، ولعل ذلك هو الذى دفع نعيم بن مقرن الى هدم المدينة القديمة (٧٣) ، ثم أمر الزينبى أبو الفرخان ببناء مدينة جديدة ، فكانت تسمى « مدينة الري الحداثى » ، فى حين أطلق على القديمة اسم « العتيقة » (٧٤) .

ومن الأعمال الادارية التى قام بها نعيم بن مقرن بمدينة الري عقب فتحها أنه جعل القائد الزينبى أبو الفرخان واليا عليها ، ويقول الطبرى فى هذا الصدد : « ومرزبه عليهم » ، ولفظة « مرزيان » بالفارسية ، تعنى والى (٧٥) . ثم عقد مع أهل الري صلحا ضمنه بعض الجوانب التى تتعلق بالنواحي الأمنية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وهى شروط تتناسب مع أوضاع وظروف أهل مدينة الري الذين لم يدخلوا فى الاسلام بعد ، وهذا نص الصلح : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى نعيم بن مقرن الزينبى بن قوله إعطاء الأمان على أهل الري ومن كان معهم من غيرهم على الجزاء طاقة كل حال فى كل سنة وعلى أن ينصحوا ويدلوا ولا يعلوا ولا يسلوا (٧٦) وعلى أن يقرؤا (٧٧) المسلمين يوما وليله وعلى أن يفخموا المسلم فمن سب مسلما أو استخف به نهك عقوبة ومن ضربه قتل ومن بدل منهم فلم يسلم برمته فقد غير جماعتكم » (٧٨) .

ومن الملاحظ أن هناك اختلافات فى الآراء حول موضوع فتح مدينة الري ، فلم يتفق المؤرخون فى تحديد سنة الفتح ، وكذلك لم يتفقوا على قائد الفتح ، فمن أقوالهم : ان الفتح كان فى سنة ٢١ هـ ، أو فى سنة (مجلة المؤرخ العربى)

٢٢ هـ أو سنة ٢٣ هـ ، كذلك ذكروا أن قائد الفتح ، نعيم بن مقرن ، وتارة قالوا أنه قرظة بن كعب (٧٩) ، أو مرة عروة بن زيد الخيل الطائي (٨٠) .

هذه الاختلافات فى الآراء حول تحديد سنة الفتح وكذلك قائد الفتح ، ربما نشأت من عدم استقرار الوضع بمدينة الرى فى تلك الحقبة ، فكانوا فى كل مرة ينقضون الصلح المعقود بينهم وبين المسلمين ، مما يضطر قادة الفتح الى اعادة فتحها ، وقد أدى ذلك الى وقوع مثل هذا الالتباس ثم الاختلاف فى الآراء .

على أية حال ، فقد كان لسقوط مدينة الرى بيد المسلمين آثاره الواضحة على باقى المدن الفارسية ، فقد تدافعت هذه المدن ، مثل قومس وجرجان وطبرستان تطلب الصلح مع المسلمين مقابل الجزية ، بعد أن أدركت أنه لا طائل من المقاومة ، مادامت مدينة الرى ذات الموقع الحصين قد سقطت ، لذلك أرادت أن تجنب نفسها ويلات الحروب ، وهذا دليل على الدور الرياى الذى تبوأته مدينة الرى بين هذه المدن (٨١) .

وكانت مدينة الرى والمدن الفارسية الأخرى التى فتحها المسلمون زمن الخلفاء الراشدين ، تتبع من الناحية الادارية ولاية الكوفة ، ففى أغلب الأحيان كان والى الكوفة هو المسئول عن تعيين العمال على هذه المدن ، فلما عزل عمار بن ياسر عن ولاية الكوفة فى سنة ٢٣ هـ (٦٤٣م) ، عين الخليفة عمر بن الخطاب مكانه المغيرة بن شعبة الثقفى ، وقام هذا الأخير بتعيين العمال ، فعين كثير بن شهاب الحارثى (٨٢) عاملا على مدينة الرى ودستبى (٨٣) ، وعند وصول العامل كثير فوجىء بتمرد أهل مدينة الرى ، اذ نقضوا الصلح المعقود بينهم وبين المسلمين ، وقد تمكن كثير من القضاء على هذا التمرد ، فعادوا الى الطاعة ودفع الجزية والخراج ، وذكروا أن كثير بن شهاب كان مسئولا عن قزوين بالإضافة الى عمله السابق (٨٤) .

كذلك قامت مدينة الرى فى سنة ٢٤ هـ (٦٤٤م) بالثورة والتمرد ، وامتنعت عن دفع الجزية والخراج (٨٥) ، وفى أواخر سنة ٢٤ هـ أوائل

سنة ٢٥ هـ (٦٤٥م) انتقضت مدينة الرى مرة أخرى ، مما دفع والى الكوفة سعد بن أبى وقاص أن يذهب بنفسه الى مدينة الرى وتمكن من اخضاعها واعادة الهدوء والاستقرار اليها ، وقد عبر البلاذرى عن ذلك بقوله : « وكانت (أى مدينة الرى) ملتاته فأصلحها » (٨٦) .

وقد قامت مدينة الرى بالثورة واعلنت العصيان فى اعقاب مقتل عمر بن الخطاب واختيار الخليفة الجديد عثمان بن عفان ، وما أعقب ذلك من تغييرات فى النواحي الادارية بمدينة الكوفة والرى ، فقد عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وتولاها أبو موسى الأشعرى ، والذى عين قرظة بن كعب الأنصارى عاملا على مدينة الرى ، وكان أن تمكن من اخماد هذه الثورة (٨٧) .

يتضح مما سبق أن هذه السلسلة من الثورات والانتفاضات المتلاحقة التى شهدتها مدينة الرى ، كانت دائما تحدث فى الفترات التى تجرى فيها تغييرات ادارية أثناء تعيين أو عزل الولاة أو العمال، سواء كان ذلك على الكوفة أو الرى ، ويبدو أن مدينة الرى ، كانت تتأثر بهذه الاحداث والتغييرات ، وتغتنمها للقيام بمثل هذه الانتفاضات بغية التخلص من التبعية للدولة الاسلامية .

وربما كانت هناك اعتبارات دينية واقتصادية وراء هذا التمرد وعدم الاستقرار بمدينة الرى ، فعلى الصعيد الدينى ، فإن مدينة الرى كانت من المراكز الدينية الكبرى فى بلاد فارس ، ولها مكانة روحية خاصة عند الفرس ، لذلك فقد صعب على حكامها الخضوع للسيطرة الاسلامية ، وهى بهذا الحجم من القداسة الروحية ، ومن هذا المنطلق يبدو أن العامل الدينى أسهم فى حركات الانتفاضات والتمرد (٨٨) .

ويرتبط بذلك العامل الاقتصادى ؛ أعنى به ما تدفعه مدينة الرى للمسلمين من خراج وجزية فى كل عام ، فضرية الخراج مقدارها كبير ، وهى تشكل موردا اقتصاديا هاما ، من ذلك أن اليعقوبى يذكر أن مقدار ضريبة الخراج لمدينة الرى وحدها زمن معاوية بن أبى سفيان كان يصل الى (٣٠) ألف ألف درهم ، أى ما يعادل (٣٠) مليون درهم ، فإذا

علمنا أن أهل الرى كانوا يدفعون هذه الضريبة لدولة لا يرتبطون بها بأى نوع من الروابط ، الدينية أو العرقية ، أدركنا أن العامل الاقتصادى كان سببا لعدم الاستقرار بمدينة الرى (٨٩) .

على أنه من الملاحظ أن ظاهرة العصيان والتمرد التى كانت تحدث بمدينة الرى قد خفت حدتها . عندما دخلت اعداد كبيرة من سكانها فى الاسلام ، فى سنة ٢٤ هـ وما بعدها ، مما ترتب عليه زوال كثير من العوامل التى كانت تحرك هذه الثورات ، ذلك أن المسلمين الجدد من أهل مدينة الرى انتظموا فى دفع الخراج الى بيت مال المسلمين عن ايمان وقناعة ، وقد اعتبر البلاذرى أن الفتح الحقيقى لمدينة الرى كان فى سنة ٢٤ هـ ، عندما دخل معظم أهلها فى الاسلام ، فلم تعد تنتقض كما كانت من قبل ، الا فى حالات نادرة ، بسبب ما كانت تقوم به بعض الفئات من شغب ، وقد اتخذ عمال مدينة الرى من حصن الزنبدى أو الزينبى مقرا لحكمهم (٩٠) .

والواقع أن الفتوحات الاسلامية زمن الخليفة عثمان بن عفان اقتصر دورها على تثبيت نفوذ المسلمين والمحافظة على ما توصلوا اليه من فتوحات زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، فأمر النجوش فى المشرق كان أبو موسى الأشعرى ، ومن الأعمال العسكرية التى قام بها أنه فتح ما تبقى من أعمال مدينة الرى ، وهذا يدفعنا الى الاعتقاد بأن مدينة الرى لم تكن قد فتحت بأكملها زمن الخليفة عمر بن الخطاب (٩١) .

وفى أواخر عهد عثمان بن عفان ، أى فى حدود سنة ٣٤ هـ (٦٥٤م) أجريت بعض التغييرات الادارية بمدينة الرى فيما يتعلق بأمر الولاية ، فقد بعث سعيد بن العاص (٩٢) والى الكوفة ، سعيد بن قيس ليكون عاملا على مدينة الرى (٩٣) ، وفى سنة ٣٥ هـ (٦٥٥م) ، فى السنة التى قتل فيها الخليفة عثمان بن عفان ، كان عامل مدينة الرى واصبهان السائب بن الاقرع ، بينما يذكر الطبرى أن سعيد بن قيس أستمّر عاملا على مدينة الرى حتى السنة المذكورة (٩٤) .

وعندما تولى على بن أبى طالب الخلافة أحدث تغييرات جذرية

فى الادارة ، فيما يتعلق بأمر الولاة والعمال ، فقد أسند ولاية الكوفة الى قرظة بن كعب الأنصارى ، الذى كان عاملا على الرى زمن الخليفة عثمان ، أما مدينة الرى ، فقد كان عامله عليها الربيع بن خيثم ، واضاف اليه قزوين (٩٥) ، ثم عزله واقر مكانه يزيد بن حجب بن عامر بن تيم الله بن ثعلبه بن عكابه ، الذى صار عاملا على الرى ودستبى (٩٦) .

ولا شك فى ان مدينة الرى أو بالأحرى عمالها تأثروا بما كان يجرى فى الدولة الاسلامية من احداث ، لا سيما فى القضايا السياسية ، ففى أثناء النزاع القائم بين الخليفة على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، انحاز عامل الرى يزيد بن حجة الى جانب معاوية ضد الخليفة على بن أبى طالب ، فأستولى على أموال الخراج الخاصة بمدينة الرى ، ومقدارها (٣٠) ألف درهم ، وهرب بها الى دمشق حيث قدمها الى معاوية (٩٧) .

وكان أن عين الخليفة على بن أبى طالب عاملا آخر على الرى ، هو يزيد بن قيس ، وضم اليه اصبهان ، ويبدو أنه أستمر فى عمله حتى نهاية عهد الخليفة على بن بن أبى طالب سنة ٤٠ هـ (٦٦٠م) (٩٨) .

ومما يدل على تأثر وتفاعل مدينة الرى بالاحداث السياسية التى تمر بها الدولة الاسلامية أنه حدث فى أعقاب معركة النهروان التى جرت بين الخليفة على بن أبى طالب وبين الخوارج فى سنة ٣٧ هـ (٦٥٧) أن التحقت مجموعة من الخوارج ممن عفا عنهم الخليفة على بن أبى طالب بمدينة الرى ، ولعل اختيارهم لمدينة الرى جاء نتيجة لوجود عناصر مؤيدة لهم ، وظلوا هناك حتى بعد مقتل الخليفة على ، ثم عادوا الى الكوفة من الرى فى سنة ٤٢ هـ (٦٦٢م) (٩٩) .

٢ العصور الأموى :

أولت الدولة الأموية منذ قيامها اهتماما واضحا بأمر الفتوحات والتوسع ، الأمر الذى جاء مصحوبا باختيار الخلافة الأموية ولاة وعمالا موالين لها ، من ذلك أن معاوية بن أبى سفيان لما تولى الخلافة ، أقر على مدينة الرى كثير بن شهاب بن الحصين بن ذى القصة الحارثى ،

وهو صاحب الخبرة والدراية بأمور وأوضاع مدينة الرى ، منذ أن كان عاملاً عليها زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، ثم زمن الخليفة عثمان ، ولما تولى معاوية بن أبى سفيان ، عين المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة ، وقد اهتم المغيرة بأمر مدينة الرى ، فجدد العهد للعامل كثير بن شهاب ، وحذا حذوه والى الكوفة الجديد زياد بن ابىه (١٠٠) .

ويبدو أن عمال الدولة الأموية قاموا بنقل ما بينهم وبين العلويين أو بالأحرى على بن أبى طالب ، من خلافات الى الولايات والمدن البعيدة عن مركز الخلافة ، وحاولوا ترسيخ هذا العداء لعل بن أبى طالب فى نفوس أهل هذه الولايات ، من ذلك ما قام به عامل مدينة الرى ، كثير ابن شهاب ، اذ أمر بسب على بن أبى طالب من فوق منابر مدينة الرى (١٠١) .

ومن المؤكد أن هذه الممارسات الخاطئة التى قام بها بعض عمال الدولة الأموية لا سيما زمن معاوية بن أبى سفيان كانت لها ، آثارها وأبعادها السيئة فى هذه الولايات ، سواء فى النواحي الروحية أو السياسية أو الاجتماعية . فمن آثارها أنها أدت الى انقسام المجتمع الى طوائف وأحزاب ، بعضها مع العلويين والآخر مع الأمويين ، وبديهي أن يتخذ الأمويون موقفاً عدائياً من العناصر التى لا تؤيدها ، فتعمدوا اضطهادهم وتشريدهم ، الأمر الذى أدى الى شيوع الطائفية ، وتولد البغضاء بين أفراد المجتمع مما كانت له آثاره السيئة على النواحي الدينية والاجتماعية .

ومن ناحية أخرى فإن كثير بن شهاب قام أثناء وجوده بمدينة الرى ، بنشاط عسكرى فى نواحي الديلم ، وعمل على تثبيت نفوذ المسلمين فى تلك المناطق (١٠٢) ، ولكن العلاقة بين معاوية بن أبى سفيان وكثير بن شهاب سرعان ما ساءت ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أمر معاوية بجلده وحبسه بدمشق ، ولم يخلصه من هذه العقوبة ، الا توسط من القاضى شريح بن هانئ المرادى ، ولا نعرف سبب هذه الخصومة ، ولكن كثير بن شهاب تبوأ مناصب عالية فى الدولة فى زمن يزيد بن معاوية (١٠٣) .

وقد حرص الأمويون على انتقاء الولاة الاكفاء على الكوفة ، لأن الهدوء والاستقرار في المدن والولايات الشرقية مقرون بكفاءة والى الكوفة ، فهو المسئول عن العمال وعن تعيينهم ، لذلك فان يزيد بن معاوية اختار على الكوفة عبيد الله بن زياد بناء على نصيحة أحد مستشاريه (١٠٤) ، وقد عهد والى الكوفة الجديد عبيد الله بن زياد الى عمر بن سعد بن أبى وقاص بالولاية على مدينة الرى (١٠٥) ، وكلفه بمحاربة المتمردين ببلاد الديلم ، الا أنه ربط هذا العهد بشرط ، وهو أن لا يعطيه الولاية الا اذا وافق على محاربة الحسين بن على بن أبى طالب ، الذى قدم الى الكوفة بناء على مكاتبة أهل الكوفة ، وقد تردد عمر بن سعد بن أبى وقاص أول الأمر واقترح على عبيد الله بن زياد أن يختار غيره لمحاربة الحسين ، ويدعه يذهب الى مدينة الرى لمحاربة المتمردين من أهل الديلم ، ولكن والى الكوفة عبيد الله بن زياد أصر على رأيه ، خاصة لما وجد أن عمر بن سعد متهالك على ولاية الرى ، وقال له : اما الموافقة أو أن يسترد العهد (١٠٦) ، وكانت الحيرة بادية على عمر بن سعد ، فتمثل بهذه الأبيات :

أترك ملك الرى والرى منيتى أم ارجع مذموما بقتل حسين
وفى قتله النار التى ليس دونها حجاب وملك الرى قرة عين

على أنه استجاب أخيرا لطلب عبيد الله بن زياد ، ويعلق أبو حنيفة الدينورى في كتابه «الخبار الطوال» على هذا الموقف بقوله : « فأقبل يميل بين الخروج وولاية الرى والقعود ، فغلبه حب الدنيا والرياسة حتى خرج فكان من قتل الحسين » (١٠٧) .

وهكذا أقدم عمر بن سعد على محاربة الحسين وقتله ، الا أن عبيد الله بن زياد لم يف بوعدده ، فلم يكافئه وحرمه من ولاية مدينة الرى (١٠٨) .

وقد تعرضت الدولة الاسلامية فى اعقاب موت يزيد بن معاوية ، فى حدود سنة ٦٤ هـ (٦٨٣م) لموجة من الفوضى والاضطراب والصراعات على السلطة فى الشام والحجاز والعراق ، بين الفرعين المروانى

والسفياني في الشام ، وبين المروانية وآل الزبير في الشام والحجاز والعراق ، وكذا بين آل الزبير وجماعة المختار بن عبيد الثقفي بالكوفة ، وأخيرا الصراع بين هذه القوى مجتمعة وحزب الخوارج ، فهذه القوى المتصارعة أخذت تتجاذب مناطق النفوذ والسيطرة ، وكان أن أسفر الصراع بين هذه القوى ، عن آثار سلبية ألت بالدولة الإسلامية ، وشكلت حافزا للمناطق البعيدة عن مركز الخلافة ، للقيام بالتمرد ومحاولة الانفصال ، من ذلك ما حدث بمدينة الري في حدود سنة ٦٤ هـ في أعقاب موت يزيد بن معاوية ، أبان هذه الفوضى العارمة ، اذ أعلنت التمرد والعصيان ، لولا أن والى الكوفة عامر بن مسعود تدارك الموقف ، فبعث جيشا بقيادة محمد بن عمير بن عطار (١٠٩) ، على أن هذا الجيش فشل في تحقيق النصر واخضاع مدينة الري (١١٠) ، وبذلك ظلت مدينة الري على تمردا وانفصالها عن الدولة الإسلامية ، وقد تزعم هذه الحركة شخص يقال له ، الفرخان ، ومما ساعدها على ذلك التمرد النزاع القائم على أشده بين الأمويين وآل الزبير (١١١) .

أما والى الكوفة عامر بن مسعود فقد أخذ يتابع أحداث هذا التمرد الى أن سنحت له الفرصة ، فبعث بجيش آخر بقيادة عتاب بن ورقاء الرياحي ، الذي تمكن من دحر هذا التمرد ، وقتل الفرخان زعيم الحركة ، وبذلك أصبح عتاب عاملا على الري ، وضمت اليه اصبهان (١١٢) ، على أن الحجاج بن يوسف الثقفي فصل اصبهان عن الري وجعل مسئوليات عتاب على اصبهان فقط ، بينما عين يزيد بن الحرث بن رثيم الشيباني عاملا على مدينة الري ، وكان ليزيد خبرة ودراية بشئون الري ، اذ كان عاملا عليها زمن الخليفة على بن أبي طالب (١١٣) .

كذلك حدث في أثناء الحروب والثورات التي اشعلها الخوارج ، لا سيما فرق الأزارقة ؛ اتباع نافع بن الأزرق ، في حدود سنوات ٦٥ هـ (٦٨٤م) وما بعدها ، أن داهمت جيوش الخوارج مدينة الري ، فتمكنوا من دخولها وقتلوا عاملها ، يزيد بن الحرث بن رثيم (١١٤) .

ومن الملاحظ أن جماعات من أهل الري تعاطفت مع الخوارج

ربما تمثل المنافقين أو الذين لم يدخلوا فى الاسلام ، فاغتنموا فرصة وجود الخوارج فوقفوا الى جانبهم لاضعاف المسلمين . وهناك احتمال آخر يكمن فى عمال الدولة الأموية أنفسهم ، فأهل الرى لا يميلون اليهم منذ حادث السرقة لأموال خراج مدينة الرى التى قام بها يزيد بن نجبة لسنة كاملة ومقداره (٣٠) ألف درهم، زمن الخليفة على بن أبى طالب، وهرب بها الى معاوية بن أبى سفيان ، هذا الموقف جعلهم يتوصلون الى قناعة فيما يتعلق بأمر العمال الأمويين وتتوائم هذه القناعة مع مبادئ الخوارج ، الأمر الذى يبرر موقفهم الى جانب الخوارج ضد العامل يزيد وأعدائه (١١٥) .

وقد تمكنت هذه الجماعات من السيطرة على مدينة الرى فى أعقاب مقتل يزيد بن حجة عامل مدينة الرى ، ولكن مصعب بن الزبير والى البصرة آنذاك لأخيه عبد الله ابن الزبير ، بعث الى عتاب بن ورقاء الرياحى فى سنة ٦٨ هـ (٦٨٧م) - وكان عاملا على اصبهان - بترك اصبهان والتوجه الى مدينة الرى لمحاربة المتمردين ، وقد تمكن عتاب بعد قتال عنيف من اخضاع المدينة وفتح سائر القلاع عنوة ، وغنم جيش الخلافة من جراء ذلك أموالا كثيرة (١١٦) .

ولا شك فى أن الصراع الدائر بين القوى الاسلامية كانت له تأثيراته المباشرة على الولايات التى تقع فى الأجزاء الشرقية من مركز الخلافة ، وهذه التأثيرات كانت تمس الجانب الإدارى والسياسى ، حيث تداولت قوى الصراع السيطرة على مدينة الرى ، اذ خضعت لآل الزبير ثم لجماعة المختار بن عبيد الثقفى ، ثم للأمويين ، من ذلك أنه فى أعقاب انتصار المختار بن عبيد على آل الزبير فى سنة ٦٦ هـ (٦٨٥م) أن خضعت له الكوفة (١١٧) ، وتبع ذلك طبعاً خضوع جميع الولايات التى تتبع الكوفة فى النواحي الادارية ، وهذا يعنى خضوع مدينة الرى أيضا ، فعين المختار عليها يزيد بن نجبة الفزارى فى حدود سنة ٦٨ هـ (٦٨٧م) ، وضم اليه دستبى ، فكانت أموال الخراج لهذه الولايات تصل الى المختار بالكوفة ، واستمر ذلك لمدة ثمانية عشر شهرا (١١٨) .

ويفهم من ذلك أن يزيد بن نجبة الفزاري تمكن من أبعاد عتاب بن ورقاء الرياحي عن مدينة الري ، وتمت له السيطرة على المدينة ، ولكن حدث بعد أن قضى آل الزبير على حركة المختار بن عبيد في سنة ٦٩ هـ (٦٨٨م) أن عادت مدينة الري لـنفوذ آل الزبير . ويعسد أن تغلب عبد الملك بن مروان على عبد الله بن الزبير ، خضعت جميع الولايات الإسلامية للنفوذ الأموي ومنها مدينة الري (١١٩) ففي سنة ٧١ هـ (٦٩٠م) ولد الأمويون يزيد بن ورقاء الرياحي الري ، فاصبح عاملا عليها . ويزيد هذا كما هو واضح من اسم أبيه هو أخو عتاب بن ورقاء (١٢٠) .

وفي ضوء هذه المعطيات التاريخية أصبح الأمويون هم أصحاب السيادة الفعلية في مشرق العالم الإسلامي ، إلا أن تحركات الخوارج أقلقوا راحتهم ، لا سيما في المناطق الشرقية من العالم الإسلامي ، إذ كان للخوارج نشاط واضح في بلاد فارس ونواحي الخليج ، وتكررت اعتداءاتهم على المدن الفارسية ، مثل مدينة الري واصبهان وطبرستان . وقد عمل عبد الملك بن مروان على الحد من نشاط الخوارج في تلك المناطق ، فأحدث تغييرات إدارية شملت ولاية العراق وتوابعها ، ذلك أنه عزل خالد بن عبد الله بن أسيد عن ولاية العراق وقلدها الحجاج بن يوسف الثقفي (١٢١) ، وفي سنة ٧٧ هـ (٦٩٦م) قام مطرف بن المعيرة بن سبعة عامل الحجاج على المدائن بالتمرد ، واعتنق مذهب الخوارج ، فترك المدائن وذهب إلى نواحي مدينة الري واصبهان وهمذان ، يدعو الناس إلى خلع بيعة عبد الملك بن مروان ، فاستجابت له جماعات في هذه المدن ، ومن مدينة الري انضم إليه نحو مائة رجل عليهم بكير بن هارون النخعي ، وقد طلب الحجاج من عدى بن زياد الأيادي عامله على مدينة الري ، كذلك طلب من البراء بن قبيصة عامله على اصبهان ، بالتصدي لهذه الحركة ، فخرجوا له بقوة عسكرية بلغ عددها نحو (٦) آلاف مقاتل ، بقيادة عدى بن زياد عامل مدينة الري ، فتمكنوا من دحر الخوارج وقتل مطرف بن المعيرة ، وبعد ذلك أمر الحجاج بعزل عدى ابن زياد عن الري (١٢٢) وقلدها خالد بن الوليد عتاب بن زرقاء الرياحي (١٢٣) .

على أنه حدث فى سنوات ٧٩ هـ (٦٩٨م) وما بعدها أن أخذ نفوذ الخوارج يتعاظم فى نواحي مدينة الرى وهمذان واصبهان وطبرستان . واجتهد الحجاج لقتالهم ، وأختار لهذه المهمة القادة الأكفاء مثل المهلب بن أبى صفرة ، حتى تمكن الحجاج من قطع الطريق على زعيم الخوارج ، قطرى بن الفجاءة ، الذى كان ينوى احتلال مدينة الرى ، فبعث اليه جيشا يقوده سفيان بن الابرء تمكن من صد الخوارج وفوت عليهم فرصة الاحتلال . وكان عامل الحجاج على مدينة الرى قبل مجيئ الخوارج ، اسحاق بن محمد بن الاشعث (١٢٤) . ويذكر اليعقوبى ، أن سفيان بن الابرء هو العامل على مدينة الرى وليس اسحاق بن محمد بن الاشعث ، وقد عزله الحجاج ، وأقر مكانه قتيبة بن مسلم الباهلى (١٢٥) .

ومهما يكن الأمر فإن الهدوء والاستقرار ساد مدينة الرى فى سنة ٨٣ هـ (٧٠٢م) وما بعدها ، فكانت تعد من المناطق الآمنة ، لا سيما بعد أن قضى الحجاج على الثائر عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث فى معركة « دير الجماجم » سنة ٨٢ هـ (٧٠١م) ، وقد لجأ معظم المنهزمين فى هذه المعركة الى مدينة الرى ، خاصة بعد أن أعلن الحجاج ، أن من دخل مدينة الرى فهو آمن (١٢٦) .

ولكن هؤلاء اللاجئين لم يكونوا مخلصين فى ولائهم للحجاج ، اذ عمدوا الى زرع القلاقل والفتن بمدينة الرى ، فكانوا يناصرون الحركات المناوئة للحجاج ، كما قاموا بدور واضح فى تشجيعها ، لذلك ألحوا على عمر بن أبى الصلت أحد أصحاب النفوذ بمدينة الرى - حتى اقنغوه بخلق الطاعة للحجاج بن يوسف الثقفى وعاملة على الرى ، قتيبة بن مسلم الباهلى . وتحت هذه الضغوط ، وتأثير أبية الذى كان يبغض الحجاج ، استجاب عمر بن أبى الصلت لهم ، وأعلن الثورة . وقد دارت بين عمر وبين قتيبة بن مسلم عامل الرى معركة عنيفة ، أسفرت عن هزيمة بن أبى الصلت ، بسبب تخلى اتباعه عنه (١٢٧) .

وفى سنة ٨٦ هـ (٧٠٥م) عزل الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلى عن الرى ، وقلده الامارة على خراسان ، ولا نعرف من أقر مكانه على الرى ،

ولم تذكر المصادر أسباب العزل ، وهكذا أستمريت عمليات العزل والتولية هذه دون ذكر الأسباب ، فالمصادر التى بين أيدينا فى معظم الأحيان لم تفصح عن ذلك ، واكتفت بذكر العزل أو التولية فقط ، وعلى العموم فان ذلك لم يؤثر على الدور السياسى الذى كانت تقوم به مدينة الرى ، وعلى تفاعلها مع الاحداث التى كانت تجرى فى تلك المناطق القريبة منها (١٢٨) ، من ذلك أنها شاركت فى حدود سنة ٩٨ هـ (٧١٦م) مع جيوش المسلمين من أهل الكوفة والبصرة والشام وخراسان فى فتح مدينة جرجان بقيادة يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، وبعد فتح جرجان قام يزيد بزيارة لمدينة الرى (١٢٩) .

وفى سنة ١٠٨ هـ (٧٢٦م) أخذ نفوذ الخوارج الازارقة يتغلغل داخل مدينة الرى ، وقد شجعهم ذلك على الثورة ومحاولة السيطرة على المدينة ، بزعامة امامهم عباد الحرورى ، وقد تمكنوا بالفعل من السيطرة على مدينة الرى ، الا أن الدولة الأموية زمن هشام بن عبد الملك هملت على أقصائهم ، فبعث يوسف بن عمر والى العراق جيشا استطاع اخماد ثورتهم والقضاء على نفوذهم ، وقتل زعيمهم عباد (١٣٠) .

ومن الملاحظ أن مدينة الرى أو البعض من أهلها تشييعوا فأيدوا العلويين وناصروهم ضد الأمويين ، من ذلك أنهم وقفوا الى جانب زيد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، عندما أعلن الثورة فى الكوفة على هشام بن عبد الملك فى سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩م) . وكان أن بعثوا بالرسول يحملون بيعتهم لزيد بن على ليحاربوا له عن تأييدهم ومناصرتهم له ، وقد شاركت مدينة الرى فى هذا التأييد مدن فارسية أخرى مما يدل على أن المذهب العلوى أخذ يشق طريقه الى المدن الفارسية ، لا سيما وأن نشاط دعاة بنى العباس أخذ فى التزايد خلال هذه الفترة وما بعدها (١٣١) .

وبعد موت الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ (٧٤٣م) خلفه ابنه يزيد بن الوليد ، وقد تميز عهده بعدم الاستقرار فى النواحي الادارية ، لا سيما فى الولايات والمدن الشرقية زمن الخلافة، فعمليات العزل والتولية الجرافية خلقت جوا من الخلاف بين الولاة بعضهم وبعض ، وبينهم وبين

الخلافة ، فبعضهم أظهر غم الاستجابة للعزل ، مما ترتب عليه حدوث الفتن والاضطرابات ، كما حدث بين منصور بن جمهور الكلبي ، الذي أقر أخاه عاملا على مدينة الري وخراسان ، وبين نصر بن سيار وإلى خراسان ، هذه الاضطرابات العارمة بدأت تأخذ أبعادا واسعة ليس فقط في المدن الفارسية ومن بينها مدينة الري ، بل أيضا امتدت حتى شملت العراق ، ومن ناحية أخرى فإن هذه الأوضاع دفعت يزيد بن الوليد إلى عزل منصور بن جمهور ، بعد أن رأى أنه وراء هذه الفوضى السياسية ، فهو الذي أقر أخاه عاملا على مدينة الري ، وأضاف إليه خراسان بعد أن أبعد عنها نصر بن سيار (١٣٢) .

ولم تكن الأوضاع في عهد مروان بن محمد الجعدي الذي خلف يزيد بن الوليد سنة ١٢٧ هـ (٧٤٤م) ، بأفضل مما كانت عليه في السابق ، إذ ثار عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة يريد الخلافة ، ولما قضى على ثورته هرب إلى بلاد فارس ، فلاقت دعوته تأييدا في بعض المدن ، وجمع الاتباع ، حتى أصبح قوة مرهوبة الجانب ، فاحتل مدينة الري وهمذان وماهين وقوس وأصبهان (١٣٣) .

وكان مروان يتابع عن كثب حركات الثائر عبد الله بن معاوية في بلاد فارس (١٣٤) ، وبعد أن هدأت الأوضاع ببلاد الشام تقريبا تفرغ لمجابهته استطاع الحد من نشاطه ، فاستعاد مدينة الري ، وولى عليها نباته بن حنظله (١٣٥) ، ثم عزله وقلدها حبيب بن بديل النهشلي (١٣٦) .

وفي سنوات ١٢٧ هـ وما بعدها حققت الدعوة العباسية نجاحا واضحا في خراسان وفي باقي مدن فارس ، على حساب النفوذ الأموي المتداعي والأخذ في الانحسار والضعف ، ولا يعني لنا هنا الحديث عن الدعوة العباسية أو النفوذ الأموي في خراسان أو في غيرها من المدن ، بقدر ما تركز على موقف مدينة الري من الدعوة العباسية ، وعندما احتل دعاة بني العباس خراسان هرب عاملها نصر بن سيار إلى مدينة الري ونزل في قرية خوار من ضواحي الري متخفيا (١٣٧) ، ثم دخل مدينة الري والتقى بعاملها الأموي حبيب بن بديل النهشلي (١٣٨) .

وقد بعث القائد العباسي قحطبة بن شبيب في سنة ١٣١ هـ (٧٤٨م) ابنه الحسن بن قحطبة لفتح مدينة الري ، فهرب حبيب بن بديل ومن معه من أهل الشام من المدينة فدخلها الحسن دون أدنى مقاومة ، لأن الإمدادات التي طلبها نصر بن سيار من وإلى العراق تأخر وصولها ، وظل الحسن بمدينة الري إلى أن قدم عليه أبوه قحطبه ، ثم كتب قحطبه إلى أبي مسلم الخراساني القائد الأعلى يخبره بفتح مدينة الري (١٣٩) .

٣ - الري في العصر العباسي :

تمكن العباسيون من بسط نفوذهم على بلاد فارس ، وسقطت مدينة الري في أيديهم ، ولكن خلال الوجود الأموي بمدينة الري ، نشأت بين جماعات من أهلها وبين الأمويين وعما لهم علاقات من الود والولاء ، ولما خضعت مدينة الري للنفوذ العباسي ، أصبح موقف هذه الجماعات حرجا ، فهربوا من المدينة ، ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله : « لم يشر إلى بني أمية لأنهم كانوا سفيانية (١٤٠) » ، وقد رفع قحطبه بن شبيب هذا الأمر إلى أبي مسلم الخراساني ، فأمره بمصادرة أموالهم وأموالهم ، وقد اتجهت هذه الجماعات الهاربة إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وفي العودة ذهبوا إلى الكوفة في سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩م) حيث أبو العباس السفاح ، فرفعوا ظلامتهم إليه ، وشكوه أبا مسلم وما صنع بهم ، فبعث أبو العباس إلى أبي مسلم يأمره برد ما أخذه منهم من الأموال ، ولكن أبا مسلم امتنع وتعلل أنهم أعداء لا يستحقون الرحمة ، حتى أجبره أبو العباس على رد جميع الأموال ، فأعيدت إليهم أموالهم كاملة . هذه السياسة الحكيمة من جانب أبي العباس السفاح تجاه أهل مدينة الري تركت أثرا طيبا في نفوسهم تجاه أبي العباس بصورة خاصة والدولة العباسية بصورة عامة (١٤١) .

ومع ذلك كانت مدينة الري ملاذا يحتتمى به الفارون من السلطة ، مما يدل على مناعتها وحصانة موقعها ، فمن ذلك أنه في سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣م) أراد أبو مسلم الخراساني الاجتماع بمدينة الري بنساء على نصيحة أحد مستشاريه ، عندما ساءت العلاقة بينه وبين المنصور ، ومما جاء في أقوال هذا المستشار لأبي مسلم : « ان تأتي الري فتقيم بها ،

فتصير ما بين خراسان والرى « (١٤٢) ، وقد تردد أبو مسلم الخراساني في قبول هذه النصيحة ، ومع أنه يمتلك قوة عسكرية تقدر بحوالى (٨) آلاف مقاتل ، موزعة ما بين مدينة الرى ونيسابور (١٤٣) ، إلا أن خوفه من أبي جعفر المنصور جعله يعرض عن رأى المستشار ، ويقرر الذهاب الى أبي جعفر المنصور ، ولكنه فى اللحظات الأخيرة ندم على رأيه يوم لا ينفع الندم ، فقد أصبح على مشارف معسكر المنصور ، فسأل مستشاره فى أمر العودة الى الرى ، فرد عليه المستشار : « تركت الرأى بالرى » ، فصارت مثلاً ، وكانت نهاية أبى مسلم معروفة ، فقد قتله المنصور (١٤٤) وكانت لأبى مسلم الخراساني ، أموال وخزائن كثيرة تركها بمدينة الرى قبل ذهابه الى أبى جعفر المنصور (١٤٥) .

وقد ثار سنباذ - ويقال له : فيروز ابيهيد - بمدينة خراسان فى سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤م) لمقتل أبى مسلم الخراساني ، وتعاطف مع هذه الثورة كثير من الناس ، ومن أيدها وناصرها جماعات من أهل مدينة الرى ، فأعلنوا الثورة والعصيان ، ويقول خليفة بن خياط فى هذا الصدد : « استغوى سنباذ أهل الرى فانتقضوا » فعمد سنباذ الى خزائن أبى مسلم الموجودة بمدينة الرى وأستولى عليها (١٤٦) .

وقد أستنكرت جماعات من أهل مدينة الرى هذه الثورة ، بل قامت ضدها وحاربتها ، وتزعّم هذه الحركة المضادة شخص يقال له : عمر بن العلاء ، من أهل مدينة الرى ، وكان يعمل جزارا ، فقد فتمكن من الحد من هذه الحركة بمدينة الرى على الأقل (١٤٧) ، ريثما يأتية المدد من الخلافة العباسية ، وكان أن بعث أبو جعفر المنصور على الفور جيشاً بقيادة جمهور بن مزار العجلي ، يضمّ نحو (١٠) آلاف مقاتل ، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة سنباذ ، وبلغ عدد القتلى فى جيش سنباذ كما يقول الطبرى نحو (٦٠) ألف . وقد يكون هذا الرقم مبالغاً فيه ، إلا أنه يدل فى نفس الوقت على فداحة هذه الثورة وخطرها على الأمن والاستقرار فى مدينة الرى وباقى مدن فارس (١٤٨) .

وقد أراد أبو جعفر المنصور مكافأة عمر بن العلاء الجزار ، فأوفده جمهور بن مزار العجلي على المنصور ، فأنعم عليه وجعله قائداً على أحد

الفرق العسكرية ، ثم قلده ولاية طبرستان ، حتى قتل زمن محمد المهدي ابن منصور في إحدى المعارك (١٤٩) .

• أما القائد العباسي جمهور بن مرار العجلي ، فلم يكن أمينا ، إذ عمد إلى أموال وخزائن أبي مسلم الخراساني الموجودة بالري وأستولى عليها ، ورفض إرسالها إلى أبي جعفر المنصور ، لذلك اضطر المنصور إلى قتله ، فبعث إليه جيشا بقيادة محمد بن الأشعث ، ولما علم جمهور بن مرار بقدوم الجيش إلى مدينة الري هرب إلى مدينة أصبهان ، فدخل محمد ابن الأشعث مدينة الري ، ثم تبع جمهور بن مرار إلى أصبهان ودار بينهما قتال انتهى بمقتل جمهور بن مرار (١٥٠) .

كذلك لجأ إلى مدينة الري يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، لما قضى المنصور على ثورة أخيه محمد المعروف بذي النفس الزكية في المدينة المنورة ، وعندما أصبح وضع أسرة آل الحسن حرجا ، هرب يحيى إلى مدينة الري ، ولعل اختياره لمدينة الري كان لاعتبارات دينية وسياسية ، كما عبر عن ذلك المسعودي في «مروج الذهب» (١٥١) .

• وحتى الخليفة المنصور نفسه فكر في الهرب إلى مدينة الري في سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢م) لما أوشكت ثورة إبراهيم بن عبد الله أخو محمد ذو النفس الزكية أن يكتب لها النجاح ، لكي أبا جعفر المنصور تمكن في اللحظات الأخيرة من إخمادها (١٥٢) .

وفي ضوء هذه الأحداث التاريخية تلاحظ أن مدينة الري غدت ملاذا آمنا لجميع الخصوم المتصارعين ، وقد رأينا أن أبا مسلم الخراساني أراد التحصن بمدينة الري ، وكذلك يحيى بن عبد الله الهارب من أبي جعفر المنصور - لجأ إلى مدينة الري ، ومن الغريب أن أبا جعفر المنصور هو أيضا أراد الذهاب إلى مدينة الري ، ولعل هذا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن مدينة الري حوت العديد من الطوائف المتباينة ، فبعضها يمثل إلى قوميته الفارسية فيتعاطف مع أبي مسلم الخراساني ، وبعضها مع العلويين ، والبعض الآخر مع العباسيين .

ولما ترسخت أقدام المنصور فى السلطة ، اتجه الى العمران ، فكانت لديه اهتمامات بالنهضة العمرانية ، ومن المعروف أنه بنى فى العراق العديد من المدن ، مثل بغداد ، والرصافة التى بناها لأبنه المهدي ، وكانت تسمى « العسكر » لأن المهدي عسكر بها قبل ذهابه الى مدينة الرى ، كذلك بنى المنصور مدينة الرقة ، ولم يقتصر هذا الاهتمام على العراق فقط ، بل شمل أيضا الاقاليم البعيدة عن مركز الخلافة ، فلما ذهب المهدي الى خراسان فى سنة ١٤١ هـ (٧٥٨م) ، طلب منه المنصور النزول بمدينة الرى (١٥٣) ، وقبل دخوله المدينة نزل فى قرية يقال لها « السيروان » (١٥٤) ؛ وهى من ضواحي مدينة الرى ، وخلال وجود المهدي بالرى ، كلف عمار بن أبى الخصيبى ، أحد المهندسين ، ببناء مدينة جديدة بالرى ، وتم بناء هذه المدينة ، وقد أحيطت بسور ، وبنى بها مسجدا جامعاً كتب على حائطه اسم المهدي وجعلوا بين المدينة الجديدة والقديمة حاجزا من الطابوق والأجر ، وكتبوا تاريخ الانتهاء من بناء المدينة : فى سنة ١٥٨ هـ (٧٧٤م) ، واطلقوا على هذه المدينة اسم « الحمديّة » ، فكان أهل الرى يسمون المدينة القديمة الداخلة ، أو العتيقة والجديدة الخارجة (١٥٥) .

ويبدو ان ظاهرة العزل والتولية على مدينة الرى اختفت تقريبا زمن المنصور ، وربما يعود السبب فى ذلك الى هدوء المنطقة نسبيا فى تلك النواحي ، واكتفت المصادر بذكر العمال على خراسان وسجستان ولم تشر الى مدينة الرى ، ولعل السبب فى ذلك يعزى الى ما تتمتع به خراسان خلال هذه الفترة ، ونعنى بها صدر الدولة العباسية ، من مكانة مرموقة فى الادارة السياسية بلاد فارس ، ويحتمل أنه أسند الى ولايتها مهمة تعيين العمال على المدن ، كمدينة الرى وغيرها ، حيث يتم هذا فى الغالب فى حالات الهدوء والاستقرار ، أما فى حالات الاضطرابات والفتن ، فقد حرصت الخلافة على اقرار الأمن والنظام بها ، مثال ذلك ، أنه لما عمت الفوضى ببلاد فارس ابان عهد محمد المهدي بن المنصور ، تولى بنفسه تعيين العمال ، فأسند ولاية الرى الى شخص يقال له : عيسى مولى جعفر فى سنة ١٦٥ هـ (٧٨١م) بعد أن عزل (مجلة المؤرخ العربى)

عنها خلف بن عبد الله ، ثم عزل عنها عيسى سنة ١٦٦ هـ (٨٧٢م) ،
وولاهم مولاة سعد في سنة ١٦٧ هـ (٧٨٣م) (١٥٦) .

ففي الفترة الأخيرة نلاحظ أن عمليات التولية والعزل كانت تتم
بسرعة ، نتيجة لعدم الاستقرار بمدينة الري ، وفي عهد موسى الهادي
ابن محمد المهدي ١٦٩ هـ (٧٨٥م) ، لم ترد أي إشارة عن مدينة الري
ودورها السياسي أو عن من تولاهم من العمال ، ويعزى ذلك إلى قصر
عهد موسى الهادي ، إذ مات بعد سنة من توليه ، في سنة ١٧٠ هـ
(٧٨٦م) ، وتولى بعده هارون الرشيد بن محمد المهدي ، فقد بويج في
١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ (١٥٧) ، وذكروا أن هارون الرشيد ولد
بمدينة الري في سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥م) (١٥٨) ، وذكر خليفة بن خياط
في تاريخه أن موسى الهادي ولد أيضا بمدينة الري في ١٤٦ هـ (٧٦٣م) ،
في موضع يقال له « السيروان » من ضواحي مدينة الري (١٥٩) . مما
يدل على أن خلفاء بني العباس وأمرأهم كانوا كثيرى التردد على
مدينة الري (١٦٠) .

وأعتاد البعض من عمال مدينة الري أن يبعثوا بالهدايا الثمينة إلى
ولاة البصرة ، فبعد وفاة محمد بن سليمان بن علي العباس وإلى البصرة
في سنة ١٧٤ هـ (٩٧٠م) ، أمر هارون الرشيد بمصادرة أملاكه ، فوجدوا
من بينها بعض الهدايا والتحف المرسلة من مدينة الري ، إلى جانب هدايا
أخرى من عمان والبحرين ومكران وكرمان (١٦١) .

والسؤال هنا ، لماذا كان عمال مدينة الري أو بالأحرى أهل مدينة
الري يبعثون بالهدايا إلى وإلى البصرة ، فهل هناك دوافع اقتصادية
تهم الطبقات الغنية بمدينة الري ، التي أرادت كسب ود وإلى البصرة
لتسهيل مرور بضائعها وسلعها التجارية عبر ميناء البصرة إلى الخليج
العربي ، ولذا حرص عمال مدينة الري على إقامة مثل هذه العلاقات
الطيبة مع وإلى البصرة ، ذلك أن مدينة البصرة تعتبر من المراكز
التجارية البرية والبحرية الهامة في التجارة الداخلية والخارجية ، وقد
عبر عن ذلك ابن البصرة الجاحظ ، بقوله أن البصرة عين العراق (١٦٢) ،
هذا فضلا عن مكانتها الإدارية ، ومن ناحية أخرى فإن مدينة الري التي

تقع على الطريق التجارى البرى الهام ، المعروف بطريق الحرير ، ومدينة البصرة تتصل بهذا الطريق بواسطة مدينة الاهواز (١٦٣) ، مما يتطلب وجود علاقات وطيدة بين هاتين المدينتين .

وقد تأثرت مدينة الرى بالثورة التى أجها يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب على الرشيد فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢م) فى نواحي الديلم ، ذلك أن هذه الثورة اقلقت راحة الرشيد ، فاختار القيادة الكفاة للقضاء عليها ، فبعث الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى ، وأسند اليه ولاية مدينة الرى ، وضم اليه جرجان وقومس وطبرستان ، ولكن تم اخضاع هذه الثورة بالطرق السلمية (١٦٤) ، ثم عزل الرشيد الفضل بن يحيى عن مدينة الرى فى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦م) وولاهها محمد بن يحيى بن الحارث بن شخير (١٦٥) .

وفى اطار التقسيمات الادارية التى أحدثها الرشيد فى حياته بين ابنيه عبد الله المأمون ومحمد الأمين فى سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢م) ، كانت مدينة الرى من نصيب عبد الله المأمون ، بقوله : « من لدن الرى الى أقصى خراسان » (١٦٦) .

وكان أن توقف هارون الرشيد بمدينة الرى فى سنة ١٨٩ هـ (٨٠٤م) وهو فى طريقه الى خراسان للتحقيق مع على بن عيسى بن ماهان والى خراسان ، فى قضايا تتعلق بالأمانة والعدل ، وقد أقام الرشيد بمدينة الرى مدة أربعة أشهر (١٦٧) . وفى خلال وجوده اتبع مع أهلها سياسة اللين والملاطفة ، ولا سيما مع العناصر المناوئة للعباسيين ، فكسب ودهم وولاءهم ، أما على الصعيد الخارجى ، فقد اكتسبت مدينة الرى أهمية كبرى أثناء وجود الرشيد بها ، ففى النواحي الادارية والسياسية ، كان يمارس جميع سلطاته وأوامره ، فمنها كانت تصدر أوامر الخليفة الى جميع الأمصار الاسلامية ، من ذلك أنه بعث بثلاث رسائل الى : طبرستان والديلم ، فيها أمان لثلاث شخصيات ، الاولى كانت « لشروين أبى قارن » ، والثانية « لونداد هرمز » ، والثالثة لمزبان بن جستان « أمير الديلم ، وقد جاء هؤلاء الأمراء الثلاثة الى مدينة الرى ، وقابلوا الرشيد ، واعتذروا ، وقدموا السمع والطاعة ودفعوا ما عليهم من خراج

عن بلادهم ، وقد وهب الرشيد جملة من الهدايا « لمرزبان بن جستان »
أمير الديلم (١٦٨) .

كذلك جاء الى مدينة الري اربعمائة رجل من فرسان وأبطال مدينة
طبرستان ليعلنوا اسلامهم على يد الرشيد ، واغتتم خزيمة بن خازم والى
أرمينية فرصة وجود هارون الرشيد بمدينة الري ، فجاء ليسلم عليه ويقدم
الهدايا ، وهكذا أصبحت مدينة الري خلال هذه الفترة ذات مكانة هامة
فى الادارة السياسية ، وقام الرشيد بعدة اصلاحات ، كما أنعم على أهلها
بالعطاء . وقد عبر عن ذلك الشاعر أبو العتاهية الذى كان برفقة
الرشيد بقوله :

ان أمين الله فتى خلقه حن به البر الى مولده
ليصلح الري واقطارها ويمطر الخير بها من يده

وقبل أن يترك الرشيد مدينة الري ، أقر عليها عبد الله بن مالك ،
وضم اليه طبرستان وقومس وهمذان وغيرها ، ويبدو ان عبد الله بن
مالك لم يتخذ مدينة الري مقرا لأقامته ، فقد جعل ابنه عباس عاملا
عليها (١٦٩) .

وقد تأثرت مدينة الري ابان الفتنة التى وقعت بين الأخوين ،
محمد الأمين وعبد الله المأمون فى سنوات ١٩٥ هـ (٨١٠م) وما بعدها ،
فكان لها الدور البارز بل ربما كانت طرفا فى هذا النزاع ، وكان أول
عمل استفزازى قام به محمد الأمين ضد عبد الله المأمون ، أنه طلب من
عامل مدينة الري عباس بن عبد الله بن مالك أن يبعث اليه من غرائب
منتوجات مدينة الري ، من الفواكه وغير ذلك ، فأصبح موقف عامل
مدينة الري حرجا ، فبعث اليه ما اراد دون علم المأمون ، وكانت مدينة
الري وفق التقسيمات التى أحدثها الرشيد بين ابنيه ، من نصيب المأمون
وتحت ادارته ، فأمر بعزله ، وأقر مكانه على الري الحسن بن على
المأمونى ، وكانت ولاية عباس بن عبد الله على مدينة الري من سنة
١٨٩ هـ ، وحتى سنة ١٩٥ هـ ، أى ما يقارب من ست سنوات (١٧٢) .

ولما وقع النزاع بين الأمين والمأمون ، حاول قائد الأمين على بن عيسى بن ماهان الوصول الى مدينة الري قبل ان يصل اليها قائد المأمون طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعي (١٧٣) . وكان غرضه من ذلك التحصن بها أو أن يجعلها خلف ظهره ، فكان يقول لأصحابه : أن نهاية القوم الري فلو قد صيرناها خلف ظهورنا ، فت (١٧٤) ذلك في أعضادهم وانتشر نظامهم وتفرقت جماعتهم « (١٧٥) » .

هذه العبارة توحى بأهمية الري كموقع عسكري دفاعي هام ، فهي المدخل الرئيسي لخراسان ، حيث أنها تقع في آخر حدودها الغربية ، ولم تقتصر هذه الأهمية على خراسان فقط ، وإنما أيضا على المدن المجاورة لها ، فموقعها يتوسط هذه المدن ، لذلك حرص كل من الطرفين المتحاربين الوصول اليها قبل الآخر ، ومما يدل على هذه الأهمية ، أن الأمين أخذ يساوم المأمون بين التنازل عن مدينة الري وبعض كور خراسان (١٧٦) أو القتال ، فرفض المأمون التنازل عن مدينة الري واختار القتال (١٧٧) .

وقد وصل جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين مدينة الري قبل جيش الأمين فتحصنوا بها وسكروا أبوابها ووضعوا الحاميات والعساكر عند مداخلها ، بينما عسكر جيش الأمين على بعد عشرة فراسخ من مدينة الري ، وقد استشار القائد طاهر بن الحسين أصحابه في موضع القتال أين يكون ، فأشاروا عليه بأن يتحصن بمدينة الري ولا يخرج منها لأسباب أمنية صحية ، وكان غرضهم من ذلك ، وصول الامدادات العسكرية والغذائية من خراسان وغيرها دون عوائق ، ومما جاء في أقوالهم للقائد طاهر : « ان مقامك بمدينة الري ارفق بأصحابك وأقدر لهم على الميرة وأكن من البرد وأخرى ان دهمك قتال أن يعتصموا بالبيوت ويقووا على الماطلة والمطاولة الى أن يأتيك مدد أو ترد عليك قوة من خلفك » (١٧٨) .

ولكن القائد طاهر لم يأخذ بهذا الرأي ، وفضل أن يكون القتال خارج المدينة ، لأسباب منها : عدم ارتياحه واطمئنانه من أهل مدينة الري ، فلا يأمن غدرهم اذا ما وقع القتال ، كما أن أخلاقيات القائد على ابن عيسى بن ماهان وأفعاله السيئة مع أهل خراسان عندما كان واليا

عليها زمن الرشيد ، ولدت فى نفوس أهل مدينة الرى الرعب والخوف منه . وليس من المستبعد أن يدفعهم هذا الخوف اذا ما رأوا كثافة جنده أن يميلوا اليه ويناصروه اتقاء لشره ، وقد عبر القائد عن ذلك بقوله : « أن أهل الرى لعلى هائبون ومن معرفته وسطوته متقون ولست آمن ان هجم علينا مدينة الرى أن يدعو أهلها الى الوثوب بنا ويعينوه على قتالنا . . . » (١٧٩) .

وكان أن خرج القائد الطاهر بجيشه من مدينة الرى لاعتقاده بصواب رأيه ، وعسكر عند قرية يقال لها « كلواص » تبعد عن مدينة الرى بحوالى خمسة فراسخ ، فجعل مدينة الرى خلفه حتى يتمكن من العودة اليها ويتحصن بها اذا ما أحس بالخطر ، ولكن أهلها انتظروا خروج طاهر وجيشه ، فعمدوا الى أبواب المدينة وسكروها ، فكأنهم بذلك قطعوا خط الرجعة على جيش المأمون ، مما يدل على عدم ولاء بعض العناصر بمدينة الرى للمأمون ، وكذلك للأمين ، فكانوا يقولون : لا يهمنا أيهما غلب صاحبه ، وارانوا بذلك أيضا أن يجنبوا أنفسهم ويلات هذه الحروب . وكانت نتيجة هذه المعركة انتصار جيش المأمون على جيش الأمين ، وعاد طاهر بن الحسين الى مدينة الرى (١٨٠) .

وتذكر المصادر أن مدينة الرى تعرضت الى أزمة اقتصادية حادة ، ففي سنة ٢٠٢ هـ (٨١٧م) ، أصابها نقص كبير فى المواد الغذائية بسبب قلة الأمطار ، مما أدى الى حدوث مجاعة تضرر من جرأتها كثير من الناس ، ونتج عن ذلك حدوث أمراض وأوبئة ومات كثير من الناس ، ولم يقتصر ذلك على مدينة الرى ، بل شمل مدنا أخرى (١٨١) .

ولما أراد المأمون العودة الى بغداد فى سنة ٢٠٣ هـ (٨١٨م) ، - وكان مقيما بخراسان - توقف بمدينة الرى لبضعة أيام . وخلال اقامته عرضت عليه هموم ومشاكل مدينة الرى خاصة فيما يتعلق بالنواحي الاقتصادية ، فأسقط عنهم شيئا مما كانوا يدفعونه من الخراج ، والذي كان مقداره ألفى ألف درهم ، أى ما يعادل مليونين من الدراهم (١٨٢) ، وقد حدد المأمون ، فى سنة ٢١١ هـ (٨٢٦م) مقدار ما تدفعه مدينة الرى من ضريبة الخراج باتفاقه مع أبى العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين ،

فكان فى كل سنة يبعث خراج مدينة الرى ومقداره (١٠) آلاف ألف درهم (١٨٣) .

وقد اعتاد خلفاء الدولة العباسية الاستعانة بأهل مدينة الرى أو بغيرها للقضاء على الثورات التى تحدث فى المدن المجاورة ، وفى سنة ٢٢٤ هـ (٨٣٨م) ، استعان المعتصم بعامل دنباوند ، منصور بن الحسن ، للقضاء على ثورة حدثت بمدينة طبرستان أججها مازيار بن قارن بن ونداد هرمز ، ولكنه أمره بالتوجه أولا الى مدينة الرى ، ربما لغرض التزود بالعساكر والمؤن ، وهكذا فقد كانت مساهمات مدينة الرى نشطة على الصعيد السياسى سواء مع الخلافة أو ضدها ، منذ ان فتحها المسلمون زمن الخلفاء الراشدين (١٨٤) .

ثالثا : الدور الدينى والفكرى والاقتصادى للرى :

١ - الدور الدينى :

تحظى مدينة الرى منذ القدم بمكانة دينية مرموقة بين المدن الفارسية ، فهى المكان المقدس الثانى عشر ، الذى خلفه « أهورمزدا » ، أحد الزعماء الروحانيين والسياسيين فى بلاد فارس فى العصر الوثنى ، وقد عرفت فى كتاب اليسنا Yasna باسم : Caruratus Ragha Zara أى « زاغا الزرادشتيه ذات الطبقات الأربع » . وكانت مدينة الرى فى العصور القديمة المقر الرئيسى لرجال الدين الوثنيين ، فكانوا يشكلون الركيزة الأساسية فى المجتمع الى جانب طبقة المحاربين والمزارعين ، وكانت تسمى « المدينة ذات الاحياء الثلاثة » drei caue besitzend أى ذات الطبقات الاجتماعية الثلاث ، وكانت مدينة الرى فى سنوات ٤٨٦ ، ٤٩٩ ، ٥٥٣ ليلاد ، المقر الرئيسى لأساقفة الكنيسة الشرقية (١٨٥) .

هذه الروحية الدينية العريقة المتجسدة فى أهل مدينة الرى ، بوصفها واحدة من كبريات مراكز الديانة فى بلاد فارس ، أهلتها لأن تتزعم حركة المقاومة ضد الدين الاسلامى الجديد الذى ظهر بأرضها ، فلم يقبلوا الاسلام الا بعد تردد شديد ، وظلوا يدفعون الجزية للدولة

الاسلامية . وقد تخلل ذلك ثورات كانوا يقومون بها ضد عمال الخلفاء منذ الفتح الاسلامى لهذه المدينة ، زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، وأستمر هذا الوضع حتى عهد الخليفة الرابع على بن أبى طالب ، ولكن حالة التمرد والثورات خفت حدتها تقريبا فى العصرين الأموى والعباسى ، بسبب دخول معظم أهلها فى الاسلام ، وقبوله عن قناعة .

وذكرت الروايات أن أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، ممن كانوا يحفظون الحديث والتفسير وقراءة القرآن زاروا مدينة الرى ونزلوا فى ضواحي الرى وقراها ، وهؤلاء الصحابة هم : عبد الله بن عباس (١٨٦) ، وعبد الله بن عمر (١٨٧) ، وعبد الله بن عمرو بن العاص (١٨٨) ، وسعيد بن العاص (١٨٩) ، فكانوا على اتصال دائم فيما بينهم . وكان لهم السبق فى وضع البذرة الأولى لتعليم الاسلام ، وتحفيز الناس القرآن والحديث والتفسير (١٩٠) .

وكذلك زار مدينة الرى جماعة من التابعين ، ومن أشهرهم العالم الجليل سعيد ابن جبير (١٩١) المفسر والمحدث ، فأخذوا عنه هذه العلوم ، فدرس على يديه بمدينة الرى الكثير من طلاب العلم (١٩٢) فكان هؤلاء العلماء نواة لمدرسة تخرج فيها العديد من العلماء وطلاب العلم فى علم الحديث والتفسير والقرآن ، وأقبل العلماء من أهل مدينة الرى على هذه العلوم واتقنوها ، وتبلورت هذه الحركة العلمية وأخذت ترسخ أقدامها فى العصر العباسى ، عصر الاستقرار ، عندما انصرفت السلطة عن اعمال الفروسية والفتح واتجهت الى البناء الحضارى بشتى ميادينه وألوانه وصوره ، فكان لهذه السياسة تأثيرها على الامصار الاسلامية . فمدينة الرى على سبيل المثال تفاعلت مع هذا المناخ الفكرى ، نتيجة لما لديها من استعدادات فكرية تتواءم مع هذه النهضة ، فرصيدها الحضارى مكنها من تقبل ومسايرة هذه الأفكار والروحيات الدينية السامية التى نادى بها الاسلام ، فتحولت الى واحد من أكبر مراكز الثقافة والعلم فى المشرق الاسلامى آنذاك ، وانجبت العديد من العلماء والمفكرين ، ولم يقتصر ذلك على العلوم الدينية فقط ، بل شمل أيضا العلوم العقلية ، فقصدها طلاب العلم من البلاد البعيدة ليلتقوا بعلمائها (١٩٣) .

ومن العلماء الذين ينسبون الى مدينة الري ، سليمان بن مهران مولى بنى أسد ، تابعى أصله من مدينة الري الا أنه سكن الكوفة وتوفى بها سنة ١٤٨ هـ ، وكان عالما بعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف ، وعلوم الفرائض ، الى جانب المامه بالعلوم العقلية (١٩٤) ، ومن أعيان العلماء الذين ينسبون الى مدينة الري أيضا محمد بن ادريس بن منذر ابن داود بن مهران ، من كبار رجال الحديث ، فقد درس هذا العلم بمدينة الري على يد عبد الصمد بن عبد العزيز ، وابراهيم بن موسى ، وكان قد درس علوم الحديث بالكوفة على يد عبد الله بن موسى (١٩٥) ، ومن علماء الري فى علم الحديث عالم يقال له طلحة بن الاعلم ، كان يسكن فى « جيان » من قرى مدينة الري (١٩٦) . ومن الذين رحلوا الى مدينة الري لدراسة علم الفقه ، أبو منصور ، محمد بن عمر بن عبد الله ابن زاذان ، درس هذه العلوم على يد على بن عمر (١٩٧) .

وقد رافق كل من محمد المهدي ثم هارون الرشيد فى رحلتيهما الى مدينة الري ، فريق من العلماء ، يضم بعض رجال الدين والأدب وسائر العلوم ، ومن هؤلاء سفيان بن حسين السلمى ، كان مع المهدي ، ويعد واحدا من علماء الحديث الثقة ، وفد مات بمدينة الري زمن محمد المهدي (١٩٨) ، والحجاج بن ارطاة بن ثور بن هبيرة ، توفى بمدينة الري (١٩٩) ، وكذلك عالم الحديث ، جرير بن عبد الحميد بن قرط الرازى الضبى ، أصله من الكوفة ، رحل الى مدينة الري ، من كبار المحدثين ، ثقة فيما يرويه من أحاديث ، فرحل اليه المحدثون لسعة علمه فى الحديث ، وكانت وفاته بالري سنة ١٨٨ هـ (٨٠٣م) (٢٠٠) ، وقصد مدينة الري علماء من الحجاز ، فرحل اليها محمد بن اسحاق بن يسار من كبار المحدثين ، ومن المؤرخين البارزين ، خرج من الكوفة ثم الى بغداد ومنها الى مدينة الري (٢٠١) ، ورحل الى مدينة الري محمد بن الحسن الشيبانى ، الفقيه المشهور صاحب كتاب « المخارج فى الحيل » ، من أهل الكوفة ، وبها مات سنة ١٨٩ هـ (٨٠٤م) (٢٠٢) ورحل اليها عالم اللغة ، أبو الحسن على بن حمزة الكسائى ، وقد توفى بمدينة الري ، فقال هارون الرشيد « دفن الفقه والعربية بالري » (٢٠٣) ، وقد ازدانت مدينة الري بهذه النخبة من علماء الحديث والفقه والتفسير ، واستقطبت

اليها كبار رجال العلم ، فكان لذلك آثاره الطيبة على ابناء مدينة الري ، فنقلوا عنهم هذه العلوم ، مما أدى الى ازدهار الحياة العلمية (٢٠٤) .

كان لهؤلاء العلماء الفضل الاكبر فى ازدهار الحياة الفكرية بما قاموا به من دور فى مزج الثقافات ، وقد نتج عن ذلك ظهور المذاهب والفرق الدينية ، وقد بلغت هذه الحركة قمة نشاطها الفكرى فى منتصف القرن الثانى الهجرى وحتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، واطلقوا على هذه الفترة طـور الكمال والنضج ، أو عصر المذاهب الفقهيه ، ومن المذاهب الفقهيه التى ظهرت ابان هذه الفترة المذاهب الفقهية الأربعة ، وهى : المذهب الحنفى والمالكى ، والشافعى والحنبلـى ، بالإضافة الى المذهب الجعفرى ، وقد ظهرت مذاهب فقهيه عديدة أخرى الا أنها اندثرت لتختلـى اتباعها عنها ، هذه المذاهب الفقهيه أخذت طريقها الى مدينة الري وقد تبنى أهلها بعض هذه المذاهب ، فقد انتشرت فيها الشافعية والحنفية والجعفرية ، أى المذهب الشيعى ، وكانت الشافعية أقل هذه المذاهب عددا ثم يليها الاحناف ، أما الشيعة فهم يشكلون العدد الأكبر ، وقد تولدت بين أتباع هذه المذاهب الحساسيات ، فلم تكن العلاقات بينهم طيبة ، فالعصبية الطائفية قائمة ، وأحيانا كانت تؤدى الى صدامات وحروب ، وكانت الغلبة فى معظم الأحيان للشافعية مع أن عددهم قليل (٢٠٥) .

٢ - الدور الاقتصادى :

ان الاقتصاد فى أى بقعة من العالم قائم على ثلاثة ركائز أساسية ، وهى : الزراعة والصناعة والتجارة ، وكانت الزراعة قديما تشكل الركيزة الأساسية فى الاقتصاد ، فعلى الزراعة تقوم الصناعة وبالتالي التجارة حيث يتم تسويق هذه المنتجات ، وقد اشتهرت مدينة الري بهذه الموارد الاقتصادية الثلاث ، ففى مجال الزراعة ، تنوعت المحاصيل الزراعية بمدينة الري ، خاصة المحاصيل التى تدخل فى مجال الصناعة ، كصناعة النسيج والأوانى ، وتزرع بها الفواكه ، فهى تقع فى المنطقة الخصبة بين الجبال والصحراء (٢٠٦) .

وقد امتدح الجغرافيون مدينة الري واثنوا على مكانتها الاقتصادية ،

فتحدثوا عن انتاجها الزراعى وأشادوا بأهميته ، خاصة زراعة الفواكه ، فكانت تنتج منه كميات كبيرة ، ويمتاز بجودته العالية ، وعبر الجغرافى ابن خرداذبة عن ذلك بقوله : « وأجود الفواكه بالرى » (٢٠٧) ، وكانت كمياته وفيرة مما أدى الى انخفاض أسعاره ، ولا سيما فى فصل الخريف ، وقد أعجب القزوينى بأصنافه العديدة ، مثل التين والخوخ والعنب ، وللعنب أنواع مختلفة وله اسماء ، مثل الملاحى الذى يمتاز بحباته الكبيرة التى تصل بقدر حبة البلح ، وعنقوده بقدر عرق التمر ، ومع كبر حجم الحبة الا أن قشرها رقيق وطعمها طيب ، ويبدأ انتاج هذا النوع من العنب فى فصل الخريف ، ويستمر الى فصل الشتاء ، فكان يصدر الى الخارج كسلعة تجارية ، ومن أنواع العنب الزبيب ، فكان يصدر الى الخارج فى صناديق وقد قامت عليه تجارة واسعة (٢٠٨) . وتنتج مدينة الرى البطيخ ، وله شهرة واسعة لجودته (٢٠٩) ، وقد أثنى المقدسى على الزراعة بالرى خاصة الفواكه (٢١٠) هذه الشهرة التى تتمتع بها مدينة الرى فى مجال الزراعة ، دفعت المعتصم أن يطلب بأن يحمل اليه من مدينة الرى الغروس حتى يزرعها بمدينة سامراء (٢١١) .

كذلك اشتهرت مدينة الرى بزراعة المحاصيل التى تقوم عليها صناعة المنسوجات كالقطن مثلا ، ويمتاز قطنها بالجودة حيث يصدر الى الخارج ، فكان يصل منه الى بغداد (٢١٧) ، وتوجد فى اقليم مدينة الرى المعادن ، ولا سيما جبل « طبرك » ، مثل الفضة وهذا المعدن يوجد بكميات كبيرة ، وكان يصدر الى الخارج كسلعة تجارية تدر أرباحا كبيرة على مدينة الرى (٢١٣) .

وقد قامت على هذه المنتوجات الزراعية بعض الصناعات خصوصا صناعة النسيج ، فكانت تصنع بها الثياب الفاخرة ذات الجودة العالية ، والبرود المقلمة والأكسية (٢١٤) ومن المنسوجات الشهيرة صنف يقال له ، « المثيرات » ، كان يصدر الى الخارج . وتصنع بها الأقمشة الحريرية (٢١٥) . الى جانب صناعة الأوانى وخصوصا الأوانى الخزفية المطلية ، التى اشتهرت بصناعتها مدينة الرى ، وقد عثرت بعثة الآثار الأمريكية من جامعتى فيلادلفيا وبوسطن ، التى بدأت أعمالها بمدينة

الرى فى حدود سنة ١٣٥٣ هـ ، (١٩٣٤م) ، على العديد من هذه
الأوانى الخزفية الهامة ، كما عثر الدكتور اريك شميث . Dr. Erich
Echmidt فى موضع يقال له « تل القلعة » على كثير من الأوانى
الخزافية المتنوعة وبقايا أبنية أهمها مسجد محمد المهدي (٢١٦) ، الى
جانب صناعة الأوانى التى تستخدم فى الطبخ والأكل ، كما تصنع
« المسال » ، وهى نوع من الأبر السمكية ، تستخدم فى خياطة المنسوجات
السمكية ، كما اشتهرت مدينة الرى بصناعة « القصاع » ، وهى أوانى
مصنوعة من الخشب الصلب ، وكذلك اشتهرت بصناعة الأمشاط من
الخشب نفسه ، وكان يجلب من غابات مدينة طبرستان ، وقد امتازت
هذه الأمشاط بجمالها ودقة صناعتها ، فكانت من السلع التى تصدر
كهدايا للخلفاء والملوك (٢١٧) .

هذه المنتجات الزراعية والصناعية قد ساهمت فى نشاط الحركة
التجارية بمدينة الرى ، فقد قامت على هذه المنتجات تجارة واسعة ،
ومما ساعد على ذلك الموقع التجارى الهام لمدينة الرى ، فهى تقع على
الطريق التجارى العالمى الذى يربط العاصمة بغداد وحاضرة العالم
الاسلامى بأواسط آسيا وبلاد الشرق الأقصى ، الصين والهند ، والذى
يعرف بطريق الحرير Silk Road ، فقد أكسبها هذا الموقع أهمية
خاصة فى التجارة العالمية ، فكانت مدينة الرى ملتقى تجارات العالم
آنذاك ، فعندما زارها هارون الرشيد ، أول ما لفت انتباهه نشاط الحركة
التجارية بها فأشاد بمكانتها التجارية ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « الدنيا
أربعة منازل « دمشق والرقه وسمرقند والرى » (٢١٨) .

كما أشاد البلدانون بنشاطها التجارى ، حتى أنهم وصفوها بأنها:
« باب من أبواب الأرض واليها متجر الخلق » (٢١٩) ، والعبارة الأخيرة
« متجر الخلق » ، تعطينا فكرة عن مدى حجم مدينة الرى فى التجارة
العالمية ، فكانت مقصد التجار يؤمنونها من جميع الانحاء ، ووصفوها
أيضا بأنها : « عروس الدنيا وسكة الأرض ... » (٢٢٠) ، وقال عنها
الهمداني ، بأنها : « باب التجار » (٢٢١) .

وقد أعطت هذه الأهمية التجارية مدينة الرى شهرة عالمية واسعة

فقصدها التجار حاملين ضروب الأمتعة والسلع التجارية ، فتحولت مدينة الرى الى سوق تجارية عالمية ، فقد أنشئت بها العديد من الأسواق حتى توائم هذا الكم الهائل من البضائع ، وقد تحدث الاصطخرى عن أسواقها القديمة فذكر : سوق روزه ، وسوق دهك نو ، وسوق بليسان ، وسوق نصر باذ ، وسوق سربار بانان ، وسوق باب الجبل ، سوق باب هشام ، سوق باب سين ، وكانت أكثر هذه الأسواق شهرة ، سوق روزه ، فيه خانات التجار ، وهى عبارة عن فنادق يستريح بها التجار ، وقد صمم هذا السوق على شكل شارع مستقيم طويل وعريض تصطف على جانبيه الخانات والمحلات (٢٢٢) ، ومعظم أسواق مدينة الرى واسعة فسيحة مملوءة بالبضائع (٢٢٣) ، قد أمتدح هارون الرشيد بعض هذه الأسواق ، فأشاد بسوق السريان ، وكانت الأشجار تحف به من جانبيه ، وفى وسطه نهر جار يخترقه الى نهايته (٢٢٤) .

وقد ازدادت الأهمية الاقتصادية لمدينة الرى ، وبلغت هذه أهمية قمته فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، ولم تقتصر هذه الأهمية على النواحي الاقتصادية فقط ، بل شملت النواحي الدينية والثقافية ، الا أن الحديث عن هذه الفترة خارج عن دائرة البحث . وهى نهاية العصر العباسى الأول ، أى فى حدود منتصف القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى .

والخلاصة ان مدينة الرى لعبت دورا هاما فى التاريخ والحضارة العربية الاسلامية منذ الفتح الاسلامى وحتى نهاية العصر العباسى الأول ، وهو دور سوف يؤهلها لدور أكبر فيما بعد فى ظل البويهيين والسلاجقة .

الهوامش

- (١) ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد الجزري) : الكامل في التاريخ ، دار الفكر بيروت ١٢٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، ج ١ ، ص ٥٧ - ٥٨ .
- (٢) أبو حنيفة الدينوري (أحمد بن داود) : الاخبار الطوال ، ص ٣٨ ، دار المسيرة (بدون تاريخ) ، وانظر ياقوت الحموي (عبد الله الرومي البغدادي) : معجم البلدان : مجلد ٣ ، ص ١١٦ ، دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) .
- (٣) قدامة (أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادي) : نبد من كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، مكتبة المثنى - بغداد (بدون تاريخ) ص ٣٦٥ .
- (٤) الأصبخري (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارس المعروف بالكرخي) : المسالك والممالك تحقيق د . محمد جابر الحسيني ، دار القلم ، مصر ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م ، ص ١٢٢ .
- (٥) شيخ الربوة (شمس الدين أبو عبد الله الدمشقي) : نخبة الدهر وعجائب البر والبحر . باعثناء م ٩٠ ف مهن . بطرسبورغ ١٢٨١ هـ - ١٨٦٦ م ، ص ١٨٤ .
- (٦) القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) : آثار البلاد وأخبار العباد ، صادر - بيروت ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٩ م ، ص ٣٧٥ .
- (٧) دائرة المعارف الاسلامية . يصدرها أحمد الشنتناوي راجعها د . محمد مهدي علام ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨٦ .
- (٨) ياقوت الحموي : معجم مجلد ٣ ، ص ١١٧ .
- (٩) الدراج : بضم الدال وفتح الراء المهملتين ، نوع من الطيور ، انظر الديميري (الشيخ كما الدين) حياة الحيوان الكبرى ، المكتبة الاسلامية (بدون تاريخ ولا مكان للطبع) مجلد ١ ، ص ٢٣٤ .
- (١٠) البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) : فتوح البلدان . باعثناء صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية (بدون تاريخ) ، ق ٢ ، ص ٢٢٤ .
- (١١) شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص ١٨٢ .
- (١٢) دائرة المعارف : مجلد ١٠ ، ص ٢٨٧ .
- (١٣) طبرستان : مدينة كبيرة تقع بالقرب من مدينة الري ، بين قومن وبحر قزوين ، انظر ياقوت : مجلد ٤ ، ص ٢٤٢٠ .

- (١٤) قزوين : مدينة مشهورة تبعد عن مدينة الري بحوالى ٢٧ فرسخا واليهما ينسب بحر قزوين . ياقوت الحموى ، مجلد ٤ ، ص ٣٤٢ .
- (١٥) زنجان : مدينة تقع ضمن اقليم الجبل ، قريبة من قزوين وأذربيجان ، ياقوت الحموى : مجلد ٣ ، ص ١٥٢ .
- (١٦) قم : مدينة فارسية بنيت فى الاسلام ، تقع بالقرب من مدينة الري ، وقد بناها طلحة بن الاحوص الأشعرى . ياقوت : معجم البلدان مجلد ٤ ، ص ٣٩٧ .
- (١٧) اصبهان : مدينة مشهورة ، حتى أنهم أحيانا يطلقون على اقليم الجبل اسم اصبهان ، وهى من أعلام المدن لجمالها . ياقوت : مجلد ١ ، ص ٢٠٦ .
- (١٨) همذان : كانت أكبر مدينة فى اقليم الجبال ، قريبة من مدينة الري . ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٤١٠ .
- (١٩) نهاوند : من مدن اقليم الجبال ، جميلة قريبة من همذان . ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٣١٣ .
- (٢٠) الدينور : مدينة من أعمال الجبل ، قرب مدينة قرميسين وهمذان ، ياقوت : مجلد ٢ ، ص ١٥١ .
- (٢١) حلوان : من المدن العراقية ، تقع على الحدود العراقية الايرانية ، قريبة من بلاد الجبل . ياقوت : مجلد ٢ ، ص ٢٩١ .
- (٢٢) ماسبذان : من المدن الفارسية ، ضمن بلاد الجبل ، المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : التنبيه والاشراف باعتناء عبد الله الصاوى ، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م . ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٤١ .
- (٢٣) مهرجان قذ : كوره جميلة من اقليم الجبل بالقرب من حلوان . ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٢٣٣ .
- (٢٤) شهرزور : بلدة كبيرة من اقليم الجبال ، بين اربل وهمذان ، ياقوت : مجلد ٣ ، ص ٣٧٥ .
- (٢٥) الصامغان : مدينة من اقليم الجبل ، قريبة جدا من طبرستان . ياقوت : مجلد ٣ ، ص ٣٩٠ .
- (٢٦) أذربيجان : بلدة كبيرة ، يحدها من الشمال اقليم الجبال وبلاد الديلم . ياقوت مجلد ١ ، ص ١٢٨ .
- (٢٧) اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر الكاتب) : تاريخ اليعقوبى .

بيروت ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م . ج ١ ، ص ١٧٦ ، وانظر المقدسى (أبو عبد الله محمد
ابن أحمد) : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقليم ، ليدن ١٩٠٩ ، ص ٣٨٥ .

(٢٨) خراسان : اقليم واسع يضم العديد من المدن ، يمتد نحو الغرب الى مدينة
بيهق القريبة من الحدود العراقية ، وآخر حدودها نحو الشرق الى الهند ، وطخرستان
وغزنة وسجستان وكرمان . ياقوت : مجلد ٢ ، ص ٣٥٠ .

(٢٩) - ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد) : العقد الفريد . باعتناء أحمد
أمين وآخرين . دار الكتاب العربى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م ، ج ٦ ، ص ٢٥٣ .

(٣٠) الحميرى (محمد عبد المنعم) : الروض المعطار فى خير الاقطار تحقيق
د . احسان عباس ، مكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م ، ص ٢٧٨ .

(٣١) لسترينج (كى) : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوكيس
عواد ، مطبعة الرابطة - بغداد ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م . ص ٢٤٩ .

(٣٢) الفرسنج : مقياس قديم من مقاييس الطول ، يعادل ثلاثة أميال . انظر
انيس (د . ابراهيم وآخرين) : المعجم الوسيط ، مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧٣ م
ص ٦٨١ .

(٣٣) ياقوت : معجم ، مجلد ٣ ، ص ١١٦ .

(٣٤) الديلم : هذه اللفظة لها معانى كثيرة ، فهى تعنى الموت ، والاعداء ،
والنمل الأسود ، ومن سياق الحديث ، فان الديلم ، اسم لبلد ، تقع فى الاقليم الرابع ،
انظر ياقوت ج ٢ ، ص ٥٤٤ .

(٣٥) قومس : بلدة كبيرة تضم مجموعة من المدن . ياقوت : مجلد ٤ ، ص ٤١٤ .

(٣٦) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٢٢ .

(٣٧) ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبى) : صورة الأرض ، مكتبة الحياة
(بدون تاريخ) ص ٣٠٤ .

(٣٨) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٠٤ .

(٣٩) الاصطخرى : المسالك ، ص ١٢٢ ، وابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٠٤ .

(٤٠) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٠٤ ، وانظر لسترينج : بلدان الخلافة
الشرقية ، ص ٢٢١ .

(٤١) الاصطخرى : المسالك ، ص ١٢٢ .

(٤٢) الاصطخرى : المسالك ، ص ١٢٣ .

(٤٣) لسترينج : بلدان الخلافة ، ص ٢٤٩ .

- (٤٤) الأصطخرى : المسالك ، ص ١٢٣ .
- (٤٥) أبو حنيفة : الاخبار ، ص ٣٨ هامش رقم (١) . وقد ورد أن الحنود الجغرافية للعراق ، من عند مدينة هيت إلى مدينة السرى واقليم الديلم والجبال وخراسان إلى الصين شرقا ، وفى الجنوب إلى اقليم السند ، انظر البكرى . (أبو عبيده الله بن عبد العزيز) : معجم ما استعجم : من اسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا . القاهرة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م ، ج ٣ ، ص ٩٢٩ .
- (٤٦) ياقوت الحموى : مجلد ٤ ، ص ٩٤ - ٩٥ ، والبكرى : معجم ج ٣ ، ص ٩٢٩ .
- (٤٧) هيت : مدينة تقع على نهر الفرات ، من نواحي بغداد ، شمال مدينة الأنبار . ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٤٢١ .
- (٤٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٦ ، ص ٤٨ ، وانظر ياقوت : مجلد ٤ ص ٩٥ .
- (٤٩) ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) : المسالك والممالك ، باعتناء دى غويه ، ليدن ١٣٠٧ هـ - ١٨٨٩ م ، ص ٢٢ - ٤١ - ٧٥ وأبو الفرج (قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي) : نيز من كتاب الخراج وصناعة الكتابة مكتبة المثنى - بغداد (بدون تاريخ) ص ٢٠٠ ، وانظر المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٨٤ .
- (٥٠) أبو الفرج : نيز من كتاب الخراج ، ص ٢٣٦ .
- (٥١) الموسوعة العربية الميسرة ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بإشراف محمد شقيق غربال . (بدون تاريخ) ص ٩٠٤ ، وانظر لسترينج : بلدان الخلافة ، ص ٢٥٢ .
- (٥٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٢٩٥ ، وانظر النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م . ج ١٩ ، ص ١٧٩ .
- (٥٣) الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر) : فتوح الاسلام لبلاد العجم . باعتناء عزيز أقدى زند ، مصر ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م) ص ٦٠ ، وانظر البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٤ - ٣٢٥ .
- (٥٤) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١٩ ، ص ٢٢٤ .
- (٥٥) الواقدي : فتوح ، ص ٢٣ ، والبلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٧٠ .
- (٥٦) الواقدي : فتوح ، ص ٢٣ ، والبلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٧١ ، والنويرى : نهاية الأرب ج ١٩ ، ص ٢٥١ .
- (مجلة المؤرخ العربى)

(٥٧) الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك . دار القلم . بيروت
(بدون تاريخ) ج ٤ ، ص ٢٣٨ .

(٥٨) ابن اعثم (أبو محمد أحمد الكوفي) : كتاب الفتوح . دار النسخة
الجديدة - بيروت - لبنان (بدون تاريخ) ج ٢ ، ص ٣٧٠ - ٣٩ ، والطبري : ج ٤ ،
ص ٢٣٧ ، وابن خياط (أبو عمر وخليفة بن خياط العصفري) : تاريخ خليفة بن
خياط . تحقيق د . أكرم ضياء العمرى . مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م)
ص ١٤٧ ، وأبو حنيفة : الأخبار ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٥٩) الواقدي : فتوح ، ص ٢٣ ، والبلاذري : فتوح ، ق ٢ ، ص ٣٢١ ،
والنويري : نهاية الأرب ، ج ١٩ ، ص ٢٥٣ .

(٦٠) الطبري : ج ٤ ، ص ٣٥١ .

(٦١) النويري : ج ١٩ ، ص ٢٦١ .

(٦٢) الطبري : ج ٤ ، ص ٣٥٢ ، وأنظر النويري : ج ١٩ ، ص ٢٦١ .

(٦٣) واج روث : موضع بين همدان وقزوين ، جرت فيه معركة بين المسلمين
والفرس ، انتصر فيها المسلمون ، وقد ورد في معجم البلدان لياقوت أن تاريخ المعركة
في سنة ٣٩ هـ (٦٤٩ م) ، فأغلب المصادر التاريخية تؤكد أنها جرت في سنة ٢٢ هـ
(٦٤٢ م) زمن الخليفة عمر بن الخطاب . انظر لياقوت : معجم ، مجلد ٥ ، ص ٣٤١ .

(٦٤) الطبري : ج ٤ ، ص ٢٥٢ ، وأنظر النويري : ص ١٥ ، ص ٢٦١ .

(٦٥) الطبري : ج ٤ ، ص ٢٥٣ .

(٦٦) الطبري ج ٤ ، ص ٢٥٢ .

(٦٧) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٨٦ .

(٦٨) قها : بالكسر والقصر ، من القرى الكبرى ، تقع بين مدينة الري وقزوين ،
انظر لياقوت : معجم ، مجلد ٤ ، ص ٤١٧ .

(٦٩) الطبري : ج ٤ ، ص ٢٥٣ ، وابن الأثير : ج ٣ ، ص ١١ - ١٢ ، وابن
كثير (أبو الفداء الحافظ) : البداية والنهاية ، مكتبة المعارف - بيروت ١٩٦٦ ،
الطبعة الأولى ج ٧ ، ص ١٢١ - ١٢٢ ، وابن خلدون (عبد الرحمن) : كتاب العبر
وديموان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، المعروف ، بتاريخ ابن خلدون ،
مكتبة المدينة - بيروت ١٩٦٧ م / مجلد ٤ ، ص ٤١٧ .

(٧٠) الطبري : ج ٤ ، ص ٢٥٣ .

(٧١) الطبري : ج ٤ ، ص ٢٥٣ ، والنويري : نهاية الأرب ، ج ١٩ ، ص ٢٦١ .

(٧٢) الطبري : ج ٤ ، ص ٢٥٣ ، وابن الأثير : ج ٣ ، ص ٣٢ ، وابن كثير : البداية ، ج ٧ ، ص ١٢٢ ، والنويري : ج ١٩ ، ص ٣٦٤ .

(٧٣) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ١٠ ، ص ٢٨٧ .

(٧٤) الطبري : ج ٤ . ص ٣٥٣ ، وانظر الحميري : الروض ، ص ٢٧٨ ، وانظر خطاب (محمود شيت) : قادة فتح بلاد فارس ، دار الفتح - بيروت ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥م) ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٧٥) الطبري : ج ٤ ، ص ٢٥٣ ، والحميري : الروض ، ص ٢٧٨ ، وخطاب : ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٧٦) الاغلال : تعني الخيانة ، والاسلال : تعني السرقة ، وقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى في صلح الحديبية : أنه لا اغلال ولا اسلال ، وقد تكرر ذكر الغلو في الحديث الشريف ، وهو الخيانة في الغنم والسرقة في الغنيمة .

انظر ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) : لسان العرب . دار صادر - بيروت (بدون تاريخ) مجلد ١١ ، ص ٥٠٠ .

(٧٧) يقرأوا : بمعنى يستقروا بمنازلهم ، وقد جاء في خطاب الصلح هذا أن يقرأوا المسلمين ، أي يسكنوهم ، انظر : لسان العرب لابن منظور ، مجلد ٥ ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٧٨) الطبري : ج ٤ ، ص ٢٥٣ .

(٧) الطبري : ج ٤ ، ص ٢٥١ / وابن الأثير : ج ٣ ، ص ١٢ ، والنويري : ج ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٨٠) الواقدي : فتوح الاسلام ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، والبلاذري : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٨٩ .

(٨١) الطبري : ج ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٨٢) هو كثير بن شهاب بن الحصين ذي القصة ، سيد قبيلة مذحج بالكوفة ، وقد روى عن عمر بن الخطاب بعض الأحاديث ، وقد وصف بالبخل ، ولاة معاوية مدينة الري ، انظر ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري) : الطبقات الكبرى ، دار صادر : بيروت (بدون تاريخ) ، ج ٦ ، ص ١٤٩ .

(٨٣) دستبي أو دشتبي : يبدو أنها مدينة صغيرة تقع على الحدود بين مدينة الري ومدينة همذان ، وقسمت هذه المدينة الصغيرة الى قسمين بين الري وهمذان ،

قالقسم الذى يتبع الرى عرف باسم « دستبى الرازى » والقسم الذى يتبع همدان عرف باسم « دستبى همدان » انظر البلاذرى : فتوح ، ق ٢ ، ص ٣٩٠ ، وأبو الفرج (قدامة) : كتاب الخراج ، ص ٢٦١ .

(٨٤) البلاذرى : فتوح ق ٢ ، ص ٣٨٩ .

(٨٥) خليفة بن خياط : ص ١٥٧ ، والبلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ .

(٨٦) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ .

(٨٧) خليفة بن خياط : ص ١٥٧ ، والبلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ .

(٨٨) أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن على بن محمود) : المختصر فى أخبار البشر ، دار الكتاب اللبنانى (بدون تاريخ) مجلد ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٣ ، وخطاب : قادة الفتح الاسلامى ، ص ١٧٢ .

(٨٩) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٩٠) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ .

(٩١) المطهر المقدسى (ابن طاهر) : البدء والتاريخ ، مكتبة المثنى - بغداد - باريس ١٨٩٩ ، ج ١ ، ص ٦٨ ، وانظر القزوينى (عبد الكريم بن محمد الرافعى) : التكوين فى أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردى ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٣٠٨ هـ - ١٩٨٧ م ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٩٢) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، ولاء معاوية بن أبى سفيان على المدينة ، انظر بن سعد : الطبقات ، ج ٥ ، ص ١٥٥ . وأمه صفية بنت عبد العزيز بن خازم من بنى عدى ، تزوجها بعد ذلك أبو سفيان بن حرب ، انظر البلاذرى : أنساب الأشراف ، مكتبة المثنى بغداد (بدون تاريخ) ج ٤ القسم الثانى ، ص ١٦٩ .

(٩٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١٩ ، ص ٥٠٩ .

(٩٤) الطبرى : ج ٥ ، ص ١٤٩ .

(٩٥) أبو حنيفة : الأخبار الطوال ، ص ١٦٥ .

(٩٦) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ، وابن الأثير : ج ٣ ، ص ١٤٧ .

(٩٧) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ، وابن الأثير ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .

(٩٨) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون مجلد ٢ ، ص ١١١٤ .

(٩٩) ابن الأثير : ج ٣ ، ص ٢١٠ .

(١٠٠) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩٠ ، وابن خلدون : مجلد ٢ ، ج ٣ ، ص ١١١٤ ، ٨ .

- (١٠١) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٧٨ ، وابن الاثير : ج ٣ ، ص ٢٠٧ .
- (١٠٢) ابن الاثير : ج ٣ ، ص ٢٠٧ ، وابن خلدون : مجلد ٣ ، ص ٨ .
- (١٠٣) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٧٨ .
- (١٠٤) الاربلى (أبو الحسن على بن عيسى أبى الفتح) : كشف الغمة بمعرفة
الائمة . تحقيق السيد هاشم الرسولى - تبريز (بدون تاريخ) ج ٢ ، ص ٢٢ ،
والطبرى : ج ٦ ، ص ١٩٤ .
- (١٠٥) أبو حنيفة : الاخبار الطوال ، ص ٢٥٣ .
- (١٠٦) أبو حنيفة : ص ٥٣ .
- (١٠٧) أبو حنيفة ، ص ٢٥٣ ، وابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ .
- (١٠٨) المقدسى : البدء والتاريخ ج ٦ ، ص ١٥ ، وانظر العمري (محمد بن
على بن محمد) : الانباء فى تاريخ الخلفاء . تحقيق د. قاسم السامرائى . المعهد
الهولندى للآثار - القاهرة - ١٩٧٣ . ص ٥٤ .
- (١٠٩) هو محمد بن عمير بن عطار بن حاجب بن زرارہ ، سيد بنى تميم
بالمكوفة ، وليس له عقب ، انظر ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله مسلم) : المعارف ،
دار المعارف . تحقيق د. ثروت عكاشة (بدون تاريخ) ص ٤٢٥ .
- (١١٠) خليفة بن خياط : ص ٢٦٠ .
- (١١١) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤١٥ .
- (١١٢) ابن قتيبة : ص ٤١٥ . وابن الاثير : ج ٣ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .
- (١١٣) ابن خلدون : مجلد ، ص ٣١٧ .
- (١١٤) ابن الاثير : ج ٣ ، ص ٣٩١ ، وابن خلدون : مجلد ٣ ، ص ٣١٧ .
- (١١٥) ابن الاثير : ج ٣ ، ص ٣٩١ .
- (١١٦) ابن الاثير : ج ٣ ، ص ٣٩٢ .
- (١١٧) ابن قتيبة : ص ٣٥٦ .
- (١١٨) أبو حنيفة الدينورى : الاخبار الطوال ، ص ٢٩٢ - ٢٩٩ .
- (١١٩) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٣٥٦ ، وابن خلدون ، ج ٣ ، ص ٧٩ .
- (١٢٠) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٧٩ .
- (١٢١) ابن الاثير : ج ٣ ، ص ٣٣ .
- (١٢٢) ابن الاثير : ج ٤ ، ص ٦٣ ، وابن خلدون : ج ٥ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

- (١٢٣) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤١٥ .
- (١٢٤) أبو حنيفة : الاخبار الطوال ، ص ٢٨٠ .
- (١٢٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .
- (١٢٦) ابن الأثير : ج ٤ ، ص ٩٢ .
- (١٢٧) ابن الأثير : ج ٤ ، ص ٩٢ .
- (١٢٨) الطبري : ج ٤ ، ص ٥٩ ، وابن الأثير : ج ٤ ، ص ١٠٥ .
- (١٢٩) الطبري : ج ٨ ، ص ١١٨ - ١١٩ .
- (١٣٠) خليفة بن خياط : ص ٣٣٨ .
- (٣١) ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا) : تاريخ الدولة الإسلامية ، دار صادر - بيروت ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠م) ، ص ١٣٢ .
- (١٣٢) الطبري : ج ٩ ، ص ٣٢ ، وابن خلدون ، مجلد ٣ ، ص ٢٣٣ .
- (١٣٣) الطبري : ج ٩ ، ص ٤٩ ، وابن الطقطقي : تاريخ الدولة الإسلامية ، ١٣٢ .
- (١٣٤) الطبري : ج ٩ ، ص ٤٧ .
- (١٣٥) ابن قتيبة : ص ٤١٨ .
- (١٣٦) الطبري : ج ٩ ، ص ١٠٦ .
- (١٣٧) الطبري : ج ٩ ، ص ١١٢ - ١١٣ ، وابن الأثير : ج ٤ ، ص ٣١٦ .
- (١٣٨) الطبري : ج ٩ ، ص ١١٢ .
- (١٣٩) الطبري : ج ٩ ، ص ١٣ ، وابن الأثير : ج ٤ ، ص ٣١٦ .
- (١٤٠) ابن الأثير : ج ٤ ، ص ٣١٨ ، وابن خلدون : ج ٣ ، ص ٢٦٩ .
- (١٤١) ابن الأثير : ج ٤ ، ص ٣١٨ ، وابن خلدون : ج ٣ ، ص ٢٦٩ .
- (١٤٢) الطبري : ج ٩ ، ص ١٦٣ ، وابن خلدون : ج ٣ ، ص ٣٨٩ / والعمراني : الانباء في تاريخ الخلفاء ، ص ٦٥ .
- (١٤٣) الطبري : ج ٩ ، ص ١٦٣ .
- (١٤٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول - بيروت ١٨٩٠ ، ص ١٠٨ .
- (١٤٥) الطبري : ج ٩ ، ص ١٥٤ ، وابن خلدون : ج ٣ ، ص ٢٨٣ .
- (١٤٦) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٤١٦ ، وابن خلدون : ج ٣ ، ص ٣٩٤ .

- (١٤٧) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٤١٦ .
- (١٤٨) الطبرى : ج ٩ ، ص ١٦٩ ، والبلاذرى : ق ٢ ، ص ٤١٦ ، وابن خلدون : ج ٣ ، ص ٣٩٧ .
- (١٤٩) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٤١٦ .
- (١٥٠) الطبرى : ج ٩ ، ص ١٧٠ ، وابن خلدون : ج ٣ ، ص ٣٩٥ .
- (١٥١) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٣ ، ص ٢٩٦ .
- (١٥٢) الطبرى : ج ٩ ، ص ٢٥٩ .
- (١٥٣) الطبرى : ج ٩ ، ص ١٧٥ .
- (١٥٤) السيروان : موضع قريب من مدينة الرى ، نزل به المهدي ، وقد بنى فيه بعض المواضع ، وظلت آثارها باقية حتى العصر الذى عاش فيه ياقوت الحموى ، وهو القرن السابع الهجرى ، والثالث عشر الميلادى ، فقد شاهد هذه الآثار ، وذكر ان موسى الهادى ابن محمد المهدي ولد بهذه القرية ، انظر ياقوت : معجم مجلد ٣ ، ص ٢٩٧ .
- (١٥٥) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ - ٣٩٢ .
- (١٥٦) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٨ ، وابن الاثير : ج ٥ ، ص ٦٥ - ٨٦ ، وابن خلدون ، ج ٣ .
- (١٥٧) العمرانى : الانباء ، ص ٧٥ ، والخضرى (الشيخ محمد) : تاريخ الامم الاسلامية ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة - ١٩٧٠م ، ص ١٠٢ .
- (١٥٨) الشابشتى (أبو الحسن على بن محمد) : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦م) ص ٢٢٧ ، والعمرانى : ص ٧٥ .
- (١٥٩) خليفة بن خياط : ص ٤٦٠ ، والطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٨ .
- (١٦٠) الشابشتى : ص ٢٢٧ .
- (١٦١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٥٢ .
- (١٦٢) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : التيجان بالتجارة ، نشر وتعليق حسن حسنى عبد الوهاب ، القاهرة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥م) ص ٣ - ٤ .
- (١٦٣) لسترينج : ص ٤٣ .
- (١٦٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٥٤ ، وابن الاثير : ج ٥ ، ص ٩٠ ، وابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٨٥ .

- (١٦٥) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٦٩ .
- (١٦٦) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٧٤ .
- (١٦٧) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٩٥ - ٩٦ ، وأبو حنيفة : ص ٣٩١ ، وابن الأثير : ج ٥ ، ص ١٢٠ - ١٢٢ .
- (١٦٨) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٩٦ - ٩٧ .
- (١٦٩) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٩٦ - ٩٧ ، وابن الأثير : ج ٥ ، ص ١٢١ - ١٢٢ ، وابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٨٧ .
- (١٧٠) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ، ص ٣٤٣ ، وخليفة بن خياط : ص ٤٥٨ .
- (١٧١) الجاحظ (أبو عثمان بن بحر) : البخلاء ، تحقيق طه الخاجرى ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الخامسة ١٩٧٦م ، ج ٤٢٦ .
- (١٧٢) ابن الأثير : ج ٥ ، ص ١٢٨ .
- (١٧٣) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة ، ص ٤٦٦ ، وابن قتيبة : المعارف ص ٣٨٥ .
- (١٧٤) فتت : فت الشيء ، يفته فتا ، أى دقه أو كسره ، ومن سياق الحديث يأتى معناها ، فت فى ساعده أى اضعفه وأوهنه ، ويقال : فت فلان فى عضد فلان ، انظر لسان العرب لابن منظور ، ج ٢ ، ص ٦٤ - ٦٥ .
- (١٧٥) الكوره : اصطلاح جغرافى يطلق عادة على مواضع تشمل مساحة كبيرة من الأرض ، وفى بعض الاحيان يعنى قرية ، فإذا قيل مثلاً كور دجل ، فإنهم يعنون بذلك المناطق الممتدة ما بين محافظة ميسان الى البصرة وحتى البحر ، وهى تعادل تقريباً نفس المساحة التى مالببها الأمين ، والتى تضم مدينة الرى وبعض كور خراسا ، انظر معجم البلدان مجلد ٤ ، ص ٤٨٩ لياقوت الحموى .
- (١٧٦) العمرانى : ص ٨٩ .
- (١٧٧) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٥١ ، وأبو حنيفة : الاخبار ، ص ٣٩٧ ، وابن الأثير : ج ٥ ، ص ١٤٤ .
- (١٧٨) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .
- (١٧٩) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٥١ - ١٥٢ ، وأبو حنيفة : ص ٣٩٧ ، وابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣ ، والبيهقى (أبو الفضل) : تاريخ البيهقى ، ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٥م ، ص ٢٩ .
- (١٨٠) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٤٤ ، وابن الأثير : ج ٥ ، ص ١٨٩ .

(١٨١) الطبري : ج ١٠ ، وابن الأثير : ج ٥ ، ص ٢١٢ .

(١٨٢) ابن خرداذبة : ص ٤٣ .

(١٨٣) الطبري : ج ١٠ ، ص ٣٥٢ ، وابن الأثير : ج ٥ . ص ٢٥٤ ، وابن خلدون : ج ٣ ، ص ٥٦٤ .

(١٨٤) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ١٠ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(١٨٥) أبو العباس عبد الله بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، العباس ابن عبد المطلب شيبه بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي الهاشمي المكي ، فقيه ومفسر ومحدث ، ولد قبل عام الهجرة بثلاث سنين ، انظر الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان) : سير النبلاء ، باعثناء شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ج ٢ ، ص ٣٣١ .

(١٨٦) عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن قرط ابن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب ، محدث ، انظر الذهبي : ج ٣ ، ص ٢٠٤ .

(١٨٧) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم ابن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب ، محدث ، انظر الذهبي : ج ٣ ، ص ٧٩ .

(١٨٨) سعيد بن عمرو بن سعيد بن أبي أجرة القرشي الأموي سكن الكوفة : محدث ، انظر الذهبي : ج ٥ ، ص ٢٠٠ .

(١٨٩) القزويني (عبد الكريم بن محمد الرافي) : التدوين في أخبار قزوين ، ج ١ ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(١٩٠) سعيد بن جبير بن هشام ، أبو محمد ويقال له أبو عبد الله الأسدي الوالي ، الامام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد ، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي . انظر الذهبي ، ج ٤ ، ص ٣٢١ .

(١٩١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٦ ، ص ٣٠١ .

(١٩٢) القزويني : التدوين ، ج ٢ ، ص ٤٦٦ .

(١٩٣) أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمي) : كتاب المحن ، تحقيق د. يحيى وهيب الجيوري دار العرب الاسلامي - بيروت - لبنان ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) ص ٤٤٩ ، هامش رقم ٥ .

(١٩٤) القزويني : التدوين ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

- (١٩٥) العسكري (السيد مرتضى) : عبد الله بن سينا واساطير أخرى ، دار
الزهراء بيروت - لبنان ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) ج ١ ، ص ٢٢٥ .
- (١٩٦) القزويني : التدوين ، ج ١ ، ص ٤٧٩ .
- (١٩٧) ابن سعد : الطبقات ، ج ٧ ، ص ٣١٢ .
- (١٩٨) ابن سعد : الطبقات ، ج ٦ ، ص ٣٥٩ .
- (١٩٩) أبو العرب : المجن ، ص ٣٦٥ ، هامش رقم (١) ، وانظر ابن سعد :
الطبقات ، ج ٧ ، ص ٣٨٠ - ٣٨١ .
- (٢٠٠) ابن سعد : الطبقات ، ج ٧ ، ص ٣٢٢ .
- (٢٠١) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٥٠٠ .
- (٢٠٢) الحميري : الروض ، ص ٢٧٩ .
- (٢٠٣) القزويني : التدوين ، ج ٢ ، ص ٤٦٦ .
- (٢٠٤) القزويني : آثار البلاد ، ص ٣٧٦ ، وياقوت : معجم مجلد ٤ ، ص ١١٧ .
- (٢٠٥) دائرة المعارف : ج ١٠ ، ص ٢٨٥ .
- (٢٠٦) ابن خردادبة : المسالك ، ص ١٧٢ .
- (٢٠٧) القزويني : آثار البلاد ، ص ٣٧٦ .
- (٢٠٨) لسترينج : ص ٢٦٢ .
- (٢٠٩) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٥ .
- (٢١٠) الحميري : الروض ، ص ٣٠١ .
- (٢١١) لسترينج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٦٢ .
- (٢١٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .
- (٢١٣) الحميري : الروض ، ص ، ولسترينج ، ص ٢٦٢ ، ودائرة المعارف
ج ١٠ ، ص ٢٨٨ .
- (٢١٤) دائرة المعارف : ج ١٠ ، ص ٢٩١ .
- (٢١٥) القزويني : آثار البلاد ، ص ٣٧٦ ، ولسترينج ، ص ٢٦٢ .
- (٢١٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٨٤ - ٢٨٦ .
- (٢١٧) المقدسي : ص ٣٨٥ ، والسهمي : تاريخ جرجان ، باعتناء د. محمد
عبد المعيد خان ، بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م ، ص ٢٤٢ .

- (٢١٨) المقدسى : ص ٣٨٥
- (٢١٩) ابن الفقيه الهمداني (أبو بكر أحمد بن محمد) : مختصر كتاب البلدان ،
لیدن ١٣٠٢ هـ ، ص ٢٧٠
- (٢٢٠) الاضطخري : المسالك ، ص ١٢٢
- (٢٢١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣٩٠ - ٣٩٥
- (٢٢٢) ابن الفقيه الهمداني : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٧٣

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد الجزري ، ت ٦٣٠ هـ (١٢٣٢م) :

— الكامل في التاريخ ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨م) .

الاربلى (أبو الحسن علي بن عيسى ابن الفتح) :

— كشف الغمة بمعرفة الأئمة . تحقيق السيد هاشم الرسولى .

تبريز (بدون تاريخ) .

الأصطخرى (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى) :

— المسالك والممالك . تحقيق محمد جابر الحسينى ، دار القلم -

مصر ١٣٨١ هـ (١٩٦١م) .

ابن اعثم (أبو محمد أحمد الكوفى) :

— كتاب الفتوح ، دار الندوة الجديدة . بيروت - لبنان (بدون

تاريخ) .

انيس (د . ابراهيم وآخرون) :

— المعجم الوسيط . مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧٣م .

البكرى (أبو عبيدة عبد الله بن عبد العزيز ، ت ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) :

— معجم ما استعجم . تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٣٦٦ هـ

(١٩٤٧م) .

البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر . ت ٢٧٩ هـ (٨٩٢م) :

— فتوح البلدان . باعتناء صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة

(بدون تاريخ) .

— أنساب الاشراف ، مكتبة المثنى ، بغداد (بدون تاريخ) .

البيهقى (أبو الفضل) :

— تاريخ البيهقى ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت ، مكتبة

الأنجلو المصرية ١٩٦٥م .

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر ، ت ٢٥٥ هـ (٨٦٨م) :

- التبصير بالتجارة . باعتناء حسن حسنى عبد الوهاب ،
القاهرة - ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥م) .
- البخلاء . تحقيق طه الحاجرى ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م .

الجميرى (محمد عبد المنعم) :

- الروض المعطار فى خبر الاقطار ، معجم جغرافى . تحقيق
د . احسان عباس ، مكتبة لبنان ١٩٨٤م .

أبو حنيفة الدينورى (أحمد بن داود ، ت ٢٨٢ هـ (٨٩٥م) :

- الاخبار الطوال . تحقيق عبد المنعم عامر ، دار المسيرة -
بيروت (بدون تاريخ) .

ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبى ، ت ٣٨٠ هـ (٩٩٢م) :

- صورة الأرض ، مكتبة الحياة (بدون تاريخ) .

ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، ت حوالى ٣٠٠ هـ
(٩١٢م) :

- المسالك والممالك . باعتناء دى غوييه ، ليدن ١٣٠٧ هـ
(١٨٨٩م) .

الخضرى (الشيخ محمد) :

- تاريخ الأمم الاسلامية . المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة
١٩٧٠م .

خطاب (محمود شيت) :

- قادة فتح بلاد فارس ، دار الفتح - بيروت ١٣٨٥ هـ
(١٩٦٥م) .

ابن خلدون (عبد الرحمن) :

- كتاب تاريخ ابن خلدون ، مكتبة المدينة - بيروت ١٩٦٧م .

خليفة بن خياط (أبو عمر خليفة بن خياط العصفري ، ت في حدود ٢٤٠ هـ (٨٥٤م) :

— تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧م) .

دائرة المعارف الاسلامية : يصدرها أحمد الشنتناوى ، راجعها د. محمد مهدي علام .

الدميرى (الشيخ كمال الدين) :

— حياة الحيوان الكبرى ، المكتبة الإسلامية (بدون تاريخ ولا مكان للطبع) .

الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان ، ت ٧٧٤ هـ (١٣٧٢م) :

— سير اعلام النبلاء ، باعثناء شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢م) :

ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى ، ت ٢٣٠ هـ (٨٤٤م) :

— الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) .

السهامى ، ت ٤٢٧ هـ (١٠٣٥م) :

— تاريخ جرجان ، باعثناء د. محمد عبد المعيد خان ، عالم الكتب بيروت ١٤٠١ هـ (١٩٨١م) .

الشابشتى (أبو الحسن على بن محمد ، ت ٣٨٨ هـ (٩٩٨م) :

— الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦م) .

شيخ الربوة (أبو عبد الله محمد أبو طالب الأنصارى الصوفى الدمشقى ، ت ٧٢٧ هـ (١٣٢٦م) :

— نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر . (بدون تاريخ ولا مكان للطبع) .

الطبري (محمد بن جرير ، ت ٣١٠ هـ (٩٢٢م) :

— تاريخ الأمم والملوك ، دار القلم ، بيروت (بدون تاريخ) .

ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا) :

— تاريخ الدولة الاسلامية ، دار صادر ، بيروت ٣٨٠ هـ (١٩٦٠م) .

ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد ، ٣٢٧ هـ (٩٣٨م) :

— العقد الفريد ، باعثناء أحمد أمين وآخرين ، دار الكتاب العربي ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) .

ابن العبري (غريغوريوس ابن الفتح بن هارون المالطي ، ت ٦٨٥ هـ (١٢٨٦م) :

— تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ م .

أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمي ، ت ٣٣٣ هـ (٩٤٤م) :

— كتاب المحن ، تحقيق د . يحيى وهيب الجبوري ، دار العرب الاسلامي ، بيروت - لبنان ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) .

العسكري (السيد مرتضى) :

— عبد الله بن سبا وأساطير أخرى ، دار الزهراء - بيروت ، لبنان ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) .

العمري (محمد بن علي بن محمد) :

— الانباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق د . قاسم السامرائي ، المعهد الهولندي للآثار ، القاهرة ١٩٧٣ م .

أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود ، ت ٧٣٢ هـ (١٣٣١م) :

— المختصر في أخبار البشر ، دار الكتاب اللبناني (بدون تاريخ) .

أبو الفرج (قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، ت ٣٢٠ هـ (٩٣٢م) :
— نيز من كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، نشر مع كتاب المسالك
والممالك لابن خردادبة ، باعتناء جى دى غوى ، مكتبة
المثنى ، بغداد (بدون تاريخ) .

ابن الفقيه الهمداني (أبو بكر أحمد بن محمد) :

— مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢ هـ .

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم ، ت ٢٧٦ هـ (٨٨٩م) :
— المعارف ، تحقيق د . ثروت عكاشة ، دار المعارف ، مصر
(بدون تاريخ) .

القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) :

— آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر - بيروت ١٣٨٧ هـ
(١٩٦٩م) .

القزويني (عبد الكريم بن محمد الرافعي) :

— التدوين في أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردى دار
الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٨ هـ (١٩٨٧م) .

ابن كثير (اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن درع القرشي ، ت
٧٧٤ هـ (١٣٧٢م) :

— البداية والنهاية ، باعتناء دكتور أحمد أبو ملح وأخريين ،
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨م) .

لسترينج (كى) :-

— بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس
عواد ، مطبعة الرابطة ، بغداد ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤م) .

مظهر المقدسى (أبو زيد أحمد بن سهل البلخي) :

— البدء والتاريخ . باعتناء كلمان هوار ، باريس ١٨٩٩ م .

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على ت ٣٤٦هـ (٩٥٧م) :

— مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس - بيروت
١٣٩٣ هـ (١٩٧٣م) .

— التنبيه والإشراف ، باعتناء عبد الله اسماعيل الصاوى ، مكتبة
المثنى بغداد ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨م) .

المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد ، ت ٣٩٠ هـ (١٠٠٠م) :

— أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ليدن ١٩٠٩م .

ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، ت ٧١١ هـ
(١٣١١م) :

— لسان العرب ، دار صادر - بيروت (بدون تاريخ) .
— الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٥م .

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ٦٧٧ هـ - ٧٣٣ هـ
(١٢٧٨م - ١٣٣٢م) :

— نهاية الأرب فى فنون الأدب ، تحقيق محمد أبو الفضل
ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م .

الواقدي (محمد بن عمر بن واقد ، ت ٢٠٧ هـ (٨٢٢م) :

— فتوح الاسلام لبلاد العجم والخراسان ، باعتناء عزيز أفندى
زند مصر ١٣٠٩ هـ (١٨٩١م) .

ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى ، ت ٦٢٦ هـ
(١٢٢٨م) :

— معجم البلدان ، دار صادر - بيروت ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧م) .

اليقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهيب بن واضح الكاتب ،
ت ٢٧٨ هـ (٨٩١م) :

— تاريخ اليعقوبى ، بيروت ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠م) .
(مجلة المؤرخ العربى)

مدينة حلب في عصر بني حمدان (٣٣٣ - ٤٠٦ هـ)

دراسة حضارية (*)

صورة مدينة حلب :

وصفت مدينة حلب في معجم البلدان (١) بأنها (مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات ، طيبة الهواء ، صحيحة الأديم والماء) ، وهي (بلد مسور بحجر أبيض وفيه ستة أبواب ، وفي جانب السور قلعة في أعلاها مسجد وكنيستان ، وفي أحدهما كان المذبح ، الذي قرب عليه إبراهيم عليه السلام ، وفي أسفل القلعة مغارة كان يخبئ بها غنمه ... وفيها جامع وست بيع ، وبيمارستان صغير) . وقد ظلت حلب في العصر الاسلامي على درجة كبيرة من الأهمية مما تطلب تحصينها بأسوار تعد من أعظم الأسوار التي خلفها الفن العسكري الاسلامي . هذا إلى أن وجود كنيستين بها دليل على سياسة التسامح التي اتبعها المسلمون مما كفل لسكان المدينة من النصاري قدرا كبيرا من الحرية الدينية . أما وجود البيمارستان ، فدليل أيضا على الاهتمام بتوفير المنشآت الاجتماعية لرعاية أهل المدينة .

ولا أدل على اهتمام حكام حلب بتحصينها مما ذكره انرحالة ناصر خسرو (٢) من أنه رأى مدينة حلب ، بها سور عظيم ارتفاعه خمسة وعشرون ذراعا وقلعة عظيمة مشيدة كلها على الصخرة ، وهي أعظم من قلعة بلخ ، ولها أربعة أبواب ، باب اليهود - باب الله - باب الجنان -

(*) د . راضى عبد الله عبد الحميد : كلية التربية فرع جامعة القاهرة . بالفيوم .

(١) ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ، معجم البلدان ،

تحقيق ، فريد عبد العزيز الجندى ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

(٢) ناصر خسرو : أبو معين الدين الروزي ، سفر نامه ، ترجمة أحمد خالد

البديلى ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

باب أنطاكية . أما المقدسى فقد ذكر (٣) أن لحلب سبعة أبواب ، باب حمص - باب الرقة ، باب قنسرين ، باب اليهود - باب العراق - باب دار البطيخ - باب أنطاكية - باب الأربعين « مسدود » .

أما عن قلعة حلب ، فقد صـادف وصفها اهتماما كبيرا من المعاصرين (٤) فذكر ابن بطوطة أنها (شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير في القلاع ، نزهت حصانة أن نرام أو تستطاع ، قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها ، وتسمى الشهباء ويدخلها جبلان ينبع منهما الماء ، يطيف بها سوران ، وسورها متدانى الأبراج) : هذا في حين كان سكان المدينة ، يعتمدون في شربهم على نهر قوبق ، الذي كان يمد في الشتاء وينضب في الصيف ، ومخرجه من قرية تدعى سنياب (٥) .

وإذا ذكرت حلب في التاريخ الاسلامى توارد على خاطر اسم سيف الدولة الحمدانى مع الشاعرين اللامعين المتنبى (٦) وأبى فراس الحمدانى (٧) ، ذلك أن سيف الدولة اكتسب شهرته من الدور المجيد

(٣) المقدسى : أبو العباس أحمد بن يوسف ، أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ ، ص ٣٣٦ .

(٤) ابن بطوطة : شرف الدين أبو عبد الله محمد ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار ، ص ٦٨ .

- ابن حوقل : أبو اسحاق إبراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، ص ١٦٣ .

- ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى : رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٥ ،

(٥) ابن رسته : أبو على أحمد بن عمر ، الأعلام النفيسة ، ج ٧ ، ص ٩١ .

- الاضطخري ، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، تحقيق

محمد جابر عبد العال ، ص ١٦٣ .

- المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

- يذكر ابن حوقل ، ص ١٦٣ ، أن اسم النهر (أبى الحسن قوبق) .

(٦) المتنبى : أبو الطيب أحمد بن عبد الصمد الجعفى المتنبى .

(٧) أبو فراس : الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدونى .

الذى لعبه فى مقارعة البيزنطيين (٨) ، وهو الدور الذى أبرزه فى صورة البطل الذى توجت هامته أكاليل المجد ، مما جعله يحتل المقام الأول فى تاريخ حلب السياسى (٩) .

الأسرة الحمدانية :

وسيف الدولة هو : على بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لجمان بن راشد ، وينتمى قومه الى تغلب احدى قبائل ربيعة ومن تغلب كانت بنو حمدان ملوك حلب (١١) ، وحمدان وهو المؤسس الأول لهذه الأسرة ينتمى الى بلدة تسمى « رباح » بجوار الموصل ، وكان أجداده الربيعيون التغلبيون (١٢) قد تنقلوا شأن غيرهم من القبائل الأخرى ، من تهامة الى نجد الى الحجاز الى أراضى ربيعة (١٢) الى ضفاف الفرات فى سهل الرقة الفسيح ، ثم نزل حمدان الى جوار الموصل فى رباح (١٤) ، وكان ذا مكانة عالية بين قومه ،

(٨) ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم ، الكامل فى التاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٠٣ ، ٢٢٣ .

(٩) الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ، يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(١٠) تنسب الى وائل بن قاسط بن هنب بن دعى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار بن معد بن عدنان .

— عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، ج ١ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

— الأزدي : أبو بكر محمد بن الحسن ، الاشتقاق ، تحقيق ، عبد السلام هارون ، ص ٢٠٢ .

(١١) القلقشندي : أبو العباس أحمد بن على ، صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

— الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(١٢) القرماني ، المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

(١٣) الدينورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود ، الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم

عامر ، جمال شيبان ، ص ١٦ ، ٥١ الأزدي المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

(١٤) القلقشندي ، نهاية الأرب فى معرفة أحوال العرب ، تحقيق على الخاقاني ،

ص ١٧٠ .

ينظرون اليه بعين الاجلال والاكبار ، ومن عهده تبدأ صفحة جديدة فى تاريخ أسرته المتواصل (١٥) .

سيف الدولة يؤسس دولته فى حلب :

أما سيف الدولة فقد ولد حوالى ٣٠٣ هـ - ٩١٥ م فى مدينة ميافارقين (١٦) حيث ترعرع فى أحضان عصر زاخر بالفتن والاضطرابات بلغت فيه الدولة العباسية غاية ضعفها . ويبدو ان الأسرة الحمدانية زجت بنفسها فى هذا الصراع حتى أصبح لها فى الموصل وأرض الجزيرة دولة ، الا أنها دولة أحاطت بها العواصف . وما كاد سيف الدولة يبلغ منتصف العقد الثانى من عمره ، حتى قتل والده أبو الهيجاء (٣١٧ هـ - ٩٢٩ م) فى الدفاع عن الخليفة القاهر (١٧) ، وبعده أصبح سيف الدولة فى كنف أخيه الكبير ناصر الدولة الذى اعتبره أباً له ، وقد أدرك سيف الدولة انه اذا كان لابد أن يكون ملكاً فليكن فى مكان آخر ، لا يزاحم فيه أخاه ناصر الدولة ، ولذا اتجه سيف الدولة الى الشام ، فانتزع حلب من الاخشيديين (٣٣٣ هـ - ٩٤٤ م) (١٨) وصارت تلك المدينة عاصمة لدولة شملت جند حمص وجند قنسرين والثغور الشامية وجزيرة وديار بكر . ولم يستطع سيف الدولة أن يستبقى دمشق فى حوزته ، فتركها للاخشيديين على أن يدفع عنها الى سيف الدولة أتاوة سنوية ، أى أنه اعترف ضمناً بأن دمشق يجب أن تضم الى ممتلكات الحمدانيين (١٩) ، وقد تم

(١٥) درويش الجندى ، سيف الدولة الحمدانى ، ص ٨٦ .

(١٦) ميافارقين : أشهر مدينة بديار بكر ، قالوا : سميت بميابت أول من بناها ، وفارقين هو الخلاف بالفارسية ، يقال له بارجين ، لأنها كانت أحسن خندقها فسميت بذلك .

- ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٣ .

(١٧) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٩٣ .

(١٨) مسكويه : أبو على أحمد بن محمد ، تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، تصحيح

ونشر ، ف . أمدرود ، ج ٥ ، ص ١٩٦ ، ١٩٩ .

(١٩) ابن العديم : كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد ، زبدة الحلب من

تاريخ حلب ، تحقيق ، سامى الدهان ، ج ١ ، ص ١١٥ .

ذلك كله بفضل ما لقيه من معونة أخيه ناصر الدولة الذى أمدّه بالرجال والمال لفتح حلب ، وظل التعاون بين الاخوين وثيقا ، سياسيا وماليا ، حتى ان بعض المؤرخين (٢٠) عللوا ما أصاب ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان ، من ضعف قواه العقلية فى أواخر حياته بحزنه على أخيه سيف الدولة عندما توفى عام (٣٥٦ هـ - ٩٦٦ م) .

أما سيف الدولة فقد بلغ من حبه واحترامه لأخيه ناصر الدولة أنه عندما لجأ اليه الأخير عام (٣٤٨ هـ - ٩٥٩ م) فارا من معز الدولة أحمد ابن بويه ، أحسن سيف الدولة استقباله وبأبلغ فى اكرامه حتى قيل أنه نزع خفه بيده . ولم تقف جهوده عند هذا الحد بل عمل على المصالحة بينهما (٢١) ، وأعاد أخاه الى امارته مرة أخرى بعد أن خرج منها على أسوأ صورة (٢٢) ، هذا فى حين ذكر آخرون (٢٣) أن سيف الدولة كان بينه وبين أخيه وحشة ، خاصة عندما وجد أن نجم أخيه يرتفع لدى الخليفة العباسى ، فأصابه الحسد وأخذ يؤلب من معه من الجند فى واسط ، ضد أخيه الحسن ، وأطمعهم بنية اقامة مملكة مستقلة عن أخيه فى بلاد الشام ومصر .

ومهما يكن من أمر ، فانه ما كاد سيف الدولة يستقر فى حلب حتى

-
- ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ .
- القرمانى ، المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .
- سامى الكيالى : سيف الدولة وعصر الحمدانيين ، ص ٦٨ .
- (٢٠) ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ٣ ، ص ٢٧ .
- الذهبى : شمس الدين أحمد بن أحمد ، العبر فى خبر من غير ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد ، ج ٢ ، ص ٨٧ .
- (٢١) ابن العديم ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٨ .
- (٢٢) نفس المصدر والصفحة .
- (٢٣) مسكويه ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٠ ، ابن الأثير ، المصدر السابق ج ٧ ، ص ١٧١ .
- سامى الكيالى : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

بدأ الصدام بينه وبين الروم ، ذلك أن العرب لما فتحوا الشام وبلغوا السفوح الجنوبية الشرقية لجبال طوروس وجدوها شديدة المناعة بسبب وعورتها وبردها ، ولذا توقف الفتح الاسلامي في تلك الناحية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب . وهكذا ظلت الحدود بين الدولة الاسلامية ودولة الروم تميل نحو أرض الروم تارة ، ونحو أرض المسلمين تارة أخرى حتى أقام سيف الدولة الحمداني دولته على حدود الروم فأنشأ جيشا كبيرا ، ظل يحارب به الروم عشرين عاما ، من ذلك أنه أوغل أعوام (٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ هـ) في بلادهم وغزا وسبى ، حتى كان على سبعة أيام من القسطنطينية ولكنه منى بهزيمة كبيرة عام (٣٥١ هـ - ٩٦٢ م) (٢٤) أوقفت تقدمه ، فضلا عما كانت تقوم به القبائل العربية داخل دولته من ثورات وفتن بين الحين والآخر ، وهكذا ظلت حياة سيف الدولة جهادا وكفاحا ، اما مع الروم واما مع المنتفضين عليه من القبائل .

وأخيرا توفي سيف الدولة عام (٣٥٦ هـ - ٩٦٦ م) ، فتعرضت حلب بعد وفاته ، لتهديد الغزاة من روم و صليبيين طوال عدة قرون حتى حاصرها المغول عام (٧٠٠ هـ - ١٣٠٠ م) . لكنهم لم يفلحوا في أخذها وبعد حوالي مائة عام استطاع تيمورلنك الاستيلاء عليها بعد معركة رهيبة في منطقة (كليس) شمالي حلب . وكان أن أصبح الأتراك سادة الأناضول لا سيما بعد استيلاء محمد الفاتح ، على القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م ، مما مهد للسيطرة العثمانية على بلاد الشام .

(٢٤) قيل أن الروم استولوا على حلب دون قلعتها ، بجيش كان تعدادده حوالي مائتي ألف جندي ، وأستولوا على أربعة ملايين درهم من الفضة وآلاف البغال والحمير فضلا على الأفراس الحسان ، وثلاثة آلاف درع ، وثلاثمائة حمل جمل من أقمشة الكتان وغيرها من المنقولات ، عسلاوة على نهبهم دار سيف الدولة خارج المدينة ، وقيل أيضا أنهم أسروا أبا فراس بن سعيد بن حمدان الذي كان متقلدا منبج في ذلك الوقت .

- ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٠٣ ، ٢٣٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ .
- ابن تغري بردي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٣٣ .
- عبد الرحمن حميدة ، حلب المدينة التي لم تقهر ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

الأوضاع الاقتصادية :

النشاط الزراعى : شاء حسن حظ الحمدانيين أن تكون غالبية الأراضى التى دخلت فى زمام امارتهم بحلب غنية فى انتاجها الزراعى ، ومواردها الطبيعية ، ويرجع الفضل فى ذلك الى نهر فويق الذى كان يجرى من شمالها الى جنوبها وغربها ، فيروى البساتين الكثيرة التى تقع على ضفتيه (٢٥) والغنية بأشجار السرو والصنوبر التى عرفت به حلب (١٦) منذ القدم ، وقد خلد الشعراء هذا النهر لفرط صغره ، وجفافه صيفا حتى يكاد يكنس ، وفيضانه شتاء حتى يكاد يغرق المدينة ، وبلغ من اعجاب سيف الدولة به ، أن حول مجراه الى قصره العظيم الذى حاكى به قصور الخلفاء فى بغداد ، والذى بناه فى أرض «الحلبة» فى سفح جبل الجوش (٢٧) واذا كانت بلاد الشام بوجه عام قد اشتهرت بخصب تربتها ، وجودة مناخها فان تربة حلب بالذات جادت فيها زراعة أصناف عدة من الزروع والمحاصيل (٢٨) والفواكه وخاصة الكروم والبطيخ والتين والتفاح والزيتون والفسق والنانج علاوة على العديد من أنواع الخضروات (٢٩) .

كذلك وجد فى أطراف الامارة الكثير من الغابات ذات النباتات

-
- (٢٥) المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١٥٥ - ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ .
- ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
- (٢٦) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١١٥ .
- (٢٧) نفس المصدر ، ص ١١٩ .
- (٢٨) ناصر خسرو ، المرجع السابق ، ص ٤٠ .
- (٢٩) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ ، ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .
- محمد كرد على ، خطط الشام ، ج ٤ ، ص ١٦١ .
- آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، ج ٢ ، ص ٥٠ ، ٥٥ .
- محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

والأشجار الكبيرة ، التى كان يطلق عليها « الزوز » : وأكثرها شجر التوت (٣٠) .

ونستطيع من خلال ذلك النشاط الزراعى الذى حظيت به اماره حلب أن نقول أن ذلك قد انعكس انعكاسا ايجابيا ، على ارتفاع مستوى معيشة سكانها مما كان له الأثر الأكبر فى اهتمامهم بمظاهر الحياة الاجتماعية من وسائل تسليه واحتفالات فى شتى المناسبات .

مظاهر تقدم الصناعة :

من المعروف أن المصنوعات الاسلاميه جابت أنحاء العالم منذ القرن الثانى للهجرة فاشتهرت دمشق بصناعة « الدمشقى » وبرعت الموصل فى صناعة « الموصليين » ، وحظيت تلك المنسوجات بتقدير كبير فى دول الغرب ، التى ظلت تعتمد اعتمادا كبيرا فى استهلاكها المحلى على تلك المنسوجات الشرقية ولا شك أن الأمراء الحمدانيين ، لعبوا دورا كبيرا فى ارتفاع الصناعة وازدهارها فى امارتهم ، وشاركهم الأغنياء فى ذلك لاهتمامهم بالرفاهية وما يتعلق بها من الحرص على اقتناء الثياب والزجاج والعطور والصياغات ... الخ وقد اشتهرت حلب بالصناعات الزجاجية ، حيث كان سوق الزجاج بها كما يقول القزوينى (٣١) لا يستطيع الانسان مفارقتها لكثرة ما يشاهد فيه من الطرائف والآلات اللطيفة التى تحمل الى سائر البلاد ، وبجانب ذلك اشتهرت حلب منذ القدم ، بصناعة المنسوجات خاصة الثياب البيض ، والحفية التى تنسب الى احدى كورها ، كما برع أهل حلب منذ القدم فى صناعة الشقق الحريرية والقطنية ، وهى قماش طوله تسعة أذرع وعرضه ذراع ، وقد تفنن الصناع فى صبغة وزخرفته ، وكانت تلك الثياب لباسا عاما (٣٢) هذا فضلا عما اشتهرت به من صناعة الشيلان القطنية والحريرية والزنانير

(٣٠) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٢١ - محمد كرد على ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٦٣ .

(٣١) القزوينى ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

(٣٢) آدم هيتز ، المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

والكوفيات ، والمناديل الحريرية والمزركشة ، علاوة على التطريز (٣٣) .
وبلغ من وفرة المنسوجات ، أن البيوت كانت تزين بستور ملونة تعلق
على الجدران ، على حين زينت الأرض بسجاجيد وبسط دقيقة
الصنع (٣٤) .

النشاط التجارى :

كانت حلب أهم مركز تجارى فى شمال الشام ، وقد اشتهرت
بأسواقها وفنادقها العامرة ، وأخذت تصدر ما تصنعه من الخل والصابون
الحلبى وماء الورد ، وزهرة القرنفل وغيرها (٣٥) وحازت أسواقها
المسقوفة أو « المدينة » كما يسميها الحلبيون - مثل سوق الجوخ ، سوق
الحرير ، سوق الحبال ، سوق العطارين - سوق السراجين ، سوق
القطن (٣٦) ٠٠٠ الخ - شهرة كبيرة ، وغطيت تلك الأسواق بعقود
حجرية سميكة تبدو الأسواق تحتها وكأنها أنفاق نحتت فى الصخر ، وعند
تلاقى سوقين أو أكثر قبة كبيرة تتوج مفترق الطرق ، وكأنها مسجد كبير ،
علاوة على أبواب ضخمة مصفحة بالواح من الحديد تزين مداخلها (٣٧)
هذا وقد نشط التبادل التجارى بين حلب وانطاكية فى مجال الذهب
والفضة والحرير والجواهر والديباج المزركش والأقمشة المحلية ، وكانت
تجارة حلب تلك تصل عن طريق الفرات الى أنطاكية التى عدت ميناء
هاما بل أصبحت من أكبر الموانئ لتصدير بضائع الشرق وأداة اتصال
بين أوروبا وبلاد المشرق (٣٨) .

(٣٣) محمد كرد على ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢٣ .

- المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٣٤) يذكر ميتز ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ ، أن جميع البيوتات المتفرقة امتازت بثلاثة
أنواع من السجاجيد ، أولها الستور ، وثانيها البسط ، وثالثها الأنماط تفرش على
الأرض لتطأها الأقدام .

(٣٥) القزوينى ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٣٦) عبد الرحمن حميدة ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٣٧) نفس المرجع ، ص ٣٥ .

النظام النقدي :

أدى ازدهار المعاملات التجارية داخل حلب ، وتنوع الضرائب التي فرضت على التجارة ، الى ثراء أمراء الدولة وارتفاع مستوى معيشة رعاياهم ، وقد أستغلت تلك الثروة في مد الطرق البرية لتسهيل نقل السلع ، وكثر عدد الصيارفة للقيام بمهمة الايداع والتحويل ، وساعد كل ذلك على قيام الحمدانيين بسك عملة خاصة بهم ، لما في ذلك من مظاهر السيادة والاستقلال ، فضلا عن تنشيط التجارة والتبادل .

الدرهم الحمداني :

ضرب الحمدانيون نقودا لهم في عدد من المدن شرقا وغربا ، وقد بدأوا ذلك عندما أصدر ناصر الدولة نقودا خاصة به في عام (٣٢٠ هـ - ٩٤١ م) عندما جعله الخليفة العباسي المتقي لله أميرا للأمراء (٣٩) وذلك بعد أن تخلص ناصر الدولة من ابن رائق بالقتل (٤٠) وما كاد ناصر الدولة يقوم بمهام منصبه الجديد كأمير للأمراء (٤١) حتى نظر في أمر النقود المتداولة ، فوجد عيارها ناقصا ، ولذا أمر بإصلاحها ، وتصفية الذهب والفضة، وأطلق عليها الدينانير الابرزية ، اشارة الى نقاوة معدنها . وبذلك أصبح الدينار يساوي ثلاثة عشر درهما (٤٢). بعد أن كان الدينار القديم يساوي عشرة دراهم فقط (٤٣) ، على أن ذلك لم يؤد الى نتائج ملموسة اذ وجد أن الصيارفة يربون ربا فاحشا فشدد عليهم وبدأ في

(٣٩) الذهبي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٦ ، ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ .

- الصولى ، أبو بكر محمد بن يحيى ، أخبار الراضى بالله والمتقى لله ، ص ٢٢٨ .

(٤٠) ابن مسكويه ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٨ .

(٤١) الصولى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

(٤٢) ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ بن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

- ابن الجوزى ، جمال الدين عبد الرحمن ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، ج ٦ ، ص ٣٣٠ .

(٤٣) ابن الأثير ، أبو الحسين على بن محمد ، الكامل فى التاريخ ،

ج ٦ ، ص ٢٨٢ .

- الصولى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

ضرب دنانير جديدة ، حملت اسمه واسم أخيه سيف الدولة ، وضربت فى مدينة السلام « زمن الخليفة المتقى لله العباسى » ، وتوجد بالمتحف العراقى تحت رقم ١٠١٨ « مس » ثلاثة دراهم ضربت عام (٣٣٠ هـ - ٩٤١ م) فى نصيبين والنصوص واحدة فيها جميعا على الوجه التالى (٤):

الوجه	الظهر
لا اله الا الله	الله
الله وحده	محمد
لا شريك له	رسول الله
أبو منصور بن (هو اسحاق ابن الخليفة العباسى المتقى)	المتقى بالله
أمير المؤمنين	ناصر الدولة
سيف الدولة أبو الحسن	أبو محمد

ويلاحظ أن الدرهم المذكور يحمل اسم الخليفة (أى أمير المؤمنين) واسم ولى عهده (أبى منصور) ثم سيف الدولة أبى الحسن (على) وناصر الدولة أبى محمد (الحسين) فالدرهم جامع للخلافة العباسية التى مقرها بغداد ، وتوابعها فى الموصل وحلب والجزيرة ، بدلالة أسماء الخليفة وولى عهده والأمراء كما جاء فى النص (٤٥) .

وفى عام (٣٣٣ هـ - ٩٤٤ م) ، عقب سمل توزون ، الخليفة المتقى لله وتسليم الأمر للخليفة المستكفى ، صارت الدراهم باسم الخليفة المستكفى الملقب بامام الحق فى بعض الدراهم ، مع ذكر ناصر الدولة وسيف الدولة .

وفى عام (٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م) تحت رقم ٩٩٣ (مس) ضرب حوارن :

(٤٤) مهاب درويش البكرى ، الدرهم الحمدانى المحفوظ فى المتحف العراقى ، ص ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٣ .
(٤٥) مسكويه ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٩١ .

الظهر

الوجه

الله
محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم
المستكفي بالله
ناصر الدولة
أبو محمد

لا إله إلا الله
الله وحده
لا شريك له
سيف الدولة
أبو الحسن

ويلاحظ هنا أيضا أن تلك الدنانير قد أضيف على وجهها الآخر (الظهر) كلمة صلى الله عليه وسلم بعد كلمة رسول الله (٤٦) فضلا عن اشتراك الأخوين بجانب الخليفة المستكفي بالله ، وبعد أن استقرت الأمور لبنى بويه في بغداد ، خلع أحمد ابن بويه الخليفة المستكفي بالله ، وبايع أيا القاسم الفضل بن المقتدر ولقبه المطيع لله (٤٧) ، وضربت النقود في كل من الرخبة ونصيبين ومصر والموصل والجزيرة وقصر شيرين وحلب ومدينة السلام وسمرقند وميفارقين عام ٣٣٤ هـ على النحو التالي :

رقم ١٠٣٣ (ميس) ضرب الرحبة ٣٣٤ هـ

الظهر

الوجه

الله
محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم
المطيع لله
ناصر الدولة
أبو محمد

لا إله إلا الله
وحده لا شريك له
سيف الدولة
أبو الحسن
ويظهر في هذا الدرهم اشتراك
سيف الدولة وأخيه ناصر الدولة
بجانب الخليفة المطيع لله .

(٤٦) ابن طباطبا ، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية والإدول الإسلامية ، ص ٢١١ .
(٤٧) أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ص ١٢٣ .
- عبد الجليل حسن عبد المهدي ، أبو فراس الحمداني حياته وشعره ، ص ٥٧ .

وفى عام ٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م ، عندما زوج سيف الدولة ابنته ست الناس
لأبى تغلب الحمدانى ، وزوج أبنيه أبا المكارم وأبا المعالى بابنتى ناصر
الدولة ، ضرب لهذا النحات دنائير على الوجه التالى (٥٥):

الوجه	الظهر
لا اله الا الله	أمير المؤمنين
محمد رسول الله	المطيع لله
أمير المؤمنين على بن أبى طالب	الأميران الفاضلان
فاطمة الزهراء - الحسن والحسين	ناصر الدولة وسيف الدولة
جبريل عليهم السلام	الأميران أبو تغلب وأبو المكارم

أما الدرهم الأخير فهو للأمير سعد الدولة أبى المعالى الحمدانى
الذى حكم حلب وتوابعها بعد وفاة والده سيف الدولة عام (٣٥٦ هـ -
٩٦٦ م) ومع أن الحمدانيين سنيون وكانوا يذعنون بالولاء الاسمى
للخلافة العباسية ، الا أن بعضهم وبعض أتباعهم ، كانوا يهادنون خلفاء
مصر الفاطميين ويظهرون الميل اليهم .

وقد حكم الخليفة الفاطمى العزيز بالله واسم سعد الدولة موجودان
على الدرهم الذى نشر صورته فانه يكون قد ضرب فيما بين (٣٦٥ هـ -
٩٧٥ م) وهو عام تولى العزيز بالله ، و (٣٨١ هـ - ٩٩١ م) عام وفاة سعد
الدولة ، ومن ذلك يتضح أن سعد الدولة ، كان أحيانا يظهر الطاعة
للخليفة العزيز الفاطمى ، والمؤسف أن تاريخ ضرب هذا الدرهم ومدينة
الضرب مطموسان (٤٨) ، وهو على النحو التالى :

الوجه	الظهر
لا إله إلا الله	(ضمن دائرة)
وحده لا شريك له	(مح) مد رسول (ل)
سعد الدولة	الله صلى الله عليه
أبو المعالي	وعلى آله الأما
المدار الداخلى	م نزار أبو المنصور (ر)
(لله) الأمرين ٠٠٠ (مظموس)	العزیز بالله
المدار الخارجى ٠٠	أمير المؤمنين
بسم الله ضرب ٠٠ (مظموس)	مدار مظموس ٠٠٠
الوزن : ١٢٠ رجم	القطر : ٢٢ ملم

والظاهر البارزة فى نقود الحمدانيين ، أنها كانت كثيرة سريعة التغيير ، ولعلهم كانوا يهدفون من وراء ذلك الى القضاء على تلاعب الصيارفة بغير النقود (٤٩) هذا الى أن الظروف السياسية دفعتهم الى ضرب العديد من العملات المختلفة ، ذكروا فيها اسم الخليفة العباسى تارة والخليفة الفاطمى تارة أخرى .

الأوضاع الاجتماعية :

عناصر السكان :

تتألف المجتمع فى ذلك العصر من عناصر وقوميات مختلفة ، وكان العرب يمثلون العنصر الأساسى فى هذا التشكيل ، الا أن مكانتهم وأرستقراطيتهم العسكرية قد اضمحلت ، وذلك عندما جلب الخليفة العباسى المعتصم الأتراك من تركستان عام (٢٢٠ هـ - ٧٣٥ م) واعتمد عليهم اعتمادا كاملا خاصة فى الناحية الحربية ، والى جانب هؤلاء كان الفرس ، الذين لعبوا دورا هاما فى ظهور الدولة العباسية ، وكان لهم الحظوة خاصة فى العصر العباسى الأول ، غير أن هذا العنصر فقدأ هميته أيضا ، ولحق بهم مالحق باخوانهم العرب ، عندما أشتد نفوذ الأتراك ،

(٤٩) ابن كثير ، المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢٠٦ .

- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٨٢ .

وما أن حل القرن الرابع الهجرى ، حتى فرض الترك ثم الديلم أنفسهم على أحداث ذلك العصر ، وأصبحوا أصحاب الحظية والسلطان ، وقد نتج عن ظاهرة الاكثار من شراء الرقيق أن انضم الى تلك الجموع عناصر أخرى كالصقالبة والأرمن والكرج والزنج والروم ، علاوة على من جلبوا لفلاحة الأرض من النبط والأراميين (٥٠) .

ورغم ما وضح من عدم وجود انسجام ووفق بين تلك العناصر المتباينة لاختلاف المشرب والعادات ، إلا أن ذلك لم يقف عقبة أمام بعض الحالات التى خالفت ذلك وخرجت عن قاعدة هذا النفور ، وهكذا استمر اقبال الخلفاء على الزواج من أعجميات حتى أن الكثير من أمهات الخلفاء فى العصر العباسى الثانى ، كن أمهات ولد « أعجميات » ومنهن من كان له تأثير واضح وكبير فى مجريات الأحداث السياسية أبان تلك الفترة . .

أما العناصر السياسية فى بناء المجتمع الحميدانى فكانت على الوجه التالى :

العرب :

شكل العرب غالبية المجتمع الحميدنى ، وقد زخرت بلاد الشام فى ذلك العصر بالعديد من القبائل أمثال : عامر بن صعصع وعقيل وقشير والعجلان وأولاد كعب بن ربيعة بن عامر ، واستعان سيف الدولة ببعضهم عند مجيئه إلى حمص لملاقاة جنود ابن طغج الاخشيد (٥١) بمرج عذراء (٥٢) إلا أن تلك القبائل أثارت أحيانا المقلقل واشتبكت مع الحميدانيين فى كثير من الحروب التى تردد ذكرها فى شعر أبى الطيب وأبى فراس (٥٣) .

(٥٠) المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١١٣ .

- جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ٥ ، ص ٦٠ .

(٥١) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٥٢) مرج عذراء : على خمسة وعشرين كم من الشمال الشرقى لدمشق على

مقربة من طريق حمص الى الشام .

- ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٢٥ .

(٥٣) ابن خالوية ، أبو عبد الله الحسين بن خالويه ، ديوان أبى فراس ، ص ١٥ .

(مجلة المؤرخ العربى)

ورغم تلك القلاقل والاشتباكات ، فقد وضحت العصبية القبلية العربية ، عند اشتباكهم مع العصبية التركية أو الفارسية ، ذلك أن العرب ، ممثلين في دولة بنى حمدان دأبوا على طرد النفوذين التركي والفارسي ، واستخلاص الميمنة لهم .

الأتراك :

ظهر العنصر التركي على مسرح الدولة الإسلامية منذ وقت مبكر يرجع الى عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور حيث وصل بعضهم الى إمارة الألبانية في عهد هارون الرشيد بل ولى بعضهم الثغور الشامية ، مثل أبو سليم فرج الخادم صاحب الدار بأنطاكية ، فكان أول قائد تركي قاد الجيوش العباسية لحرب الروم (٥٤) على أن السيطرة الحقيقية لهذا العنصر ظهرت في عهد المعتصم ، الذي اعتمد عليهم اعتمادا تاما في الجيش واتخذ منهم حرسا خاصا له ، وأسند اليهم كذلك العديد من مناصب الدولة وأثرهم على الفرس والعرب .

ونظرا لما تميز به هؤلاء الترك من القوة وصحة البدن ، نظرا لطبيعة بلادهم ويداوة معيشتهم ، وحبهم للجندية والفروسية وحسن القتال ، أصبحوا عنصرا هاما في الدولة التيمورية ، فاستعان بهم الحمدانيون في الجيش ، وكونوا منهم الغلمان الذين اعتمدوا عليهم كثيرا في حروبهم ، وإذا تتبعنا أخبار حروب الحمدانيين ، نجد أن خير قوادهم كانوا من الأتراك منهم نجا الكبير (الكاسكي) الذي أرسله سيف الدولة الى حران عام (٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م) لطلب هبة الله ابن أخيه ناصر الدولة الذي وثب على ابن دنجا النصراني غلام سيف الدولة وقتله ، فلما قرب نجا من المدينة ، هرب هبة الله الى والده الحسن في مدينة الموصل ، فاستولى غلام سيف الدولة على حران وفرض عليهم الضرائب ، وأنزل بهم الظلم والجور (٥٥) ، ثم سار الى ميافارقين (٥٦) وقصد

(٥٤) الألبانري ، أبو الحسن أحمد بن يحيى ، فتوح البلدان ، تحقيق ، صلاح المنجد ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٥٥) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٧٨ .

(٥٦) ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٣ .

بلاد ارمينية وأخذ البلاد التي كان استولى عليها أبو الورد. مثل خلاط وملاذكرد وموش وغيرها (٥٧) وأظهر الغصيان علي سيف الدولة فششق عليه ذلك ، فخرج اليه ففر هاربا أمامه ، بعد أن ترك ما سبق الاستيلاء عليه الا أن أخا لنجا استأمن له فأعاده الى عمله (٥٨) وظل في خدمته حتى قتل علي يد غلام لسيف الدولة اسمه « قبيجاغ » (٥٩) .

ومن هؤلاء أيضا (قرغوية) الذي ولاه سيف الدولة على حلب عندما نخرج للقاء عام (٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م) وبعد وفاة سيف الدولة ظل (قرغوية) في خدمة سعد الدولة وشاركه في القضاء على « أبي فراس الحارث بن سعيد بن حمدان » لأنه أراد الاستقلال بحمص ورفض تسليمها لقرغوية (٦٠) فأمر أخد غلمانه وأوعز اليه بالتركية فقتله وحمل رأسه الى سعد الدولة (٣٥٧ هـ - ٩٦٧ م) (٦١) وقيل ان سيف الدولة عز عليه ذلك فقتل قاتله وفي العام التالي ٣٥٨ هـ - ٩٦٨ م) حالف قرغوية أهل حلب على سعد الدولة ، وتقرب اليهم (٦٢) ولما دان له الأمر قطع الدعاء لسعد الدولة ، وشارك بكجور الأمر ، ودعى لهما على المنابر ، الا أن سعد الدولة بمساعدة زهير غنتلام والده سيف الدولة « بمعرفة التعمان » (٦٣) استطاعا اقتحام حلب على رمضان من نفس العام ، وحاضروا قرغوية وبكجور الذين استعانوا بالروم بعد انصراف العرب عنهم (٦٤) وفي عام ٣٣٦ هـ - ٩٧٦ م) قبض بكجور على قرغوية وحبسه

(٥٧) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ٢٨١ .

(٥٨) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٥٩) مسكويه ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

- ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

- ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ .

(٦٠) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٠٧ .

(٦١) القرماني ، المصدر السابق ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٦٢) محمد كرد ، المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٦٣) بلدة بين حلب وخفصاء كثيرة التين والزيتون - القرماني ، المصدر

السابق ، ص ٣٣٨ .

(٦٤) الروذاهري ، أبو شجاع محمد بن الحسين ، دليل كتاب تجارب الأمم ،

تصحيح هـ . ف أمدرود : ص ٢١١ .

فى قلعة حلب وسلم القلعة لأبى المعالى ، الا أن بكجور أساء السيرة فى دمشق وفى النهاية عزل على يد العزيز بالله بوشاية من الوزير يعقوب بن كلس (٦٥) . ولم يستقر الأمر لسعد الدولة فى حلب الا عام ٣٦٧ (٦٦) .

أما فى عهد سعيد الدولة (٣٨١ - ٣٩٢ هـ - ٩٩١ - ١٠٠٠ م) فقد برز من هؤلاء القواد الأتراك أبو محمد لؤلؤ السيفى ، الذى استطاع أن يزوج سعيد الدولة من ابنته وأصبح له الأمر ، حتى قيل أنه اذا خرج سعيد الدولة لمحاربة الروم أقام لؤلؤ بحلب ، واذا خرج لؤلؤ أقام سعيد الدولة . وتذكر المصادر (٦٧) أن لؤلؤا حرّض احدى الجوارى لدس السم لابنته وزوجها سعيد الدولة فماتتا جميعا ، وفى عام (٣٩٣ هـ - ١٠٠٢ م) ملك لؤلؤ السيفى ، ولدى سعيد الدولة أبا الحسن عليا وأبا المعالى شريفا الحكم ، الا أن تدبير أمور الدولة كان بيده وبمعاونة ولده مرتضى الدولة أبى نصر منصور بن لؤلؤ ، الذى كانت بينه وبين صالح بن مرداس عام (٤٠٢ هـ - ١٠١١ م) وقعة انتهت بهزيمة ابن مرداس وأسرته (٦٨) .

ويبدو أن كل أمير اتخذ له حرسا خاصا من هؤلاء الأعاجم ، حسب العادة المتبعة آنذاك ، فنجد الغلمان السيفية والسعدية ، نسبة الى الأمير الذى يقتنيهم ، وكان خير مثال على ذلك ، كما أسلفنا « قرغوية » الذى تلقب بالحاجب وبكجور الذى تلقب بالأمير ، وكتبت أسماءهم على السكة عام (٣٥٨ هـ - ٩٦٨ م) .

(٦٥) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٣٣ .

(٦٦) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٦٧) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

- ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

- ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ .

- الروندراورى ، المصدر السابق ، ص ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ .

(٦٨) لما تم لأبى لؤلؤ ، خطب للحاكم صاحب مصر فلقبه مرتضى الدولة ثم فسد ما بينه وبين الحاكم ، فطمع فيه ابن مرداس وبنو كلاب ودخلوا حلب ، فأمر ابن لؤلؤ باغلاق الأبواب والقبض عليهم وقبض على مائة وعشرين منهم ابن كرداس .

- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ١٧ ، ٦٨ ، ٦٩ .

- محمد كرد على ، المرجع السابق ، ص ٢١١ ، ٢٢٠ .

الأكراد :

هم سكان القسم الأعلى من الجزيرة ، حيث شكل هؤلاء عنصرا هاما من عناصر السكان ، واشتهروا بقوة أبدانهم وشدة بأسهم وبدائوتهم التي اكتسبوها من طبيعة بلادهم الجبلية الوعرة وقد اشتهر هؤلاء ، في جميع الثورات والقلال التي نشبت في كردستان طول العصرين الأموي والعباسي .

وقد فطن الحمدانيون الى قوة الأكراد ، فحالفوهم (٦٩) وتزوج حمدان جد الأسرة امرأة كردية ، وحذا حذوه حفيده ناصر الدولة ، فتزوج من فاطمة بنت أحمد الكردية ، التي كان لها تأثير كبير عليه ، بل قيل أن سيف الدولة كان من أم كردية ولهذا السبب خطب له أبو سالم ديسم بن ابراهيم الكردي . ، صاحب أذربيجان ، خاصة أن سيف الدولة قد أنجده عام (٣٤٤هـ - ٩٥٥م) بعد أن هزمه السلار المرزيان ، فقصد سلماس بمعاونة بعض الأكراد وملكها في وقت كان السلار غائبا بناحية باب الأبواب ، مشغولا بمن خرجوا عليه (٧٠) .

وما أن بدأ الوهن يدب في جسم الدولة الحمدانية منذ عام (٣٨٠هـ - ٩٩٠م) خلال حكم سعد الدولة ، حتى بدأ هؤلاء الأكراد يسيطرون على ميفارقين وأرزن وديار بكر ، وكونوا امارة ذات بلاط زاهر (٧١) .

الديلم :

وهم من الشعوب التي سكنت الجنوب الشرقي لبحر قزوين واشتركت في الثورات والفتن الداخلية التي كانت قد اندلعت بشدة في ذلك الوقت ، فانضم هؤلاء بزعامة الحسن بن الأهوازي (٧٢) . الى

(٦٩) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١١٢ .

(٧٠) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٦١ .

(٧١) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

- ابن خلدون ، العبر ، ج ٣ ، ص ٥٢٧ .

(٧٢) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، ويذكر ابن الأثير ، ج ٧ .

ص ٢٨٨ انه ظهر متمرّد آخر في أنطاكية يسمى نزير .

رشيق التسيمة (٧٣) عام (٣٥٤هـ - ٩٦٥م) عندما خرض الأنطاكيين على الثورة وسلم طرسوس الى البيزنطيين ، وسار بهم الى حلب يريد انتزاع حلب من قرغوية غلام سيف الدولة الذي ذاق عنتها دفاع الأبطال (٧٤) لم يقف سيف الدولة ، مكتشف الديدن فانقض عليهم وهزمهم ، ودافع عن حلب دفاع المستميت ، حتى أن الجيوش البيزنطية ظلت تعبث وتفسد مدة خمسين يوما في الضواحي ، دون أن تستطيع دخول المدينة (٧٥) ، على أن بطولة هذا الأمير توقفت عند ذلك الحد إذ عاجله المرض ، وما زال يدافع ويقاوم حتى وفاته بعد أن قضى نصف عمره في ابتعاد الروم من حدود آسيا الصغرى (٧٦) :

أهل الذمة :

فإذا تركنا الجانب العنصري في بناء المجتمع ، ونظرنا الى ذلك المجتمع من الناحية الطائفية الدينية ، فإننا نجد الى جانب الغالبية من المسلمين جماعة من أهل الذمة تمتعوا بحياة مطمئنة في ظل الحمدانيين ، رغم العداء الصليبي ، الذي تمثل في هجمات الروم على مدينة حلب ، وما كان يحمل في ثناياه من روح التعصب ، ولكن المسلمين واجهوا ذلك التيار بسماحة بالغة ، فغاش هؤلاء في أمن وطمأنينة ، داخل مزارعهم ومنازلهم ، محافظين على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم ، وقد كون أهل الذمة أقلية كئيبة ، وكان أكثر الأطباء منهم ومن الثابت أن طبيب سيف الدولة كان نصرانيا ، واشتهر من هؤلاء الأطباء عيسى الرقي ، ظافر ابن جابر السكري ، جابر بن موهوب ، سكرة الحلبي (٧٧) وكان منهم أيضا المهندسون والرياضيون وعلماء الفلك واشتهر منهم ديونيسيوس بطريق اليعاقبة ، قيس الماروني وغيرهم من العلماء ، وكان ملكون السرياني ،

(٧٣) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٨٨ .

(٧٤) مسكويه ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢١٤ .

(٧٥) ابن كثير ، المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢١١ .

(٧٦) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٧٧) ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو الغباس أحمد ، عيون الأنباء في طبقات

الأطباء ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٨ .

سفيرا لسعيد الدولة لدى امبراطور الزوم (٧٨) أما اليهود فقد اخترفوا التجارة ومارسوا شتى أنواعها ، وخاصة تجارة المجوهرات (٧٩) ، والصرافة والصياغة ، ولذلك وصفوا بالملوك . وقد تركز النصارى فى مدينة ميفارقين التى كانت تزخر بالكنايس والأديرة ، فى حين كان معظم اليعاقبة بأنطاكية (٨٠) .

ومن مظاهر التسامح مع أهل الذمة أن كثيرا من الخلفاء والأمراء اتخذوا كتابا من النصارى ، وذلك لبراعتهم فى الأمور الادارية ، وكانوا يلقون احتراما من المسلمين (٨١) وترك لهم الاحتفال بأعيادهم بمنتهى الحرية ، بل شاركهم المسلمون ، فى الجانب الاجتماعى لتلك الأعياد ، فكان الجميع يلتقون فى الكنائس وأماكن الاحتفالات على مودة تامة (٨٢) :

طبقات المجتمع :

ساد المجتمع الاسلامى ، خلال القرن الرابع الهجرى ، طبقتان : طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء .

تشمل الطبقة الاولى : الخلفاء والأمراء ، وكبار رجالات الدولة ، والتجار الأغنياء ، وملاك الاراضى الزراعية :

أما الطبقة الثانية ، فكانت خليطا من الصناع والفلاحين ورجال الجيش ، وصغار الباعة ، وصغار الموظفين ، علاوة على البدو وجماعات الرقيق .

وكان الحمدانيون من أغنى أمراء المسلمين فى القرن الرابع الهجرى

(٧٨) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٠٠ .

(٧٩) المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

(٧٩) ص ١٠١ ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة : حسن حبشى ، ص ١٠١ .

(٨٠) المسعودى ، المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

(٨١) ترتون ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٨٢) آدم ميتز ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

- ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ص ٥٠٠ .

لأنهم اعتبروا أنفسهم ، أصحاب الأرض بما تضمنه من زرع وضرع ومواطنين (٨٣) وهناك العديد من الأدلة التي تثبت هذا الثراء - كان سيف الدولة يستولى على أرث من يموت بمساعدة قاضيه أبو حصن على ابن عبد الملك ، الذي كان يقول « كل من هلك فلس سيف الدولة ما ترك » (٨٤) .

كان الأمير الحمداني ، هو المشرف على الإدارة والمالية والحرب ويولى الموظفين ويعزلهم (٨٥) .

كان سيف الدولة يجلس فى قصره « الدارين » الذى يضاهى قصور الخلفاء لابسا تاجا مرصعا بالجواهر ، وقيل أن الروم عندما دخلوا حلب عام (٣٥١ هـ - ٩٦٢ م) طفر الدمستق بهذا القصر ، فوجدوا به ثلاثمائة بكرة من الدراهم ، وثلاثمائة حمل من البر والديباج ، وخمسين حملا من إوانى الذهب والفضة - وألفا وأربعمائة بغلا ومن خزائن السلاح مالا يحصى (٨٦) .

بلغ ما جاد به سيف الدولة ، سبعمائة ألف ألف دينار ، عدا ما أنفقه فى حروبه وشئون دولته (٨٧) .

وجبى الحمدانيون الخراج بطريقتين ، المحاسبية والمقاسمة ووصلت نسبة الخراج ، فى بعض الحالات الى خمسين فى المائة أى نصف قيمة الغلة (٨٨) التى تنتجها الأرض .

-
- (٨٣) آدم ميتز ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .
 - (٨٤) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١١٢ .
 - (٨٥) آدم ميتز ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢١٢ .
 - (٨٦) المسعودى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .
 - ابن العماد الحنبلى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ .
 - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢١٣ .
 - (٧٨) مسكويه ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ .
 - (٨٨) آدم ميتز ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .

وقد أكثر الأمراء من اقتناء الرقيق والجواري ، من ذلك أن سيف الدولة ركب مرة من داره ومعه ألف غلام مملوك بألف جوشن مذهب على ألف فرس عتيق ، وكان فى قصره كثير من الحظايا والجواري (٨٩) .

وكان أفراد طبقة الخاصة الأغنياء فى حلب يعيشون فى منازل رفيعة يحاكون الحكام . وكانت تحيط بتلك المساكن الحدايق الغناء الحافلة بالورود والياسمين والبنفسج والأقحوان وغيرها من الأزهار . وكان هؤلاء يقطعون أوقات فراغهم ، بمختلف وسائل التسلية ، ومنها حفلات الشراب ، وتطارح الشعر وسماع الغناء ولعب الشطرنج والنرد وغير ذلك (٩٠) ، وكانت موائدهم تزخر بالعديد من صنوف الطعام ، وقد ظن هؤلاء أن العامة أحيانا ، يدعمون نفوذهم فكانوا يعملون على استرضائهم بأبسط أساليب السخاء ، حيث يمدون لهم الأسمطة ويدعونهم اليها فيجتمع الآلاف منهم حولها على مدار اليوم فى أماكن متفرقة (٩١) .

أما العامة على كافة مستوياتهم ، فكانوا اذا تطلعوا الى شىء من الرفاهية والثراء ، التمسوا ذلك : لدى الأمراء والأغنياء فالعلماء التمسوه فى خدمتهم ، والشعراء وجدوه فى مديحهم ، والتجار سارعوا فى عرض ما يقع بحوزتهم من نفيس الجواهر ، والصناع اذا أحسنوا صناعة هؤلاء مقصدهم (٩٢) . والواقع ان العامة كانوا يعيشون فى ضنك من العيش ، فقل أن يجدوا الكفاف لانخفاض مستوى المعيشة فالمزارعون « الأكره » الذين كان يتألف منهم معظم السكان كان معظمهم من أهل الذمة وهؤلاء غالبا ما كانوا يسكنون القرى ويعملون بحرفة الزراعة ومن أسلم منهم كان ينزل الى المدن . وبجانب هؤلاء عاش الصناع يعملون فى صناعاتهم والاتجار بها (٩٣) .

وفى ظل هذه الأوضاع ساد الزهد ، وأحس غالبيتهم بأن نعيم

(٨٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢ .

(٩٠) عبد الجليل حسن ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٩١) جورجى زيدان ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٩٠ .

(٩٢) أحمد أمين ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٩٣) آدم ميتز ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ، ٣١٠ .

الدينيا زائل وأنه اذا جرم الدنيا فليطلب الآخرة ، كما انتشر الدجل والاعتقاد في السحر والبحث عن الكنوز المخبوءة .

ومع ذلك ، فقد وجدت جماعة من المقربين من الخاصة مثل كبار التجار والبارزين من العلماء ، وقد اختص كبار التجار ببيع المجوهرات والمصنوعات والثياب الفاخرة ، ومنهم من طافوا العالم برا وبحرا ، ترويجا لتجارتهم التي درت عليهم الملايين من الدنانير . أما المبرزون من العلماء ، فقد اتصل بعضهم بالأمراء ونالوا بعض مناصب الدولة ، كالقضاء وغيره من المناصب (٩٤) .

مجالس الأتس والطرب والولائم :

على الرغم من الحروب الطاحنة على حدود الدولة والفتن الداخلية إلا أن الدولة الحمدانية حفلت بمجالس اللهو والمجون ، وقد عمد الأمراء الحمدانيون وغيرهم من عليّة القوم ، الى اقامة تلك المجالس في قصورهم .

وكانت تلك المجالس عامرة ، بالسوان من الطعام والشراب ، والشهيرات من القيان ، وكبار المطربين ، كما كان كبار الشعراء والأدباء يحضرون تلك المجالس .

وقد أطنب شعراء الحمدانيين في وصف الخمر ومجالسها وأدوات شربها ، وحاناتها والندمان والغلمان ، مما يدل على انتشار عادة الشرب في مجالس حلب وحاناتها التي كانت على ما يبدو كثيرة يديرها أهل الذمة ، ويقصدها الأدباء والظرفاء ليلا ، حيث يتمادون في اللهو ، ولم ينس هؤلاء في أشعارهم وصف الساقى والسياقية بل جمعوا بين الخمر ووصف أماكن الشرب ولا سيما الأديرة في كثير من الأحيان (٩٥) .

(٩٤) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١١٢ .

- جورجى زيدان ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٤٨ ، ٥٠ .

(٩٥) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ٩٤٢ .

وقد أولع الحمدانيون بالموسيقى والغناء (٩٦) ، وكان سيف الدولة عندما ينتهى من عناء الحروب ، يخلد الى الراحة ، وتطيب نفسه الى السماع الجميل ، وقد ضم بلاطه الفارابى أكبر موسيقى اسلامى وقيل أنه أول مخترع للقانون وضم بلاطه أيضا ساردا العواد الذى كانت له شهرة كبيرة بضرب العود (٩٧) .

ومن مطربيه رجل يسمى الهنكرى ، ومغنية يسحره صوتها عرفت بالجيذاء ، ولعب هؤلاء دورا كبيرا فى ذيوع الطرب فى هذا الوقت بحلب ، وفى ادخال البهجة والسرور على قلب سيف الدولة ، كما كان يطيب له أن يسمع جيذاء تلك فى كلمات من نظمه ، حيث تقول (٩٨) :

يا طول شوقى اذا قالوا الرحيل
ويا بلائى منه اذا وقيدا
أضناني الحب اذ تعرض بى
ما قتل الحب هكذا أبدا

وقد ذكر الشعراء فى ثنايا شعرهم اسماء بعض آلات الطرب آنذاك مثل العود والطنبور (٩٩) والمزهر والناي .

وقد وصف الواواء الناي والعود اذ يقول (١٠٠) :

فالنساي يسدى أنيبا . . . يشجى والعيود ضريب

(٩٦) قال الفلاسفة (ان النغم والأغاني فضيلة شريفة قد تعذرت عن المنطق ، ليست فى قدرته ، فلم يقدر على اخراجها ، فأخرجتها النفس الحائنا فلما أظهرتها سرت بها وعشقتها وطربت إليها) .

— المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(٩٧) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٩٨) فايد العمروسى ، الجوارى المغنيات ، ص ٢٥٥ .

(٩٩) قيل أن أول من غنى فى الاسلام بالطنبور (أحمد بن إمامه الهمداني قرين

أعشى همدان — الجصفدى ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، الوافى بالوفيات ، ج ٦ ، ص ٢٥٧ .

(١٠٠) فايد العمروسى ، المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

أما أبو الفتح كشاجم فقد وصف الطنبور بقوله (١٠١) :

ممنطق الخضر أجوف	جيد ضعف سائره
لفظه لفظ عاشق	يشتكى هجر هاجر
ذو لسانين فوقه	عدلا من مقساره

وظهرت خلال ذلك جماعة من الظرفاء والندماء ، عاشت قريبة من الأمراء وذوى النفوذ ، وكانت مهمتهم ادخال السرور والبهجة فى قلوب هؤلاء ، حيث كانوا على درجة كبيرة من سرعة البديهة وحضور الخاطر ، عالمين بكل ما يحب الأمراء من الجواهر النفيس ، والأنواع الممتازة من الطيب والفراش ، والخيل والسلاح ، وسائر ما يهدى الى هؤلاء الأمراء فى مجالسهم ، التى يسودها اللهو والطرب ، أو فى أوقات خلودهم الى الراحة والاستجمام ، وهناك صفات وجب أن يتحلى بها هؤلاء ، خاصة عندما يكونون فى حضرة الأمراء وعلية القوم أوردها لنا كشاجم « فى كتابه أدب الندماء (١٠٢) » .

وكان لكثرة الجوارى والغلمان أثر واضح فى ازدياد الانحلال الخلقى فى مجتمع الحمدانيين ، الأمر الذى ساعد على ، انتشار ظاهرة شرب الخمر بلا رادع ، وما أنتجه الشعراء من شعر لم يبال بالقواعد الدينية والأخلاقية المتعارف عليها فى مجتمع اسلامى ، وانما زخر شعر هؤلاء أيضا بالتغزل بالجوارى والغلمان ، ووصفوا مجالسهم فى الحانات والدور والزيارات الليلية الماجنة ، التى قام بها أولئك للغلمان والجوارى ، وقيل أن الأديرة شهدت الكثير من ذلك النشاط الماجن ، وربما يرجع ذلك الى تعدد الأديرة وكثرتها ، وربما لتطرفها فى أماكن نائية بعيدة عن الرقابة الفعلية ، أو ربما نقلت هذه العادة من المجتمع الفارسى والهندي والرومى ، التى كانت فيه منتشرة بدرجة كبيرة ، خاصة عند بنى بويه (١٠٣) .

(١٠١) الثعالبي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

(١٠٢) كشاجم ، أبو الفتح ، مضمود ، أدب الندماء ولطائف الظرفاء ، ص ١٧

وما بعدها .

(١٠٣) مصطفى الشكعة ، سيف الدولة الحمداني ، ص ١٧٧ .

أما عن ألوان الطعام فكانت متعددة وكثيرة منها على سبيل المثال ما كان متحببا وتحت طائلة عليّة القوم ، كالحملان المشبوية والجداء والفراريح والحمام ، والمقلوات فى الطواجن. والسّمك ، واعتبر الدجاج دعامة السّماط ولذلك كان سغره مرتفعا ، وكان الدجاج يسلق ويقطع ، ثم يعرق بالسّيرج « زيت السّمسم » ، ويضاف اليه الكثير من أنواع البهارات كالكزبرة والمستكة (١٠٤) . . .

ولم يفت السرى الرفاء أن يتغنّى فى ذلك بقوله (١٠٥) :

دجاجة فى شبه السّمند	تليذة وفخرها بالهند
عظيمة الزور بصدر نهد	أجريت منها فى مجال العقد
صب عليها اللوز مثل الزبد	وغليت بعد بماء الورد

ومن الحلوى ، السّمبوسة والمهلنية والكشكية (ماء الشعير الذى يغجن باللبن والجوز واللوز) والتمر . ومن أنواع الفاكهة ، السفرجل والبطيخ والتفاح والعنب الرازقى والرمّان . ومن المشهيات ، السلطة الحصرمية والعدسية ، علاوة على البيض والجبن والزيتون والبادنجان . وكان أمراء بنى حمدان يستشيرون الأطباء فى الأطعمة التى تحافظ على صحتهم ، وقيل : أن سيف الدولة كان يستدعيهم اليه أثناء تناول الطعام (١٠٦) .

ونتيجة لهذا البذخ والاسراف فى تناول الطعام نوعا وكما ، كثرت الشكوى من أمراض القناة الهضمية ، كالقولنج وتلبك المعدة ، والدوسنتاريا

(١٠٤) حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٦٣٠ .

(١٠٥) ديوان السرى الرفاء ، ص ٩٥ .

(١٠٦) الثعالبي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

كان سيف الدولة إذا أكل الطعام حضر على مائتته أربعة وعشرون طبيبا ، وكان فيهم من يأخذ رزقين لاجل تعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم وكان من جعلتهم عيسى الرقى المعروف بالتقليص وكان يأخذ أربعة أرزاق رزقا بسبب الطب ورزقا بسبب النقل ورزقين بسبب علمين آخرين . ابن أبي أصيبعة

السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

وغيرها من الأمراض التي تسببها كثرة تناول اللحوم ، كالنقرس . وقد رآخ ضحية هذه الأمراض الكثير من الأمراء (١٠٧) أما عن أطعمة العامة فكانت تتألف من أكلات شعبية كاللحم والخبز والسمك ومنه المشوى والمقلنى والمطبوخ ، والهريسة من الحلويات والعصيدة ، وكانت تصنع من التمر مضافا اليه بعض السكر أو العسل ، والثريد ، ويصنع ، من المرق واللحم ، وقد يضاف اليه الجمض ، وكان الأرز يخلط باللبن والسمن والسكر ، ومن تلك الأكلات الشعبية أيضـاً الرؤوس والأكارع وكانت تباع فى الأسواق اما مطبوخة أو بيئة ، أما الفاكهة فلم تختلف كثيرا عما كان يتناوله عليه القوم ، ويزيد فى قيمة ما يقدم من الطعام ما يضاف اليه من المسك والعنبر والزعفران والقرنفل وغيرها .

وسائل التسلية :

تعددت وسائل التسلية فى المجتمع الحمدانى الذى حظى بالثراء وحفل بالشعراء والظرفاء فكان لابد من شغل أوقات الفراغ ، وخاصة أنهم كانوا لا يشغلهم شغل ، ولا يرهقهم عمل . ومن وسائل التسلية عدد من الألعاب منها :

النبرد :

وعرف هذا النوع من اللعب فى عهد الباهبوز بن البرهمى (١٠٨) وجعل ذلك مثالا للمكاسب ، وأنها لا تنال بالكيس ولا بالحيل ، ويستعمل فى اللعب بها ثلاثون حجرا ، لعدد أيام الشهر ، وقصان ، مثالا للمقدر وتنتلية بأهل الدنيا ، على رقعة رسم ، اثنا عشرة منزلا أو أربعة وعشرون منزلا ، وأن الانسان يلعب بها فيبلغ بأسعاده القدير اياه ، فى مراده باللعب بها ما يريد ، وأن الحازم الفطن لا يتأتى له ما تأتى لغيره ، إلا اذا أسعده القدر (١٠٩) .

(١٠٧) حسن إبراهيم ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٦٢٥ .

(١٠٨) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٨٠ .

(١٠٩) نفس المصدر والصفحة .

وقد ذم الشاعر كشاجم النرد بقوله (١١٠) :

أيها المعجب المفاخر بالنرد ليزهني بيه على الإخوان
قد لعمرى حرصت جهدى على ليت كذا لو لم يأتك الغصان
وإذا جاءت القضاة بحكم لم يحد عن قضائها الخصمان

الشطرنج :

صنع الشطرنج في عهد بلهت بن دبشليم ، فقضى بلعبها على النرد وقد لعب هذا الملك بالشطرنج مع حكمائه وقد أخذها العرب عن هؤلاء ، وأتخذت أدواته من العاج ، وأشكاله على صور الحيوان ، وكل قطعة منه كالشبر في عرض ذلك بل أكثر ، ويلعب على رقعة بخمراء مربعة من الأدم ، وكان الأغلب على الهنود القمنار في لعبهم بالشطرنج ، على الثياب والجواهر ، وربما أنفذ الواحد منهم ما معه ، فيلعب في قطع عضو من أعضاء جسمه (١١١) .

السباق :

ومن أنواع التسلية أيضا ما كان يعقد من سباقات بين الحمام ، حيث كانت هواية محببة ، بين الخاصة والعامة ، إلا أنها حوربت في بعض الأحيان ، عندما تكون مقلقة لراحة الناس ، لما ينتج عنها من الصياح ورمى الأحجار ، وسقوطها على أسطح المنازل (١١٢) . وكان سباق الخيل ، من أحب ألوان التسلية خاصة عند الأمراء وكبار رجال الدولة ، وقيل أن الفقهاء أباحوا أيضا هذا اللون من الرياضة ، على ألا يكون وسيلة للحصول على المال ، وكان أنتشاره دليلا على تهية الناس للاستعداد للحرب ، وكان لسيف الدولة ميدان لسباق الخيل في حلب ، تتوسطه دكة ، يتفرج منها على الخيل وهي مسرعة ، ويجانب تلك الوسائل كانت وسائل أخرى ، مثل سباق مهارشة الديكة ، والكرة ، والصولجان وغيرهم .

(١١٠) الثعالبي ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(١١١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٨٠ ، ج ٢ ، ص ٧ .

(١١٢) حسن إبراهيم ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٦٥٥ .

الصيد :

... وكان الصيد أحب تسلية لدى الحمدانيين ، فقد أغرم به الأمراء ،
وحفلت أشعار شعرائهم بذكره ، وكانت الوحوش والطيء تصاد بواسطة
الصقور والكلاب ، وكانت الكباش تصاد بالحبال بالمطاردة بواسطة الخيل
والكلاب أيضا .

وفى ذلك يقول السرى الرفاء يصف الصيد بالكلاب (١١٣) :

وبيننا ذات ضجيج نختصم	قمنيا بها نهتك أستار الظلم
حيران ، قد ألبسه الذعر لم	حتى إذا السرب تراءى من أمم
وظل نهبا بالأكف مقتسم	صيد قوافى ، ثم ألقى للسلم

ويقول أبو فراش الحمداني فى ذلك (١١٤) :

دعوت بالصفار ذات يوم	عند انتباهى سحرا من نومى
قلت له اختر سبعة كبارا	كل نجيب يرد الغبارا
يكنون للأرب منها اثنان	وخمسة تفرد للغزلان

وكانوا يقومون بالصيد نهارا ويخلدون للراحة والأكل والشراب ليلا ،
وربما استمر ذلك سبع ليال متوالية .

ولم يقتصر الصيد على البر فقط ، بل تعداه إلى الصيد فى البحار
والأنهار ويقال السرى الرفاء يصف صيد السمك (١١٥) :

وأعنين تائف من أغصانها	صافية الأجفان من أقذافها
تردى بثبات الغدر فى أثنائها	لحمها طيبا يجسم دائها

(١١٣) محمد راشد أنيس ، الشعر فى رحاب سيف الدولة الحمداني ، ص ٢١ .

(١١٤) ابن خالوية ، المصدر السابق ، ص ٣١٩ .

(١١٥) ديوان السرى الرفاء ، ص ١٣ .

الحمامات العامة :

وكانت الحمامات لأهل هذا العصر ، من الخاصة والعامة على السواء ، خاصة الذين يودون الاحتفاظ بالرشاقة ونظافة الجسم وقد كثرت تلك الحمامات بدرجة كبيرة في مدينة حلب ، وكانت متأثرة بالطابع البيزنطى ، حيث غلب عليها التزين بالصور ، ويبدو من أشعار الشعراء ، أنها كانت تتخذ أيضا لشرب الخمر والأكل بل انتشرت عادة القذف بالملابس ، ويبدو كذلك أن القيان كن يقمن حفلات الغناء داخل تلك الحمامات .

وفى ذلك يقول السرى الرقاء (١١٦) :

بيت له داخل حل النعيم به . وخارج فيه للقلب الشجى مزج
ذو قبة كسماء ، والبدر بها . جاماتها فى ذرى فى الجو تسترح

ارتياح الأديرة :

أما الصورة الحقيقية لهذا العصر فنراها متجلية فى حياة الأديرة ، التى كانت مجالا للأنس ، وميدانا يطلق فيه للشعراء العنان فيلهون ويشربون ، ولعل أهل الذمة خاصة المستضعفين منهم ، كانوا على استعداد تام لاستقبال زوارهم خاصة اذا كانوا من الأمراء وعلية القوم ، وخاصة أن تلك الفئة تمتعت بالثراء ، فى حين كان عامة الشعب والفقراء منهم ،

وامتازت تلك الأديرة بجمال الموقع وسحر المكان وجودة النبيذ ، ووجود العديد من الراهبات والغلمان الحسان ، مما دفع أهل ذلك العصر الى ارتياحها خاصة فى أعياد النصارى (١١٧) واشتهرت حلب بعدة أديرة منها « دير مارمروتا » ، وهو دير صغير يقع خارج المدينة فى سفح جبل جوشن على نهر العرجان ، وكان سيف الدولة يحسن الى أهله ، وكان

(١١٦) نفسه ، ص ٤٥ .

(١١٧) الشايشتى ، أبو الحسن على بن محمد ، الديارات ، تحقيق كوركيس

عواد ، ص ١٣٩ .

كثير الزيارة لهذا الدير وفيه يقول الصنوبري (١١٨) :

أما ترى البيعتين أفردتا بمفرد الأقحوان والمزوج
أبوابه المرث كيف ما اتصلت ونساره البرق كيف ما أجج

وقال أيضا يصف دير زكي بقرية بطياس (١١٩) :

أنى طربت الى زيتون بطياس بالصالحية ذات السورد والاس
من ينس عهدهما يوما فلست له وان تناولت الأيام بالناس
ياموطننا كان من خير المواطن لي لما خلوت به ما بين جلاسى

وقد أثرت تلك الديرية في الحياة الأدبية ، اذ تردد عليها الشعراء وقالوا فيها شعرا جميلا ، وامتدحوا فيها الرهبان ، بما امتازوا به من خفة الروح ، وسعة الاطلاع والمشاركة في اللقاءات الثقافية والأدبية .

وفي ذلك يقول كشاجم (١٢٠) :

قد عدلوا ثقل أبدان بمعرفة منهم لخفة أبدان وأرواح
ورشحوا غير الآداب فلسفة وحكمة معلوم ذات أوضاع
في طب بقراط لجن الموصل وفي نحو المبرد أشعار الطرماح

مجالس الشعر في عهد سيف الدولة :

كان شعراء الحمدانيين على درجة من كثرة العدد ووفرته ، بحيث يتعذر أن ينسبوا الى اقليم واحد ، بل كان أغلبهم من الوافدين الذين ، استهواهم ما في بلاط سيف الدولة من ترف ، وما لديهم من عطاء .

فمنهم من انتسب الى حلب نفسها مثل « الصنوبري » ، الخليع الشامي ، السري الرقاء ، الخالدين من الموصل ، كشاجم ، ألأواع ،

(١١٨) الثعالبي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١ .

(١١٩) الشابشتي ، المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

(١٢٠) الثعالبي ، ج ١ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢ .

الواساني من بلاد الشام ، المتنبي ، الزاهي ، ابن نباته من العراق (١٢١) .
علاوة على أبي فراس الحمداني ، ابن عم سيف الدولة ، وأحمد
قواده وولاته .

سيف الدولة شاعرا :

أنشأ الثعالبي فصلا في يتيمة الدهر ، أورد فيه الكثير من أشعار
سيف الدولة وذكر أنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك ، بعد الخلقاء ،
ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ، وكان أديبا شاعرا ،
محبا لجيد الشعر ، شديد التأثير لما يمدح به (١٢٢) إلا أن ابن العديم (١٢٣)
ذكر أنه ينسب إلى سيف الدولة أشعار كثيرة ، لا يصح منها له غير بيتين ،
ذكر أبو القاسم الحسين بن علي المغربي كاتبه ، وهو جد الوزير أبي
القاسم المغربي ، أنهما لسيف الدولة ولم يعرف له غيرهما ، وكتب بهما
إلى أخيه ناصر الدولة ، وقد مد يده إلى شيء من بلاده المجاورة له من
ديار بكر ، وكانت في يد أخيه .

لست أجفوا وان جفيت ولا أترك حقا على في كل حال
انما أنت والد والاب الجافي يجازي بالصبر والاحتمال

شعراء عاصروا سيف الدولة :

المتنبي : ولد أبو الطيب أحمد بن عبد الصمد الجعفي المتنبي عام
(٣٠٣ هـ - ٩١٥ م) لحق بالأمير سيف الدولة الحمداني بعد إطلاق سراحه ،
حيث كان معتقلا لمدة عامين على يد لؤلؤ أمير حمص من قبل الأخشيدي ،
ولم يطلق سراحه إلا بعد التحقق من أنه عاد إلى حظيرة الإيمان ، بعد
أن كان قد ادعى النبوة في بادية السماوة من أعمال الكوفة عام (٣٣٧ هـ -

(١٢١) مصطفى الشكعة ، فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، ص ١٢٢ .
(١٢٢) الثعالبي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧ ، ابن خلكان ، المصدر
السابق ، ج ٣ ، ص ٤٨١ .
(١٢٣) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

٩٤٨م) (١٢٤) وقد رأى فيه سيف الدولة عنصرا قويا من عناصر العظمة ، فأحبه وأخلص له الحب ، وظل نسج سنوات كاملة فى حماه ينعم بهباته وعطفه ، ولكن الرجل الموهوب ، لا بد أن يكثر حاسدوه ، فمازالوا يكيّدون له المكاييد ويؤلبون عليه الأمير ، حتى ترك حلب الى مصر وأتصل بكافور الأخشيدي ، ومدحه بقصائد قوية ، الا أن كافورا لم يحقق له ما كان يصبو اليه ، فأنقلب المدح الى هجاء لاذع ثم انسل فى جوف الليل الى بغداد ومنها الى فارس ، يمدح ابن العميد حيناً وعضد الدولة حيناً آخر . ثم عاد الى وطنه يحمل الأموال والهدايا الثمينة والكتب النفيسة وما أن اقترب من بغداد حتى داهمه فاتك الأسدى ، على رأس شرذمة من رجاله فقتلوه وكان قد أشرف على الخمسين (١٢٥) .

كان المتنبى حين استقرت الأمور بحلب لسيف الدولة فى العقد الثالث من عمره وكان قد مر بألوان مريرة من بؤس الحياة وشظف العيش ذاق الفقر وذاق الهوان ، ودخل الى بلاط سيف الدولة وبه بعض الهيبة والذعر ، لأن بلاط سيف الدولة ، كان يعج بأكابر العلماء والأدباء والشعراء مثل الفارابى الفيلسوف وابن خالويه النحوى ، وابن جنى اللغوى ، وأبى ذر الصنوبرى وكشاجم وابن نباته ، وأبى الفرج العجلى وغيرهم كثير من الشعراء والقضاة والفنانين ، ولكن وثوقه من نفسه ، ورغبته فى المجد والشهرة ، جعلته يقتحم هذا الميدان ، وأن لا يعد نفسه غريبا ، لقد رأى فى هذا البلاط أيضا بذخا وثراء ، وأدبا وفنا وفروسية ومجدا ورأى فى سيف الدولة رجلا . يختلف عن خبرهم من الرجال . وهذه الظواهر مجتمعة فتحت أمام عينيه آفاقا جديدة نقلته من حال الى حال ، من حياة القلق والضجر الى الرغد والاطمئنان ، استطاع أبو الطيب المتنبى أن يكون فى طليعة من يصحبهم سيف الدولة فى غزواته وحروبه ، وفى صيده ولهوه ، وفى سمرة وليالى أنسه ، وبدأت المؤامرات تحاك حوله وبدأوا يدسون عليه ، ويصورون شعره شعرا مبتذلا ، لا يستحق هذا الاكبار والاجلال ، وكان فى طليعة هؤلاء النامى الشاعر ، وابن خالويه مؤدب

(١٢٤) شرح ديوان المتنبى ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(١٢٥) سامى الكيالى ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

سيف الدولة ، وأبو فراس ، ابن عمه ، الذى كان أكثرهم حقدا عليه ،
الا أن المتنبى لم يكن من الضعف بحيث يهرب من التعريض به ، فصمد
وكون حوله جماعة من محبيه ، وظل طيلة مدة اقامته الشاعر الفذ الذى
لا يدانيه شاعر فى الحظوة والرعاية .

وقال فى مدح سيف الدولة (١٢٦) .

خليلى انى لا أرى غير شاعر
فلم منهم الدعوى ومنى القصائد ؟
فلا تعجبا ان السيوف كثيرة
..... ولكن سيف الدولة اليوم واحد
له من كريم الطبع فى الحزب منتض
ومن عادة الاحسان والصفح غامد

وقال يمدح سيف الدولة ، ويذكر بناءه مرعش فى المحرم عام
(٣٤١ هـ - ٩٥٢ م) (١٢٧) :

فدينناك من ريع وان زدتنا كربا
فانك كنت الشرق للشمس والغربا
فرب. علام. علم. المجد نفسه
كتعليم سيف الدولة الطعن والضربا
اذا الدولة استكفت به فى ملمة
كفهاها فكان السيف والكف والقلبا

وقال فتيما كان يجرى بينهما من معاتبة (١٢٨) :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا
فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

(١٢٦) الثعالبي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨ .

(١٢٧) شرح ديوان المتنبى ، المرجع السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(١٢٨) شرح ديوان المتنبى ، المرجع السابق ، ص ٤١ .

ومالى اذا اشتقت أبصرت دونه
تنائف لا اشتاقها وسباسبها (١٢٩)
حنا نيك مسؤولا ولبيك داعيا
وحسبى موهوبا وحسبك واهبا
وان كان ذنبى كل ذنب فانه
محا الذنب كل المحو من جاء تائباً

وقال يهنىء سيف الدولة بعيد الفطر (١٤٠) :

الصوم والفطر والفطر والأعياء والعصر
منيرة بك حتى الشمس والقمر
ما الدهر عندك الا روضة أنف
يامن شمائله فى دهره زهر

وقال يعود من مرض (١٣١) :

اذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض
ومن فوقها والبأس والكرم المحض
شفاك الذى يشفى بجودك خلقه
فانك بحر كل وبحر له بعض

وكان آخر ما أنشده مدحا فى شوال (٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م) (١٣٢) :

أيا أسدا فى جسمه روح ضيغم
وكيم أسد أرواحهن كلاب
ويا أخذ من دهره حق نفسه
ومثلك يعصى حقه ويهاب

(١٢٩) سياسيا (تعنى الصحراء) .

(١٣٠) شرح ديوان المتنبي ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(١٣١) نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

(١٣٢) نفسه ، ص ١٦٠ .

أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدوني : ابن عم سيف الدولة وأحد قواده وولاته ، يعود بعمومته إلى تغلب ، وبخؤولته إلى تميم قيل أنه ولد في الموصل فسماه والده الحارث وكناه أبا فراس ، أي الأسد ولم يخيب ظن والده فقد كان فارسا من الفرسان المعدودين ، ولم يبلغ الثالثة من عمره حتى قتل والده ، قتله ابن أخيه حسن الملقب ناصر الدولة ، هكذا روى أبو فراس يتيما تحتضنه أمه ، ويعطف عليه ابن عمه سيف الدولة ، أخو ناصر الدولة (١٣٣) تبرز بجانب سيف الدولة في فنون الفروسية والأدب ، فخرج شاعرا فارسا وكان سيف الدولة يحبه لشجاعته فقلده إمارة منبج ، فخاض غمرات القتال وزاد عن حمى الوطن ووهب نفسه للمجد وللمكرمات (١٣٤) وهو القائل (١٣٥) :

فلا تصفن الحرب عندي فأنها	طعامي مذ بعت الصبا وشرابه
وقد عرفت وقع المسامير مهجتي	وشقق عن زرق النصول اهابي
ولججت في حلو الزمان ومبره	وأنفقت من عمره بغير حساب

وذاث يوم بينما كان عائدا من الصيد في نفر من أصحابه فاجاه كمين رومي عام (٣٤٨ هـ - ٩٥٩ م) فأخذ أسيرا وحمل إلى خرشنة ، ثم إلى القسطنطينية ، فبقى في الأسر عدة سنوات إلى أن افتداه سيف الدولة ، وبعدها أقطعه حمص بدلا من منبج (١٣٦). وقد كتب في الأسر أجمل قصائده وأرقها وعرفت هذه القصائد بالروميات ومنها قوله عندما سمع حمامة ، وهو في أسره ، تنوح على شجرة فقال يخاطبها (١٣٧) .

أقول وقد ناحت بقربي حمامة	أيا جارتا، هل تشعرين بحالي ؟
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى	ولا بخطر منك الهموم ببال
أتحمل مجزون الفؤاد قوادم	على غصن نائي المسافة عال ؟

(١٣٣) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ٥ .

(١٣٤) سامي الكيالي ، المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(١٣٥) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(١٣٦) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣١ ، ١٤٦ .

(١٣٧) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

أيا جارتا ، ما أنصف الدهر بيننا تعالى أقاسمك الهموم ، تعالى !
أيضحك مأسور ، وتبكي طليقة ويسكت محزون ، ويندب سال ؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعى فى الحوادث غال !

ومات سيف الدولة بعد عودة أبى فراس بسنة واحدة ، وتولى بعده
ولده أبو المعالى ، ابن أخت أبى فراس ، وتسلم الحكم بالوصاية عليه
غلامه التركى قرغويه ، فأبى أبو فراس أن يطيع هذا الغلام ، وطمع
بالسيادة على سوريا ، وكانت نهايته على يد هذا الغلام (١٣٨) . وبمقتله
خسر الحمدانيون رجلا من ألمع رجالهم فى الفروسية والشعر .

وقال يذكر سيف الدولة مع قبائل العرب (١٣٩) :

بدولة سيف الله طلنا على الورى وفى عزه صلنا على من تجبرا
حملنا على الأعداء، وسط ديارهم بضرب يرى من وقعه الجواغبرا
فسائل كلابا عروة بالس ألم يتركوا النسوان فى القاع حسرا
وسائل تميميرا ، يوم سار اليهم ألم يوقنوا بالموت ، لما تنمرا ؟
وسائل عقيل ، حين لاذت بتدمر ألم نقرها ضربا يقدر السنورا ؟
وسائل قشيرا حين جفت حلوقها ألم نسقها كأسا من الموت أحفرا ؟

وقال فى مدحه (١٤٠) :

أشدة ما أراه فيك أم كرم تجود بالنفس والأرواح تصطلم
يا باذل النفس والأموال مبتسما أما يهولك لا منوت ولا عدم
لقد ظننتك بين الجحفلين ترى أن السلامة من وقع القنا تصنم

(١٣٨) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٠٧ ، القرمانى المصدر
السابق ، ٢٦٥ .

(١٣٩) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

(١٤٠) الثعالبي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

السرى الرفاء :

وبرز من شعراء هذا العصر أيضا أبو الحسن السرى بن أحمد بن السرى الكندى الرفاء ، وكان فى صباه يرفو ويطرز فى دكان بالموصل وينظم الشعر حتى برع فيه (١٤١) ، قصد سيف الدولة بطلب ومدحه وأقام عنده مدة ثم انتقل بعد وفاته الى بغداد وقد برع السرى الرفاء فى التغنى بجمال مسقط رأسه الموصل ، وترك لنا صورة رائعة ، وصف فيها أصحاب المهن من الحلاقين وصيادى السمك وغيرهم ، علاوة على وصفه مشاهد الطبيعة وأزهارها وأشجارها وغدرانها والسحب والثلج والمطر ، كما افتن فى وصف مجالس الشرب واللهو والخمر بالاضافة الى شعره فى المديح والتهنئة والهجاء والغزل . ومن شعره اللطيف فى وصف مهنته قوله (١٤٢) :

يكفيك من جملة أخبارى	بسرى من الخب واعسارى
فى سوقة أفضلهم مرتد	نقصا ففضلى بينهم عارى
وكانت الابرة فيما مضى	صائنة وجهى وأشعارى
فأصبح البرزق بها ضيقا	كأنه من ثقبها جارى

وقال يمدح سيف الدولة (١٤٣) :

تركتهم بين مصبوغ ترائبية	من الدماء ومخضوب ذوائبه
يهوى اليه بمثل النجم طاعنه	وينتحيه بمثل البرق غالبه
يكسوه من دمه ثوبا ويسلبه	ثيابه فهو كاسيه وسالبه

(١٤١) فيصل السامر ، الدولة الحمدانية ، ج ١ ، ص ٣٦٣ ، المسعودى ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٢٨ .

(١٤٢) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٦ ، الثعالبي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

(١٤٣) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦١ .

وقوله (١٤٤) :

ولا تبك الا بعد طول ضيابة وحسبك من فرط الصبابة ما أبكى
إذا الدمع لم يبرح محلا يحله سرى الدمع من أجفانه قلق المسرى

وقوله (١٤٥) :

يا موجبا حق السماح بنائل نتقاصر الأنواء عن أنوائه
والمبتنى بيت العلا بياسنه فغدا علاء النجم دون علائه

ويقول فى مدح سيف الدولة أيضا (١٤٦) :

أعزمتك الشهاب أم النهار أراحتك السحاب أم البحار ؟
خلفت منية ومنى فأضحت تمور بك بسيطة أو تمار
تحلى الدين أو تحمى حماه فأنت عليه سور أو سوار

الضنوبرى : أبو بكر مزار :

من الشعراء الذين استهوتهم الطبيعة فعشقوها وهاموا بها ،
وطربوا لأغاريد أطيارها ، رأى النور فى أنطاكية ، وما كاد يترعرع
ويذوق حلاوة الأدب حتى انتقل الى حلب ، يعيش مع عشرات الشعراء
فى ظلال الأمير الحمدانى سيف الدولة ، وقد ذكر نسبته الى الضنوبرى
بقطعة من شعره حيث قال :

إذا عزينا الى الضنوبرى لسم تعزز الى خامل من الخشب
لا يل الى باسق الفسروع على مناسبا فى أرومة الجسب
باق على الصيف ، والشتاء اذا شابت رؤوس البنات لم يشب

عاش الضنوبرى فى ظلال سيف الدولة وعلى كثرة ما ضم بلاطه من

(١٤٤) نديوان السرى الزفاء ، المرجع السابق ، ص ٣ .

(١٤٥) المرجع السابق ، ص ٥ .

(١٤٦) الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٢٩ .

أساطين رجال الفكر والأدب ، كان من أصفى المقربين اليه فاتخذة نديما من أخلص ندمائه ، وأميناً لمكتبة قصره ، وكان الوحيد بين مئات الشعراء الذى الذى ترفع عن المدح فى سبيل المال ، على كثرة ما مدحه الشعراء من مختلف الأقطار العربية استدرازا لعطفه ، وطمعا بهباته وأعطياته ، وان دل هذا على شيء فعلى أنفة هذا الشاعر وكبريائه ، وعلى ما امتاز به من نبل النفس وصفاء الطبع ، وازدراؤه للمادة ، ولعل هذه الصفات هى التى أدنته من قلب سيف الدولة ، وجعلته من أخلص أصدقائه دون أن يطالبه بثمن (١٤٧) .

الصنوبرى الذى عاش فى كنف الطبيعة ، لم يكن يجد نشوته الا فى فصل الربيع فصل الحب والأزاهير ، فالدنيا عنده ربيع ولا شيء غير الربيع .

وفى ذلك يقول (١٤٨) :

ان كان فى الصيف ريجان وفاكهة	فالأرض مستوقد والجو تنور
وان يكن فى الخريف النخل محترقا	فالأرض عريانة والجو مقرر
ما الدهر الا الربيع المستنير اذا	جاء الربيع أتاك النور والتنور

أما بقية من عاصروا سيف الدولة من الشعراء والأدباء وتفننوا فى مدحه فقد أوردتهم الثعالبي (١٤٩) ومنهم .

أبو العباس بن محمد النامى وقال يمدح سيف الدولة :

خلقت كما أراذك المعالى	فأنت لمن رجاك كما يريد
عجيب أن سيفك ليس يبرزو	وسيفك فى الوريد له ورود
وأعجب منه رمحك حين يسقى	فيصحو وهو نشوان يמיד

(١٤٧) ناسم الكيالى ، المرجع السابق ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(١٤٨) القزوينى ، المصدر السابق ، ١٨٤ .

(١٤٩) انظر الثعالبي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

وكقول أبى الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي البغلاء :

وبالسهل لم يبعد عليه مرام	وبالسهل لم يبعد عليه مرام
وذلك يرد الجيش وهو لهام	وذلك يرد الجيش وهو لهام
وعزمك ان قل الحسام حسام	وعزمك ان قل الحسام حسام

وكقول أبى الفرج محمد بن أحمد الغساني الدمشقي الواواء :

وهو اذا جاد دامع العين	وهو اذا جاد دامع العين
أنصف بالحكم بين شكليين	أنصف بالحكم بين شكليين
جسدواك بالسحاب فما	جسدواك بالسحاب فما

وكقول أبى نصر بن نباته :

عند العيان فليس الصففر كالذهب	عند العيان فليس الصففر كالذهب
يامن ثرى قدميه طينة العرب	يامن ثرى قدميه طينة العرب
حاشاك أن تدعيك العرب واجدها	حاشاك أن تدعيك العرب واجدها

ولم يقتصر هذا المديح على الشعراء فقط بل أن أباً ذر أستاذ سيف الدولة في مدحه قال :

والشمس تطلع في أسرة وجهه	والشمس تطلع في أسرة وجهه
في حبه لم أخش من رقبائه	في حبه لم أخش من رقبائه
نفسى الفداء لمن عصيت عواذلى	نفسى الفداء لمن عصيت عواذلى

الفارابي :

ممن ضمهم بلاط سيف الدولة ، الى ما ضمه من العلماء والأدباء والشعراء الحكيم أبو النصر الفارابي ، الذي يتفق المؤرخون على اعتباره من أكابر فلاسفة المسلمين ، ولد عام (٢٥٩ هـ - ٨٧٢ م) .

ترك بغداد الى حلب ، حين شاهد ملك العباسيين يتقلص في وقت ازدهرت فيه دولة الحمدانيين في حلب خاصة في الحركة العقلية أيام سيف الدولة ، مما حفزه على أن يحط رحاله في ربوعها ، لا يعتز إلا بما في صدره من علم ومعرفة ، وما في قلبه من آراء وخيالات وما في ضميره من هواجس وأحلام ، ورغم أنه دخل الى العاصمة غريباً لا يعرفه

أحد ، أو لم يشأ أن يعلن عن نفسه ، إلا أنه قصد توا بلاط الأمير ، فأخذ الأدباء والشعراء يتهامون ، وكأنهم شعروا بوطأة هذا الدخيل على مجلسهم ، خاصة أنه بدأ يتكلم معهم في كل فن ، فلم يزل كلامه يخلو ، وكلامهم ينفل حتى صمت الكل ، وبقي يتكلم وحده ، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله ، فصرفهم سيف الدولة وخلا به ، وسرعان ما أنزله من مجلسه أرفع مكان ، ومن نفسه أسمى منزلة (١٥٠) وكان حبه للفارابي يفوق حبه لجميع من ضمهم مجلسه من الشعراء والأدباء والعلماء والفنانين ، والفارابي لم يمدح سيف الدولة كما فعل الصنوبري ، ورغم أن الأذن كانت تميل الى سماع المدائح من أفواه الشعراء إلا أن سيف الدولة كان ميله الى سماع آيات الحكمة أقوى ورغم محاولة سيف الدولة الاغداق عليه كثيرا ، إلا أن الفارابي فضل أن يعيش عيشة زاهرة ، بعيدا عن زخارف الدنيا ، واقتصر في معيشته على أربعة دراهم فضة في اليوم (١٥١) .

ومن شعره عن فلسفته للحياة (١٥٢) :

لمبا رأيت الرمان نكسا	وليس في الصحبة انتفاع
كل رئيس به ملال	وكل رأس به صداع
لزمت بيتي وصنت عرضا	به من العزة اقتناع
أشرب مما أقنيت راحا	لها على راحتي شعاع
لى من قواقيزها ندامى	ومن قراقيرها سماع

لقد مجد سيف الدولة في الفارابي شخصيته الفلسفية وشخصيته العلمية معا ، كما مجد الفارابي في سيف الدولة صفاته الفذة كأمير شجاع ، جمع الى صفات البطولة صفات السلطان الذي عمل على اسعاد قومه والزود عن وطنه .

(١٥٠) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٥ .
 (١٥١) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٦ ، ابن أبي أصيبعة ،
 المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ .
 (١٥٢) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ .

وخلصه القول أن الفارابي أنس بلقيا سيف الدولة ، كما أنس
الأمير بلقيا الفيلسوف .

ولم تمنع شيخوخة الفارابي وهو في الثمانين من عمره من مرافقة
سيف الدولة في إحدى غزواته إلى دمشق ، فلم يكد يصلها حتى وافته
منيته (٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م) (١٥٣) ومن قوله قبل الوفاة (١٥٤) :

فمبيا الإدار دار مقام لنا وما المرء في الأرض بالمعجز
محيط السماء أولى بنا فماذا التنافس في مركز

ابن نباتة الخطيب :

كما كان المتنبي شاعر سيف الدولة ، كان ابن نباتة خطيبه الذي
أثار وألهب حماسة الناس في سبيل الجهاد ، خاصة ضد البيزنطيين ،
كان ابن نباتة ، اماما في علوم الأدب ، وكان خطيب حلب وبها اجتمع
بابي الطيب المتنبي ، في خدمة سيف الدولة ، ولما كان سيف الدولة كثير
الغزوات ، فلهذا أكثر ابن نباتة من خطب الجهاد ليحرض الناس عليه ،
ويحثهم على نصرته الأمير ، ولا شك أن وقعها كان ذا تأثير مباشر في
نفوس مستمعيها ، فقد كان البيزنطيون على أبواب حلب وسيف الدولة
لا تغمض له عين ، وهو مهيا كل يوم لجهاد جديد ، ولهذا تأثر ابن نباتة
بهذا الموقف الحاسم الذي وقفه الأمير وانعكس ذلك في خطبه التي لا تقل
حماسة عن حماسة المتنبي ، حين كان يصور لنا معارك سيف الدولة
وفي ذلك يقول :

وَالله مَا غَزَى قَوْمٌ فِي عَقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا
وَلَا قَعْدُوا عَنْ ضُورِ دِمَارِهِمْ إِلَّا اضْمَحَلُّوا

وهو بهذا يثير الناس ويحثهم على الجهاد ، وأن يغالبوا الأهواء

• (١٥٣) ابن العبري ، أبو الفرج بن أهدون اللطى ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٢٩٤ .

- ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .

• (١٥٤) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٦ .

قبل محاربة الأعطاء ، ثم يحرضهم على القتال بشجاعة ، لأن الخوف لا يدفع عن الانسان الموت ، فلماذا الهلع والجزع . وعلام التراجع والاضطراب فيصرخ فيهم (١٥٥) :

الجهاد الجهاد	أيها الموقنون
والظفر الظفر	أيها الصابرون
والجنة الجنة	أيها الراغبون
والنار النار	أيها الهاريون

وعند هجوم الروم عام (٣٥١ هـ - ٩٦٢ م) على حلب ومحاولتهم الاستيلاء عليها القى خطبة صب فيها كل بلاغته ووصف هول القتال أبلغ وصف فقال « عباد الله :

« ... وقد أقامكم العز من أوطانكم على شفا ، لا ترقبون الا يد غاشم تخطفكم ، أو ريح عدو هاجم تنسفكم ، كالغنم بغير راع فهي شريدة طريدة بكل قاع ، والعدو يملك بلادكم قاطنا ، ويفك عري أمصاركم عروة عزوة ، ويندك ذرى دياركم ذروة ذروة ، وأنتم من روح الله آيسون كأنكم النساء وهم الرجال ... » (١٥٦). توفي خطيبا في مقتبل العمر فكانت ولادته عام (٣٣٥ هـ - ووفاته عام (٣٧٤ هـ) بميفارقين هكذا كان للخطابة كما كان للشعر ولشائر صنوف الأدب ، هذا المركز السامي في بلاط سيف الدولة .

(١٥٥) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٩٠ .
(١٥٦) سامي الكيالي ، المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

المصادر العربية القديمة

- ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ)
 - الكامل في التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٧٨ م
 - دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
- الأزدى : أبو بكر محمد بن الحسن بن ذريد (ت ٣٢١ هـ)
 - الأشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون
 - مكتبة المثنى بغداد ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م
- الأصطخري : أبو اسحاق إبراهيم بن محمد (ت - النصف الأول من القرن الرابع الهجري)
 - المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال
 - القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م
- ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد
 - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، القاهرة ١٣٩٩ هـ - ١٩٨٢ م
 - دار الفكر - بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م
- ابن بطوطة : شرف الدين أبو عبد الله (ت ٧٧٩ هـ)
 - تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
 - دار صادر - بيروت - ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م
- البلاذري : أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ)
 - فتوح البلدان ، تحقيق ، صلاح المنجد ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م
- ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن (٨٧٤ هـ)
 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
 - دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

- الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ) .
يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق ، محمد محيي الدين
عبد الحميد ، دار السعادة - القاهرة ١٣٧٥ هـ - ١٩٦٥ م .
- ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد (ت ٦١٤ هـ) .
رحلة ابن جبير ، دار صادر - بيروت ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م .
- ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (ت ٥٩٧ هـ) .
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد - ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م .
- ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن علي (ت ٣٦٧ هـ) .
صورة الأرض ، ليدن ، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م . القاهرة ، د . ت .
- ابن خالويه : أبو عبد الله الحسين بن محمد (ت ٣٧٠ هـ) .
ديوان أبي فراس الحمداني ، دار بيروت ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .
- ابن خرداذبة ، أبو القاسم محمد بن عبد الله (ت ٣٠٠ هـ) .
المسالك والممالك ، ليدن ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩ م .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن جابر (ت ٨٠٨ هـ) .
المقدمة - دار الفكر ، بيروت ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م .
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١ هـ -
١٩٨٠ م .
- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد (ت ٦٨١ هـ) .
وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ، تحقيق أحسان عباس ، دار
صادر - بيروت ، ١٩٧٨ م - ١٣٩٩ هـ .
- الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) .
الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الشينال ، دار
المسيرة - لبنان ١٩٧٩ م .
(مجلة المؤرخ العربي)

- الذهبى : شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ) .
العبر فى خبر من غير ، تحقيق ، أبو هاجر محمد السعيد ، دار
الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- ابن رسته : أبو على أحمد بن عمر .
الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٣٠٩ هـ - ١٨٩١ م .
- السرى الرفاء ، أبو الحسن كسرى بن أحمد الكندى الموصلى .
ديوانه ، مكتبة القدس ، القاهرة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .
- الشابشتى : أبو الحسن على بن محمد (ت ٣٨٨ هـ) .
الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف بغداد ١٩٥١ م .
- أبو شجاع :
ذيل كتاب تجارب الأمم ، نشر ، هـ ف أمدرود ، مكتبة المثنى ،
القاهرة ١٣٣٤ هـ ١٩١٦ .
- الصولى : أبو بكر بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ) .
أخبار الراضى بالله والمتقى لله ، نشره ، ح . رهيورث ، د . ت ،
دار المسيرة - بيروت - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٨ م .
- الصفدى : صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ) .
الوافى بالوفيات ، دار صادر ، بيروت ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .
- ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى
(ت ٧٠٥ هـ) .
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار بيروت
للنشر - بيروت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م .
- الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .
تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ١٣٨٦ هـ -
١٩٦٦ م .

- ابن العبري : غريغوريوس ، أبو الفرج بن أهرون الطيب الملقب
(ت ٦٥٨ م)
مختصر تاريخ الدول ، بيروت ١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠ م .
- ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد (ت ١٠٨٩ هـ)
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . المكتب التجارى - بيروت
١٤٠٠ هـ - ١٩٧٩ م .
- ابن العديم : كمال الدين أبى القاسم عمر (ت ٦٦٠ هـ)
زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق ، سامى الدهان ، دمشق
١٩٥١ م .
- القرمانى ، أبو العباس أحمد بن يوسف
أخبار الدول وآثار الأول . عالم الكتب - بيروت ٢٠٠٠ ت .
- القزوينى : زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (ت ٦٨٢ هـ)
آثار البلاد وأخبار العباد ، دار الصياد - بيروت - ١٣٨٠ هـ -
١٩٦٠ م .
- القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ)
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
نهاية الأرب فى معرفة أحوال العرب ، تحقيق على الخاقانى
ومصطفى النجاح ، بغداد ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .
- ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا (ت ٧٧٤ هـ)
البداية والنهاية . بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٨ م .
- اجم : أبو الفتح محمود بن كشاجم .
أدب الندماء ولطائف الطرفاء - القاهرة ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م .
- المسعودى : أبو الحسن على بن الحسنى (ت ٣٤٦ هـ)
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ،
مكتبة السعادة ، القاهرة ١٨٣٤ هـ - ١٩٦٤ م .
التنبيه والاشراف ، دار صعب ، بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

- مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١ هـ) .
تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، تصحيح ونشر هـ . ف . آمدروز ،
مطبعة شركة التمدن الصناعية - القاهرة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م .
- المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت ٣٨٧ هـ) .
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، القاهرة ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .
- المقرئى : تقى الدين أحمد بن على (٨٤٥ هـ) .
شذور العقود فى أخبار النقود . القاهرة د . ت .
- ناصر خسرو . أبو معين الدين المروزى (ت ٤٨١ هـ) .
سفرنامه . ترجمة خالد أحمد خالد - الرياض ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (ت ٦٢٦ هـ) .
معجم البلدان . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

المراجع العربية الحديثة

- أحمد أمين : ظهر الاسلام ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، القاهرة ، ١٩٢٤ .
- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى : مكتبة النهضة - القاهرة ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٦م .
- سامى الكيالى : سيف الدولة الحمدانى وعصر الحمدانيين ، دار المعارف : القاهرة د.ت .
- شرح ديوان المتنبى : مراجعة نخبة من الأدباء ، مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٨ .
- شوقى عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الاسلامية . المجلس الوطنى ، الكويت ١٩٩٠م .
- عبد الجليل حسن عبد المهدي : أبو فراس الحمدانى ، حياته وشعره ، مكتبة الأقصى ، الأردن ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- فايد العمروسى : الجوارى المغنيات ، القاهرة ، ١٩٤٥م .
- فيصل السامر : الدولة الحمدانية فى الموصل و حلب ، مطبعة الايمان ، بغداد ، ١٩٧٠م .
- محمد كرد على : خطط الشام ، دار العلم ، دمشق ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .
- مصطفى الشكعة : فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م .

المراجع الأجنبية المعربة

- ترتون أ.س. أهل الذمة فى الاسلام : ترجمة حسن حبشى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧م .
- متر : آدم : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده القاهرة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م .
- هونكه : سجيريد ، فضل العرب على أوربا ، ترجمة ، فؤاد حسنين على ، القاهرة ١٩٦٤ .

الدوريات :

- درويش حسن الجندى : سيف الدولة الحمدانى ، المجلة العربية ، الرياض ، أغسطس ١٩٧٧م .
- سمير شتا : درهمان نادران عن علاقات دينية ، المسكوكات ، الرياض ، ابريل ١٩٧٣م .
- عبد الرحمن حميدة : حلب المدينة التى لا تقهر ، مجلة الفيصل . العدد التاسع ، فبراير ، مارس ، الرياض ١٩٧٨م .
- محمد راشد أنيس : الشعر فى رحاب سيف الدولة الحمدانى : المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد ٢٥ ، بيروت ، ١٩٨٧م .
- مهاب درويش البكرى : الدرهم الحمدانى المحفوظ فى المتحف العراقى . المورد ، العدد ١ ، ٢ ، الرياض ١٩٧١م .

الصراع الدولي حول شبه الجزيرة العربية

فى

القرن السادس الميلادى

بقلم

أ. د. رأفت عبد الحميد (*)

على مشارف النهاية ، للربع الأول من القرن السادس الميلادى ، حملت صفحة الماء ، عند الطرف الجنوبى للبحر الأحمر ، أسطولا ضخما من السفن الحربية ، كان يقل جيشا من الأحباش ، وجهته بلاد العرب السعيدة .. اليمن .. Arabia Felix .. ما لبث أن ألقى عند ميناء « مخا » Mokha مراسيه ، ليندفع جنوده الى اليابسة يصطدمون بقوات الملك الحميرى ، « ذى نواس » ، الذى سرعان ما حلت به وبجيشه الهزيمة ، عندها أثر أن يبتلعه اليم على أن يساق أسيرا فى موكب نصر الأحباش ، اذ ساق جواده وألقى بنفسه فى البحر ، ليخط بذلك الصفحة الأخيرة فى ملك الحميريين ، وليقول فى رثائه « علقمة بن ذى جدن » :

أو ما سمعت بقليل حمير يوسف
أكل الثعالب (١) لحمه لم يقبر
ورأى بأن الموت خير عنده
من أن يدين لأسود أو أحمر

ولتمسى اليمن بذلك تابعة لمملكة أكسوم Auxuma ، وان كان ذلك الى حين ، حين يستقل بها - ذاتيا - أبرهة Abramos « الأشرم » ، ويقيم على أرضها مملكة حبشية ، حاملا لقب « ملك سبا وذى ريدان وحضرموت واليمن وتوابعها وتهامة » .

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة عين شمس .

وتتفق المصادر التاريخية العربية (٢) وتظاهرها كتب التفاسير (٣) على أن هذا الغزو الحبشى لليمن ، انما كان نتيجة طبيعية للاضطهاد الدينى الذى أنزله « ذو نواس » ، وكان قد تهود ، بالمسيحيين فى مملكته ، خاصة منطقة نجران ، محاولا قهرهم على هجران دينهم والتحول عنه الى اليهودية . وتقرن هذه المصادر كلها تلك الأحداث بما ورد فى القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود . ولا تبتعد بعض المصادر البيزنطية والسريانية المعاصرة (٤) كثيرا عما أورده المؤرخون والمفسرون المسلمون .

ورغم ما يقدمه المفسرون من روايات كثيرة وآراء متعددة حول قصة أصحاب الأخدود ، الا أنهم يتفقون على أن « أخدود » ذى نواس كان واحدا بين هذه الأخاديد ، وأنه المعنى بقصص القرآن الكريم عن تلك الواقعة ، التى أثارت نوعا من الخلاف فى رأى بين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، حول « يهودية » ذى نواس أو « وثنيته » . ويرى نفر من هؤلاء وأولئك فيه وثنيا ، مستندين فى ذلك الى النص القرآنى فى قوله تعالى : « ... وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض ، والله على كل شئ شهيد » (٥) . وعليه يبدى ياقوت الحموى دهشته من نسب حادث الأخدود الى ذى نواس « اليهودى » ، لأن ذلك يقضى - فى رأيه - أن يكون القاتل والمقتول من أهل التوحيد ، والله قد ذم المحرق والقاتل لأصحاب الأخدود (٦) . وعلى نهجه ينسج محدثون قولهم ان ذا نواس دعا أهل نجران المسيحيين للرجوع الى الوثنية لا الى اليهودية ، لأن المسيحية واليهودية المعاصرتين لنزول القرآن ، كانتا - حسب تعبيره - ديانتين سماويتين لا مجال لتفضيل احدهما على الأخرى ! (٧) ، أو لأن ذا نواس - عند ثان - خشى عاقبة الاتصالات التى كانت قائمة بين المسيحيين فى مملكته ومملكة أكسوم على الجانب الآخر للبحر الأحمر (٨) .

غير أن هذا النص القرآنى الذى اتخذهُ هؤلاء دليلا للحكم بوثنية الملك الحميرى ، لو أخذ فى ضوء النصوص القرآنية الأخرى ، وليس منفصلا عنها ، عد دليلا أوضح بيانا على « يهودية » ذى نواس ، نعى

بذلك قول الله سبحانه وتعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين أشركوا » (٩) واللاتيان باليهود قبل المشركين فى الآية ، له دلالة ومغزاه ، وقوله تعالى أيضا : « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ، وهم يتلون الكتاب » (١٠) ، ثم ما جاء على لسان اليهود ، « ... قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » (١١) ، ولما كان المسيحيون من غير اليهود خارجين عن نطاق اليهودية عقيسة ، فهم يندرجون ضمن الأميين أو الأمميين حسب تعبير التوراة ، وذلك فى عرف اليهود . وقد لمس القرطبى ذلك فى « الجامع » بتأكيد القول على يهودية ذى نواس ، عند تفسيره لسورة البروج ، فى قوله . : « فخذ لهم أخدودا وعرضهم على الكفر (يعنى الكفر بديانتهم واعتناق اليهودية) فمن أبى أن يكفر قذفه فى النار » (١٢) . وكان هذا بعينه الاعتراف الذى ورد فى الرسالة ، التى تذكرها المصادر التاريخية منسوبة الى ذى نواس ، والتى بعث بها الى المنذر الثالث ملك الحيرة ، حيث قال : « كان أول عمل أقدمت عليه بعد أن غدوت ملكا على حمير ، هو ذبح المسيحيين جميعهم ، الا من رأى أن يتحول الى اليهودية مثلنا ... لقد طلبت منهم أن يكفروا بالمسيح والصليب ويصبحوا يهودا ، لكنهم أصروا على عقيدتهم » (١٣) .

ولم يكن ذو نواس (١٤) أول من تهود من ملوك حمير ، وان كان آخرهم ؛ ذلك أن المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية ، كانت قد أضحت أحد المراكز الهامة لليهودية خلال القرون الأولى للميلاد (١٥) ، اذ وجد اليهود فيها ملجأ لهم وملادا ، بعيدا عن أيدي الرومان ، عقب الأحداث التى وقعت على عهد كل من الامبراطورين فسباسيان Vispasianus ابان القرن الأول للميلاد ، وهادريان Hadrianus فى القرن التالى ، فى أعقاب ثورتهم التى أشعلوها ضد الحكومة الرومانية ، وامتدت من برقة الى فلسطين . ومن ثم وجد اليهود فى جنوب الجزيرة العربية . وغربها مهريا بعد تدمير الهيكل . وراح نفوذهم يزداد تدريجيا خاصة خلال الربع الأخير من القرن الرابع ومطلع القرن الخامس . ، عندما تحول بعض من ملوك حمير آنذاك الى اليهودية (١٦) .

ويحاول بعض المؤرخين (١٧) أن يضيفى على « يهودية »
ذى نواس طابعا سياسيا ، بمعنى أنه فى مواجهة القوى الدولية الكبرى
آنئذ ، الامبراطورية البيزنطية ومملكة أكسوم بعقيدتها المسيحية ،
وامبراطورية الساسانيين الفرس بوثنيتها ، أقدم ملك حمير على التحول
الى اليهودية ، ليقف بها قوة ثالثة بين هؤلاء وأولئك . غير أن هذا
المنجى يحمل كثيرا من المبالغة ، واذا كان قد صدق من بعد على
امبراطورية الخزر Khazar فى القرن الثامن الميلادى ، عندما تحول
ملكها وشعبه الى اليهودية ، ليتخلص من الصراع السياسى العنيف الدائر
حول مملكته بين الخلافة الاسلامية فى بغداد ، والامبراطورية المسيحية
فى القسطنطينية (١٨) ، فانه من الصعب قبول ذلك فى حالة ذى نواس ؛
فالخزر كانوا يومئذ قوة سياسية كبرى يحسب فى لعبة الأمم حسابها ،
أما اليهود فى اليمن فلم تكن أعدادهم ولا قوتهم ولا مكانتهم تسمح لهم
بالقيام بمثل هذا الدور ، أو انشاء « دولة يهودية » ، على حد تعبير
بعض المؤرخين المحدثين (١٩) ، اذ كان الى جوارهم المسيحيون ،
خاصة فى ظفار ، عاصمة الحميريين ، ونجران ، المركز التجارى الهام
فى طريق القوافل الى الشمال ، بالإضافة طبعا الى الأغلبية الوثنية التى
كانت لها السيادة طيلة القرن الأخير على الأقل ، وذو نواس نفسه
كان وثنيا قبل أن يتحول الى دين يهود ، ومن غير المعقول ، أن يتمكن
خلال سنى حكمه القصيرة ، خوالى عشر سنوات (٥١٥ - ٥٢٥) من
اقامة « دولة يهودية » من حطام مملكة حمير التى كانت تعاني أوجاع
الفوضى السياسية والاضطراب الاقتصادى والصراع العقائدى خلال أيامها
الأخيرة ، وان كان اليهود بالطبع قد وجدوا فى « تهود » ذى نواس
فرصة يقفزون عبرها الى دست السلطة ، منتهزين فرصة هذه الحال
المتردية التى تعيشها حمير فى مرضها الأخير .

ولا شك أن ذا نواس نفسه كان يدرك أنه بحاجة الى التأييد
الخارجى لسياسته ، خاصة بعد أن راح يمارس سياسة الاضطهاد ضد
المسيحيين فى مملكته ، يدلنا على ذلك رسالته التى أشرنا اليها من قبل ،
والتي بعث بها الى المنذر الثالث ، يقص فيها على مسامعه أنباء ما حل
بالمسيحيين على يديه ، ويطلب اليه فى الوقت نفسه أن يحذو حذوه ،

وأن يترفق فى معاملة يهود الحيرة ، ثم يعلن فى النهاية استعدادة لتلبية كل ما يطلب اليه لصالح المنذر (٢٠) .

ورغم أن الرسالة تخمل فى كلماتها مظاهر الاعتسداد بالنفس ، والتباهى بما أوقعه الملك الحميرى برعيته المسيحية ، ورغم ما يكون قد داخلها من عبارات تحمل طابع المبالغة ، مما قد يوحي بأنها مضافة الى نصها الأصيل ، ولم تصدر عن ذى نواس ، إلا أنها فى الوقت ذاته تنبئ فى سطورها الأخيرة عن رغبته فى أن يقف المنذر الى جانبه ، مخافة مالم لا بد أن يترتب على هذه الأحداث ، وخاصة وأنه يذكر فى رسالته هذه ، أن عددا من الأحباش المقيمين على أرضه قد نالتهم يد العذاب (٢١) . ويؤكد ذلك ما أورده عن هذا الأمر أيضا ، المؤرخ البيزنطى المعاصر بروكوبيوس Procopius القيسارى (٢٢) . فاذا أضفنا الى هذا كله ما تذكره بعض المصادر البيزنطية والسريانية (٢٣) عن تعرض جماعات من التجار الرومان ، العابرين ، للقتل ضمن جملة المسيحيين فى ظفار ونجران ، أدركنا خطورة موقف ذى نواس ، والمغزى الحقيقى من وراء رسالته الى ملك الحيرة .

وإذا كان المنذر الثالث قد أبدى شيئا من التعاطف ازاء رغبات الملك الحميرى ، والذي ربما يعزى الى ما يذكره ابن العبرى من انتماء ذى نواس فى نسبه لأمه ، التى كانت على اليهودية ، الى أهل الحيرة (٢٤) ، إلا أنه كان تعاطفا سلبيا وقف فقط عند حصد الأمنيات الطيبة ، دون التعاون الفعلى الذى كان يؤمله ذو نواس من خلال هذه المراسلات ، خاصة وهو يعلم علم اليقين ، مدى العلاقة التى تربط مملكة الحيرة بالامبراطورية الفارسية . ولعله كان يقصد بذلك أن يضمن وقوف احدى القوى الكبرى فى عصره الى جواره ، ولما كان الفرس بطبيعة الحال غير متحمسين ، عقيديا وسياسيا ، لنصرة المسيحية ، فقد أمل أن يتحقق له هذا العون فى اطار استغلال ظروف الصراع السياسى الدائر يومذاك بين فارس وبيزنطة .

ومع أننا لا نميل الى الأخذ بما يذهب اليه بعض الباحثين ، من أن اضطهاد ذى نواس للمسيحيين فى دولته ، بما فيهم الأحباش والتجار

الرومان ، كان متفقاً عليه من قبل مع اللخميّين فى الحيرة ومن ورائهم
الفرس (٢٥) ، معتمدين فى ذلك على الرسالة السابق ذكرها ، لأنه لو صح
هذا الافتراض ، لامتد هذا الاضطهاد ليشمل مسيحيي الحيرة أيضا ،
ولوجدت فعال ذى نواس ترحيباً من المنذر الثالث ، لكن شيئاً من هذا لم
يحدث ، نقول مع كل ذلك ، إلا أن الذى لا شك فيه ، أن ذا نواس كان
على علم كامل بمسألة الصراع الدولى الدائر آنذاك بين القوتين الكبيرتين
والتي كانت شبه الجزيرة العربية إحدى محطاته ، بما تمثله من أهمية
اقتصادية ، وبالتالى سياسية ، تتجسد فى كونها تضم أهم طرق التجارة
الرئيسية بين الشرق والغرب فى العصور القديمة وطوال العصور
الوسطى .

وهذه النقطة الأخيرة تضيف بعداً جديداً لمسألة الاضطهاد الذى
مارسه ذو نواس ضد المسيحيين فى مملكته ، مشركاً معهم فى وطائفة
التجار الرومان والأحباش ؛ فمما لا ريب فيه أن يكون ازدياد نفوذ هؤلاء
التجار ، العابرين والمقيمين قد أثار حفيظته ، اذ رأى ما يجنيه أولئك
من ثروات طائلة من جراء ممارستهم أو سيطرتهم على طريق التجارة
الرئيسية عبر جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر الى شمالها وحتى
البحر المتوسط ، انتهاء ببلاد الشام أو مصر فى طريقه الى الأراضى
البيزنطية ، ولا بد أن يكون قد رأى أيضاً فى المسيحيين فى ظفار ونجران
أعواناً لهؤلاء الرومان والأحباش فى هذا السبيل . ولذا راح يمارس
سياسته والأمل يحدوه فى أن يتحول هذا الثراء لبنى عقيدته من اليهود ،
إذا ما حل تجارهم محل أولئك الأجانب « المسيحيين » ولعبوا دورهم
فى حركة التجارة النشطة بين مناطق المسواد الخام والتوابل والبخور
والحرير ، فى شرق آسيا وجنوبها الشرقى وشرق أفريقيا ، وأسواق
الاستهلاك فى الامبراطورية البيزنطية وما وراءها . ومن ثم فإن سياسة
الملك الحميرى تجاه المسيحيين ، اذا كانت لا تخلو من نغمة التعصب
الدينى ، إلا أنها فى الوقت نفسه تنطوى على أهداف اقتصادية بعيدة .
وان كان أحد الباحثين أيضاً يفسر هذه السياسة بأنها مجرد اجراء انتقامى
للمعاملة السيئة التى يلقاها اليهود من الادارة الرومانية (٢٦) .

وكان طبيعيا وقد اتجه ذو نواس ببصره الى خارج دولته ، ليضمن الى جواره ملك الحيرة ، ومن ورائه قوة الفرس اذا حزب الأمر ، أن يولى المسيحيون هم الآخرون وجوهم شطر قوة دولية أخرى يدينون بدينها ، هي الامبراطورية البيزنطية . وهنسا تختلف الروايات في المصادر الاسلامية مرة أخرى حول الوجهة التي اتخذ « دوس ذو ثعلبان » - الذى نجا من الاضطهاد - اليها سبيلا ؛ فبعضها يقرب به المسافة وصولا الى كالب Kaleb نجاشى الحبشة (٢٧) ، وبعض ثان يوجهه الى جوستين Justinus امبراطور الرومان فى القسطنطينية (٢٨) ، وثالث يورد الروايتين معا (٢٩) ، ورابع يحاول التوفيق ؛ فالأزرقى يذكر أن دوس ذا ثعلبان هذا اتجه الى « القيصر » مباشرة ، وقص عليه القصص ، فقال له : « بعدت بلادك عنا . . لكن ساكتب الى ملك الحبشة فانه على ديننا فينصرنا » (٣٠) . بينما تأخذ رواية البلخى الجانب الآخر ، اذ يقول : « وصل صريخ أهل نجران الى النجاشى ملك الحبشة ، فقال : « عندي رجال وليس عندي سفن ، فكتب الى قيصر الروم وبعث اليه بالأوراق المحرقة من الانجيل يغريه بذلك » (٣١) وقد لا تعدو هذه الرواية الحقيقة ، فالسفن التي تمتلكها مملكة أكسوم ، كانت سفنا تجارية فى معظمها ، ولم تكن أعدادها تسمح بنقل جيش كبير الى الشاطئ الآسيوى المقابل . ومن ثم تم نقل القوات الحبشية على سفن الأسطول البيزنطى التي كانت راسية فى موانئ القلزم (السويس) وعيتاب (تيران) والتي تجمعت كلها فى ميناء عبدول Adulis التابع للأحباش (٣٢) .

ومهما يكن من أمر ، فالذى يصح لدينا أن كلا من الامبراطور البيزنطى والملك الحبشى ، قد أحاطا خبرا بما حدث لأبناء دينهما وجلدتيهما ، من اضطهاد على يد ملك حمير . ولم يكن أى منهما بأقل من صاحبه حرصا على أن يمد يديه لنصرة من استنصروه ، ليس فقط بدافع الوازع الدينى ، بل لأن كلا منهما له مصالحه الخاصة فى هذه المنطقة ، والتي تتفق مع بعضها فى غالب الأحيان ، ولم تكن أحداث ظفار ونجران الا الضوء الأخضر الذى أنار لهما الطريق للعمل سويا من أجل تحقيق هذه المصالح ؛ فقد كانت الجهود العسكرية الحبشية البيزنطية

تمثل حجر الزاوية في العلاقات بين القوتين في القرن السادس الميلادي ، وخلال هذه السنوات ظلت أكسوم الحليف الوفى لبيزنطة في المنطقة الأفرو - عربية ، على حد تعبير أحد الباحثين (٣٣) ، وظل الحال على هذا النحو الى أن تم الغزو الفارسي لليمن في سبعينيات ذلك القرن .

كانت مملكة أكسوم قد بلغت درجة كبرى من القوة السياسية والأزدهار الاقتصادي ، خلال القرن الرابع الميلادي ، على عهد ملكها غيزان Aezanes وظلت على هذا القدر من القوة حتى القرن السابع الميلادي . وامتدت سيطرتها شمالا حتى بلاد النوبة (٣٤) . بل ان منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية وأجزاء من غربها ، خضعت لمملكة أكسوم خلال فترة قصيرة من القرن الرابع ، كما أن الأحباش كانوا قد اشتركوا من قبل في الحروب الأهلية التي دارت بين سبا وذى ريدان (حمير) ، وحمل ملوكهم آنذاك الألقاب التي أشرنا في صدر هذا البحث الى أن أبرهة حملها من بعد ، « ملك سبا وذى ريدان وحضرموت واليمن وتوابعها في تهامة » (٣٥) . هذا بالإضافة الى نشاط أكسوم التجاري في البحر الأحمر والمحيط الهندي عن طريق ميناءى عدول وزيلع ، حيث كانت سفنها تنقل العاج الى الهند وفارس وحمير وبيزنطة (٣٦) وإذا كانت سيلان تمثل مركز التجارة بين الصين والشرق الأدنى في تلك الأوقات ، وإذا كانت سفن الصينيين تسير غربا حتى سيلان ، فإن التجارة فيما بين سيلان والمناطق الواقعة غربها ، كان يتولى أمرها الفرس والأحباش (٣٧) .

هكذا اذن ، كانت أكسوم ، بسلطانها على ميناءى عدول وزيلع ، تتحكم في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، الذى كانت الامبراطورية البيزنطية تمتلك القسم الشمالى منه ، وكان هذا البحر وما يحاذيه على ساحله الشرقى ، يمثل واحدا من أهم الطرق التجارية الرئيسية آنذاك ، ان لم يكن أهمها على الإطلاق ، حيث كانت التجارة القادمة من الصين وجنوب شرقى آسيا وشرق أفريقيا تتجمع في عدن ، « المخزن الرومانى » كما عرفت (٣٨) ، ومن هناك تنقلها السفن الحبشية أو البيزنطية الى ميناء القلزم ، ومنه الى النيل عبر قناة تم حفرها لتصل بين النيل وخليج القلزم ، وهى التى كانت تعرف بقناة تراجان (٣٩) ، ثم الى البحر

المتوسط بعد ذلك عن طريق النيل ؛ أو إلى ميناء أيلة على رأس خليج العقبة ، إلى دمشق مارا بالبتراء وبصرى ، ومن دمشق إلى الساحل (٤٠) .

أضف إلى هذا الطريق البحرى طريقا آخر للقوافل يحاذيه ، وهو الذى يمتد من عدن إلى مارب ثم فى جوف اليمن إلى معين ونجران ، ومنها إلى الطائف ومكة فيثرب ، ثم إلى واحة تيماء مسرورا بمدائن صالح (الحجر) ثم البتراء أو معان من بعد ، حيث تتجه بعض القوافل إلى غزة ومصر ، بينما يستمر الجزء الأعظم منها إلى بصرى فدمشق إلى صور على البحر المتوسط ، أو يمتد شمالا إلى حمص فأنطاكية (٤١) . وفى دمشق وحمص كان هذا الطريق يلتقى بطريق آخر قادم من الشرق ، يبدأ من الخليج العربى ويصعد فى الفرات حيث يتجه غربا إلى المدن السورية مارا بواحة تدمر . وتربط بين هذين الطريقين سلسلة من طرق القوافل الفرعية ، أهمها الطريق الذى يبدأ من نجران ثم يسير فى وادى الدواسر إلى الجرعا (جره) Gerrha على ساحل الأحساء (٤٢) .

على هذا النحو ، ندرك أن البحر الأحمر والخليج الفارسي ، يكملهما النيل والفرات ، كانا ممرين طبيعيين للملاحة بين حوض البحر المتوسط ودول شرقى آسيا وجنوبها الشرقى وشرق أفريقيا ، بالإضافة إلى طريق القوافل الرئيسى الموازى للبحر الأحمر وروافده وتفرعاته . وهذا يعنى أن عرب شبه الجزيرة العربية كانوا يطلون من جانبى جزيرتهم هذه ، على أهم الطرق التجارية الكبرى فى عالم القرن السادس (٤٣) .

وقد شكلت اليمن بصفة خاصة أكبر سوق تجارية فى شبه الجزيرة العربية ، فكانت تتاجر فى خاصلاتها الاقليمية كاللبان والعطور والطيب والبخور ، الذى كانت له أهميته الخاصة فى ذلك العصر (٤٤) ، كما كانت تتاجر أيضا فيما يرد إليها من بضائع الخليج والهند والصين مثل اللؤلؤ والمنسوجات والعاج والذهب وريش النعام والحريير ، بالإضافة إلى ما يأتىها من السواحل الشرقية لأفريقيا (٤٥) . وهذا يعنى أنها كانت حلقة الاتصال بين الهند والحبشة وشرق أفريقيا من ناحية ، وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا من ناحية أخرى ، حتى تخيل لبعض القدماء أن هناك قارة تمتد من أفريقيا إلى الهند ، وأن بلاد العرب بمثابة بيت وسط

هذه القارة يقع على الساحل الشمالى من الميساه الواقعة جنوب باب المنسحب (٤٦) .

واذا كان الفرس يسيطرون على تجارة الهند وطريق الشرق كما يسميه الدكتور « هيكل » (٤٧) ، أعنى طريق الخليج والفرات ، فان مملكة أكسوم والامبراطورية البيزنطية كان يعنيهما فى المقام الأول أن يدعمًا سيادتهما ونفوذهما على « طريق الغرب » . ولا شك أن البيزنطيين كانوا بطبيعة الحال ، يفضلون أن يتسلموا بضائع الشرق من أيدي أصدقائهم الأحباش المسيحيين ، على أن يتلقوها من أيدي أعدائهم الفرس المجوس (٤٨) . لهذا لم يكن غريبا أن نجد عددا ليس بالقليل من التجار البيزنطيين يذهبون الى أكسوم عن طريق أيلة وخليج العقبة ، أو من الاسكندرية ، بل أن بعضهم كان يركب سفنا حبشية تبحر بهم الى الهند (٤٩) .

منطقة اذن لها هذه الأهمية الاقتصادية ، فى عالم لعب فيه النشاط التجارى دورا بارزا فى دولاى العمل الاقتصادى ، وترك بصماته على الحياة السياسية ، كان لابد أن يتنافس فيها المتنافسون . من هنا ندرك الأهداف الحقيقية للغزو الحبشى لليمن ، فقد كانت مملكة أكسوم ترى فى هذه المنطقة امتدادا طبيعيا لمملكتها المزدهرة آنذاك ، وما دامت حمير غير قادرة فى أخريات أيامها ، بضعفها وتفككها ، على ادارة هذا الاقليم الحيوى ، اذن فلتقم أكسوم بهذا الدور ، حتى وان كانت الأسباب المعلنة ، الانتقام لضحايا نجران ، يعضد أكسوم ، بل ويدفعها الى ذلك دفعا ، الادارة الامبراطورية فى القسطنطينية ، حيث تخيرنا المصادر أن الامبراطور جوستين أرسل الى أسقف الاسكندرية ، يطلب اليه أن يستخدم نفوذه لدى ملك أكسوم ، لسرعة انجاز هذه الحملة العسكرية ، بما لكنيسة الاسكندرية من حق الرعاية على الكنيسة الحبشية . لقد كانت القسطنطينية ترى سيادة حلفائها الأحباش على « بلاد العرب السعيدة » ، تدعينا لسيادتها هى فى البحر الأحمر وعلى جانبيه ، كجزء أساسى من صراعها المستمر مع الامبراطورية الفارسية ، اقتصاديا وسياسيا وعقيديا . ومن هنا لم تتوان عن تقديم سفنها أسطولا يحمل الأحباش الى اليمن .

كان البيزنطيون يعلمون جيدا أن سفن الفرس لا تقف فقط عند سيلان والخليج الفارسي والشواطئ الجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية ؛ فقد كان للفرس سفنهم في عدول ، وليس من المستبعد أبدا أن تكون قد زارت حمير ، كما كانوا يرسلون قوافلهم التجارية الى اليمن ، ويوكلون حراستها لجماعات من العرب يختارونهم من زعماء القبائل المعروفين الذين يتمتعون بالمهابة في قومهم (٥٠) ، وكان هذا يثير الريبة في نفوس البيزنطيين في نيات الفرس ، اذ لو تم التقارب بين ملوك حمير والساسانيين ، لوقعت الطرق التجارية الرئيسية المؤدية الى بيزنطة عبر الخليج والبحر الأحمر في قبضة الفرس ، ولخسر البيزنطيون بذلك خسارة اقتصادية كبيرة ، ولضيق عليهم في أهم ما يستوردونه من أقصى الشرق ، أعنى الحرير ، خاصة وأن الفرس كانوا يسيطرون بالفعل لفترات طويلة ، وان كانت متقطعة أحيانا ، على طريق برى ، لا يقل أهمية عن سابقه ، يبدأ من وسط آسيا ويمضى محاذيا الساحل الجنوبي لبحر قزوين ، أو الشمالى في فترة لاحقة ، وينتهى اما الى بحر آزوف أو الى القرم ، في المواقع التي شيدها البيزنطيون ، أعنى مدينتى بسفور Bosphorous وخرسون Cherson باعتبارهما مخفرين أماميين ، وهو الذى يعرف بطريق الحرير (٥١) .

ولم يكن الاهتمام البيزنطى بشبه الجزيرة العربية ، وما يحيط بها ويمر فيها من الطريق التجارية ، شيئا حديث عهد على الإدارة الامبراطورية ، بل ان ذلك يعود الى فترة مبكرة منذ بدايات العصر الامبراطورى الرومانى ؛ عندما أقدم أول الأباطرة أوكتافيانوس أوغسطس Octavianus Augustus على تكليف والى مصر آيليوس جالوس Aelius Gallus بتجريد حملة على اليمن ، متخليا بذلك عن سياسة عدم التوسع ، وذلك من أجل تحقيق هدف اقتصادى هام (٥٢) . ولتحقيق ذلك حشد هذا الوالى حملة قوامها عشرة آلاف جندى ، وبعض وحدات مساعدة من الحامية المرابطة فى مصر ، وحصل على عون من الأنباط مقداره ألف رجل ، بعث بهم الملك عبادة الثالث مع وزيره صالح Syllaes ليكون دليلا للحملة ، وأمدّه هيرودس ملك اليهود بخمسمائة يهودى ، حملتهم جميعا من ميناء أرسينوى Arsinoe (قرب السويس (مجلة المؤرخ العربى)

الحالية) مائة وثلاثون حاملة للجنود ، يدعمها أسطول حربي من ثمانين سفينة ، اتخذت سبيلها في البحر عجا الى ميناء الحوراء (ليوكي كومي Leuke Kome) ، وكان ذلك حوالي العام الرابع والعشرين قبل الميلاد (٥٣) . وهذه الامتعدادات تدل بوضوح على مدى الاهتمام الذي كان يوليه الرومان لهذه الحملة وما يؤملون عليها من نجاح .

غير أن هذه الحملة بكل ما توافر لديها على هذا النحو ، حققت فشلا ذريعا في جانبها العسكري وبالتالي السياسي ، إلا أن ذلك لم يهن من عزم أوغسطس ، بل راح هو وخلفاؤه من بعد يبدون اهتمامهم المتزايد بهذه المنطقة وطرقها التجارية ، وأدى ذلك الى تحول جانب من تجارة الشرق من ميناء « ليوكي كومي » الى ميناء «ميوس هرموس» المصري (أبو شعر القبلى حاليا) (٥٤) . ومع ادراك أباطرة الرومان لصعوبة الغزو العسكري المباشر لجزيرة العرب وجنوبها ، لطبيعة المنطقة وبعد الشقة ، ازداد الاهتمام بتقوية أسطولهم التجاري في البحر الأحمر ، وتحسين علاقاتهم السياسية مع زعماء القبائل العربية ، وتعزيز تحالفهم مع مملكة أكسوم ، للحفاظ على مصالحهم الاقتصادية ، وتحقيق أهدافهم السياسية (٥٥) .

ومع تحول الامبراطورية الرومانية الى المسيحية « كديانة شرعية » *riligio licita* في أول الأمر على يد الامبراطور قسطنطين الأول Constantinus I (٣٠٦ - ٣٣٧) ثم ديانة رسمية مع نهاية القرن الرابع الميلادي زمن الامبراطور ثيودوسيوس الأول (٥٦) Theodosius I (٣٧٨ - ٣٩٥) ظهر على مسرح الأحداث عامل جديد كان له دوره الفعال في تسيير سياسة الادارة الحكومية في القسطنطينية ؛ فالامبراطور الروماني باعتباره أولا « مبعوث الرب » (٥٧) الى الناس ، ثم « نائب المسيح » Vicarius Christi على الأرض من بعد ، أصبح « مصباح الأرثوذكسية » وحامي دمار « الايمان القويم » وأسقف المسيحيين خارج دولته ، والمسئول عن التبشير بالمسيحية بين « الأمميين » (٥٨) . وهذه كانت تمثل حجر الزاوية في الالتزامات المنوطة بالامبراطور باعتباره كما ذكرنا « نائب المسيح » على الأرض .

وفى هذا السبيل أرسل الامبراطور قسطنطيوس Constantius

(٣٣٧ - ٣٦١) بعثة قام بها ثيوفيلوس Theophilus حوالى مطلع النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى ، الى اليمن للتبشير بالمسيحية بين الحميريين (٥٩) ، حتى اذا نجحت هذه البعثة التبشيرية فى مهمتها ، كان ذلك يعنى تلقائيا امتداد النفوذ البيزنطى الى تلك المنطقة ، فقد كانت الدبلوماسية البيزنطية الذكية ، تضع بين قواعدها الرئيسية التى تركز عليها ، أن يتبع النفوذ السياسى البيزنطى الأسقف الأرثوذكسى أينما حظ رحاله ووصلت دعواه ، والأمثلة على ذلك عديدة طوال امتداد التاريخ البيزنطى (٦٠) .

ولا يغيب عن أذهاننا أن قسطنطيوس كان يدين بالمذهب الآريوسى (٦١) ويسعى جهده لفرضه على كنى الكنائس فى شطرى الامبراطورية ، شرقا وغربا ، ولما كان يعلم أن كنيسة أكسوم تدين بالمذهب النيقى ، منذ قام الأسقف السكندرى اثناسيوس Athanasius (٣٢٨ - ٣٧٢) برسم فرومنتيوس Fromentius أسقفا عليها فى أربعينيات القرن الرابع ، فقد حاول أن يجعل من ثيوفيلوس هذا الآريوسى فى اليمن ، منافسا لهذا الأخير ، النيقى ، فى أكسوم ، خاصة بعد أن فشلت مهمته لدى ملك أكسوم ، عندما حاول أن يحمله على العداء لاثناسيوس السكندرى (٦٢) .

ولا يبعد مطلقا أن يكون ثيوفيلوس قد حمل الى جانب مهمته التبشيرية ، مهمة أخرى تتعلق بالتفاوض مع ملكى أكسوم وحمير لضمان حسن معاملتهم للتجار الرومان الذين كانوا يعبرون ببضائعهم عن طريق اليمن ، والعمل معا لمجابهة السيادة البحرية التجارية للفرس فيما وراء هذه المنطقة باتجاه الشرق (٦٣) ، يزيد من حرصه على ذلك الهزائم التى كانت تتلقاها الامبراطورية على يد الفرس فى أعالي الفرات فى تلك الفترة .

ولم يفتر الاهتمام الرومانى بهذا الشريان الحيوى الهام ، رغم الاضطرابات السياسية الداخلية التى عانت منها القسطنطينية خلال القرن

الخامس الميلادى ، متمثلة فى الصراع السياسى بين الأحزاب الرومانية والجرمانية والايזורية فى العاصمة (٦٤) ، بالاضافة الى الخلافات العقيدية الحادة التى دهمت الكنيسة المسيحية فى الولايات الشرقية بشكل خاص ، وأسفرت عن انقسام خطير بين كنيسة القسطنطينية وروما من ناحية ، وكنيسة الاسكندرية وأنطاكية من ناحية أخرى ، بحيث أصبحت العاصمة الامبراطورية تدين بالأرثوذكسية الخلقيدونية ذى الطبيعتين فى المسيح ، بينما تؤمن كنائس الشرق البيزنطى بالأرثوذكسية ذى الطبيعة الواحدة (٦٥) . ورغم كل ذلك فقد كانت الإدارة الامبراطورية فى القسطنطينية تدرك مدى الخطورة الكامنة التى يمكن أن تترتب على هذا الخلاف العقيدى ، خاصة بينها وبين أكسوم ، التى كانت تتبع الاسكندرية رعويا ، وبالتالي المسيحيين فى حمير ، والذين يتبعون الكنيسة الحبشية ، وبالتالي الكنيسة السكندرية ؛ ذلك أن النساطرة القائلين ببشرية العذراء أم المسيح ، المغلبين ناسوت المسيح على لاهوته ، على عكس أصحاب الطبيعة الواحدة (٦٦) والذين كانوا ينتشرون فى المناطق الشرقية ويحظون بحماية الدولة الفارسية ، سارعوا الى انتهاز هذه الفرصة للتبشير بعقيدتهم فى بلاد اليمن ، حيث كان لهم وجودهم فى جزيرة سوقطرة Sukhatara وفى بعض الموانئ اليمنية (٦٧) .

ومع أن هذا النشاط التبشيرى لم يلق استجابة من جانب مسيحي تلك المناطق ، الا أن بيزنطة كانت تدرك جيدا أن أصابع فارس وراء هذه الجهود التسطورية . ورغم أن الفرس لم يكن يعينهم فى شىء آخر المسيحية ، بل كان بالتأكيد يغضبهم أن تنتشر هنا أو هناك ، الا أنهم رأوا فى هؤلاء النساطرة ورقة ، ربما تصبح رابحة ، اذا أجادوا اللعب بها فى صراعهم مع الامبراطورية البيزنطية . ولعل أدق وصف لهذه الحال ، ما جرى به قلم « جواد على » (٦٨) بما نصه « . . . كان العالم آنذاك - كما هو الآن - جبهتين ، غربية وشرقية ، الروم والفرس ، ولكل طبالون ومزمررون من الممالك الصغيرة وسادات القبائل (. ونضيف نحن ، وزعماء الفرق الدينية) ، يطبلون ويمزرون ، يرضون أو يغضبون ، يثيبون أو يعاقبون ارضاء للجبهة التى هم فيها . لقد سخر الروم كل قواهم السياسية للهيمنة على جزيرة العرب ، أو ابعادها عن

الفرس وعن المياليين اليهم على الأقل ، وعمل الفرس من جهتهم على تحطيم كل جبهة تميل الى الروم وتؤيد وجهة نظرهم ، وعلى منح سفنهم من الدخول الى المحيط الهندي ، والاتجار مع بلاد العرب . وعمل المعسكران على نشر وسائل الدعاية وكسب معركتها والفكر ، فسعى الروم لنشر النصرانية في الجزيرة ، وحرصوا الحبشة على نصرها ونشرها ، وسعى الفرس لنشر المذاهب النصرانية المعارضة لمذهب الروم والحبشة ، ولتأييد اليهودية أيضا ، ولم يكن دين الفرس يهوديا ولا نصرانيا ، ولم يكن غرض الروم من بث النصرانية أيضا خالصا من الغرض أو بريئا .

لهذا . . ما أن اعتلى الامبراطور أنسطاسيوس Anastasius (٤٩١ - ٥١٨) العرش ، وأعلن تخليه تدريجيا عن الأرثوذكسية الحكومية - الخلقيدونية - وممالاته للأرثوذكسية المونوفيزيتية ، حتى سعى جهده لدرء هذا الخطر الفارسي . المستتر برداء النسطورية ، حيث سارع الى ارسال عدد من الأكليروس ورجال البلاط الى أكسوم واليمن لاقامة عدد من الكنائس بهدف اعادة الثقة بين المسيحيين هناك في السياسة العقيدية البيزنطية ، ونجذب ملك حمير ثانية الى جانب القسطنطينية بعيدا عن الطموحات الفارسية (٦٩) . ومع أن الامبراطور الجديد جوستين الأول (٥١٨ - ٥٢٧) الذي خلف أنسطاسيوس ، قد تراجع عن سياسة سلفه العقيدية ، وعاد الى الأخذ بالأرثوذكسية الخلقيدونية ، حتى يحظى بتأييد كنيسة القسطنطينية ، ليضفي على اعتلائه العرش الامبراطوري شرعية كان يفتقر اليها في أول عهده ، الا أن الأحداث التي وقعت في اليمن في ذلك الوقت ، جذبت انتباه القائمين بالأمر في العاصمة البيزنطية ، وأضاف بعدا جديدا للصراع البيزنطي الفارسي حول هذه المنطقة بأكملها .

لقد كانت الدولتان الفارسية والبيزنطية ، مع بدايات القرن السادس الميلادي ، تتربص كل منهما بالآخرى ، ولم يكن ذلك شيئا جديدا ، بل كان امتدادا لتاريخ طويل من الصراع بينهما عبر قرون عدة خلت ، يدعمه اختلاف وبالتالي تباعد حضارى كبير بينهما ، وتقارب في الحدود أو تماس في بعض المواضع ، يزيد من هذا التباعد ويؤجج نيران

العداء . وزاد النار ضراما ، انتقل العاصمة الرومانية من على ضفاف التيبر فى الغرب ، الى شطآن البسفور فى الشرق ، لتصبح أنظار الساسة فى القسطنطينية على مقربة جدا من مطامح الساسانيين فى طيسفون Ctesiphon (المنائن) ومطامعهم .

وكان أكاسرة الفرس قد وصلوا بدولتهم آنذاك الى درجة كبيرة من القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وراحوا يهددون التخوم البيزنطية والولايات الشرقية للامبراطورية ، وكانت مناطق الحدود ، خاصة عند أرمينيا وابيريا ولازيقا ، تعد بصفة دائمة نقاط نزاع مستمر بينهما ، واجتاحت الجيوش الفارسية هذه المناطق أكثر من مرة خلال القرون من الثالث الى الخامس ، واذا كانت القسطنطينية قد أفلحت فى التصدى فى بعض الأحيان لهجمات الفرس ، واستعادة سيطرتها هناك ، الا أن ذلك كان يسبب قلقا دائما وصداعا مستمرا لصانعى السياسة البيزنطية .

وزاد من رجحان كفة الفرس ، أن الجيش الرومانى لقي الهزيمة على أيديهم عام ٣٦٣ ، وقتل الامبراطور جوليان Julianus واضطر خليفته جوفيان Juvianus (٣٦٣ - ٣٦٤) أن يوقع معاهدة مهينة ، تنازل فيها عن عدد من مناطق الحدود الرومانية (٧٠) وزاد الأمر سوءا أنه لم تكد تمضى على ذلك أكثر من خمسة عشر عاما ، حتى منيت الامبراطورية بهزيمة مروعة على يد القوط الغربيين Visigoths الجرمان سنة ٣٧٨ فى معركة أدريانوبل Adrianopolis حيث قتل الامبراطور فالنز Valens وخسرت الامبراطورية على أقل تقدير خمسة وأربعين ألف جندي ، واكتسحت العناصر الجرمانية الأخرى ، النصف الغربى من الامبراطورية ، وأقامت على امتداد القرن التالى (الخامس) عددا من الممالك (٧١) ، بحيث فقدت الامبراطورية شطرها ذاك ، ولم يبق لها الا ولاياتها الشرقية المواجهة للدولة الساسانية .

ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها الامبراطور ثيودوسيوس الأول لاقالة الامبراطورية من عثرتها عقيب هذه المذبحة فى أدريا نوبل ،

الا أنه لم يستطع أن يوقف هطول الجرمان على الامبراطورية ، أو يتصدى لأطماع الفرس على جبهته الشرقية ، فاضطر الى عقد اتفاقية معهم قضت بتقسيم أرمينية بينهما ، رغم أنها كانت قد تحولت مؤخرا الى المسيحية . وبموت ثيودوسيوس جاء الطسوفان ولا عاصم ، حيث ضاع النصف الغربى تحت وطأة ضربات القبائل الجرمانية المتصاعدة ، وخضع الشطر الشرقى لسلسلة من الأباطرة الضعاف الذين عجزوا الى حد كبير عن مواجهة هذه التحديات المتلاحقة ، وانغمسوا حتى آذانهم فى الخلافات الكريستولوجية التى دارت حول طبيعة المسيح ، وشغلت القرن الخامس كله ، وتركت بصماتها واضحة على علاقة القسطنطينية بولاياتها الشرقية ، التى اتخذت فى جملتها - كما أسلفنا - مذهباً يخالف ما آمنت به العاصمة الامبراطورية .

ولا شك أن فارس وجدت فى هذه الظروف السيئة التى تحيط بعودها التقليدى ، فرصة سانحة لتحقيق أهدافها ؛ فقد كان يعنىها فى المقام الأول أن تقفز الى الولايات الشرقية للامبراطورية ، ليصلها ذلك مباشرة بالبحر المتوسط الذى كان يعد المركز الحضارى آنذاك ولفترات تاريخية طويلة ، سابقة على هذا التاريخ أو لاحقة . وكان هذا شيئاً واضحاً تماماً فى اتجاهات السياسة الفارسية منذ زمن بعيد ، يعود الى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح ، وراحت هذه الاتجاهات تزداد وضوحاً ، بعد أن اعتلت الأسرة الساسانية عرش الأكاسرة فى القرن الثالث الميلادى (٧٢) . وبعد أن انتقلت حاضرة الامبراطورية الرومانية الى القسطنطينية منذ القرن الرابع ، وحتى سقوطها فى يد الأتراك العثمانيين فى القرن الخامس عشر الميلادى (٧٣) .

وكانت هناك أمور أخرى لا تقل عن ذلك أهمية ، فالأطماع الفارسية تجاه المناطق الواقعة على الحدود الشرقية ، والتى كان الفرس يعتبرونها امتداداً طبيعياً لدولتهم ، اصطدمت فى القرنين الرابع والخامس بزحف الهون Hunni ، القبائل الآسيوية التى اكتسحت وسط آسيا وامتد طوفانها الى قلب الامبراطورية الرومانية ، مروراً بشمالى فارس عند بحر قزوين . ولم تكد فارس تفيق من ذلك ، بعد أن

لقى الهون هزيمة قاسية على يد روما عند شالون سنة ٤٥١ ، وتصعد « امبراطورية الخيام » (٧٤) هذه بعد موت زعيمها أتिला Atila عام ٤٥٣ ، حتى وجدت الى جوارها قوة أخرى تتمثل فى بعض القبائل التركية التى انضمت الى بعضها البعض فيما يشبه اتحادا كونفيدراليا فى منطقة آسيا الوسطى (٧٥) . هذا بالإضافة الى ظهور قوة جماعات الهون مرة أخرى فيما عرف بقبيلة « الهطل » أو الهون البيض ، الذين أوقعوا بفارس هزيمة قاسية عام ٤٨٤ ، واضطروها أن تدفع لهم الجزية حتى منتصف القرن السادس الميلادى (٧٦) .

واستشعرت فارس الخطر داهما ، عندما تحولت كل من ابيريا Iberia ولازيقا Lazica الواقعتين على حدودها مع بيزنطة ، والمتنازع عليهما دائما ، منضمما اليهما أرمينية ، الى المسيحية ، بعد اعتناق ملكيهما لهذه العقيدة ، وقصدهما الى القسطنطينية ، وما صاحب ذلك من مظاهر الحفاوة البالغة التى لقيها فى العاصمة الامبراطورية ، وما أفاض به عليهما الامبراطور من الخلع الثمينة والحقى وألقاب التشريف (٧٧) ، وتلك كانت احدى الدعائم الأساسية للدبلوماسية البيزنطية (٧٨) . وقد تزامنت هذه الأحداث تقريبا (حوالى ٥٢٢ - ٥٢٥) مع ما جرى فى اليمن ، وقيام الأحباش بدفع جيوشهم الى هناك .

ومع ادراك الفرس أن الرومان ، عن طريق خلفائهم الأحباش ، قد كسبوا أرضا جديدة فى أقصى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية ، مع كل ما تمثله المنطقة من أهمية استراتيجية واقتصادية ، وما أيقنوا أنه يمثل خطرا فادحا ، بتحول مناطق الحدود الشمالية الى المسيحية ، بعد أن سبقتهما أرمينية الى ذلك منذ القرن الرابع الميلادى ، فقد أقدم الفرس دون توان على احتلال ابيريا ثم لازيكا سنة ٥٢٦/٥٢٧ (٧٩) . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هذا التاريخ ليس ببعيد عن السنة التى شهدت الغزو الحبشى لليمن (حوالى سنة ٥٢٥) . وإذا كانت كل من أكسوم ومن ورائها القسطنطينية قد تذرعتا بحماية المسيحيين فى حمير ، فقد أعلن ملك فارس أن احتلاله لهاتين المنطقتين هو من قبيل حماية معتنقى الزرادشتية فيهما (٨٠) . وتلك مسألة لا تحتاج الى تعليق حول مناطق

النفوذ ، سواء كان ذلك فى أقصى الشمال عند البحر الأسود وبحر قزوين ، أو عند الجنوب أقصى فى بلاد العرب السعيدة ، والتي كان كل من القوتين العظيمتين آنذاك يسعى للسيطرة عليها فى إطار سياسة التوازن الدولى .

وكان طبيعيا أن ترد القسطنطينية على ذلك ، وهى تدرك خطورة اقتراب الفرس من البحر الأسود ، مما يعد تهديدا مباشرا لها ، لذا فقد هاجمت الجزء الفارسى من أرمينيا ، وعادت هذه القوات محملة بالأسرى والغنائم ؛ اذ لم يكن يعنىها أنئذ أن تحتل أرمينيا الفارسية ردا على احتلال الفرس لآبريا ولازيقا ، بل كان كل ما تريده اظهار قوتها لخصمها ، بأنها قادرة على التصدى له بالمثل ، يدفعها الى ذلك شغلها الشاغل المتمثل فى محاولة استرداد ولايات النصف الغربى من الامبراطورية ، والتي كانت قد ضاعت على يد الجحافل الجرمانية .

وكانت هذه النقطة الأخيرة مما يزيد الامبراطورية الفارسية ، على عهد ملكها الجديد كسرى أنوشروان Chosroes Anushirvan حنقا وغيظا ، وهى ترى جارتها تستعيد قوتها وحيويتها على عهد امبراطورها جوستنيان الأول Justinianus I الرومانى القلب والقلب ، والذي كان يؤمن باليقين كله أن امبراطورية رومانية لا يستقيم أمرها ولا حتى اسمها ، دون روما القديمة على ضفاف التيبر ، والتي أخضعت جبينها كارهة لقبيلة القوط الشرقيين Ostrogoths الجرمانية ، وأن روما الجديدة عند البسفور لا تغنى عن سميتها القديمة شيئا ، ومن ثم وضع نصب عينيه منذ اليوم الأول لاعتلائه العرش ، خلفا لخاله جوستين ، أن يسترد من أيدي الجرمان ، ولايات الغرب الرومانى الضائعة ، مهما كلفه ذلك من جهد ومال ، وليس أدل على ذلك من أن الرجل أمضى نيفا وخمسا وعشرين سنة ، من فترة حكمه البالغة ثمانية وثلاثين عاما ، يدفع بجيوشه وخزائنه لحرب الممالك الجرمانية التى قامت فوق الأرض الرومانية فى الغرب ، كان من بينها ثلاثة وعشرون عاما كاملة (٥٣٣ - ٥٥٥) أنفقها فى استرداد ايطاليا وحدها .

ولما كانت الدبلوماسية البيزنطية تعتمد أساسا فى جوهرها على

عدم خوض حرب فى جبهتين فى وقت واحد (٨١) ، فان جوستنيان لم يعمد - كما رأينا - الى احتلال أرمينية الفارسية ، اذ لم يكن على استعداد للدخول فى حرب سافرة مع فارس ، قد تؤدى الى معركة حاسمة يعرف مقدما أن فرصته فيها قليلة ، مادامت جيوشه تعمل فى الغرب ، من هنا ظل حريصا طيلة عهده (٥٢٧ - ٥٦٥) على أن تبقى حروبه مع فارس ، مجرد مناوشات على الحدود ، تعقبها المفاوضات لعقد هدنة أو اقرار معاهدة للسلام ، يسكت من خلالها جوستنيان خصومه الى حين ، بما يقدمه اليهم من الأموال جزية كل عام . وقد نجحت الدبلوماسية البيزنطية على عهد جوستنيان فى هذا المجال نجاحا منقطع النظير ، وان كان على حساب الخزانة الامبراطورية . وهذا واضح تماما من المراسلات التى دارت بين كل من عاهلى فارس وبيزنطه (٨٢) .

كان الفرس يدركون ذلك كله جيدا ، ويستشعرون خطورة الانتصارات التى قد يحققها خصمهم فى الغرب ، مخافة أن تنتهى الحرب الاستردادية سريعا ، فتستدير القسطنطينية - كعادتها - لمجابتهم والتفرغ لهم ، وزاد من مخاوفهم أن جوستنيان تمكن من القضاء على الثورة الشعبية العارمة التى استهدفت قلب نظام الحكم فى أول عام ٥٣٢ ، وخرج منها أقوى بأسا وأشد قوة (٨٣) ، ليتربع على عرش الامبراطورية من بعد أربعين وثلاثين سنة .

ولم يكن بخاف على جوستنيان ، القلق الذى يستبد بالفرس تجاه مشروعاته الاستردادية ، ولا كان غافلا عن أطماعهم وأطماعهم فى ولاياته الشرقية ، ولا كان على استعداد لخسارة هذه المناطق التى يتركز عليها اقتصاد الامبراطورية لحساب ولايات الغرب الفقيرة ، وكان يدرك أن الفرس يعانون من ثقل وطأة الجزية التى يدفعونها سنويا للهون البيض على حدودهم الشرقية ، ومن ثم كان على استعداد لتعويضهم عن هذا الذى يدفعونه لقاء سكوتهم عن حروبه الاستردادية فى الغرب ، وتركه يتفرغ لانجاز هذا المشروع الضخم الذى يعتبر حجر الزاوية فى سياسته الخارجية .

واذا أضفنا الى هذا كله أن العملة الساسانية كانت تضرب بشكل

عام من الفضة ، وأنها نادرا ما كانت تسك من الذهب (٨٤) ، أدركنا لماذا كان يسيل لعاب الفرس للحصول على النقود البيزنطية الذهبية . وتدلنا رسالة بعث بها الملك الفارسي قباد - سلف كسرى - الى جوستينيان ، على صدق ذلك ، فقد ورد فيها : « ... لقد تأكد لدينا أننا اخوة يعين أحدهنا الآخر فى حاجته ، وعليه اذ دخلنا فى معارك مع أعدائنا المجاورين ، ودفعنا لبعضهم الأموال استرضاء ، فقد أفلست خزائننا ، ولما لم تفلح محاولتنا مع سلفيكم أنسطاسيوس وجوستين ، لتقديم الأموال اليها ، اضطررنا لمهاجمة حدودكم حتى نحذركم ، اما الحرب واما المال » (٨٥) .

وكانت الامبراطورية البيزنطية على عهد أنسطاسيوس قد تعهدت فى عام ٥٠٥ ، بمقتضى معاهدة السلام التى وقعتها مع فارس ، بعد الهجمات التى تعرضت لها من جانب قباد ، بدفع مبلغ خمسمائة رطل من الذهب سنويا (٨٦) ، غير أن هذا الرقم ارتفع فى معاهدة السلام التالية التى وقعت سنة ٥٣٢ والتى عرفت بمعاهدة السلام الدائم ، ليصل الى أحد عشر ألف رطل من الذهب سنويا . ولما كان من المستحيل أن يدوم السلام ، فقد قبل جوستينيان فى عام ٥٤٥ مكرها أن يقدم لفارس ألفى رطل من الذهب مقابل عقد هدنة مدتها خمس سنوات (٨٧) . وما أن انقضى أجل الهدنة حتى كان على القسطنطينية عند تجديدها سنة ٥٥١ لمدة خمس سنوات أخرى أن تدفع ألفين وستمائة رطل من الذهب (٨٨) . حتى اذا جاء عام ٥٦٢ وتم توقيع معاهدة سلام جديدة مدتها خمسون عاما ، كان على الامبراطورية أن تدفع ثلاثين ألف رطل من الذهب دفعة واحدة مقدما عن السنوات السبع القادمة ابتداء من عام ٥٦٢ ، وأن تدفع فى بداية السنة الثامنة ، ما يعادل جزية ثلاث سنوات تالية ابتداء من عام ٥٦٩ ، ثم تدفع الأقساط بعد ذلك بانتظام الى نهاية السنوات الخمسين التى حددتها المعاهدة (٨٩) .

واضح اذن أن الفرس كانوا يصرون على استنزاف الذهب البيزنطى التى امتلأت به خزائن الامبراطورية ، والذي حدث عنه المؤرخ المعاصر يوحنا الليدى (٩٠) Ioannes Lydus بقوله انه كان آلافا من أرطال

الذهب يصعب حصرها ، وذلك عند وفاة الامبراطور أنسطاسيوس عام ٥١٨ ، بينما قدره بروكوبيوس بما يقرب من ثلاثمائة وعشرين ألف رطل من الذهب ، زاد على مدار السنوات التسع التي أمضاها جوستين على العرش ، حسب رواية بروكوبيوس ، على ما ادخره أنسطاسيوس على امتداد عهده البالغ سبعا وعشرين سنة (٩١) ، بالإضافة الى ما جمعه جوستينيان نفسه طيلة أيامه ، وهو كثير ، حتى أمست الخزانة البيزنطية فعلا في نهاية عهد جوستينيان ، تعاني الافلاس من جراء هذا النزيف المتدفق باتجاه فارس ، وتيار الانفاق الهادر بلا حساب على أتون الحرب الاستردادية في الغرب ، بعد أن فشلت خطته القائمة على أن الحرب تأتي بنفقات الحرب ، ثم المنشآت المعمارية الضخمة ، العسكرية منها والمدنية على حد سواء .

ولعله مما يؤكد حرص الفرس على الذهب البيزنطي ، أنهم راحوا منذ عام ٥٢٩ يثيرون في مفاوضاتهم مع البيزنطيين ، مسألة استعادة منجمين للذهب كانا يقعان على الحدود بين أرمينيا الفارسية وأرمينيا الرومانية ، مرددين دائما أن الامبراطور أنسطاسيوس كان قد استولى عليهما ، وظلوا يلحفون في طلبهم رغم توقف المفاوضات أكثر من مرة ، الى أن تحقق لهم ما أرادوا بمقتضى معاهدة السلام الدائم التي وقعت عام ٥٣٢ ، والتي نصت على عودة المنجمين الى السيادة الفارسية (٩٢) .

وكانت لهفة الفرس على العملة الذهبية البيزنطية ، وفي الوقت نفسه ، مخاوفهم وطموحاتهم ، كلها في وقت واحد ، تزداد كلما صكت مسامعهم أنباء انتصارات يحققها جوستينيان في حروبه الاستردادية ، فقد أذهلتهم مفاجأة استعادة الامبراطورية لولاية أفريقية الرومانية من يد الوندال Vandal اثر حملة خاطفة قام بها قائده الأشهر بليزاريوس Blisarius عام ٥٣٣ وعاد منها الى القسطنطينية وفي ركابه الملك الوندالي جليمار Glimer أسيرا ، وبين يديه الكنوز الضخمة التي كان الوندال قد سلبوها من كنيسة القديس بطرس في روما ، عند مهاجمتهم لاطاليا عام ٤٥٥ ، عندها لم يتمالك الملك الفارسي نفسه من الغيظ ، فكتب الى الامبراطور البيزنطي يطلب اليه اقتسام هذه الأسلاب

باعتباره شريكا فى صنع هذا النصر ، بالتزامه الحياد بمقتضى معاهدة سنة ٥٣٢ !! والطريف أن جوستينيان رغم اشمئزازه من هذا المطلب الفارسى ، الا أنه حقق رغبة العاهل الفارسى وأرسل اليه بعض الأموال فى شكل الهدية على سبيل الترضية !! (٩٣) .

ولم يكد يمضى على ذلك سبعة أعوام ، حتى كان بليزاريوس قد نجح عن طريق الخديعة ، فى القبض على ملك القسوط الشرقيين فى ايطاليا ، ودخول العاصمة رافنا *Ravenna* ، وهى للجميع ساعتها أن مملكة الأوستروقوط قد دالت (٩٤) ، فغلت فى عروق السامانيين دماء الغيظ والخوف فى وقت واحد ، فاندفعت جيوشهم لا تلوى على شيء ، لتخرب أجزاء متفرقة من الولايات الرومانية الشرقية ، ولتستولى على لازيقا ثانية والجزء البيزنطى من أرمينية ، ولتقفز الى ساحل البحر المتوسط ، المركز الحضارى ، باحتلال أنطاكية فى العام نفسه (٥٤٠) ، لتحقيق بذلك حلما طالما راودها ، وان كان ذلك الى حين ، اذ سرعان ما انسحبوا بعد أن قدم لهم جوستينيان عام ٥٤٥ نقوده الذهبية !!

لم يكن أمام الامبراطورية البيزنطية ، رضيت أم كرهت ، الا أن تدفع بسخاء كل ما يطلبه الفرس من الذهب ، وهذا واضح من نصوص الاتفاقيات التى أشرنا اليها من قبل ، فلم تكن بيزنطة تستطيع أن تفعل غير ذلك ، وهى تضع نصب عينيها مشروعها الاستردادى الضخم ، ودبلوماسيتها كما علمنا ، تركز على عدم الحرب فى جبهتين فى وقت واحد ، ولم يكن الفرس وحدهم فى الميدان يرتجى سكوتهم ، بل كانت هناك شعوب قبلية عديدة تنزل عند حدود الامبراطورية فى الشمال والشمال الشرقى والغرب ، مثل الهون والعناصر التركية على اختلاف مسمياتها ، والآفار والجبيد واللومبارد وغيرهم .. وكان على بيزنطة أن تستخدم أسلوب الترغيب أو التهيب هنا وهناك حسب الظروف ، ومن هنا كان الفرس يحتلون المرتبة الأولى فى الأهمية ، حتى لا تعطوهم بيزنطة الفرصة للوصول الى هذه القبائل ، يؤلبونها ضد القسطنطينية .

وكان مما يؤلم القسطنطينية الى جانب هذا كله ، أن الفرس

يتسيطرون على الطريق الرئيسى الذى تسلكه تجارة الحرير القادم من الصين ، عبر وسط آسيا الى الامبراطورية البيزنطية ، والتي كانت تستورد منه كميات هائلة تستخدمها فى الحياة الاجتماعية والسياسية على السواء . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعداه الى تحكم التجار الفرس فى كميات الحرير الصينى المتجهة غربا الى بيزنطة عن طريق البحر ، أعنى المحيط الهندى وما وراءه سواء الخليج الفارسى أو البحر الأحمر ؛ فقد كانت سفن هؤلاء التجار تصل الى بعض موانئ البحر الأحمر كما أشرنا من قبل ، ومن ثم كانت سيادة فارس على طرق تجارة الحرير القادم الى القسطنطينية برا أو بحرا تمثل غصة فى حلق العاصمة البيزنطية ، التى كانت تعتبر الحرير الصينى ضرورة حياة !!

لقد كانت القسطنطينية فى القرن السادس الميلادى ، وعلى عهد جوستينيان ، تمثل بتعبيرنا الحديث ، باريس عصرها ، مدينة الأضواء والشهرة الذائعة ، يقصدها القاصى والدانى ، ويؤمها حجيج المعرفة وطلاب الحاجات ، والباحثون عن المتعة ، والمولعون بالثراء ، والساعون للرزق ، تختلط فيها الأجناس ، وتختلف الألسنة ، وتتباين الأفكار . والمترفون من النبلاء ورجال السنان ووجوه البلاط والأسرة الحاكمة ، يتبخثون فى ثيابهم الحريرية الرقيقة ، المزدانة بخيوط الذهب والمرصعة بالحلى والأحجار الكريمة !! ويدلون بذلك فى خيلاء على الوفود الأجنبية الآتية من كل صقع ، خاصة القبائل النازلة عند حدود الامبراطورية ، والذين قدموا للبحث عن معاهدة للسلام ، أو هدنة توقف حربا ، أو طمعاً فى ألقاب التشريف ، أو تطلعا الى الخلع الثمينة والهدايا من الحلى والثياب الحريرية ، التى تعتبرها شعوب تلك القبائل ، نوعاً من التكريم الرومانى يتنافس فيه المتنافسون !!

وقد أمدنا الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع « الأرجوانى المولد » Constantinus VII Porphyrogenitus (٩٤٤ - ٩٥٩) فى كتابيه الرائعين « عن الادارة الامبراطورية De Administrando Imperio و « عن المراسم » De Cerimoniis بمادة علمية وافرة عن مظاهر الترف التى كان يحينا فيها البلاط البيزنطى ، وعن حاجة

القسطنطينية الماسة دائما لهذا الحرير لاهدائه الى زعماء الشعوب القبلية ، دليلا على المودة البيزنطية تجاههم . ويعلق هايد (٥) Heyd على ذلك بقوله « لقد كان البلاط حريصا على أن يعرض على أنظار برابرة الشمال صلاته التجارية مع البلدين ، الهند والصين . وكما ضعفت امكانية الايهام باستعراض مظاهر القوة والجبروت ، زادت الحاجة الى استخدام مثل هذه الوسائل لتأكيد تفوق الامبراطورية الرومانية . ومهما كانت روابط الصداقة بين أمير بربرى وبين بيزنطة ضعيفة ، فإن هذه كانت تهدى اليه أو الى مبعوثيه أقمشة حريرية وأحجارا كريمة وتوابل ، كذلك كانت كميات كبيرة من الحرير تذهب الى الغرب ، يهديها الامبراطور الى الكنائس أو الى رؤساء الاساقفة فيها أو الى بعض الأمراء ليصنعوا منها ثيابهم . اعلاء لهيئة البلاط . » ويضيف مؤرخنا « من هنا كان الفرس يحرصون كل الحرص على أن لا يصل الحرير الى بيزنطة بطريق آخر غير الطريق الذى يجتاز بلادهم ، أو بأيد أخرى غير أيديهم » (٩٦) . وكيف لا وقد أثروا من هذه التجارة ثراء حسنا (٩٧) . ولذا . فإن الطريق الوحيد للحصول على هذه المادة الخام الثمينة هو الاتفاق مع فارس . وفى هذا السبيل توصل الامبراطور دقلديانوس Diocletianus منذ أواخر القرن الثالث الميلادى ، الى اتفاق مع الملك الفارسى نارسيس Narses بحيث أصبحت مدينة نصيبين Nisibe الفارسية ، السوق الرئيسى للحرير المستورد من الصين ، ومنها يصدر الى مدن الامبراطورية الرومانية (٩٨) .

ولم تال الدبلوماسية البيزنطية جهدا فى محاولات لاختراق هذا التحصار الفارسى لتجارة الحرير ، وهى سنبل ذلك كان جوستنيان حريصا على أن يمد نفوذه الى شبه جزيرة القرم كلها بعد أن كان قاصرا فقط على مدينتى خرسون وبسفور (٩٩) وذلك بالاضافة الى لازيقا واقليم القوقاز ، هادفا بذلك الى الاتفاق حول مناطق السيادة الفارسية من أجل الوصول الى الحرير الصينى ، خاصة وأنه قد جرت محاولات بيزنطية للاتصال مع الأتراك فى اقليم ما وراء النهر ، بعد أن تمكن خانات الترك من توحيد آسيا الوسطى تحت سلطانهم ، على النحو الذى أسلفنا (١٠٠) . ولعل هذا هو الذى يفسر بوضوح ذلك النقد اللاذع الذى وجهه بروكوبيوس

القيسارى فى كتاباته الى الامبراطور جوستينيان ، عند فقدان لازيقا على يد الفرس عام ٥٤٠ ، متهما اياه بالتقصير فى الحصول على المعلومات الضرورية من عيونه حول تحركات الجيش الفارسى مما أدى الى ضياع لازيقا (١٠١) .

وكانت ادارة الخارجية البيزنطية تعلم يقينا ، أن جهودها لحرمان الفرس من الحصول على الأرباح الهائلة التى يجنونها بقيامهم بدور الوسطاء فى تجارة الحرير عبر الطريق البرى ، لن تحقق النجاح الذى ترتجيه ، ولذا كانت تتحين الفرص للبحث عن طريق آخر يصلها مباشرة مع مراكز بيع هذه « المادة الثمينة » ، وسرعان ما جاءت هذه الفرصة على غير توقع ، عندما وضع الأحباش أقدامهم فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية ، ولم تتوان القسطنطينية عن تأييد الغزو الحبشى عسكريا ومعنويا ، فقد كانت سيادة حلفائها الأحباش على طرفى البحر الأحمر عند مدخله ، تضمن لهم طريقا بحريا آمنا ، كما أملوا ، للحصول على الحرير الصينى بعيدا عن السيادة الفارسية (١٠٢) .

وليس بخاف على أحد ، أن سيادة اليهود على اليمن قبل الغزو الحبشى ، كانت تثير الى حد كبير جدا مخاوف الساسة البيزنطيين ، ليس فقط بدافع العداء بين اليهود والادارة البيزنطية ، وما نتج عنه من اعتداء على التجار الرومان فى اليمن ، ولكن لما قد تمثله هذه السيادة اليهودية من امتداد للنفوذ الفارسى أيضا الى هذه المنطقة الحيوية والهامة بالنسبة لبيزنطة . وناكدت هذه المخاوف بعد المراسلات التى دارت بين ذى نواس وملك الحيرة اللخمى ، الذى كان يدور فى فلك السياسة الفارسية . هذا بالإضافة الى أن أعدادا من يهود الفرس كانوا قد انخرطوا منذ زمن ليس بالقصير فى سلك الخدمة العسكرية فى الجيش الفارسى ، وحظوا بالاحترام ، على حد تعبير المؤرخ الكنسى يوساب Eusebius القيسارى ، من جانب قادتهم (١٠٣) ، وأن جماعات أخرى منهم قد عملت بالتجارة وجنت على عهد الساسانيين ثروات كبيرة ، باقدامهم على إرسال سفن تجارية تعمل لحسابهم الى منطقة القرن الأفريقى (١٠٤) ، ولهذا رحبت بيزنطة ، بل ولعبت دورا أساسيا فى أن تمتد مملكة أكسوم

نفوذها الى الشاطئ الآسيوى للبحر الأحمر ، بدلا من أن يقفز اليها
- عبر اليهود - النفوذ الفارسى .

ولم يكن من السهل أن يغفر اليهود لبيزنطة دورها فى تدمير
مملكتهم الناشئة فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ولهذا فانه بعد مضى
أربع سنوات فقط على ذلك ، شرعوا فى تحدى الحكومة البيزنطية
والخروج عن طاعتها . عندما أعلنت جماعات السامريين اختيار جوليان
Julianus ملكا عليهم سنة ٥٢٩ ، وأوقعوا بالمسيحيين فى نابلس
Neapolis وبيسان Scythopolis وقتلوا منهم أعدادا كبيرة (١٠٥) ،
منتهزين فرصة الحرب الدائرة يومئذ بين فارس وبيزنطة ، مؤملين أن
يمد لهم الفرس يد المساعدة ، غير أن جوستنيان سرعان ما فوت عليهم
هذه الفرصة بالدخول فى مفاوضات مع الفرس ، وأوعز فى الوقت نفسه
الى الحارث بن جبلة ملك الغساسنة الذى كان يدين بالولاء لبيزنطة ، أن
يتصدى لهذا التمرد اليهودى ، ونجح الحارث ومعه القوات البيزنطية
فى اخماد هذه الفتنة واعادة الهدوء الى فلسطين (١٠٦) .

على هذا النحو كان جوستنيان يدرك ضرورة الأخذ على يد اليهود
بشدة ، حتى لا يشكلوا له طابورا خامسا داخل دولته ، وعونا للفرس
عليه ، ومن ثم جاءت خطوته الهامة التالية ، وهى ضرب تجمع تجار
اليهود فى جزيرة تيران عند مدخل خليج العقبة ، حيث كانت الجزيرة
موضعا لتحصيل الجمارك فى الامبراطورية ، وكان العبائد سواء من
التجارة أو حصيلة الخدمات التى تقوم عليها ، تشكل دخلا وفيرا .
وكانت أعداد اليهود فى هذه الجزيرة قد ازدادت بصورة تلفت الانتباه ،
خاصة بعد تدمير مملكة ذى نواس وفرار عدد من اليهود اليمنيين اليها
واحتمائهم بها ، الى الحد الذى دفع التجار المسيحيين فيها الى الاحتجاج
على هذه المضايقات التى يلقونها من جانب اليهود ، ولقيت هذه
الاحتجاجات أذانا صاغية لدى الامبراطور جوستنيان ، فأقدم فى عام
٥٣٥ على تدمير هذه المستوطنة اليهودية ، وقضى على نفوذ اليهود فيها ،
حتى يصبح الطريق التجارى البحرى من رأس البحر عند تيران والقلم
أمانا حتى مدخله فى الجنوب . وقد مثلت هذه الخطوة أهمية سياسية
(مجلة المؤرخ العربى)

واققتصادية كبيرة لدى بيزنطة ، حتى أن مؤرخا مثل Sharf (١٠٧) اعتبرها تقة طبيعية لتدمير مملكة ذى نواس فى اليمن .

وكان جوستينيان قبل ذلك ، وفى سبيل تأمين هذا الطريق التجارى ، وتخليص تجارة الحرير من التبعية للفرس ، قد أرسل فى عام ٥٣٢/٥٣١ وقدأ الى مملكة أكسوم ، ليطلب الى الأحباش أن يقوموا هم بشراء الحرير من الهندود ، ثم يقومون هم ببيعه للبيزنطيين ، فيصبحون على هذا النحو وسطاء حلفاء ، بدلا من الفرس ، وتذهب اليهم الأرباح التى تجنيها منها فارس (١٠٨) . وقد أبدى الأحباش استعدادهم للقيام بهذا الدور ، غير أنهم كانوا فى الوقت نفسه عاجزين عن الوفاء بذلك ، حيث أن التجار الفرس ، الذين كانوا قريبين من مركز تجمع الحرير فى سيلان ، درجوا على شراء كل شحنات الحرير القادمة من الصين ، فلم يجد تجار الأحباش شيئا يبتاعونه ، هذا بالإضافة الى أن أهل سيلان الذين اعتادوا التعامل مع التجار الفرس منذ عهد بعيد ، لم يشاءوا الاساءة الى هؤلاء عن طريق التعامل مع منافسيهم الجدد (١٠٩) . وهكذا ظل الفرس دون منازع ، يحتكرون هذه التجارة الى ما بعد منتصف القرن السادس الميلادى ، حتى تمكن الامبراطور جوستينيان ، الذى لم يفتأ يبذل المحاولات للخلاص من هذه التبعية الاحتكارية لفرس ، من الحصول على بيض دود القز وبذور شجر التوت ، عن طريق بعض الرهبان المسيحيين ، الذين كانوا قد توغلوا الى وسط آسيا حتى مملكة خوتان Khotan وذلك حوالى عام ٥٥٢ للميلاد (١١٠) .

غير أنه كان على بيزنطة أن تتحمل لسنوات طويلة قادمة ، تحكم الفرس فى هذه التجارة ، لأن الطلب البيزنطى على الحرير الصينى ، كان يزداد بصفة مستمرة ، ولم يكن بمقدور هذه الصناعة البيزنطية الناشئة أن تفى باحتياجات الامبراطورية للحرير ، لاستخدامها المتزايد له - كما أسلفنا - فى الأغراض السياسية والاجتماعية على السواء . لهذا لم يكن أمام القسطنطينية والباله هذه ، الا أن تكثف نشاطها الدبلوماسى فى الجنوب عن طريق حلفائها الأحباش ، الذين يسيطرون الآن على ساحلى البحر الأحمر عند مدخله .

وفى سبيل ذلك جدد جوستينيان سفارته برئاسة مبعوثه جوليان حوالى سنة ٥٣١ الى ملك أكسوم والى « السميفع » *Esimiphaeus* الذى يذكر المؤرخ المعاصر بروكوبيوس ، أن الأحباش قد اختاروه ليكون ملكا على حمير ، تحت نفوذهم ، خلفا لذى نواس (١١١) . وقد أمل الامبراطور البيزنطى من وراء بعثته هذه أن يجد تجاوبا لدى الأحباش بهدف لفت أنظار الفرس الى تلك المناطق عن طريق جرهم الى الدخول فى مناوشات عند منطقة الخليج ، ليخفف الضغط على قواته عند الجبهة الشمالية الشرقية . وبلغت به الآمال مبلغا كبيرا عندما سعى جاهدا ليحقق تقاربا بين قوات الأحباش فى اليمن والقبائل العربية فى نجد ، مثل « المعديين » *Maddeni* وذلك للتعاون من أجل الوصول بقواتهم معا الى شرقى شبه الجزيرة العربية ، تهديدا للأراضى الفارسية والنفوذ الفارسى (١١٢) . ورغم الوعود الطيبة التى عاد بها جوليان الى سيده ، الا أن شيئا من ذلك لم يتحقق ، فالأحباش - بغض النظر عن كونهم لا يستطيعون مواجهة الجيوش الفارسية المتقوية عليهم عددا وعدة ، لم يكونوا راغبين أصلا فى الدخول فى حرب مع الفرس على الجانب الشرقى لشبه الجزيرة العربية دون فائدة حقيقية ملموسة تعود عليهم ، واعتبروا ذلك - على حد تعبير بروكوبيوس - صفقة المغبون ، فى أن يقطعوا هذه الصحراء من أجل شن حرب ضد أناس أشداء فى الحرب (١١٣) ولم تكن القبائل العربية فى نجد بأقل من الأحباش تبصرا بنتائج هذه المغامرة غير المأمونة (١١٤) .

غير أن هذه الجهود الدبلوماسية البيزنطية المكثفة مع مملكة أكسوم وشيوخ القبائل العربيه فى شبه الجزيرة ، لم تكن لتغيب عن أعين الساسانيين فى فارس ، وهم يقدرّون تماما مدى خطورة امتداد النفوذ البيزنطى الى قرب حدودهم الجنوبية الغربية . وإذا كانوا قد ضمنوا سيطرتهم الاحتكارية على طريق الحرير عبر وسط آسيا ، وحققوا نجاحا كبيرا فى استنزاف الخزانة البيزنطية عن طريق المكوس الجمركية على هذه التجارة وغيرها ، والجزية السنوية التى يحصلون عليها ، فاته لا ضير أيضا أن يمدوا أصابعهم وأنفهم الى هذه المنطقة ، بحيثى تكتمل

حلقات الحصار الاقتصادي لأهم سلعة بالنسبة لبيزنطة فى زمانها ، حول عدوهم التقليدى ، الامبراطورية البيزنطية .

من هنا كان الاحتفال باتمام ترميم سد مأرب حوالى عام ٥٤٢ / ٥٤٣ فرصة سانحة كى يسارع الفرس بارسال وفود التهنئة الى أبرهة ، الذى غدا الآن حاكما فعليا مستقلا بحكم اليمن ، ضمن سيادة واهنة لملك أكسوم (١١٥) . وحث الفرس حليفهم ملك الحيرة ، المنذر الثالث ، أن يحذو حذوهم ، ففعل . ولم تكن بيزنطة لتترك الساحة للفرس على هذا النحو ، فى منطقة تعتبرها ضمن مناطق نفوذها عن طريق حلفائها ؛ فقدم وفد الامبراطور البيزنطى الى اليمن تحف به وفود الحلفاء ، أعنى الحارث الغسانى وأبا كارب شيخ عرب فلسطين الثالثة (١١٦) . هكذا وجد أبرهة نفسه محاطا برسل أقوى دولتين فى زمانه ، ومن يدور فى فلكيهما ، والكل جاء يخطب وده ويرجو مودته !! مما ترك أثرا بعيدا على شخصيته ، ظهر واضحا بعد ذلك فى سياسته . لكن الذى لاشك فيه أن كلا من فارس وبيزنطة ، كان يطمح فى أن يفسح لنفسه نفوذا عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر . ولم يكن أبرهة نفسه بغافل عما يدور فى أذهان هؤلاء وأولئك ، وما تبديه أحاديثهم اليه ، ومن ثم أحسن استقبال الجميع ، لكن أيا من الوعود التى قطعها على نفسه ، خاصة لمن هم على عقيدته ، لم يشأ أن يحقق منها شيئا .

لقد كان أبرهة يدرك من اجتماع هذه الوفود لديه كلها فى آن واحد ، رغم العداء الذى يضره كل منهم تجاه الآخر ، أن الدخول فى لعبة صراع القوى العظمى هذه ، سوف تفقده مكانته المستقلة ومركزه الذى يتمتع به ، فى هذه المنطقة الحيوية لكل من القوتين ، وهو لم يتحرر من نفوذ سيده المباشر ، ملك أكسوم ، وان كان قد أبقى على حبل ضعيف يتمثل فى الجزية ، ليقع فى أيدي الفرس أو البيزنطيين ، وليدخل فى دوامة التبعية التى قد لا يفيق منها أبدا مادام الصراع قائما بين المعسكرين . ورغم أن هـواه كان مع البيزنطيين بحكم العقيدة ، إلا أنه لم يغامر باظهار العداء للسافر تجاه الفرس تحسبا لقوتهم العسكرية التى يعلم أبرهة قدرها .

والغريب فى الأمر ، والذي يدعو للدهشة فى الوقت نفسه ، أن السياسة البيزنطية ساهمت ، دون قصد ، على أن يسلك أبرهة هذا المسلك المتحفظ تجاهها ، بل والمستقل . فمن المعروف - كما قدمنا - أن السياسة البيزنطية كانت تعتبر الأسقف المسيحي رأس جسر طبيعى وضرورى للنفوذ السياسى للامبراطورية فى أى منطقة من العالم المحيط بها ، قرب أم بعد هذا العالم ، وطبقت ذلك الأسلوب باقتدار ونجاح فى مناطق كثيرة ، الا أنها هنا سلكت - على غير عادتها - سلوكا مغايرا سبب لها بعض العراقيل فى طريق تدعيم النفوذ الذى تؤمله . وقد يبدو للوهلة الأولى من الرؤية المتعجلة للأحداث ، أن الدبلوماسية البيزنطية قد أصيبت هنا بقصر النظر ، لكن شيئا من ذلك ليس ورادا فى عصر وصف فيه جوستنيان بأنه يعد بحق أستاذ الدبلوماسية البيزنطية (١١٧) . لكن الظروف التى كانت تعيشها بيزنطة عندئذ ، هى التى ساهمت بنصيب كبير فى الاخفاق الذى اعترافا فى هذه المنطقة .

لقد كان الخلاف العقيدى - كما أسلفنا - قائما بين كنيسة القسطنطينية من ناحية ، وكنائس ولايات الامبراطورية الشرقية فى سوريا ومصر من ناحية ثانية ، وكانت كنيسة أكسوم تدين بما تؤمن به الاسكندرية ، وأصبح للاسكندرية منذ القرن الرابع الاشراف الرعوى على الكنيسة الحبشية ، ومن هنا توجه ملك أكسوم الى تيموثى Timotheus الأسقف السكندرى (٥٢٠ - ٥٣٦) يطلب اليه أن يرسل من لدنه أسقفا ، له من المهابة ما لراعيه ، ليصحب الحملة المتجهة الى اليمن (١١٨) ، ولم يتوان تيموثى ، فأرسل على الفور أسقفا يصحبه عدد من القسيسين ، بهدف اعادة تنظيم الكنيسة فى اليمن بعد الأحداث التى تعرضت لها على يد ذى نواس (١١٩) . ولا شك أن هذا الأسقف كان من أصحاب الطبيعة الواحدة ، الا أن فترة مكثه هناك لم تدم طويلا ، اذ سرعان ما مات ، ودارت المراسلات من جديد فى سبيل الحصول على من يرعى كنيسة اليمن بدلا منه .

غير أن هذه المراسلات توقفت فجأة ، وأعلن أبرهة رفضه استقبال أسقف جديد (١٢٠) ، وكان ملك أكسوم قد سلك فى الوقت نفسه ذلك السبيل (١٢١) . بل ان الأمر وصل الى حد قتل الأسقف الذى أرسله

الامبراطور البيزنطى الى أكسوم بعد وصوله اليها بوقت قصير (١٢٢) ولا شك أن هذا التصرف من جانب ملكى أكسوم واليمن ، يعود الى تغيير جذرى فى السياسة العقيدية أقدمت عليه القسطنطينية .

لقد كان الإمبراطور جوستينيان يضع نصب عينيه مبدأ لا يبغي عنه حولا ، يتلخص فى القول بدولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة ، وفى النقطة الأخيرة ، فانه بايمانه المطلق بالقيصرية البساوية Caesaropapism كان يعتقد يقينا بأنه وحده له الحق فى اختيار المذهب الذى تدين به رعيته . غير أن السياسات الدولية فى زمانه اضطرتة فى كثير من الأحيان الى عدم الثبات على اتجاه واحد فى المسألة الدينية . كان الامبراطور كما يصفه المؤرخون ، آخر الأباطرة الرومان (١٢٣) ، رومانى القلب والمقالب . كان قلبه يهوى الغرب ، لكن بصره كان معلقا بالشرق ، وبين قلب الامبراطور وبصره ، تارجحت فى العقيدة سياسته .

فقد أقدم جوستينيان فى أول عهده على ممالة أصحاب الطبيعة الواحدة ، أو بتعبير أدق ، أهالى الولايات الشرقية ؛ ذلك أنه كان مقدما على الدخول فى حرب « المناوشات » مع فارس ، ومن ثم حرص على استرضاء أهالى هذه الولايات ، حتى لا يسمح للنفوذ الفارسى أن يمتد اليها ، فيشكلون شوكة فى ظهره أثناء مواجهته للفرس ، حتى اذا انتهى الأمر بعقد معاهدة السلام الدائم عام ٥٣٢ ، وأمن جوستينيان - ولو الى حين - جانب الفرس ، وبدأ مشروعه الضخم لاسترداد ولايات الغرب ، أصبح فى حاجة ماسة للحصول على تأييد البابا فى روما ، حتى يضمن وقوف شعب الكنيسة الرومانية فى ولايات الغرب الى جانبه . ولما كانت كنيسة روما تدين بالخلقيدونية ، فقد أدار ظهره الآن لكنائس الشرق ورعاياها وراح يعزل الأساقفة المناهضة فى القسطنطينية وأنطاكية والاسكندرية ، ويحل محلهم أساقفة خلقيدونيين (١٢٤) .

وكان الأسقف السكندرى ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٥٣٦ - ٥٣٨) الذى خلف تيموثى ، ممن شملهم قرار العزل ، ليحل محله أسقف جديد يدعى بولس (٥٣٨ - ٥٤٢) . يدين بالمذهب الخلقيدونى (١٢٥) . ولعل هذا هو الذى يفسر لنا الآن ، اقدام كل من

ملك أكسوم وملك اليمن على رفض استقبال الأساقفة الخلقيدونيين الذين أرسلهم جوستنيان أو حاول إرسالهم ، وظلت كنيسة أكسوم واليمن شاغرتين قرابة خمسة وعشرين عاما (١٢٦) .

ورغم أن أبرهة كتب الى الامبراطور جوستنيان، يطلب اليه ارسال أسقف يكون المسيحيون هناك على استعداد للتعامل معه ، أى يدين بمذهبهم ، الا أن جوستنيان رفض ذلك ، أو لعله راح يماطل فى تحقيق هذا المطلب (١٢٧) ، رغم أنه كان مهتما جدا - كما نعلم - باستمالة مملكتى أكسوم واليمن الى صفه للوقوف معه فى صراعه مع فارس . غير أن حلم الامبراطور البيزنطى وطموحه لاسترداد ولايات النصف الغربى من الامبراطورية ، أملى عليه سياسته العقيدية على هذا النحو ، مما أعطى الفرصة لأبرهة نفسه ، أن ينهج نهجا مستقلا الى حد بعيد فى سياسته الخارجية ، وان كان هذا لم يؤد بالضرورة الى تقطع حبائل العلاقات الودية بين القسطنطينية وصنعاء .

لقد كان مما يعنى القسطنطينية فى المقام الأول ، أن يظل نفوذها السياسى ممتدا الى هذه المنطقة ، وأن يبقى أبرهة حليفا ضد المدائن ، بل ان أبرهة نفسه كان حريصا الحرص كله على أن تظل علاقاته السياسية والاقتصادية طيبة مع بيزنطة ، حتى يضمن وقوفها دائما الى جانبه ، خاصة وهو يعلم أن ملك أكسوم لم يكن ليغفر له استقلاله بالأمر دونه فى اليمن (١٢٨) ، وان كانت ظروفه العسكرية لم تسمح له بالتخلص منه . ولذا لم يترك أبرهة الفرصة لهذه الخلافات المذهبية بين صنعاء والقسطنطينية أن تؤثر فى طبيعة العلاقات بين الحليفين . بل ان بعض الباحثين يذهب الى القول بأن أبرهة ربما يكون قد قبل فى نهاية الأمر ، أمام اصرار جوستنيان ، وحتى لا يفقد صداقته ، وجود أسقف خلقيدونى فى مملكته (١٢٩) .

كان أبرهة يدرك تماما الأهمية الاستراتيجية التى تحتلها المنطقة التى يسيطر عليها فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية ، ويعى بصورة واضحة المكانة التجارية التى تمثلها اليمن فى عالم الاقتصاد الدولى آنذاك ، وبالتالي الصراع السياسى بين أكبر قوتين فى زمانه ،

ورأى - كى يقلت من الدوران فى فلك أى منهما ، أن يحاول وضع قدم له بين العملاقين ، واذا كانت بيزنطة تسيطر بأسطولها فى القلزم وتيران على البحر الأحمر ، وتتحكم فارس بسفنها فى تجارة الخليج والمحيط الهندى حتى سيلان ، وبموقعها ، على الطريق البرى عبر وسط آسيا ، فلم لا يقدم هو الآخر على البحث عن طريق يخضعه لسلطانه ، وهو الطريق الذى كان قائما منذ زمن بعيد ، والذى يبدأ من صنعاء ويتجه شمالا ليمر بالمدن الرئيسية كالتائف ومكة ويثرب الى دمشق ، وهو الذى يربط اليمن بعالم البحر المتوسط ، والسيطرة على هذا الطريق تحقق دون شك فائدة اقتصادية هامة للجنوب العربى .

ولا شك أن اقدام أبرهة على نقل عاصمة اليمن من ظفار (حاضرة الحميريين) الى صنعاء التى تقع الى الشمال ، كان خطوة على هذا الطريق ، وامتد اهتمامه الى مأرب ليعيد ترميم سددها الشهير ، ويقيم فيها قصرا وكنيسة (١٣٠) . وكانت الخطوة التالية بلوغا الى الشام ، تعنى القفز على مكة ، المركز النجارى الهام لمنطقة شبه الجزيرة العربية كلها ، وقبلة الحجيج الى الكعبة بأوثانها قبل الاسلام ، ومنتدى الشعراء والفصحاء والبلغاء بأسواقها الثقافية . ولم يكن الوثوب الى مكة آنئذ بالأمر الهين أو اليسير ، فهذا يعنى أن تتوحد القبائل العربية الوثنية كلها ضد ذلك الملك المسيحى الذى يريد بهم وببلدهم وآلهتهم شرا مستطيرا ، حتى وان لم يؤد هذا التوحد الى احتجاج عملى حاسم ، فانه سوف يحمل فى جوهرة مشاعر عدائية بالغة تجاه أبرهة ، فى وقت كان هو وحلفاؤه البيزنطيون حريصين على استمالة هذه القبائل ضد عدوهم المشترك ، الفرس . وكان جوستنيان من جانبه قد سار فى ذلك خطوات واضحة واسعة ، فالغساسنة يمثلون بالنسبة له ، خط دفاعه الأول ضد فارس ، أو بتعبير آخر ، « دولة حاجزة » فى مقابل المناذرة اللخميين فى الحيرة ، الذين كانوا يلعبون الدور نفسه بالنسبة للفرس . ونادرا ما كان العداء بين القبيلتين العربيتين يتوقف حتى فى أوقات الهدنة بين فارس وبيزنطة !!

ولم يتردد جوستنيان فى أن يخلع على الحارث بن جبلة لقب الملك عام ٥٣٠ ، جزاء الحسنى على ما أظهره من ولاء للامبراطورية

أثناء حروبها مع فارس (١٣١) ، واشتراكه مع القسوات الرومانية فى اخماد فتنة اليهود عام ٥٢٩ . وفعل الامبراطور نفس الشئ أيضا مع أبى كارب بن جبلة الذى كان يسيطر على عرب فلسطين الثالثة ، الغنية جدا بنخيلها مثل تيماء ، مثلها مثل مناطق بنى كلب فى الشمال من صحراء النفود . وقد اعترف به جوستينيان حاكما معا هذا Foederatus على هذه المنطقة (١٣٢) التى تعود أهميتها أيضا الى سيطرتها على المراكز التجارية الهامة للتجارة البيزنطية فى البحر الأحمر ، مثل ميناء الحوراء وتيران ، شأنها فى ذلك شأن تبوك وتيماء ومدائن صالح (١٣٣) . هذا كله بالاضافة الى سعى جوستينيان لاستمالة قبائل المعديين فى نجد عن طريق استقطاب شيخهم قيس ، الذى ذكرنا أمره آنفا .

وليس بخاف أن تجار مكة كانوا يقومون برحلتى الشتاء والصيف الى اليمن والشام (١٣٤) ، وأن هذا الأمر ، بالاضافة الى وجود البيت الحرام ، قد رفع من قدر مكة وزعمائها القرشيين فى أعين القبائل العربية كلها ، وأصبح لهم من المكانة والمهابة قدرا كريما . ومن المعروف أيضا أنهم فى رحلتهم الى الشام كانوا يصلون الى بصرى ، حاضرة العربية الشمالية ، بعد أن يدفعوا مكوسا معينة تسمح لهم بالمرور الى الأراضى البيزنطية ، أو الواقعة فى فلهم . وعلى طبيعة هذه العلاقة التجارية كانت تتوقف العلاقات السياسية ؛ اذ قد يقع الضرر أحيانا بالتجار العرب من جراء زيادة المكوس الجمركية ، لكن بيزنطة كانت تحرص دائما على استرضاء عرب الحجاز هؤلاء ، لفتح المجال للتجار البيزنطيين للمرور عبر بلادهم الى الجنوب ، أو لاستخدام نفوذهم ومكانتهم فى نفوس القبائل لمنعهم من الاغارة على الحدود البيزنطية الجنوبية (١٣٥) . ويذكر بعض الباحثين أنه كان يوجد فى مكة بيوت تجارية بيزنطية تزاوّل الشئون التجارية الخاصة بالامبراطورية ، كما كان فيها أحباش يرعون مصالح قومهم التجارية ، حتى عرفت مكة بأنها « بندقية العرب » (١٣٦) ، هذا بينما كان الفرس يستعينون بعرب الحيرة لحماية قوافلهم التجارية المتجهة الى قلب الجزيرة العربية (١٣٧) .

وقد ساعد هذا كله زعماء مكة على عقد معاهدات تجارية مع

الشعوب المجاورة ، فعقد بنو عبد مناف معاهدات لقريش ، منها مثلا ما عقده هاشم مع ملوك الشام ، وما عقده عبد شمس مع ملك الحبشة ، ونوفل مع فارس ، والمطلب مع حمير ، ليفد العرب على هذه البلاد كلها (١٣٨) ، لهذا كله كانت مكة تشكل بموقعها الجغرافى ومركزها الاقتصادى ومكانتها السياسية ، أهمية خاصة لدى البيزنطيين والأحباش فى اليمن على السواء ؛ فالقسطنطينية تعتبرها واسطة العقد فى سلسلة مناطق النفوذ بلوغا الى الجنوب ، بينما أبرهة ينظر اليها ضمن منطقة تهامة كلها والمنطقة الساحلية ، على أنها بصورة تقليدية واقعة ضمن مناطق سيادة حكام اليمن ، من ناحية كونها ضرورية لتأمين الطريق التجارى الذى يصلهم بالشام .

لم يكن أمام أبرهة اذن والحالة هذه ، اذا أراد تجنب سخط القبائل العربية ، لما قد يحدثه وثوبه على مكة ، الا أن يسلك سلوكا آخر يفضى الى تقليص دور مكة التجارى تدريجيا ، ونقله الى صنعاء ، وصرف أنظار العرب عنها عتيدا ببناء كنيسة فى عاصمة ملكه ، يطوف العرب بها كما يفعلون عند الكعبة فى مكة ، فيضمن بذلك أيضا تحويلهم الى المسيحية . وشمر ملك اليمن عن ساعد الجد ، فابتنى كنيسة ضخمة فى صنعاء (١٣٩) عرفت باسم « القليس » Al-Qullais (١٤٠) ونقل اليها بعض آثار شهداء نجران ليضفى عليها - كما للكعبة - نوعا من القداسة (١٤١) ، وأصدر عددا من المراسيم يوجب بمقتضاها على العرب الخاضعين لسلطانه ، الحج الى هذه الكنيسة ، بينما أرسل بهذا المعنى وفودا الى المناطق العربية الخارجة عن نفوذه ، مؤملا بذلك أن يحول الحجيج من مكة الى صنعاء (١٤٢) .

وداعبت الأحلام والآمال أبرهة فى أن تترث صنعاء مكة ، وأن تحل المسيحية محل الوثنية ، متناسيا أن الصحراء العربية الواسعة وقفت حائلا منيعا أمام امتداد المسيحية الى داخل شبه الجزيرة العربية بعد أن وقفت عند أطرافها فقط (١٤٣) . وبالتالى نجت من الوقوع تحت السيادة البيزنطية . بالاضافة الى أن طبيعة المسيحية نفسها لم تكن تتفق فى كثير من جوانبها مع واقع الحياة القبلية عند العرب . ورغم احتكاك التجار العرب فى رحلتى الشتاء والصيف ، بالمسيحيين فى اليمن والشام ،

الا أن سادات مكة حافظوا على وثنيتهم ، لارتباطها بمركزهم السيادي بين القبائل العربية ، باعتبارهم سدنة الكعبة وحماة الأرباب . ومن ثم كان أمرا دونه خرق القتاد أن تولى القبائل العربية مكة دبرها متحرفة الى صنعاء ، حتى وان فاقت كنيستها الكعبة بهاء وفخامة .

وأدرك أبرهة بمضى الوقت أن مشروعه الضخم هذا لن يكتب له النجاح ، وأنه اذا بقيت مكة وكعبتها ، فلن تقوم لصنعاء و « قليسا » قائمة . ومن ثم فقد عزم على أن ينفذ ما كان من قبل يراوده ، من القفز مباشرة على مكة للقضاء على مكانتها سياسيا واقتصاديا وعقيديا في نفوس القبائل العربية ، وليخلو الجو لمنافستها ، صنعاء . هذا بالإضافة الى أنه سوف يحقق بذلك لنفوذه امتدادا سياسيا يصله مباشرة بالملكيات البيزنطية في جنوب الشام وشمال شبه الجزيرة . ومما لا ريب فيه أن الامبراطورية البيزنطية نفسها كانت تجد في هذه الحملة التي يشنها أبرهة على مكة لاختضاعها لسلطانها ، خطوة في سبيل تحقيق أهدافها بالوصول الى الجنوب العربي عن طريق ربط هذه المناطق ببعضها ابتداء من فلسطين الثالثة ووصولاً الى أقصى الجنوب في اليمن ، مروراً بمكة . ويعلق جواد على ذلك بقوله : « وهكذا يحقق البيزنطيون والأحباش نصرا سياسيا واقتصاديا كبيرا ، فيتخلص البيزنطيون بذلك من الخضوع للأسعار العالية التي يفرضها الساسانيون على السلع التجارية الفادرة المطلوبة ، والتي احتكروا بيعها لمرورها ببلادهم ، إذ سترد اليهم من سيلان والهند رأسا عن طريق بلاد العرب (١٤٤) .

ورغم ما تورده المصادر العربية ، من أن قيام أبرهة بمهجمة مكة ومحاولة هدم الكعبة ، انما جاء انتقاما لما أوقعه أحد رجال كنانة بالقليس (١٤٥) ، الا أن هذا لا يمكن مطلقا أن يكون سببا كافيا لهذه الحملة ، حتى وان صحت الرواية . لكن علينا أن نبحث عن هذه الأسباب في محاولة بسط نفوذه السياسي على هذه المنطقة الهامة ، استكمالا لسيادته على اليمن واستقلاله بها عن ملك أكسوم ، ولتحقيق الرخاء الاقتصادي لدولته في الجنوب العربي ، واسهاما في الوقت نفسه في تحقيق آمال حلفائه البيزنطيين بالتخلص من الاحتكار التجاري الفارسي للسلع الثمينة والهامة للامبراطورية البيزنطية .

ولا شك أن نجاح أبرهة في مد نفوذه الى مكة ، ووصل ما بينه وبين ممتلكات البيزنطيين في الشام ونفوذهم في أقصى شمال شبه الجزيرة العربية ، كان يشكل للدولة الفارسية تحديا خطيرا من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، اذ تصبح هذه القوة الجديدة خصما مخيفا لفارس (١٤٦) خاصة اذا دانت القبائل العربية في نجد والمناطق المجاورة لها على ساحل الخليج بالسيادة للبيزنطيين والأحباش (١٤٧) ، ولهذا كانت فارس تنظر بعين الحذر الدائم ، والقلق والترقب ، لكل ما يجرى حولها في منطقة شبه الجزيرة العربية .

غير أن الحملة الضخمة التي قادها أبرهة بنفسه الى مكة ، ووفر لها الاستعدادات العسكرية الضخمة ، وجلب لها الأدلاء تيسيرا للمسيرة في دروب لا يعرفها ، أصيبت بالفشل ، وحقت اخفاقا كاملا (١٤٨) ولم ينج من جيش أبرهة الضخم الا النذر اليسير ، حتى أبرهة نفسه مالبت أن مات ، وقد تقطعت أكبادهم فرقا وحزنا على هذه الخسارة الفادحة التي منى بها ، وعلى ضياع آماله وطموحاته ! ولم يكن لدى البيزنطيين آنذاك القدرة على مد يد العون له ، كما حدث عند الغزو الحبشي لليمن؛ فقد كانت بيزنطة غارقة حتى آذانها في مشاكل حدودها مع جيرانها التي لا تنتهى أبدا (١٤٩) بالإضافة الى الاستنزاف المادى الذى كانت تتعرض له من جراء الجزية الذهبية السنوية التي تقدمها لفارس . وقبل هذا كله فقد كانت الدوائر العسكرية البيزنطية تضع نصب عينيها الاخفاق الذى حاق بالحملة الرومانية التي قادها والى مصر إيلْيوس جالْلوس في نهايات القرن الأول قبل الميلاد ، بسبب الطبيعة الجغرافية القاسية لهذه المناطق . ورغم ما اعتري بيزنطة من خيبة الأمل لفشل هذه الحملة . الحبشية ، الا أن آمالها هناك لم تخب أبدا .

على أن أهم ما فى الأمر ، أن هذا الفشل ، انعكس بصورة واضحة على الوجود الحبشى نفسه فى الجنوب العربى ، وبالتالى المصالح البيزنطية ؛ فقد خلف أبرهة ولداه يكسوم ومسروق على التوالى ، ولم يكن لأيهما شخصية أبية ، ف وقعت اليمن فى الفوضى وشهدت الكثير من الاضطرابات ، وبدأت القبائل العربية فى الجنوب ، والتي لم تكن راضية

أصلا عن هذا الغزو الحبشى المسيحى لليمن ، ترفع رأسها مثيرة العقبات فى وجه ولدى أبرهة . ولم تكن الحبشة فى وضع يسمح لها باستعادة نفوذ لها كان قد حرعها منه أبرهة .

وهكذا سمحت وقائع الأحداث لواحد من أذواء اليمن ، ينتمى لأسرة عريقة ، هو سيف بن ذى يزن ، أن يعمل فكره فى كيفية استغلال هذه الفوضى السياسية والضعف العسكرى للوجود الحبشى فى اليمن ، للتخلص من هذا الاحتلال . ولم يكن الرجل بغافل عن لعبة الصراع الدولى بين فارس وبيزنطة حول المنطقة ، ولذا رأى هو الآخر ، كما رأى ذو نواس الحميرى اليهودى ، وكما فعل المسيحيون فى نجران من قبل ، ضرورة الاستعانة باحدى هاتين القوتين العظميين لتحقيق أهدافه .

والذى يلفت الانتباه ، تبعا لما ورد فى المصادر التاريخية ، أن سيف بن ذى يزن ، قد التجأ فى أول الأمر الى الامبراطور البيزنطى ليساعده فى طرد الأحباش من اليمن ، غير أن الامبراطور رفض ، وكان طبيعيا أن يرفض هذا المطلب ، متعللا بأنه يتفق والأحباش فى العقيدة ، ومن ثم فلا يمكنه تحقيق ما جاء من أجله الزعيم اليمنى (١٥٠) . وقد يبدو هذا الأمر غريبا لأن سيف بن ذى يزن كان يعلم بالعلاقات التى تربط بين الامبراطورية البيزنطية والأحباش . ويقدم أحد الباحثين اليمنيين رأيا طريفا لتفسير هذا الذى أقدم عليه سيف ، فيقول : « انه عندما ذهب وجهاء القوم الى قيصر الروم ، لم يكونوا ينوون حقيقة الاستعانة بهم ، لعلمهم مسبقا أنه مسيحى يناصر الأحباش ، وانما كان الهدف تخفيف الضغط ومساومته بالخداع وتقليل مساعدته للأحباش على أقل الأحوال » ، ويضيف : « واليمنى ذكى بالطبع ، عالم بمجارى السياسة ونتائجها ، فلا يغامر مغامرة كهذه غير عارف بمصائر الأمور » (١٥١) .

لكن المسألة لا تبدو بهذه البساطة التى يفترضها الباحث اليمنى ، فليس من المنطقى أن يضيع الزعيم اليمنى وقته وينفق جهده عبثا ، من أجل أن يخفف من تأييد البيزنطيين للأحباش ، فى وقت كان فيه البيزنطيون لا يملكون الرغبة وليس عندهم الاستعداد ، أن يقدفوا بجزء من جيوشهم العاملة على الحدود الطويلة ، الساخنة أبدا ، الى هذه

الأراضي البعيدة بجغرافيتها الصعبة ، وحملة آيليوس جالوس ماثلة أمام ناظرَيْهم كما أشرنا ، بالإضافة الى أن ادارة الخارجية البيزنطية باتت مقتنعة تماما أن الأحباش فى اليمن أمسوا فى موقف لا يحسدون عليه بعد هزيمة أبرهة عند مكة وموته ، وأن دورهم فى هذه المنطقة قد تقلص ولم يعد له قيمة تذكر .

وهذه النقطة الأخيرة بالذات هى التى تجعلنا نختلف فى الرأى تماما مع الباحث اليمنى صاحب هذا الرأى ، ونذهب مباشرة الى القول بأن التجاء سيف بن ذى يزن الى الامبراطور البيزنطى ، جاء بوعى كامل لما يفعله ، وادراك حقيقى لطبائع الأمور . فما دام التخلص من النفوذ الحبشى الأجنبى لن يتم - على الأقل فى تلك الظروف - إلا بالاستعانة باحدى المعسكرين ، ضمن لعبة الصراع بين القوى العظمى على مناطق النفوذ ، والتى لا بد أن سيفاً كان يدرك أبعادها تماما ، إذن فمن الأجدى ، بل ومن الطبيعى ، أن يستعين بصاحب المصلحة الحقيقية والمباشرة فى المنطقة ، أعنى البيزنطيين . وإذا كان للفرس اهتماماتهم الكبيرة بما يجرى ليس بعيدا عن حدودهم الجنوبية الغربية ، وما يمثله من أهمية اقتصادية ندعم سيادتهم الاحتكارية على طرق التجارة الزاهية الى بيزنطة ، إلا أن الامبراطورية البيزنطية كانت تعتبر هذه المنطقة جزءا حيويا وهاما جدا فى صراعها مع فارس ، سياسيا واقتصاديا ، لا يقل أهمية عندها عن لازيقا أو ابيريا أو أرمينيا .

فاليمن - بغض النظر عن أهميتها فى حد ذاتها لبيزنطة ، إلا أنها فى الوقت نفسه مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب ، وصولا الى مصر ، أهتم ولايات الامبراطورية آنذاك من الناحيتين السياسية والعسكرية ، ناهيك طبعا عن الناحية الاقتصادية ، اذ كانت « قبو الحنطة » أو « صومعة الغلال » بالنسبة للقسطنطينية (١٥٢) ، وهى ليست عن طموحات الفرس بعيد ، ولن تفتأ فارس تسعى لضرب بيزنطة فيها ، حتى تحقق لها ذلك فى بدايات القرن السابع الميلادى ، خلال السنوات الأولى من عهد الامبراطور البيزنطى هرقل Heraclius (٦١٠ - ٦٤١) ، ومن ثم كانت المصالح البيزنطية فى اليمن ، لا نقف

عند حد الأهمية الاقتصادية ، التجارية بصفة خاصة ، أو امتداد النفوذ السياسى فى الصراع مع فارس ، بل لكونها كما ذكرنا توا ، مفتاح البحر الأحمر من الجنوب وصولا الى « مخزن الغلال » فى شماله .

لهذا لم يكن غريبا أن يذهب سيف بن ذى يزن الى الامبراطور البيزنطى يرجو عونه فى طرد الأحباش ، فى مقابل أن يتعهد هو نفسه بحماية المصالح البيزنطية فى المنطقة . وهذا هو ما يقوله ابن هشام بالحرف الواحد ، حيث يذكر « أن سيف بن ذى يزن قدم الى قيصر الروم يشكو اليه ظلم الأحباش ويمنيه بالسيادة على اليمن » (١٥٣) والعبارة الأخيرة لا تدع مجالا للشك فى أن سيف فعل ذلك وهو يعلم تماما حقيقة المصالح البيزنطية فى المنطقة . ولعل هذا هو الذى يفسر طول مكثه فى القسطنطينية ، والذى امتد قرابة سبع سنوات ، اذا صحت رواية المسعودى (١٥٤) : مؤملا أن يستجيب الامبراطور لمطلبه ، وليس من المستبعد أيضا أن تكون القسطنطينية نفسها هى التى تعمدت استبقاء الزعيم اليمنى مقيما فيها طيلة هذه السنوات ، وذلك أسلوب شاع استخدامه كجزء أساسى من قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، مع زعماء الشعوب والدول والقبائل الذين يفدون الى العاصمة البيزنطية يخطبون ودها . الا أن الامبراطور البيزنطى ، رغم اقتناعه - كما نفترض - بوجهة نظر سيف بن ذى يزن ، الا أنه لم يشأ أن يمد له يد عونه ، ليس كما يذهب البعض (١٥٥) بسبب العلاقات بين فارس وبيزنطة نتيجة توقيع معاهدة السلام الأخيرة ، لأن فارس نفسها لم تحترم هذه المعاهدات عندما تحول اليها سيف مستنجدا ، ولكن لما فصلناه سابقا من ظروف بيزنطة وسياستها .

وجد سيف بن ذى يزن نفسه مضطرا اذن أن يولى وجهة شطر القوة الكبرى الأخرى : فارس (١٥٦) ، وتمكن مؤخرا من الحصول على عون كسرى أنوشروان الذى أمده بقوة عسكرية قادها وهرز Wahriz تمكنت من هزيمة « مسروق » وقضت على قوة الأحباش باليمن . وكتب القائد الفارسى الى سيده يخبره بذلك ، فبعث اليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها ، وفرض كسرى على سيف جزية سنوية وخرجا يؤديه اليه فى كل عام ، وكتب الى وهرز أن ينصرف

اليه (١٥٧) . ولا شك أن هذه السياسة التي اتبعها الفرس في اليمن ، وعودة قائدهم بقواته الى فارس ، تضيف دليلا قويا على صدق ماذهبنا اليه الآن عن ذهاب سيف بن ذى يزن الى امبراطور بيزنطة أولا . فهو الآن أمسى تابعا لفارس يؤدي اليها جزية سنوية ، وكان على استعداد أن يلعب نفس الدور مع بيزنطة ، صاحبة المصلحة الحقيقية في المنطقة ، من أجل التخلص من الاحتلال الحبشى . ولو لم تكن فارس على يقين بأن بيزنطة ، غير راغبة وغير مستعدة للتصدي لها عسكريا ، لفكرت كثيرا قبل أن تقدم على هذا العمل العسكرى ضد الأحباش حلفاء بيزنطة .

بل لقد ذهبت فارس الى أبعد من ذلك عندما أقدمت على الاحتلال الفعلى لليمن وتوابعها وضمها الى دائرة نفوذها وسلطانها تماما ، بعد مقتل سيف بن ذى يزن ومحاولة الأحباش استرداد نفوذهم ثانية (١٥٨) . ولم يأت الفرس هذه المرة بدعوة من أحد ، انما جاءوا بدوافع مصالحهم السياسية والاقتصادية ، وليحققوا بذلك كسبا هاما في هذه المنطقة الحيوية ، دون أن تلقى مقاومة من جانب الامبراطورية البيزنطية ، ولتظل لفارس السيادة هناك حتى ظهور الاسلام ، وقيام الدولة الاسلامية قوة جديدة من القوى العظمى في عالم العصور الوسطى ، ودخول اليمن ضمن شبه الجزيرة العربية كلها تحت السيادة الاسلامية .

هكذا قدر لفارس أن تكسب الجولة قبل الأخيرة ، من جولات الصراع بينها وبين بيزنطة حول شبه الجزيرة العربية ، بعد استباق طويل بينهما للسيادة عليها اقتصاديا وسياسيا ، أخذ من القرن السادس الميلادى ما نيف على نصفه ، حتى اذا أدرك بيزنطة الضعف ، وبلغ منها الجهد مبلغا كبيرا بعد وفاة جوستينيان عام ٥٦٥ ، وبفعل سياسته ، اغتنمت فارس الفرصة المواتية ، واستولت عسكريا على كل ساحل الجنوب العربى ، وبلاد العرب السعيدة ، ولتمسى هذه المنطقة الهامة واقعة تحت السيادة الفارسية . إلا أن ذلك لم يقدر له أن يستمر طويلا بفضل الفتح الاسلامى لليمن . ولن تلبث القوة الاسلامية الناشئة أن تصطدم بالقوتين العظيمتين فارس وبيزنطة ، وأن تقوض دعائم الامبراطورية الفارسية ، وأن ترث بذلك العداء التقليدى - كقوة عظمى - تجاه الامبراطورية البيزنطية .

حواشى البحث

(١) الثعالف : الحيتان ، راجع محمد الكوع الحسوالى ، اليمن الخضراء ، ص ٤٠٣ .

(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٢٨ - ٣٠ ، التيجان فى ملوك حمير ، ص ٣١٢ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٣٧ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، ج ١ ، ص ١٩٩ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٧٧ - ٧٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٥٣ ؛ البلخى ، البدء والتاريخ ، ج ٢ ، ص ١٨٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٦٢ .

(٣) جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها عهود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد » ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » (البروج ٤ - ١٠) .

وانظر : الطبرى : جامع البيان ، ج ٣٠ ، ص ١٣٢ - ١٣٥ ؛ الفخر الرازى : التفسير الكبير ، ج ٣١ ، ص ١١٨ - ١٢٢ ؛ القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، ج ٢٠ ، ص ٢٨٦ - ٢٩٣ ؛ النسفى : مدارك التنزيل ، ج ٣ ، ص ٦٧٣ - ٦٧٤ ؛ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٨ ، ص ٣٨٧ - ٣٩٢ ؛ الخازن : لباب التأويل ، ج ٤ ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ؛ الألوسى : روح المعانى ، ج ٣٠ ، ص ٨٨ - ٩٠ .

(٤) ZACH. MET. Chron., pp. 190-200 ; PROCOP. Bell. Pers. I, 189

The Book of Himyarites, p. CV

(٥) سورة البروج : الآيات ٨ - ١٠ .

(٦) معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٦٢ .

(٧) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، ص ٧٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ١٢٧ .

(٨) جواد على : الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٣ ، ص ١٧٩ .

(٩) سورة المائدة : آية ٨٢ .

(١٠) سورة آل عمران : آية ٧٥ .

(١٢) القرطبى : الجامع ، ج ٢٠ ، ص ٢٨٦ - ٢٩٣ .

(مجلة المؤرخ العربى)

ZACH. Chron., p. 193 (١٢)

(١٤) تذكره النصوص البيزنطية باسم « دميانوس » Dimianus
و « ديمنوس » Dimnus ، بينما يرد ذكره عند الأحباش باسم « فنحاس » ،
Phinhas وفي المصادر السريانية باسم « مسروق » Masruk وان كان
هو نفسه قد تسمى بيوسف عند تهوده .

Shahid, Byzantium in south Arabia, p. 31 (١٥)

(١٦) فيليب حتى : تاريخ العرب ، ص ٩٥ - ٩٦ : موسكاتى : الحضارات
السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، ص ١٩٢ ، وراجع أيضا :
Sharf, Byzantine Jewry, p. 31

Trimingham, Christianity among the Arabs in pre-Islamic times, p. 289. (١٧)

Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, pp. 126-127. وراجع أيضا

وكذلك : نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، ص ١٠٤ .

(١٨) هناك أحداث شبيهة بذلك الى حد كبير وقعت فى القرن الثامن الميلادى ،
عندما تحولت دولة الخزر ، الواقعة بين بحر قزوين (الخزر) والبحر الأسود شرقا
وغربا ، والفولجا والقوقاز شمالا وجنوبا ، الى اليهودية ، لتتصدى لمحاولات القوتين
السياسيتين الكبيرتين آنذاك ، الدولة الاسلامية ممثلة فى الخلافة العباسية ،
والامبراطورية البيزنطية المسيحية ، ويقول « كوستلر » فى كتابه The Khazar
Empire and its heritage : « كانت امبراطورية الخزر تمثل قوة

ثالثة اثبتت انها ند لكل منهما ، سواء باعتبارها خصما أو حليفا ، ولكنها
كانت تستطيع الاحتفاظ باستقلالها فقط عندما ترفض اعتناق المسيحية أو الاسلام ،
لأن كلا من الخيارين كان سيؤدى بها تلقائيا الى الانضواء تحت سلطة الامبراطور
الرومانى أو خليفة بغداد » ، راجع ، ص ٧٢ من الترجمة العربية لكتاب « كوستلر »
التي قام بها حمدى متولى صالح ، دمشق ١٩٥٠ . ويقول « بيورى » Bury
فى كتابه Eastern Roman Empire, p. 406 : « ليس ثمة شك فى أن الحاكم
الخزرى كان متأثرا بدوافع سياسية حينما اعتنق اليهودية ، ذلك أن اعتناق الاسلام
كان سيجعل منه تابعا روحيا للخلفاء الذين حاولوا أن ينشروا عقيدتهم بين الخزر ،
كما أن اعتناق المسيحية كان يكتنفه خطر الخضوع للكنيسة الأرثوذكسية » .

Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 289. (١٩)

وأيضا : Sharf, Byzantine Jewry, p. 32

ZACH. Chron., p. 197. (٢٠)

(٢١) راجع نص الرسالة في ZACH. Chron., pp. 193-197 والمعروف أن هذه الرسالة التي يوردها المؤرخ الكنسى زكريا المتليني ، نقلا عما كتبه الأسقف سمعان ، راعى المسيحيين في فارس الى سمييه كاهن كنيسة كابولا Cabbula قد تضمنت مواقف المسيحيين في ظفار ونجران من يهودية ذى نواس ومحاولته صرف هؤلاء عن عقيدتهم ، وذكرت الكثير عن « البطولات » التي قدمها النساء تضامنا مع أزواجهن مما يضع أمام الباحث كثيرا من علامات الاستفهام في صحة نسب هذا الجزء من الرسالة الى ذى نواس ، الذى لا يعقل أن يذكر به « الاعجاب » موقف المسيحيين من فعالة .

Bell. Pers. I, p. 189 (٢٢)

MALALAS, Chron., p. 432 (٢٣)

وأيضا : MICH. SYR. Chron., p. 183

(٢٤) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، نقلا عن منذر عبد الكريم البكر ، دراسات في تاريخ العرب قبل الاسلام ، تاريخ الدول الجنوبية ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .

(٢٥) منذر عبد الكريم البكر ، العرب قبل الاسلام ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .

(٢٦) Sharf, Byzantine Jewry, p. 32 وراجع أيضا ، نبيه عاقل :

تاريخ العرب القديم ، ص ١٠٤ .

(٢٧) ابن هشام : التيجان في ملوك حمير ، ص ٣١٢ ؛ ابن قتيبة : المعارف ، ص ٦٣٧ ؛ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ج ١ ، ص ١٩٩ . ومن المعروف أن كالب هذا هو الاسم الذى ورد في الكتابات الحبشية ، أما المصادر البيزنطية فتسميه ال أصبحة Elisbahaz

(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٥٣ .

(٢٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٣٠) الأزرقي : أخبار مكة ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

(٣١) البلخى : البدء والتاريخ ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 25 (٣٢)

Vasiliev, Justin, p. 367

Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 25 (٣٣)

(٣٤) ممتاز العارف : الأحباش بين مأرب وأكسوم ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣٥) جواد على : تاريخ العرب ، ج ٣ ، ص ٤٤٩ - ٤٥٦ وقارن ، بإفقيه :
تاريخ اليمن القديم ، ص ١٣٤ - ١٣٦ ، ١٥٦ ، ١٧٧ - ١٧٨ وحاشية رقم ١٩٥
ص ٢٣٩ .

PROCOP. Bell. Pers., I, XIX (٣٦)

MALALAS, Chron., pp. 456-459 : وأيضا :

(٣٧) حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ٩٦ .

(٣٨) محمد أحمد حسونة : الجغرافيا التاريخية الاسلامية ، ص ١٣ وأيضا :
حوراني : العرب والملاحة ، ص ٩٤ .

(٣٩) ربما يعود حفر هذه القناة في أول أمرها الى الفرعون المصري القديم
نكاو من ملوك الأسرة السادسة والعشرين . وقد أعاد ملك فارس دارا الأول حفرها
في القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم قام الامبراطور الروماني تراجان بتطهيرها وحفر
قسما جديدا من طرفها الغربي ليصلها بالنيل عند بابليون ، حتى يحسن الاتصال
بالفرع الكانوبي من دلتا النيل ، كي تسهل حركة الملاحة الى الاسكندرية . وقد أعيد
حفر هذه القناة مرة أخرى على عهد الخليفة عمر بن الخطاب حيث عرفت بخليج
أمير المؤمنين .

(٤٠) حوراني : العرب والملاحة ، ص ٨٦ .

(٤١) موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ، ص ٣٥٤ حاشية ١٢ .

(٤٢) المرجع نفسه : وللوقوف على تفاصيل هذه الطرق التجارية كلها ، راجع
محمد أحمد حسونة : الجغرافيا التاريخية الاسلامية ، ص ١٢ - ٢٠ .

(٤٣) حوراني : العرب والملاحة ، ص ٢٤ .

(٤٤) كان البخور على رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة في ذلك العصر ،
كان سعره - على حد تعبير جواد على - يساوي سعر الذهب والبترول في أيامنا
هذه ، ولم يكن يشتريه لغلائه الا رجال الدين لاستعماله في الطقوس الدينية التي
تستنزف القسم الأكبر منه ، وكذا الملوك والأثرياء ، وذلك لاحراقه في المناسبات
الدينية والاجتماعات . وكان حرق هذه المادة يكلف خزانة الدولة ثمنا باهظا لارتفاع
أسعارها . راجع جواد على : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

(٤٥) البكر : دراسات في تاريخ العرب القديم ، ص ٣٨٢ .

(٤٦) أوليري ، علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمه كامل وهيب ، ص ١٣٥ .

(٤٧) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ٨٩ ، ويطلق على طريق البحر الأحمر (البرى والبحرى) طريق الغرب .

(٤٨) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ترجمة أحمد محمد رضا ، ص ٢٢ .

(٤٩) MALALAS, Chron., p. 433

(٥٠) جواد على : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٦٢٢ : حورانى : العرب والملاحه ، ص ٩٨ .

(٥١) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، ص ٢٤ .

(٥٢) عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية ، ص ٦٣ .

(٥٣) راجع تفاصيل هذه الحملة عند عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ٦٣ - ٦٧ ، ١٣٤ ، وأيضا جواد على : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤٤ - ٥٩ ، وكذلك بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٥٤) عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ١٣٥ .

(٥٥) للوقوف على تفاصيل مشروعات الأباطرة الرومان فى سبيل الحفاظ على نفوذهم ومصالحهم فى هذه المنطقة على عهود تراجان فى القرن الثانى ، وسبتيوس سفروس وفيليب العربى فى القرن الثالث الميلادى : راجع جواد على ، ج ٢ ، ص ٦٠ ، ٦٥ - ٦٨ .

(٥٦) راجع تفاصيل هذه الأحداث والأدوار التى مرت بها المسيحية من خلال موقف الأباطرة الرومان منها فى مؤلفات الباحث ، الدولة والكنيسة ، الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ ، القاهرة ١٩٨٢ - ١٩٨٤ .

(٥٧) هكذا كان يحلو لقسطنطين أن يسمى نفسه ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، ج ٢ ، ص ١١٢ - ١١٩ .

(٥٨) كتب قسطنطين الأول رسالة الى ملك فارس ، يحثه فيها على معاملة رعيته المسيحية معاملة طيبة ، وأن ينزلهم منزلا كريما ، والا فإنه سوف يجلب على نفسه عدااء « مبعوث الرب » (يعنى نفسه) ، الذى لا بد أن ينتقم لما قد يحل بهؤلاء الرعايا المسيحيين فى فارس ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، ج ٢ ، ص ١١٢ - ١١٤ .

ATHANAS. Apologia ad Constantium, 31 (٥٩)

(٦٠) راجع للباحث : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٣ ، ص ٧٤ - ٧٨ .

Bury, history of the Later Roman Empire, II, p. 292. : راجع أيضا :

Diehl, Byzantium : Greatness and Decline, p. 59 : وكذلك :

(٦١) عن الآريوسية : نشأتها وفكرها ورجالها ، وكذا النيقية ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، ج ٢ ، ص ١٥٥ - ٢٥١ .

(٦٢) للوقوف على تفاصيل الأحداث التي امتلأت بها هذه الفترة ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، ج ٣ ، ص ١٨٥ - ١٨٧ ، ٢٢٢ - ٢٢٤ .

Dvornik, origins of the intelligence Services, p. 169. (٦٣)

وأيضا : عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، ص ٣٨ - ٣٩ .

Jones, Later Roman Empire, I, pp. 225-230 (٦٤) راجع تفاصيل ذلك في :

(٦٥) يمكن التعرف على كل هذه الخلافات العقيدية التي حدثت في القرن الخامس في : Hefele, history of the councils, Vols. II, III.

Percival, The Seven ecumenical councils, وأيضا :
(in Nicene and post Nicene Fathers, Vol. XIV,
pp. 191-267.

(٦٦) النسطورية هم أتباع نسطور Nestorius بطريرك كنيسة القسطنطينية في عشرينيات القرن الخامس الميلادي ، نادى بأن العذراء هي أم المسيح البشر وليست أم المسيح الإله ، مغلّبا بذلك الطبيعة البشرية في المسيح على الطبيعة الإلهية ، جهر بأرائه عام ٤٢٨ وتصدت له كنيسة الاسكندرية في عهد أسقفها كيرلس Cyrillus ومن ورائها روما ، ومن ثم دعا الامبراطور ثيودوسيوس الثاني الى عقد مجمع في مدينة افسس Ephesus في آسيا الصغرى ، عرف بالمجمع المسكوني الثالث عام ٤٣١ ، تقرر فيه ادانة نسطور ونفيه ولعن النسطورية ومطاردة أتباعها ، مما اضطر هؤلاء الى اللجوء الى الأراضي الفارسية . راجع :

Hefele, history of the Councils, III, pp. 9-96

Chadwick, The Early Church, pp. 194-200 وأيضا :

Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 303. (٦٧)

(٦٨) جواد على : تاريخ العرب القديم ، ج ٢ ، ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

Dvornik, origins of the intelligence services, pp. 168-169 (٦٩)

Jones, Later Roman Empire, I, pp. 232-235. وأيضا :

Milne, A history of Egypt under Roman rule, p. 103. وكذلك :

(٧٠) رافت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، ج ٣ ، ص ٣٥٧ .

(٧١) كانت هذه الممالك هي : مملكة الوندال في أفريقيا ، ومملكة القوط الغربيين في اسبانيا ، مملكة الأنجلو سكسون في بريطانيا ، مملكة الفرنجة في غالة (فرنسا) ، ومملكة القوط الشرقيين في ايطاليا .

(٧٢) كانت أول تجربة عملية في هذا السبيل آنذاك ، الحرب التي دارت بين الفرس والرومان في عام ٢٦٠ ، وتمكنت فارس من انزال هزيمة ساحقة بروما واخذ الامپاطور الروماني فاليريان Valerianus أسيرا مما عد اذلالا للامبراطورية .

(٧٣) يستثنى من ذلك طبعاً الفترة التي خضعت فيها القسطنطينية لسيادة العناصر اللاتينية ، نتيجة الحملة الصليبية الرابعة والتي امتدت الى سبع وخمسين سنة بين عامي ١٢٠٤ - ١٢٦١ .

(٧٤) هذا التعبير استخدمه ب . كاسل أحد مستشرقى القرن التاسع عشر ، للدلالة على حقيقة الامبراطورية التي كونها الهون خلال القرن الخامس الميلادي ، وامتدت من وسط آسيا حتى وسط أوروبا . نقلاً عن : كوستلر : امبراطورية الخزر وميراثها ، ص ٢٣ .

(٧٥) كوستلر : امبراطورية الخزر ، ص ٣١ : بارتولد : تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ص ٣٠٥ .

(٧٦) توينبي : تاريخ البشرية ، ج ٢ . ص ٣٢ - ٣٣ ، ٤٣ .

MALALAS, Chron., pp. 413-429 (٧٧)

وأيضا : CHRON. PASCH., pp. 613-614

وكذلك : Holmes, The Age of Justinian and Theodora, I, p. 311.

(٧٨) رافت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، ص ٢٩ - ٨٣ .

PROCOP. Bell. Pers. I, p. 93 (٧٩)

Stein, histoire du Bas-Empire II, p. 270 وراجع :

Bury, Later Roman Empire II, p. 80 (٨٠)

Benjamin, story of Persia, pp. 231-232. وأيضا :

(٨١) رافت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، ص ٧٠ - ٧٤ .

(٨٢) يبدو من هذه المراسلات مدى حرص جوستنيان على احلال السلام بين الدولتين ، ليتمكن من تحقيق مشروعه الاستردادي في الغرب ، فقد جاء في احدى رسائله الى قياد قوله : « علمنا من رسالتنا بعد عودتهم من ضيافتكم ، صدق نياتكم ، ٠٠٠ وانه لمن حق الله علينا أن نحمده شاكرين فضله حتى يتحقق السلام بيننا . ان هذا السلام لأمر عظيم ، يحمل لبلدنا الأمن والرخاء ، ويزيح من أمامنا أعداءنا ، ولتكن على يقين من أنني سوف أعهد الى ممثلينا دائما بأن يبذلوا كل ما في وسعهم كي تنجح مفاوضات السلام هذه ، ودمتم لنا محبا ودودا » . راجع MALALAS, Chron., pp. 449-450

(٨٣) رافت عبد الحميد : الثورة الشعبية في القسطنطينية ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٢ ، ص ٢٥ - ٨٨ .

(٨٤) Ghirshman, Iran from the Earliest times to the Islamic Conquest, p. 341.

MALALAS, Chron., pp. 454-455 (٨٥)

ZACH. MET. Chron., 163; PROCOP. Bell. Pers. I, (٨٦)
p. 77.

PROCOP. Bell. Goth. II, p. 517 (٨٧)

Ure, Justinian and his Age, p. 77. وأيضا :

PROCOP. Bell. Goth. II, pp. 536-537 (٨٨)

MENAN. except. de Leg. Roman, pp. 359-363 (٨٩) وراجع :

Ure, Justinian, pp. 97-99

IOAN. LYD. de magist., p. 244 (٩٠)

PROCOP. hist. arc., p. 137 وقارن :

Id. (٩١)

PROCOP. Build., pp. 133-135 (٩٢)

PROCOP. Bell. Pers. I, p. 253 (٩٣)

(٩٤) من المعروف أن الحرب استؤنفت من جديد بين البيزنطيين والقوط الشرقيين ، بعد أن أدرك هؤلاء حقيقة الخديعة التي أوقعهم فيها القائد البيزنطي . واستمرت هذه الحرب من بعد خمسة عشر عاما تالية حتى انتهت بهزيمة القوط عام ٥٥٥ في موقعة عرفت باسم مقبرة الغال .

(٩٥) التجارة في الشرق الأدنى ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٩٦) المرجع نفسه ، ص ١٧ .

(٩٧) Bury, Later Roman Empire, II, p. 320.

وأیضا حورانی : العرب والملاحه ، ص ٩٧ .

(٩٨) Dvornik, Origins of the intelligence services, p. 168

ومن المعروف أن نصیبیین لم تكن وحدها فقط هي الموضع الوحيد لتسويق هذه التجارة ، اذ كانت هناك أيضا « الرقة » على الفرات ، وسهل دوبيوس Doubius في أرمينيا الفارسية بالقرب من أرضروم Theodosiopolis ، راجع : ZACH. MET. Chron., p. 5 ; PROCOP. Bell. Pers. I, 25, 30.

(٩٩) خرسون هي حاليا سباستبول ، وبوسبور هي كرش .

(١٠٠) انظر قبله ، وأيضا ، بارتولد : تركستان ، ص ٣٠٥ .

(١٠١) PROCOP. hist. arc. 30.

(١٠٢) اشرنا من قبل الى محاولات بيزنطية جرت في هذا السبيل ، وهي جهود كل من الامبراطور قسطنطينوس في القرن الرابع ، والامبراطور أنسطاسيوس في أواخر القرن الخامس الميلادي وبدايات القرن السادس .

(١٠٣) EUSEB. hist. eccl. V. 16

(١٠٤) هايد : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى ، ص ٢١ حاشية ٢ .

(١٠٥) لم تكن هذه هي المرة الأولى في العصر البيزنطي ، التي يقدم اليهود فيها على اعلان مملكة لهم ، بل فعلوا ذلك من قبل على عهد الامبراطور زينون (٤٧٤ - ٤٩١) واختاروا شخصا يدعى جوستوس Justus ملكا عليهم ، واعتدوا على المسيحيين في نابلس وقيسارية . غير أن هذه الفتنة قضى عليها بعد أن تخلص زينون من المشكلات التي واجهته في أول عهده ، وجيء برأس جستوس ، وتوجه الى الامبراطور . انظر :

PROCOP. Build., pp. 349-353; MALALAS, Chron., pp. 382-383; MICH. SYR. Chron. II, pp. 148-149.

Dubnov, history of the Jews, II, pp. 208-209

(١٠٦) كانت الحكومة البيزنطية قد أصدرت على عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثاني عدة تشريعات سنة ٤٣٨ لصالح العقيدة المسيحية ، تقضي بحصرمان اليهود السامريين من الوظائف العامة ، وعدم السماح لهم ببناء معابد جديدة ، أو الدعوة

لديانتهم . وفى سنة ٥٢٧ وهى السنة التى اعتلى فيها جوستينيان العرش ، كان أول شئ أقدم عليه الامبراطور الجديد ، هو تجديد تشريعات الامبراطور ثيودوسيوس الثانى ، وأضاف اليها جواز مصادرة ممتلكات الوارثين من السامريين لصالح خزانة الدولة ، الا أن يتحول هؤلاء الى المسيحية . واذ تزامنت هذه القرارات مع ضياع أمل اليهود فى اقامة مملكة لهم فى اليمن ، بعيدا عن سلطان بيزنطة ، أقدموا على احداث هذه الاضطرابات . انظر :

PROTOP. hist. arc., p. 97; ZACH. MET. Chron., p. 232;
MALALAS, Chron., p. 455; CHRON. PASCH., p. 872 ;
Parkes, A history of Palestine, pp. 79-81 ; Milman,
history of the Jews, pp. 224-225.

Byzantine Jewry, p. 33 (١٠٧)

PROTOP. Bell. Pers. I, pp. 193-195 (١٠٨)

Id. (١٠٩)

(١١٠) PROTOP. Bell. Goth. II, 17 وكان قد تم نقل هذه الصناعة الى خوتان عن طريق زواج ملكها بأميرة صينية ، نقلت خلصة معها الى مملكة زوجها دود القز وبذر التوت .

PROTOP. Bell. Pers. I, p. 193 (١١١)

(١١٢) يذكر بروكوبيوس أن جوستينيان كان يظهر صداقته تجاه أحد سادات العرب يسميه « قيس » ، وقد منحه لقب Phylarchus وأراد أن ييسر له السيادة على قبائل نجد العربية ، ليمد بالتالى نفوذه الى هذه المنطقة ، غير أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح . انظر :

PROTOP. Bell. Pers. I, p. 193.

Id. (١١٣)

Kawar, Byzantium and Kinda, p. 61; Bury, (١١٤)

؛ جواد على : تاريخ العرب . Later Roman Empire, II, p. 325 . القديم ، ج ٣ ، ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(١١٥) لم يستمر السمييع فى حكم اليمن تحت نفوذ الأحباش طويلا ، اذ سرعان ما ثار عليه الأحباش أنفسهم ، وأعقب ذلك الصراع بين أرباط وأبرهة ، قائد الحملة ، وتمكن أبرهة من هزيمة منافسه ، والانفراد بالسلطان . انظر :

PROCOP. Bell. Pers. I, pp. 191-193 وتذكر المصادر العربية روايات طريفة حول هذه الناحية ، وهى أن ملك الحبشة عندما علم بأمر أبرهة ، أقسم أن يطاء أرض اليمن يقدمه ، وأن يجز ناصية أبرهة ويريق دمه ، فلما سمع أبرهة بذلك ، وضع حفنة من تراب اليمن فى وعاء ، وقص طرفا من شعر رأسه ، وسكب بعضا من دمه فى قارورة ، وأرسل بهذا كله مع رسالة الى ملك أكسوم يحله من قسمه ، فهذه أرض اليمن ممثلة فى هذه الحفنة من التراب ، ما عليه الا أن يطاءها ، وهذا دمه وشعره . وتضيف الروايات أن ملك أكسوم أعجب بذكاء أبرهة ودهائه وحسن تصرفه ، ورضى عنه لقاء جزية سنوية يدفعها له ، وبعد أن غمره بالهدايا الثمينة . أنظر ، ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٣٦ وما بعدها ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ؛ المسعودى مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٧٨ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

Philiby, The Background of Islam, p. 122. (١١٦)

(١١٧) رافت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، ص ٦٢ .

Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 59 (١١٨)

ويحاول عرفان شهيد أن يؤكد دائما على الدور السورى فى جنوب الجزيرة العربية ، ويجعله متفوقا على التأثير الحبشى ، ويعمل ذلك بعاملين : أولهما التوافق المذهبى يعنى الطبيعة الواحدة !! وثانيهما رابطة الدم التى تربط - على حد قوله - بين البيت الغسانى فى سوريا ، وبيت الحارث فى نجران ، وهو الذى كانت له الزعامة بين المسيحيين هناك حتى عهد ذى نواس .

IOAN. EPH. hist. eccl. III, pp. 323 ff. (١١٩)

Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302 (١٢٠)

Neale, A history of the holy Eastern Church, II, (١٢١)
p. 36.

Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, (١٢٢)
p. 142.

(١٢٣) هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة رافت عبد الحميد ، ص ١١٨ .

(١٢٤) راجع تفاصيل السياسة العقيدية للامبراطور جوستنيان فى :
Jones, Later Roman Empire, I, pp. 285-287, 296-298.

(١٢٥) تعاقب على كرسى الاسكندرية الأسقفى طيلة عهد جوستنيان ، عدد من الاساقفة الخلقيدونيين ، وهم على التسوالى : بولس (٥٢٨ - ٥٤٢) زويلوس

Appollinarius Zoilus (٥٤٢ - ٥٥١) ، أبو اللينساريوس
(٥٥١ - ٥٧٠) ونلاحظ أن جوستينيان ظل يحارب في ايطاليا من أجل استعادتها
حتى عام ٥٥٥ ، ثم انتقل بعد ذلك الى اسبانيا . ومن ثم كان حريصا على أن يظل
في جانب الخلقيدونية كسبا لعطف البابوية . ومن الجدير بالذكر أن المصريين كان
لهم أسقفهم المونوفيزيتي خلال هذه الفترة أيضا يقيم في حمى رهبان وادى النطرون .
Trimingham, Christianity among
أنظر
the Arabs, p. 302 n. 39.

Neale, holy Eastern Church, II, p. 36 (١٢٦)

Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302. (١٢٧)

(١٢٨) تخبرنا المصادر أن ملك أكسوم حاول القضاء على أبرهة والتخلص منه
واعادة اليمن الى التبعية الحبشية المباشرة ، الا أن حملاته التي أرسلها لتحقيق هذا
الهدف باءت بالفشل ، فاضطر للسكوت على مضض ورضى وان كان دون اقتناع
بالمهدايا القيمة والجزية السنوية التي يرسلها اليه أبرهة . أنظر :
PROCOP. Bell. Pers., p. 197 وقارن حاشية رقم ١١٥ .

Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 27. (١٢٩)

Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, (١٣٠)
p. 147.

(١٣١) بلغ من عظم شأن الحارث بن جبلة عند جوستينيان ، أنه نجح في اقناع
الامبراطور بتعيين أسقفين من أصحاب الطبيعة الواحدة ، هما ثيودور ويعقوب على
كنيسة بصرى والرها ، وهو شيء لم يفلح ملكا أكسوم واليمن في الحصول عليه ،
لتأييد الامبراطور لمذهب الطبيعتين . أنظر :

IOAN. EPH. Lives of the Eastern Saints, P.O. XIX,
pp. 237-238.

PROCOP. Bell. Bers., I, XIX; hist. Arc. XI; (١٢٢)
MALALAS, Chron., XVIII.

Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 276 (١٢٣)

Kawar, The Arab in the peace treaty of A.D. وأيضا :
561, p. 182.

(١٢٤) أكد القرآن الكريم هذه الصلات التجارية بين مكة من ناحية واليمن
والشام من ناحية أخرى في سورة قريش « لا يلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء
والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

(١٣٥) جواد على : تاريخ العرب القديم ، ج ٢ ، ص ٦٢٢ .

(١٣٦) أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ١٣ : الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ١٠١ . وعن الطريف ما يذكره بروكوبيوس من أن أبرهة كان عبداً وان كان مواطناً رومانياً ، وكان يعمل فى التجارة فى ميناء عدول . PROCOP. Bell. Pers. I, p. 191 ويرجع Sellassie أن يكون أبرهة هذا هو الممثل التجارى للملك الحبشى كالب فى هذا الميناء . راجع .
Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 135

(١٣٧) الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ١٠٠ .

(١٣٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ويضيف قوله : « فجير الله بهم قريشا ، وأصلح أحوالها ، وأفاء عليها كثيراً من الخيرات ، فسمى هؤلاء الأربعة المجبرين » .

(١٣٩) يناقش عرفان شهيد مسألة بناء هذه الكنيسة فى صنعاء ، ويقدم آراء أخرى ترى بناءها فى ظفار أو نجران - لمعرفة ذلك راجع :
Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 81.

وقارن : الأزرقى : أخبار مكة ، ج ١ ، ص ١٢٩ : الدينورى : الأخبار الطوال ، ص ٦٢ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٧٧ .

(١٤٠) هذه الكلمة تصحيف للكلمة اليونانية Ecclesia

Shahid, Byzantium in South Arabia, pp. 81-82. (١٤١)

Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, (١٤٢)

p. 151 ويذكر الطبرى أن رجلاً يدعى محمد بن خزاعة الذكوانى ، قدم على أبرهة فى نفر من قومه ، يلتمسون فضله ، فأمره أبرهة على مكة ، وأمره أن يسير فى الناس فيدعوهم فى جملة ما يدعوهم اليه الى حج القليس ، فسار هذا حتى اذا نزل ببعض أرض بني كنانة ، وقد بلغ أهل تهامة أمره ، وما جاء له ، بعثوا اليه رجلاً من هزيل يقال له عروة بن حياض الملاصى ، فرماه بسهم فقتله وتفرق أصحابه . راجع : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١١٠ وايضاً تفسير الطبرى ، ج ٣ ، ص ١٩٤ .

(١٤٣) كانت بعض القبائل العربية مثل جذام وتغلب وعاملة على المسيحية ، لكنها مسيحية سطحية ، ولا شك أن السرعة التى اعتنقت بها هذه القبائل الاسلام ، تعد دليلاً على رقة ايمانهم بالمسيحية . انظر : عمر فروخ : تاريخ الادب العربى ، ج ١ ، ص ٦٢ .

(١٤٤) جواد على : تاريخ العرب القديم ، ج ٣ ، ص ٥١٧ - ٥١٨ .

(١٤٥) تذكر المصادر العربية أن رجلا من بني مالك بن كنانة ، أغاظه ما أغاظ العرب من بناء هذه الكنيسة ، فخرج حتى قدم اليمن ، فدخل الهيكل فأحدث فيه . فغضب أبرهة وأجمع على غزو مكة وهدم البيت !! راجع : ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٤٣ - ٤٦ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١١٠ ؛ الأزرقي : أخبار مكة ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .

Benjamin, Story of Persia, p. 233. (١٤٦)

(١٤٧) كانت هناك بعض الصلات بين المنذر الثالث ملك الحيرة ، وجوستنيان ، فقد حصل المنذر في بعض الأحيان على الجزية من الامبراطور البيزنطي ، وكان قادرا على التعامل معه دون تدخل الملك الفارسي ، بل ان هناك مراسلات دارت بين المنذر وجوستنيان كان واضحا منها أن جوستنيان يحاول استخدام دهائه الدبلوماسي لاستمالة المنذر الى صفه أو على الأقل زعزعة الثقة بينه وبين الملك الفارسي ، وقد وقعت بعض هذه المراسلات في يد كسرى أنوشروان مما أفقده لبعض زمن ، الثقة في ملك الحيرة . انظر PROCOP. Build., p. 163, hist. arc., p. 50

Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 198. وأيضا :

(١٤٨) يربط المفسرون المسلمون هذه الحملة وفشلها بمولد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ويطلقون على هذا العام عام الفيل ، ويستدلون على ذلك بخبر أصحاب الفيل الذي ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قول الله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » . وتختلف الروايات فيما بينها ، وبين القدامى والمحدثين حول السنة التي وقعت فيها هذه الحملة . وليس هنا مجال الخوض في مثل هذه الآراء .

(١٤٩) هسي : العلام البيزنطي ، ترجمة رافت عبد الحميد ، ص ٢٤٩ .

(١٥٠) ابن هشام : القيجان في ملوك حمير ، ص ٣١٥ ، السيرة ، ج ١ ، ص ٦٥ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١١٤ وما بعدها ؛ المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٨٠ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .

(١٥١) محمد الأکوع الجوالی : اليمن الخضراء ، ص ٤١٩ .

(١٥٢) للوقوف على خطورة هذا الأمر في السياسة البيزنطية عندئذ ، راجع : رافت عبد الحميد ، مصر والعرش البيزنطي ، بحث منشور ضمن كتاب مصر والبحر المتوسط ، القاهرة ١٩٨٥ .

(١٥٣) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٦٥ : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك
ج ٢ ، ص ١١٥ .

(١٥٤) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, (١٥٥)
p. 157.

(١٥٦) وقد جاء فى الحوار الذى دار بين سيف بن ذى يزن وكسرى أنوشروان ،
قول سيف : « .. أيها الملك : غلبتنا الأغربة على بلادنا ، فجئتك لتنصرنى عليهم ،
وتخرجهم عنى ، ويكون ملك بلادى لك ، فأنت أحب إلينا منهم » ، أنظر : الطبرى :
تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

(١٥٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

(١٥٨) أقدم بقايا الأحباش على الانتقام من سيف بن ذى يزن ، باعتباره السبب
فى القضاء على ملكهم هناك ، ومن ثم دبروا أمر اغتياله ، ونجحوا فى ذلك ، مما
أدى الى عودة القائد الفارسمى وهرز ثانية الى اليمن ومعه أربعة آلاف جندى ، وكانت
الأوامر الصادرة اليه تقضى بقتل كل الأحباش هناك حتى المولدين منهم . وقد أدى
ذلك الى هروب أعداد منهم الى مكة حيث لعبوا دورا بارزا فى الحياة العسكرية
والاجتماعية من بعد .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

(١) المصادر العربية

- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على ، ت ٦٣٠ هـ :
الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٨
- ابن العبرى ، جريجوريوس الملقى ت ٦٨٥ هـ :
تاريخ مختصر الدول ، بيروت بدون تاريخ .
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ت ٢٧٦ هـ :
المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ .
- ابن كثير ، الحافظ أبو الفدا ت ٧٧٤ هـ :
تفسير القرآن العظيم ، القاهرة بدون تاريخ .
- ابن هشام : أبو محمد عبد الملك ت ٢١٨ هـ :
— السيرة النبوية ، بيروت ١٩٧٥ .
— التيجان فى ملوك حمير ، صنعاء ١٩٧٩ .
- الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ت ٢٢٤ هـ :
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، بيروت بدون تاريخ .
- الألوسى ، أبو الفضل شهاب الدين محمود ت ١٢٧٠ هـ :
روح المعانى ، القاهرة بدون تاريخ .
- البلخى ، أبو زيد أحمد بن سهل :
البدء والتاريخ ، القاهرة ١٩٠٣ .
- الخازن ، علاء الدين على بن محمد بن ابراهيم :
لباب التأويل فى معانى التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ،
القاهرة ١٩٧٢ .

- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ :
- تاريخ الأمم والملوك ، بيروت بدون تاريخ .
- جامع البيان من تأويل آي القرآن ، القاهرة ١٩٦٨ ، وبهامشه تفسير النيسابوري .
- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت ٦٧١ هـ :
- الجامع لأحكام القرآن ، القاهرة ١٩٧٦ .
- الفخر الرازي ، محمد الرازي فخر الدين ت ٦٠٤ هـ :
- التفسير الكبير ومفتاح الغيب ، بيروت ١٩٨١ .
- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين ت ٣٤٦ هـ :
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٢ .
- النسفي ، أبو البركات عبد الله أحمد بن محمود ت ٧٠١ هـ :
- تفسير القرآن الجليل ، بيروت بدون تاريخ .
- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب ت ٢٨٤ هـ :
- تاريخ اليعقوبي ، بيروت ١٩٦٠ .
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي ت ٦٢٦ هـ :
- معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ .

(ب) المصادر غير العربية

- ATHANASIUS, Apologia ad Imperatorem Constantium, in Nicene and post Nicene Fathers of the Christian Church, Vol. IV, 2 ed. ser., ed. by Philip Schaff, Henry Wace, Michigan 1891 et sqq.
- BOOK of HIMYARITES, fragments of a hitherto unknown Syriac work, ed. with introduction and translation by Axel Moberg, London 1924.
- CHRONICON PASCHALE, in CSHB*, 2 vols. ed. by L. Dindorf, Bonn 1832.

- CONSTANTINUS VII PORPHYROGENITUS, *De Adminis-*
trando Imperio, trans. by R.J.H. Jenkins, Budapest, 1949.
- EUSEBIUS, *Historia Ecclesiastica*, Nicene and Post Nicene
fathers, vol. I, 2 ed. ser. Michigan 1891.
- IOANNES EPHEBUS, *Lives of the Eastern Saints*, the
Syriac text with an English translation, ed. and trans. by
E.W. Brooks, in P.O.** (XVII, XVIII, XIX, Paris 1923-
1925).
- IOANNES LYDUS, *De Magistratibus*, ed. by B.G. Neibuhr,
in CSHB*, Bonn 1873.
- MALALAS, *Chronographia*, ed. by L. Dindorf, in CSHB,
Bonn 1831.
- MENANDERUS, *Excerpta de Legationibus Romanorum*, ed.
by B.G. Neibuhr, in CSHB*, Bonn 1840.
- MICHAEL LE SYRIEN, *Chronographia*, ed. et trad. par
J.B. Chabot, Tome II, Paris 1904.
- PROCOPIUS, — *De Bello Gothico*, ed. and trans. by H.B.
Dewing, London 1940.
 - *De Bello Persico*, ed. and trans. by H.B.
Dewing, 2 vols., London 1914.
 - *Historia Arcana*, trans. by G.A. William-
son, London 1966.
- THEOPHANES, *Chronographia*, ed. by I. Classen, in CSHB*,
2 vols Bonn 1839.
- ZACHARIAH of MITYLENE, *Chronographia*, trans. by F.J.
Hamilton and E.W. Brooks, London 1899.

ثانيا : المراجع
(١) المراجع الأوروبية

- Bausani (A.), The Persians, from the earliest days to the twentieth century, London 1975.
- Benjamin (S.G.W.), The story of Persia, London 1986.
- Bury (J.), History of the Later Roman Empire, 2 vols. London, 1931.
- Chadwick (H.), The early church, London, 1974.
- Diehl (Ch.), Byzantium : Greatness and Decline, trans. from the French by Noami Walford, New Brunswick, 1957.
- Duchesne (L.), L'Eglise au VIème siècle, Paris, 1925.
- Dubnov (S.), History of the Jews, vol. 2, London, 1968.
- Dvornik (F.), Origins of intelligence services, New Jersey, 1974.
- Ghirshman (R.), Iran from the earliest times to the Islamic conquest, London, 1954.
- Hefele (C.S.), History of the Councils of the Church, trans. in 5 vols. and ed. by W.R. Clark, Edinburgh, 1972.
- Holms (W.G.), The age of Justinian and Theodora, 2 vols. London, 1912.
- Huart (C.), Ancient Persia and Iranian Civilization, London, 1972.
- Jones (A.H.M.), The Later Roman Empire, 3 vols. Oxford, 1964.
- Kavar (I.), Byzantium and Kinda, in Byzantinische zeitschrift, vol. LIII, Muchen, 1960.

- The Arabs in the Peace treaty of A.D. 561, in Arabica III, Leiden, 1956.
- Lebeau, Histoire du Bas Empire, Paris, 1827 sqq.
- Milman (H.), The history of the Jews, vol. 2, London, 1939.
- Milne (J.), A history of Egypt under Roman rule, London, 1913.
- Neal (J.M.), A history of the holy Eastern church, 2 vols. London, 1947.
- Parkes (J.), A history of Palestine from 135 A.D. to Modern times, London, (1949).
- Percival (H.R.), The Seven Ecumenical Councils, in Nicene and post Nicene fathers, Vol. XIV, Michigan, 1899.
- Philby (H. St. J.B.), The background of Islam, Alexandria, 1947.
- Reinaud (M.), Relation politiques et commerciale de l'Empire Roman avec l'Asie Orientale, Paris, 1893.
- Sellassie (S.H.), Ancient and Medieval Ethiopian history to 1270, Addis Ababa, 1972.
- Shahid (I.), Byzantium in South Arabia, in Dumbarton Oaks papers, XXXIII, 1979.
- Sharf (A.), Byzantine Jewry, London, 1971.
- Stein (E.), Histoire du Bas-Empire, Tome II, Paris, 1950.
- Trimmingham (J.S.), Christianity among the Arabs in pre-Islamic times, London, 1979.
- Vasiliev (A.A.), History of the Byzantine Empire 324-1453, 2 vols. Madison and Milwaukee, 1964.
- Justin the first, Cambridge 1950.
- URE (P.N.), Justinian and his age, Penguin Book, 1951.

(ب) المراجع العربية والمترجمة

- ابراهيم بيضون : الحجاز والدولة الاسلامية ، بيروت ١٩٨٣ .
- أحمد أمين : فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٧٥ .
- أحمد محمد الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، بيروت بدون تاريخ .
- السيد عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، الاسكندرية بدون تاريخ .
- أوليرى : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمة كامل وهيب ، القاهرة ١٩٦٢ .
- بارتولد (فاسيلى فلاديمروفتش) : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ترجمه عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ١٩٨١ .
- توينبى (أرنولد) : تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة فى جزئين، بيروت ١٩٨٨ .
- جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت / بغداد ١٩٧٧ .
- جورج فضل حورائى : العرب والملاحه فى المحيط الهندى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة بدون تاريخ .
- رافت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، أربعة أجزاء ، القاهرة ١٩٨٢ - ١٩٨٤ .
- الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢ ، المجلة التاريخية المصرية ، ٣٢/ القاهرة ١٩٨٥ .
- قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، المجلة التاريخية المصرية ، ٣٣/ القاهرة ١٩٨٦ .

- عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٦١ .
- عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، القاهرة بدون تاريخ .
- عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ، الجزء الأول ، العصر الجاهلى ، بيروت ١٩٨١ .
- تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٨٦ .
- فيليب حتى : تاريخ العرب ، بيروت ١٩٨٦ .
- كوستلر (آرثر) : امبراطورية الخزر وميراثها ، ترجمة حمدي متولى صالح ، دمشق ١٩٨٥ .
- لويس (أرشيبالد) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة بدون تاريخ .
- محمد أحمد حسونة ، الجغرافية التاريخية الاسلامية ، القاهرة بدون تاريخ .
- محمد الأكوع الحوالى : اليمن الخضراء مهد الحضارة ، ١٩٨٢ .
- محمد حسين هيكل : حياة محمد ، القاهرة - الطبعة الرابعة عشرة بدون تاريخ .
- محمد عبد القادر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، بيروت ١٩٧٣ .
- محمد محمد الشيخ : الممالك الجرمانية ، الاسكندرية ١٩٧٥ .
- ممتاز العارف : الأحباش بين مأرب وأكسوم، صيدا ، بيروت ١٩٧٥ .
- منذر عبد الكريم البكر : دراسات فى تاريخ العرب قبل الاسلام : تاريخ الدول الجنوبية فى اليمن ، البصرة ١٩٨٤ .
- موسكاتى (سبتينو) : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، بيروت ١٩٨٦ .
- نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، دمشق ١٩٧٥ .
- هايد (ف) : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، الجزء الأول ، ترجمة أحمد محمد رضا ، القاهرة ١٩٨٥ .

دور المتطوعة

فى حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول

بقلم

دكتور عبد الله بن سعيد بن محمد سافر الغامدى (*)

مقدمة :

الحمد لله القائل فى محكم كتابه (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) والصلاة والسلام على أشرف خلقه نبينا محمد وآله وصحبه وأتباعه ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ... وبعد

فقد حظيت عناصر الجيش الاسلامى زمن الحروب الصليبية والغزو المغولى ، باهتمام وعناية الدارسين والباحثين ، حيث تناولوا هذه العناصر وبالذات النظامية منها - كالجيش السلطانى وجيوش الأمراء وغيرها - بدراسات وأبحاث عديدة ، الا أن عنصراً هاماً وهم الجند المتطوعة لم ينل نصيبه من ذلك الاهتمام باستثناء ما أشار اليه بعض الباحثين إبان حديثهم عن العناصر النظامية . وقد حاولت من خلال هذا البحث المتواضع أن أسهم بالقاء بعض الأضواء على هذا الموضوع بهدف إبراز الدور الهام الذى اضطلع به المتطوعة خلال هذه الفترة الحاسمة والحرجة من تاريخ الأمة الاسلامية . وأوضحت فى هذه الدراسة أنه كان يوجد خلال تلك الفترة فرق عديدة من الجند المتطوعة لعبت دوراً بارزاً الى جانب الجيوش النظامية الأخرى ، فى مواجهة خطر الصليبيين والمغول ، حتى تم للمسلمين الخلاص منهما ، باقتناق المغول الاسلام ، واقتلاع الوجود الصليبي فى الشرق الاسلامى من جذوره ،

(*) أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى - قسم التاريخ - جامعة أم القرى -

وذلك خلال النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى .

وختاماً التمس من القارىء الكريم العذر فيما يظنه موضعاً لنقص أو تقصير أو زلة ، اذ الكمال لله تعالى وحده ، وهو المستعان والهادى الى سواء السبيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

المتطوعة ، أو المطوعة هم الجند الذين « يتطوعون بالجهاد » (١) الى جانب الجيش النظامى ، ايماناً بفرضية الدفاع عن حوزة الاسلام والمسلمين . ولم يكن هؤلاء المتطوعة من أهل الديوان ، وانما يفدون الى ساحات القتال ، من البدو وسكان القرى والامصار متى داهم العدو بلاد المسلمين (٢) ، أو أمر امام المسلمين بالنفير العام للجهاد فى سبيل الله امثالاً لقول الحق تبارك وتعالى (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) (٣) .

والمعروف أن الجيوش الاسلامية ، عرفت طائفة الجند المتطوعة طاول عصورها التاريخية ، فمن المتواتر عليه أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يكره أحداً من أصحابه على المشاركة فى الغزوات أو السرايا التى حدثت فى عهده ، ومن الثابت أنه صلى الله عليه وسلم أمر عبد الله بن جحش عندما أرسله فى سرية الى نخلة فى السنة الثالثة للهجرة أن لا يكره أحداً على الخروج معه . وعندما عزم عليه الصلاة والسلام على الخروج الى خيبر فى السنة السابعة للهجرة قال لأصحابه « لا يخرجن معنا الا راغب فى الجهاد » وعندما أراد الخروج الى تبوك فى السنة

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٨ ، ص ٢٤٣ .

(٢) نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ١٧ ، عبد العزيز السلومى ،

ديوان الجند ، ص ٣٤٠ ، جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ١ ، ص ١٧١ ،

١٧٢ ، ابراهيم الساكت ، الجيش فى التراث العربى الاسلامى ، ص ١٦٧ .

(٣) التوبة ، آية ٤١ .

التاسعة للهجرة بعث الى « القبائل والى مكة يستنفرهم ، ونحضر المسلمين على القتال ورجبهم فيه » (٤) .

ومن هذا يتضح لنا أن أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم هذه وأقواله لا تنطوي على أى الزام بالخروج ، وإنما كان الأمر لا يتعدى الحث على الجهاد والاستنفار اليه .

وبعد أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى سنة ١١هـ / ٦٣٢م . وآل أمر المسلمين الى الخليفة الراشد أبى بكر الصديق رضى الله عنه استمر أمر الخروج للجهاد على ذلك الوضع ، فكان الجيش الاسلامى يتألف من الجند المتطوعة الذين توافدوا من القرى والأمصار وعلى رأسها مكة والمدينة والطائف وغيرها ، وكانت رسل الخليفة تتردد على زعماء القبائل المجاورة كسليم وغفار ومزينة وجهينة يدعونهم ويستنفرونهم للجهاد فى سبيل الله تطوعاً (٥) . ولم يكره رضى الله عنه أحداً من المجاهدين على البقاء فى ساحات القتال ، فقد كتب الى خالد ابن الوليد رضى الله عنه بعد فراغه من اليمامة سنة ١٢ هـ يقول له « ان فتح الله عليك فعارق حتى تلقى عياضاً » وكتب الى عياض « ان سر حتى تأتى المصيخ فابدأ بها ، ثم ادخل العراق من اعلاها ، وعارق حتى تلقى خالداً ، وأذننا لمن شاء بالرجوع ، ولا تستفتحا بمتكاره » (٦) . ومما يؤكد أن الخروج للجهاد زمن الصديق رضى الله عنه كان طوعية لا اكراه فيه أنه درج على دعوة الناس للجهاد بالحسنى بعد أن يرغبهم فيه ويبين لهم منازل الشهداء عند الله تعالى . فيأتى من يستجيب الى المدينة « فمنهم من يسير الى أبى ، ومنهم من يسير الى يزيد ، يسير

(٤) لمزيد من التفصيل انظر ، محمد أحمد عواد ، الجيش والقتال فى صدر الاسلام ، ص ٧٣ - ٧٦ .

(٥) محمد أحمد عواد ، المرجع نفسه ، ص ٧٦ ، وفيق الدقوقي ، الجندي فى عهد الدولة الأموية ، ص ١٢٧ .

(٦) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ ، والمصيخ ، بضم الميم وفتح الصاد المهملة وياء مشددة وخاء معجمة ، يقال له بنى البرشاء ، وهو بين حوران والقلت . (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٤٤) .

كل الى من أحب « (٧) . واستمر النطوع للجهاد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ففى عهده ازدادت الحاجة لارسال المجاهدين لقتال الفرس والروم ، وأخذ يدعو الناس للجهاد ويحثهم عليه ، فهبت قبائل اليمن ملبية النداء وخرجت للجهاد نطوعا . ونظرا للحرية التامة التى تمتع بها هؤلاء المتطوعة فى اختيار الوجهة التى يفضلونها ، فانه ربما كان لوجود كثير من القبائل اليمنية فى الشام أثره فى دفع هذه القبائل على المسير الى هناك (٨) ، ولعل هذا الأمر هو الذى دعا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه الى القول « بل العراق فان الشام فيه كفاية » (٩) .

ورغم أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنشأ بعد ذلك ديوان الجيش وذلك فى سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م لتنظيم عملية الجهاد بعد أن اتسعت حركة الفتوحات الاسلامية ، الا أن الجيوش الاسلامية شهدت فئات متعددة من الجند المتطوعة بعد ذلك الوقت ، ففى العهد الأموى توافدت أعداد كثيرة من المتطوعة للجهاد ضد الأتراك المسيحيين والهنود الزرادشتيين وغيرهم ، وكان خروج هؤلاء المتطوعة يتم على نفقتهم الخاصة ، بل أسهموا أحيانا فى تكاليف العمليات الحربية بتقديم الأموال وتأمين العدد والمؤن اللازمة للجهاد والمجاهدين ، وكانوا يعاملون معاملة خاصة مغايرة لمعاملة العسكر النظامى ، اذ كان باستطاعتهم العودة الى ديارهم متى أرادوا (١٠) .

وروى الطبرى أن الخليفة العباسى هارون الرشيد رحمه الله ، لما فتح هرقلة سنة ١٩٠هـ / ٨٠٥م بث الجيوش والسرايا بأرض الروم « وكان دخلها فيما قيل فى مائة وخمسة وثلاثين ألف مرتزق ، سوى الاتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له » (١١) كذلك شهد القرن الثالث

(٧) انظر الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ ؛ محمد أحمد عواد ، المرجع نفسه ، ص ٧٨ .

(٨) محمود عواد ، المرجع نفسه ، ص ٧٨ .

(٩) الطبرى ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٧١ ، ٧٢ .

(١٠) وفيق البغدوقى ، الجندية فى عهد الدولة الاموية ، ص ١٢٨ .

(١١) انظر تاريخ الطبرى ، ج ٨ ، ص ٣٢٠ ، انظر أيضا ، القلقشندي ، مآثر

الهجرى التاسع الميلادى فرقا من المتطوعة للجهاد فى أرض خراسان وبلاد ما وراء النهر ، فقد تحدث المؤرخون عن بعض الثورات التى حركتها هذه الفرق ، وعن الدور الذى لعبته فرق المتطوعة فى قيام الدولة الصفارية التى أنشأها أحد قواد هذه الطائفة ، وهو يعقوب بن الليث الصفار ، وذلك فى سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م . وذكر ابن الأثير أنه ظهر فى خراسان فى هذه السنة شخص يدعى درهم بن الحسين « من المتطوعة » فتغلب عليها بواسطة يعقوب بن الليث الصفار - الذى كان قائد عسكره - ولما رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه اجتمعوا على يعقوب وملكوه أمرهم (١٢) كما يذكر الكندى . أن ثغور مصر المسماة بالمواجيز « يعمرها أهل الديوان والمطوعة » وكانت أحباس السبيل التى يتولاها القضاة تجمع فى كل سنة ، فاذا كان شهر أبيب بعث القاضى ما اجتمع من أموال السبيل ففرقت على مواجيز مصر من العريش الى لوبية ، وأعطيت « للمطوعة » ومن كان فقيراً من أهل الديوان « (١٣) » ويذكر بارتولد أن السلطان محمود الغزنوى ، استخدم عشرين ألف غاز من

الانافة ، ج ١ ، ص ١٩٦ ، وهرقلة : بالكسر ، ثم الفتح ، مدينة ببلاد الروم ، سميت بهرقلة بنت الروم بن اليقذ بن سام بن نوح عليه السلام (انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٩٨ .

(١٢) انظر الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٩١ ، انظر أيضا حامد غنيم ، عصر الدول الإقليمية ، ج ١ ، ص ١٩٠ ، جيرارد زلنغر ، الفتوة ، ص ٢٨١ . ويذكر النويرى فى نهاية الأرب أن يعقوب الصفار كان أول أمره أحد قادة صالح بن النضير الكنانى ، الذى اشتهر « بالتطوع » فى قتال الخوارج ، وقد تغلب على سجستان سنة ٢٣٧هـ وكان يعقوب مخلصاً له فجعله صالح فى مقام النائب عنه ، ولما مات صالح تولى مكانه درهم بن الحسين ، فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح ، ولم يكن درهم فى كفاءة صالح ورأى الجيش عجزه عن النهوض بأعباء الزعامة ، فاجتمعوا على يعقوب ، والتفوا حوله لما زأوه من حسن تدبيره وسياسته وقيامه بأمرهم ، ولم يقاوم درهم رغبة الجيش ، وسلم الأمور الى يعقوب واعتزل الجيش فاشتدت شوكة يعقوب « انظر ، ج ٢٣ ، ص ، انظر أيضا ، محمد حيدر ، الدويلات الاسلامية فى المشرق ٥٧ ، ٥٨ .

(١٣) نظر ، آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٩٥ ؛ نقلا عن الكندى القضاء والولاة ، ص ٤٨١ ، ٤١٩ .

المتطوعة جاء بهم من أماكن متفرقة في بلاد ما وراء النهر (١٤) . ويذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٩٢هـ / ١٠٠١م أن يمين الدولة محمود بن سبكتكين عزم في هذه السنة على غزو بلاد الهند ، واختار من عساكره « والمتطوعة » خمسة عشر ألفاً ونزل بهم على مدينة برشور ، فلقية ملك الهند جييال في عساكر كثيرة في المحرم من هذه السنة ودارت بين الطرفين معركة عنيفة انتهت بهزيمة الهند وأسر ملكهم ومعه جماعة كثيرة من عشيرته ، وغنم المسلمون منهم أموالاً كثيرة وجواهر نفيسة (١٥) . كذلك يذكر ابن الأثير أيضاً في حوادث سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م أن يمين الدولة سمح أن أهل تانيشر لديهم فيلة من جنس الصيلمان الموصوفة في الحرب وأن صاحب هذه المدينة بالغ في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين ، فعزم على عزوه وتأديبه « فسار في الجنود والعسكر المتطوعة » فقاتل الهندود حتى هزمهم وعاد إلى غزنة محملاً بالغنائم (١٦) .

وقد اشارت المصادر المعاصرة لفترة الحروب الصليبية الى أن الجيوش الاسلامية في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، اشتملت على فرق من الجند المتطوعة ، ومن ذلك أنه عندما توجه السلطان عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م لحصار الرها توافد عليه جمع غفير من « المتطوعة » فطوق بهم المدينة من جهاتها الأربع وحالوا بينها وبين

(١٤) جيرارد زلينغر ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٠ ، نقلا عن Barthold :
Turkestan down to the Mongol Invasion

(١٥) الكامل ، ج ٧ ، ص ٢١٣ ويمين الدولة هو : أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبي منصور سبكتكين ، لقبه القادر بالله بعد أن سلطنه بعد وفاة أبيه بـ « يمين الدولة ، وأمين الملة ، ولد ليلة عاشوراء سنة ٣٦١ هـ ، وتوفي بغزنه في ربيع الآخر ، وقيل حادى عشر صفر سنة ٤٢١ هـ وقيل سنة ٤٢٢ هـ (انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٧٥ - ١٨١) .

(١٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٧٢ ؛ وتانيشر أو تانيسر ، بناء مثناه فوقية ، ثم الف ونون مكسوره ، ثم ياء ساكنة ثم سين أو شين مفتوحة ، ثم راء مهملة ، مدينة من بلاد الهند (راجع المصدر نفسه للحاشية) .

ما يصل اليها من المير والآقوات (١٧) .

كما استدعى فى السنة نفسها وللغرض نفسه « طوائف التركمان المتطوعة » (١٨) . وذكر سبط ابن الجوزى أن عدد من شارك صلاح الدين فتح بيت المقدس من المتطوعة بلغ زهاء عشرة آلاف رجل من كل الأجناس (١٩) . وعبر لين بول عن ذهوله الشديد من كثرة عدد المتطوعة فى جيش صلاح الدين يوم حطين (٢٠) . وعندما قصد السلطان المملوكى الأشرف خليل بن المنصور قلاوون عكا سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م لطرد الصليبيين منها اجتمع عنده العسكر الاسلامى بأعداد لا تحصى « وكان المتطوعة أكثر من الجند ومن فى الخدمة » (٢١) .

عناصر الجند المتطوعة ضد الصليبيين والمغول :

أولا : العلماء والفقهاء

تطالعنا المصادر الاسلامية المعاصرة لفترة الحروب الصليبية والغزو المغولى للشرق الاسلامى ، بعبارات واضحة تنم عن المشاركة الفعلية لفئات من العلماء والفقهاء الذين كانت لهم الكلمة النافذة والحظوة لدى الحكام والمحكومين فى الحروب التى خاضها المسلمون ضد الصليبيين والمغول ، من ذلك ما ورد فى معظم المصادر المعاصرة من أن الشيخ أبا عبد الله بن على ابن مهران الفقيه الشافعى ذكر عنه تلاميذه أنه غاب عنهم يوم فتح الرها ، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور ، عنده من الارتياح ما لم يروه أبدا ، فلما قعد معهم تظاهر أمامهم بأنه لم يحضر مع عماد الدين زنكى استرداد الرها . ولكن نفرا من الاجناد كانوا قد حضروا مجلسه ،

(١٧) انظر ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٩ ؛ ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ،

ص ٢٧٩ .

(١٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

(١٩) انظر ، مراة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٢٩٨ .

(٢٠) انظر حسان بنعداوى ، المرجع نفسه نقلا عن

Laenepoole, Saladin, p. 204

(٢١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٥ ، ابن كثير ، البداية

والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٠ .

قالوا له « منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح ، وهو ينكر حضوره ،
وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا » (٢٢) .

كذلك ذكر ابن القلانسي أن نور الدين محمود عندما عزم في سنة
٥٥٢هـ/١١٥٧م على مهاجمة الصليبيين في بانياس أمر بالنداء « في
البلد المحروس في الغزاة والمجاهدين والأحداث المتطوعة من فتيان البلد
والغريباء ... وتبعه من الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين
العدد الكثير » (٢٣) ويذكر أسامة بن منقذ أنه عندما قصد رجال الحملة
الصليبية الثانية دمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م بزعامة الامبراطور الالماني
كونراد الثالث ، خرج عسكر دمشق لصددهم ، وفي جملتهم « الفقيه
الفندلاوى ، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلولى ، رحمهما الله ، وكانا
من خيار المسلمين ، فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن ، ما هؤلاء
الروم ؟ قال بلى ، قال ، فالى منى نحن وقوف ، قال ، سر على اسم
الله تعالى ، فتقدما وقاتلا حتى قتلا في مكان واحد » (٢٤) وظهر دور
العلماء والفقهاء أيضا خلال الدور البارز الذى قام به صلاح الدين في
حركة الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام من ذلك ما ذكره ابن كثير
أن صلاح الدين عندما عزم على استرداد بيت المقدس من الصليبيين سنة
٥٨٣هـ/١١٨٧م « قصده العلماء والصالحون تطوعا » (٢٥) كما شارك
العلماء والفقهاء قوات صلاح الدين التى خرجت من مصر تحت قيادة
متولى الأسطول المصرى حسام الدين لؤلؤ ، الذى جهز المراكب وسيرها
في البحر بعد أن شحنها برجال « البحرية ذوى التجربة والتحرية من
أهل النخوة للدين والحمية » (٢٦) لتعقب القوات الصليبية التى أرسلها
البرنس ارناط « رينودى شاتيون » حاكم الكرك والشوبك في عرض

(٢٢) ابن الأثير ، الباهر ، ص ٧٠ .

(٢٣) ابن القلانسي ، نيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٠ .

(٢٤) كتاب الاعتبار ، ص ١٢٢ ؛ والفندلاوى هو الفقيه أبو الحجاج يوسف بن

درناس ، شيخ المالكية بدمشق ، كان اماما عالما زاهدا (انظر ابن القلانسي

المصدر نفسه ، ص ٢٩٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ ؛ ابن كثير ،

البداية والنهاية ، ج ٢٢ ، ص ٢٢٥ .

(٢٥) ابن كثير ، المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢ .

(٢٦) العماد ، البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

البحر الأحمر ، ونزلت فى ميناء عيذاب ثم عبرت البحر الى السواحل الشرقية عند رابغ والخوراء بهدف المساس بحرمة المقدسات الاسلامية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولكن القوات الاسلامية تعقبها حتى أدركتها ولم يبق بينها وبين المدينة سوى مسيرة يوم واحد . وقبض عليهم المسلمون وأرسلوا الى مصر مكبلين فى الاصفاد ، حيث أمر صلاح الدين بقتلهم جميعا بعد استعراضهم فى شوارع القاهرة والاسكندرية « وتولى قتلهم الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة » (٢٧) .

ويبدو أن مشاركة العلماء والفقهاء صلاح الدين فى حركة الجهاد لم تقتصر على من كان منهم قريبا من ساحات القتال ، بل تعدى ذلك الى أنهم كانوا يقدون للمشاركة من مناطق نائية ، من ذلك ما ذكره ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٨٤هـ أنه فى هذه السنة حضر عند صلاح الدين فى بلاد الشام فقيه مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وأميرها الشيخ عز الدين أبو الفليته قاسم بن المهنا العلوى الحسينى « وشهد معه مشاهده وفتوحة » (٢٨) ، كما تردد فى المصادر المعاصرة أن رسل الحكام المسلمين كانت تخرج الى الأمصار الاسلامية « للاستنفار والاستنصار » (٢٩) . و « لاستدعاء العساكر والجموع » (٣٠) وأنه كان يهل « للاستدعاء أهل الاستعداد » (٣١) اذ المقصود بالاستنفار استدعاء العساكر النظامية ، أما الاستنصار فلعل المقصود بها حث عامة الناس على الخروج للجهاد تطوعا من غير الزام . كما يبدو أن كلمة الجموع قصد بها هنا الغزاة المتطوعة . أما أهل الاستعداد فيشمل كلا الفئتين .

(٢٧) انظر الحنبلى ، الأنس الجليل ، ص ٣١٧ ؛ عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٣ - ٤٤ ؛ ورابغ واد على عشر أميال من الحجفة بينها وبين الأيواء ، وساحل الخوراء موضع على الساحل الشرقى للبحر الأحمر (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢٨) انظر الكامل ، ج ٩ ، ص ١٩٥ .

(٢٩) انظر العماد ، الفتح ، ص ٣٣١ ، أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٣٠) العماد ، المصدر نفسه ، ص ١٩١ .

(٣١) العماد ، المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

ويظهر أن طائفة العلماء والفقهاء كانت حريصة على الخروج للجهاد تطوعاً في أحلك الظروف وأقساها . ويستدل على ذلك مما ذكرته المصادر العربية من أن صلاح الدين عندما خرج إلى ثغر عكا بعد أن حاصرها الصليبيون سنة ٥٨٥هـ رافقه عدد من العلماء الاجلاء منهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري الذي ظل ملازماً للسلطان صلاح الدين حتى مات في ركابه بمنزلة الخروية قريباً من عكا (٣٢) ، وكذلك العالمان الجليلان حسام الدين سنقر الاخلاطي الذي توفي وهو مرابط مع صلاح الدين على مشارف عكا في رجب من السنة نفسها « وأسف المسلمون أسفاً شديداً فإنه كان شجاعاً ديناً » (٣٣) والشيخ الجليل حسام الدين طمان الذي رافق صلاح الدين حتى تل العياضية المقابل لتل المصلين الذي يشرف على عكا ثم توفي من الاجهاد ودفن في سفح هذا التل وصلى عليه ابن شداد مع « جماعة من الفقهاء » الذين رافقوه وذلك ليلة نصف شعبان (٣٤) ، كما وفد على صلاح رجل « كبير مذكور » من أهل مازندران « يريد الغزاة » فوصل والحرب قائمة ، ولقى السلطان وتكلم معه واستأذنه في الجهاد ، وحمل حملة شديدة حتى استشهد رحمه الله (٣٥) ، كذلك أبرز ابن الأثير الدور الذي لعبه الغزاة المتطوعة ، إبان الحصار الصليبي لعكا ، فأورد له عنواناً وسمه بوقعة « للغزاة المتطوعة » ذكر إن صلاح الدين ركب سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م في عدد يسير من جيشه ، لينظر إلى مخيم الصليبيين من الجبل ، كي يعمل بمقتضى ما يشاهده « وظن من هناك من غزاة العجم والعرب والمتطوعة » أنه على قصد المنصاف والحرب ، فساروا مجدين وأوغلوا في أرض العدو ، تاركين السلطان وراءهم فأرسل صلاح الدين عدداً من رجاله يردونهم ويحمونهم ، فلم يسمعوا ولم يقبلوا ، وكان الصليبيون قد اعتقدوا أن وراءهم كميناً ،

... (٢٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٣٤ .

... (٢٣) ابن شداد ، النوار السطانية ، ص ٨٨ .

(٢٤) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ص ٩١ ، عفاف صبرة ، المرجع نفسه ص .

(٢٥) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ص ١٥٢ ، ومازندران ، هي التي كانت

تعرف بطبرستان ، حيث يذكر لسترنج أنه منذ المئة السابعة للهجرة بطل استعمال هذا الاسم وحل محله اسم مازندران ، وهو ما يعرف اليوم بجبال البرز الممتدة بحذاء

الساحل الجنوبي لبحر قزوين (انظر بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٠٩) .

فترددوا بادىء الأمر فى مهاجمتهم ، فأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر ،
فأتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين ، فحمل عليهم الصليبيون
واستشهد منهم جمع كثير (٣٦) .

كذلك أسهمت هذه الطائفة فى حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن
السلطان العادل الأيوبي وابنائهم واحفاده من بعده . حيث ظهر دورها
واضحاً فى الدفاع عن الأراضى المصرية التى استهدفتها الحملتان
الصليبيتان الخامسة والسابعة ، فقد شارك عدد من الفقهاء والعلماء
الجنود النظاميين فى مقاومة الحصار الصليبي الذى فرضه رجال الحملة
الصليبية الخامسة على ثغر دمياط سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م ونال كثير منهم
الشهادة عليه ، كالفقيه محمد بن اسماعيل بن القاضى ، الشهرير بآبن
أبى صادق . والفقيه العالم جلال الدين بن شاش امام المالكية ومرجعهم ،
الذى خرج فى آخر أيامه ، ولما عاد امتنع من الفتيا تورعاً ، وفضل
المشاركة فى الجهاد ضد الصليبيين بنفسه فمضى الى دمياط والعُدو
محاصر له وقاتل حتى استشهد . وكذلك الشيخ محمد بن أبى القاسم
ابن عبد الله الهكاري الذى اشتهر برجاحة عقله ووفير علمه وسداد رؤية ،
فوثق به الملك المعظم واتخذته مستشاراً له ، وظل كذلك حتى استشهد
على قلعة الطور التى أمر العادل بهدمها « ليتوفر من فيه من المسلمين
والعدد على حفظ دمياط » (٣٧) ومنهم أيضاً الشيخ أبو الحسن بن قفل
الذى وقع فى أسر الصليبيين عند دخولهم دمياط ، فسألوا عنه فقبل لهم
« هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين يأوى اليه الفقراء ، فما تعرضوا
له بعد » (٣٨) وممن أسهم أيضاً فى محاولة صد الصليبيين عن هذا الثغر
المؤرخ المعاصر أبى المظفر سبط ابن الجوزى حيث كتب اليه الملك المعظم
وهو بدمشق يخبره بما جرى على دمياط ، وطلب منه أن يحرض الناس
على الجهاد ، فقال له « انى كشفت ضياع الشام فوجدتها ألف قرية منها

(٣٦) انظر الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٠٠ ، انظر أيضاً ، العماد ، الفتح ، ص

٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٣٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٢١ .

(٣٨) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ١١٧ .

(مجلة المؤرخ العربى)

ألف وستمئة من أملاك لأهلها ، وأربع مائة سلطانية ، وكم مقدار ما تقوم به هذه الأربعمئة من العساكر وأريد أن يخرج الدماشقة ليزبوا عن أملاكهم » فجلس سبط ابن الجوزى فى جامع دمشق ، وقرأ كتابه عليهم ، فتقاعدوا وكان تقاعدهم ثمناً لأخذه الثمن والخمس من أموالهم . ولما علم المعظم بذلك كتب الى سبط أنهم اذا لم يخرجوا فسر أنت الينا ، فخرج سبط الى الساحل فوافى المعظم وهو نازل على قيسارية ، فأقام معه حتى فتحها عنوة ثم توجه معه الى الثغر « ففتحته وهدمه وعاد الى دمشق » (٣٩) .

وعندما تعرضت الأراضى المصرية لخطر الحملة الصليبية السابعة سنة ٦٤٧هـ - ٦٤٨هـ / ١٢٤٩م أبلى الفقهاء والعلماء بلاء حسناً فى الدفاع عنها وقد تجلّى دورهم بوضوح فيما أبدوه من بسالة وتضحية فى معركتى المنصورة وفارسكور ، فممن استشهد فى هذه المحنة العالم الجليل ضياء الدين أبو الحسين ، الذى كان شيخاً عنى بدراسة الحديث والفقه ، تعرض لطعنات الفرنج فى المنصورة حتى استشهد ودفن جثمانه الطاهر فى القاهرة (٤٠) .

وممن أسهم أيضاً فى صد الصليبيين عن الأراضى المصرية فى هذه السنة العز ابن عبد السلام ، الذى شارك بنفسه فى هزيمة الصليبيين فى المنصورة ، وكانت له كرامة أثناء القتال أوردها السبكى فى طبقاته حيث قال عنه « وكان الشيخ مع العسكر ، وقويت الريح ، فلما رأى الشيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مشيراً بيده الى الريح ، يا ريح خذهم ، عدة مرات ، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها ، وكان الفتح ، وغرق أكثر الفرنج ، وصرخ من بين يدي المسلمين صارخ : الحمد لله الذى أرانا فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً سخر له الريح » (٤١) .

(٣٩) أبو شامة ، المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

(٤٠) لمزيد من التفصيل نظر عفاف صبرة ، دراسات فى الحروب الصليبية ، ص

(٤١) السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٢١٦ ، انظر أيضاً محمد الزحيلي ،

العز بن عبد السلام ، ص ١٢٤ ؛ والعز : هو شيخ الاسلام عبد العزيز بن عبد السلام

وعندما فوجيء الشرق الاسلامى فى أوائل القرن السابع الهجرى - الثالث عشر الميلادى - بحملات المغول المدمرة الذين حطموا دولة فى ايران والعراق وآسيا الصغرى وبلاد الشام ، ولم يوقف زحفهم سوى دولة المماليك الفتية فى مصر التى ألحقت بهم هزيمة منكرة فى معركة عين جالوت الشهيرة سنة ٥٥٨هـ / ١٢٦٠م وانقذت من تبقى من العالم الاسلامى من خطرهم المدمر . أسهم العز بن عبد السلام بجهد وافر فى هذه المعركة اذ كان له دور بارز فى تحريض الجيش المملوكى المسلم على الخروج لمواجهة المغول فى فلسطين قبل وصولهم الى الأراضى المصرية ، وافتنى بأنه « اذا طرق العدو بلاد الاسلام وجب على العالم قتالهم » وجاز للحاكم أن يأخذ من الرعية ما يستعين به على الجهاد ، شريطة أن لا يبقى فى بيت المال شئ ، وأن يحضر ما عنده وعند امرائه وحزيمهم من الحلى ، وتسك نقودا ثم تفرق على العسكر (٤٢) .

وعندما خرج المسلمون لمواجهة المغول رافقهم العز رغم كبر سنه ، ويذكر أنه قال لمن تخاذل من الجنود فى الخروج خوفاً من بطش المغول « أخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر » (٤٣) .

وممن برزوا فى تلك الآونة العالم الفقيه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد الذى استطاع بخطبه البارعة أن يؤثر على جموع المسلمين بمصر

ابن أبى القاسم بن حسن بن محمد السلمى المعزوف بسلطان العلماء وبائع الملوك ، كان عالماً فقيهاً عابداً صالحاً مجتهداً أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر لا يخشى فى الله لومة لائم ، ولد بدمشق سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م صنّف الكثير من المؤلفات فى الشريعة واللغة ، وله العديد من الفتاوى قادت الى السجن فى الشام ومن ثم الهجرة الى مصر حيث عين قاضياً ومارس التدريس والافتاء ، توفى بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م (انظر ترجمته مفصلة فى السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٢١٩ ، ٢٥٥ ، وانظر أيضاً الزحيلى ، المرجع نفسه ، ص ٢٩ ، على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، ص ٢٧٨) .

(٤٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٤٣) سليم الهلالى ، صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، ص ٦٢ - ٦٣ . ومما يجدر ذكره هنا أن العز شارك فى معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ وتوفى سنة ٦٦٠ هـ وعمره ٨٣ سنة .

بدعوتهم للخروج لملاقاة المغول في عين جالوت. وشاركهم القتال بنفسه في هذه المعركة التي ادى انتصار المسلمين فيها الى تغيير موازين القوى في الشرق لصالح الاسلام والمسلمين (٤٤) .

وقد برزت لنا شخصية أخرى من الفقهاء الذين أسهموا في حركة الجهاد ضد المغول ذلك هو شيخ الاسلام محي الدين أبو زكريا النووي ، الذي ذكر عنه ، أنه كرر فتوى العز بن عبد السلام ، فيما يتعلق بمسألة جواز أخذ مال من الرعية يستنصر به على قتال العدو . اذ أنه عندما كتب فقهاء الشام الى السلطان المملوكي المظاہر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧م) بجواز ذلك ، امتنع عن موافقتهم مشترطاً نفس الشروط التي شرطها العز على السلطان المملوكي السابق المظفر قطز (٦٥٧ - ٦٥٨هـ / ١٢٥٩ - ١٢٦٠م) فغضب عليه بيبرس ، وقال له أخرج من بلدي « يعني دمشق » فخرج الشيخ الى نوى ، فشفع فيه الفقهاء والعلماء ، وقالوا لبيبرس هذا من علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به ، وطلبوا بإعادته الى دمشق ، فرسم بيبرس برجوعه ، لكن الشيخ أبى ورد قائلا « لا أدخلها والمظاہر فيها » ومات بعد شهر من ذلك (٤٥) .

(٤٤) انظر عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ ، نقلا عن الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٥٦٧ . وابن دقيق العيد هو : الامام العلامة الفقيه محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة ، المنفلوطي الأصل ، المصري القوصي المنشأ ، المعروف بتقى الدين بن دقيق العيد ، تولى القضاء بالديار المصرية سنة ٦٩٥ هـ ، واستمر فيه الى ان توفي سنة ٧٠٢ هـ . (انظر ترجمته مفصلة في ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٩١ - ٩٦) .

(٤٥) انظر البدرى ، الاسلام بين العلماء والحكام ، ص ١٠١ ؛ محمد نعيم ياسين ، الجهاد ميادينه وأساليبه ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ . والامام النووي هو : الامام الحافظ الفقيه المحدث محي الدين أبو زكريا شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعه بن حزام النووي الدمشقي ، ولد في نوى من أرض حوران سنة ٦٢١ هـ ، كان رحمه الله على جانب كبير من العلم والعمل والورع والزهد ، والصبر على خشونة العيش ، والمصابرة على أنواع الخير ، لا يعرف ساعة في غير طاعة لله . عاد في آخر عمره الى بلده نوى ، فمرض عند أبيه وتوفي ليلة الأربعاء لست يقين من شهر رجب سنة ٦٧٦ هـ ، ودفن بها (انظر الامام النووي ، التبيان في آداب حملة القرآن ، مقدمة المحقق ، ص د - ط) .

ورغم أننا لا نعرف ان كان السلطان المملوكى بيبرس قد وافق على شروط الامام النووى أم لا ، عندما رسم بارجاعه ، فان الذى يهمنا هو أن مشاركة النووى فى الجهاد ضد المغول ضمن الجيش المملوكى كان من قبيل التطوع ، بدليل أن السلطان بيبرس لم يطالبه بشئ عندما أمره بالخروج من دمشق .

وممن أسهم فى حركة الجهاد ضد المغول من أئمة المسلمين وفقهائهم شيخ الاسلام وحجته الامام تقى الدين أحمد بن تيمية رحمه الله . ذكر ابن كثير أنه فى يوم العشرين من شوال سنة ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م ركب نائب السلطنة المملوكية بالشام جمال الدين أقوش الأفرم فى جيش من دمشق متوجهاً الى جبال الجرد وكسروان ، وخرج معه الشيخ تقى الدين بن تيمية ومعه « خلق كثير من المتطوعة والخورانة » لقتال أهل تلك الناحية بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم (٤٦) .

وختاماً فان ما أوردته نماذج فى هذه العجالة المتواضعة عن دور العلماء والفقهاء فى المشاركة فى حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول تطوعاً ابان هجومهم على الشرق الاسلامى كان على سبيل المثال لا الحصر . فالمقام لا يتسع لحصر من أسهم من هذه الفئة فى هذا المجال .

ثانياً : فرق الأحداث

الأحداث أو الحدثان ، جمع حدث وهو « الفتى السن » ويقال رجل حدث ، أى شاب ، وهؤلاء غلمان حدثان ، أى أحداث (٤٧) . ويذكر بعض المؤرخين أن طائفة الأحداث هذه ، تكونت فى بعض مدن الشام منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى -

(٤٦) انظر البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٢ ؛ والخورانة : نسبة الى حوارين من قرى حمص من جهتها الجنوبية ، قال الشاعر ظللنا بحوارين فى مشمخرة : تمر سحباً تحتنا وتلوج (انظر لسان العرب ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ مادة (حور) ، أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٨٣ ، وتبعد الآن عن حمص حوالى ٧٥ كم ، وتتبع ادارياً ناحية القريتين (ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٥٣ تحقيق سهيل زكار .

(٤٧) ابن منظور ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢ - ٣٣ ، مادة (حدث) .

يهدف مقاومة الحكم الفاطمي . وهم عبارة عن جماعات من القوات المدنية كان يوكل اليهم الى جانب ذلك عدد من المهام داخل المدن ، كحفظ النظام ، ومكافحة الحرائق ، واغاثة المنكوبين ، اضافة الى أنهم كانوا يلحقون بالقوات النظامية عندما يعلن داع الجهاد النفير العام للخروج لقتال الأعداء . متى دعت الحاجة اليهم (٤٨) .

والملاحظ أن كلمة أحداث عندما تذكر في المصادر ، فانها غالباً ما ترد مقرونة بلفظ المتطوعة . من ذلك ما ذكره المؤرخ أبو شامة في حوادث سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م أبان حديثه عن الحصار الذي فرضه رجال الحملة الصليبية الثانية على دمشق بزعامة الامبراطور الألماني كونراد الثالث والملك الفرنسي لويس السابع حيث وقف المسلمون بإزائهم في السبت سادس ربيع الأول ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع لقتال الصليبيين « من الأعمال والاجناد والقتال والآثرات » ، وأحداث البلد والمتطوعة والغزاة الجم الغفير « (٤٩) وذكر ابن القلانسي في حوادث سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م أن نور الدين محمود بن زنكي تأهب لمجاهدة الفرنج في هذه السنة وأمر بالنداء في دمشق لحث « الغزاة والمجاهدين والأحداث والمتطوعة من فتيان البلد والغرباء ، فتبعه من الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير » (٥٠) وعليه فانه يبدو لنا أن هؤلاء الأحداث لم تكن اسمائهم مدرجة ضمن قوائم العسكر النظامي ، وانما كانوا يخرجون للجهاد بمحض اختيارهم تطوعاً ،

(٤٨) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠٧ حاشية المحقق ؛ سعيد عاشور ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ٣٠ - ٣١ ، مفسر الغامدي ، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الاسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر ، ص ٤٩ ، ويمكن أن تشبه فرق الأحداث هذه بما يعرف في وقتنا الحاضر ، بفرق الدفاع المدني، أو المقاومة الشعبية ، التي تحرص الحكومات الحالية على اعدادها وتطويرها لمواجهة الأزمات والكوارث الناجمة عن اشتعال الحروب ، أو حدوث الزلازل والفيضانات والحرائق وما شابهها .

(٤٩) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٢ .

(٥٠) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٠ ، انظر أيضاً ، أبو شامة ،

المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

ولعل مما يؤيد هذا ، أن المصدر نفسه يورد كلمة أحداث هذه تارة مقرونة بلفظة الأجناد ، وأخرى بالعسكر وذلك تمييزاً للأحداث عن الجند النظاميين ، من ذلك ما ورد في حوادث سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م ، أن نور الدين محمود بن زنكى نزل في هذه السنة بأرض داريا الى جسر الخشب « ونودي في البلد بخروج الأجناد والأحداث » (٥١) وأنه عندما دخل مشق سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م « زحف اليه من عسكره وأحداثه الخلق الكثير » (٥٢) .

ويطلق على زعيم هذه الطائفة لقب مقدم أو رئيس الأحداث (٥٣) . وكان يتمتع على ما يبدو - بحماس ديني كبير ، وصل الى حد الخروج على الزعيم المحلي متى بدر منه تقاعس عن أداء مهامه الدفاعية ضد الأعداء ، وتمهيد السبيل للبديل الأصح . من ذلك ما حدث سنة ٥٤٩هـ عندما قصد نور الدين محمود مهاجمة دمشق حيث راسل « أحداثها وزباطرتها » ، واستمالهم اليه ، فأجابوه الى تسليم البلد ، ذلك أنه ما ان بدأ نور الدين حصاره لدمشق ، حتى أعلنوا ثورتهم على حاكمها مجير الدين أبق البورى وسلموا البلد لنور الدين بأن فتحوا له بابها الشرقى ، فدخله بالآمان عاشر صفر ، وحصر مجير الدين في القلعة وراسله ووعدته بمنحة الأقطاع الكثير ، ومن جملته مدينة حمص ، فأجاب الى تسليم القلعة ، بحيث سلمها ورحل الى حمص (٥٤) .

ولم يقتصر ظهور طائفة الأحداث هذه على مدينة دمشق ، بل يبدو أنه كان لكل مدينة شامية أحداثها . من ذلك ما ذكر من أن الأحداث الحلبيين ساعدوا الأمير أسد الدولة صالح بن مرداس الكلابى على أنتزاع حلب من يد الفاطميين سنة ٤٥١هـ / ١٠٢٤م) وعين أبا المرضى سالم بن مستفاد الحمدانى غلام سيف الدولة بن حمدان مقدمهم ، وعندما استعاد

(٥١) أبو شامة ، الزوضتين ، ج ١ ، ص ٨٠ .

(٥٢) أبو شامة ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٩٦ .

(٥٣) نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ١٤ .

(٥٤) ابن الأثير ، الياهر ، ص ١٠٧ . والزناطره : طبقة معينة من سكان المدن

كانت مولعة بتحريك الفتن والقتال (انظر المصدر نفسه حاشية ٤) .

الفاطميون حلب من بنى مرداس ، استدعى الحلبيون وفيهم الأحداث سنة (٤٣٤هـ / ١٠٤٢م) معز الدولة علوان ثمال بن صالح وابن عمه مقلد بن كامل بن مرداس ، فوصل ثمال قبل المقلد ودخل حلب واجتمع اليه الأحداث (٥٥) . وكذلك ما ذكره ابن العديم ، عند حديثه عن الصراع الذي دارت رحاه بين رضوان بن تنش صاحب حلب ، وبين أخيه دقاق صاحب دمشق سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧م . حيث ذكر أن رضوان عندما علم بأن ياغى سيان صاحب أنطاكية وصل نجدة لدقاق ، استنجد رضوان بسليمان بن ايلغازى صاحب سميساط (٥٦) . فوصل بعسكر كثير الى حلب وجمع رضوان للدفاع عنها من قـدر عليه من الترك والعرب « وأحداث حلب » كما ذكر ابن العديم فى موضع آخر أن رضوان عندما سمع بهجوم الصليبيين على أرتاح توجه نحوهم فى عساكره وجموعه « وجمع ما أمكنه من عمل حلب من الأحداث » (٥٧) اذ يفهم أن المقصود بعمل حلب ، هو المدن والقرى والحصون والضياع التابعة لها . كما يتضح من هذا أن مهام هؤلاء الأحداث لم تكن مقصورة على حفظ الأمن داخل المدن ، بل كانوا يخرجون للجهاد ضد الصليبيين متى دعت الحاجة الى ذلك .

كما ذكر سبط بن الجوزى أنه خرج سنة (٦٠٧هـ / ١٢١٠م) من دمشق الى نابلس « الى الغزاة » وكان معه من قرية واحدة يقال لها زملكا من قرى دمشق ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح ، ومن غيرها خلق كثير «والكل خرجوا احتسابا» (٥٨) .

أما بالنسبة لحجم قوة هذه الطائفة ومدى تأثيرها على مجريات الحوادث ، واتخاذ القرارات فى بعض مدن الشام ، فانه يمكن أن نلاحظ ذلك من خلال وصف دقيق وصف به المؤرخ سوفاجيه Sauvaget

-
- (٥٥) عمر رضا كحالة ، دراسات اجتماعية فى العصور الوسطى ، ص ٢٦ .
(٥٦) سميساط بضم أوله وفتح ثانيه ، مدينة على شاطئ الفرات (انظر ياقوت معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٥٨) .
(٥٧) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ، وأرتاح : حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٤٠) .
(٥٨) انظر مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٤٤ - ٥٤٥ .

أحداث مدينة حلب إبان القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين - الخامس والسادس الجهريين - حيث قال « هذه المنظمة كانت تمثل قوة تحسب لها الدولة حسابها فقد كان رئيسها فى الواقع سيد المدينة ، وكان له النفوذ التام فى أزمنة الفوضى ، بحيث لم يكن باستطاعة أى كان أن يفرض سلطته دون التعاون معه ، ويسبب ذلك أصبح تأييده مما يتنافس عليه المعنيون بالأمر عن طريق بذل المال ، ومن ثم كانت الدولة تعترف به رسميا ، الأمر الذى ثبت مركزه رئيساً للمدينة . ولم يكن يأتى من بين الرعاع ، بل على العكس كان من الأسر ذات المقام المرموق بحيث يمكنه أن يفرض احترامه على الجميع ، بما فى ذلك السلطان » (٥٩) .

ثالثا : التركمان المتطوعة

شهد اقليم الجزيرة منذ النصف الأول من القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى - هجرة جماعات من القبائل التركية البدوية (التركمان) التى اعتنقت الاسلام منذ بداية هذا القرن . وقد عرف هؤلاء المسلمون الجدد بحماسهم الشديد للاسلام وبراعتهم فى استخدام السهام التى قلما يخطئون الرمى بها .

وأدى مجيئهم الى دفع حركة الجهاد . حيث عمد السلاطين فى الشرق الاسلامى الى الاستعانة بهم بالسماح لهم بالتطوع فى صفوف جيوشهم ، فيذكر ابن العديم أن عماد الدين زنكى عندما عزم على مهاجمة الصليبيين فى الرها سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م استدعى « طوائف التركمان المتطوعة » (٦٠) كما يذكر ابن القلانسى عند تناوله الحدث نفسه أن زنكى « كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها - أى الرها - والاستتجاد وأداء قريضة الجهاد ، فوصل اليه منهم «الخلق الكثير والجم الغفير» (٦١) وذكر فى موضع آخر أن زنكى لما بلغه أن الصليبيين قد تجمعوا بانطاكية لانجاد أهل الرها ، انهض اليهم جيشاً

(٥٩) نقلا عن جيرارد زالفرد ، الفتوح فى الفروسية الشرقية ، ص ٢٢٧ -

٢٢٨ ، حاشية رقم ٤٨ .

(٦٠) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

(٦١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ .

وافراً من طوائف « التركمان والأجناد » (٦٢) ويبدو من هذين النصين ان مشاركة التركمان كانت تطوعاً بدليل استخدام ابن القلانسي كلمة « كاتب » بدلا من كتب. اذ لو لم يكن استدعاءهم بهدف التطوع ، لاستخدم الملفظ « كتب » الذي ينم غالباً عن الأمر .

ومن البراهين الدالة على أن جموعاً من طوائف التركمان ، كانت تفد على معسكرات عماد الدين زنكى للجهاد معه تطوعاً ، ما ذكره اسامة بن منقذ من عبارات على لسان زنكى نفسه تدل على ذلك . فقد ذكر أن زنكى كان يقول لأصحابه عندما يكون بحلب نريد أن « نمضى الى الفرات نجتمع التركمان » واذا نزل على الفرات قال لهم « ان لم نعد الفرات ما يجتمع لنا التركمان » (٦٣) .

ومن ذلك أيضاً أن نور الدين محمود عندما أرسل أسد الدين شيركوه على رأس الحملة الثالثة الى مصر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م اعطاه مائتى ألف دينار عدا الثياب والأسلحة وسمح له أن يختار من العسكر من يشاء ، وزاد على ذلك بأن « جند ستة آلاف فارس من التركمان » وعندما توفي شيركوه أدى تعيين صلاح الدين خلفاً له « الى انسحاب التركمان » (٦٤) . وعليه فان تجنيد هؤلاء التركمان على يد أسد الدين شيركوه ، ثم انسحابهم من مصر بعد وفاته يدل دلالة واضحة على أنهم لم يكونوا من أهل الديوان ، بل كان خروجهم تطوعاً .

ويبدو أن هؤلاء التركمان استمروا تطوعهم للجهاد فى صفوف الجيوش الاسلامية حتى بعد أن تعرض الشرق الاسلامى لخطر الحملات المغولية المدمرة ، يدلنا على ذلك ما ذكره المؤرخ المعاصر ابن واصل ، أنه عندما تمكن المغول من هزيمة السلطان غياث الدين زعيم سلاجقة الروم سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣م بالرغم من قدوم عسكر حلب لنجدة « ثارت

(٦٢) ابن القلانسي ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٠ .

(٦٣) انظر كتاب الاعتبار ، ص ٣٩ .

(٦٤) انظر هاملتون جب ، دراسات فى حضارة الاسلام ، ص ٩٧ .

التركمان فى البلاد ينهبون ويعيثون « (٦٥) اذ لا يستبعد أن ثورتهم لكونهم ليسوا من الجند النظامى ، كانت بسبب ضعف غياث الدين وتهاونه فى صد خطر المغول عن بلاده ، يعضد هذا ما ذكره أبو المحاسن ابن تغرى بردى ، أن السلطان غياث الدين صالح التتار على أن يدفع لهم كل يوم ألف دينار وفرسا ومملوكا وكلب صيد . وأنه كان شابا لعبا ظالما قليل العقل » يلعب بالكلاب والسباع ويسلطها على الناس ، فعضه بعد ذلك سبع فمات ، فأقام التتار شحنة على الروم « (٦٦) .

رابعاً : الخراسانيون المتطوعة

كانت رغبة الخراسانيين فى الجهاد وحميتهم الدينية سببا فى تدفقهم على أقاليم الشرق الاسلامى ، ففي سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٥م خرج من خراسان نحو من عشرين ألفاً من الغزاة ، بعد أن نما اليهم توالى نجاح الروم البيزنطيين فى مهاجمة بلاد الاسلام شمال الجزيرة والشام ، وسار الخراسانيون حتى بلغوا الحدود الشرقية لدولة بنى بويه ، فاستراب بهم صاحب الحد . وخالف ركن الدولة وزيره ابن العميد فى أمرهم ، وكاتب صاحب الحد بأن يأذن لهم فى الدخول ، فدخلوا ومعهم فيل عظيم ، واجتمع رؤسائهم الى الوزير ابن العميد ، وخاطبوه فى أن يطلب لهم من الأمير ركن الدولة مالا يستعينون به على أمر الغزو ، ولكنه لم يجزل لهم العطاء ، فاشتطوا فى الطلب قائلين « نحتاج الى مال هذه البلاد كلها التى بأيديكم ، فانكم انما جبيتموها لبيت مال المسلمين لنائبة أن تأتيهم ، ولا نائبة أعظم من طمع الروم والأرمن فينا ، واستيلاءهم على

(٦٥) انظر مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٢٧ ، والسبطان غياث الدين هو : كيخسرو الثانى بن كيقباز الاول حكم سلطنة سلاجقة الروم من (٦٣٤ - ٦٤٤ هـ / ١٢٣٧ - ١٢٤٦) انظر ، ابن العديم بغية الطلب ، ج ٨ ، ص ٢٥٤٧ حاشية المحقق .

(٦٦) انظر البنجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٤٧ ؛ أما سبط ابن الجوزى ، فقد وصفه بأنه كان « صبيا لعبا » انظر مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٧٥٩ ؛ والشحنة أو الشحنة : وظيفة يسمى متوليها صاحب الشحنة ، وهو رئيس الشرطة الموكل بحفظ الأمن فى البلد ، (انظر محمد قنديل البقلى ، التعريف بمصطلحات صبح الاعشى ، ص ١٩٣) .

ثغورنا ، وضعف المسلمين عن مقاومتهم « (٦٧) . ويبدو أن هذا الحماس للجهاد والغيرة على ثغور المسلمين من قبل هؤلاء الخراسانيين ، كان من باب التطوع ايمانا منهم بفرضية الدفاع عن حوزة الاسلام والمسلمين ، يؤيد هذا ما ذكر من أن الخراسانيين زادوا على ذلك بأن طلبوا من ركن الدولة ووزيره أن يرسل معهم ثلة من جيشيهما النظامي لتأدية هذا الواجب .

وتشير المصادر المعاصرة الى أن هؤلاء الخراسانيين استمر تطوعهم بالجهاد في صفوف الجيوش الاسلامية في الشرق الاسلامي ابان تعرضه لخطر الحملات الصليبية التي شنّها الغرب الأوربي المسيحي عليه منذ أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ، فقد تحدثت هذه المصادر عن الدور الفاعل والجهد البارز الذي بذله الخراسانيون أثناء حصار جيوش عماد الدين زنكي للرها سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م فقد استغل زنكي معرفة هؤلاء الخراسانيين « بمواضع النقوب » وأسند اليهم مهمة نقب أسوار المدينة ، فنقبوا في عدة مواضع « عرفوا أمرها وتيقنوا نفعها وضررها » واستمروا في أداء مهمتهم هذه حتى وصلوا تحت أساس أبراج السور « فعلقوه بالأخشاب المحكمة والآلات المنتخبة » ثم استأذنوا عماد الدين في اطلاق النيران عليها فأذن لهم بعد أن تفقد بنفسه أحد الثقوب « وشاهد حاله واستعظم كونه وهاله » ولما تمكنت النيران من العوارض الخشبية وقع السور في الحال (٦٨) .

(٧) آدم منز ، الحضارة الاسلامية ، ص ٩٦ . وركن الدولة هو : أبو علي الحسن بن بويه بن مناخسرو الديلمي صاحب اصبهان والري وهمذان وجميع عراق العجم توفي ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ٣٦٦ هـ (انظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ١١٨ - ١١٩) وابن العميد هو : أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب ، توفي في صفر ، وقيل المحرم بالري وقيل ببغداد سنة ٣٦٠ هـ (انظر ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٠٣ - ١٠٩) .

(٦٨) ابن القلانسي ، ذيل مرآة الزمان ، ص ٢٧٩ ؛ انظر أيضا ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٩٤ .

خامسا : المستأمنون

ومن الممكن أن نلحق بالمتطوعة من المسلمين جماعات المستأمنين الذين كانوا يفدون على معسكرات المسلمين من بين صفوف أعدائهم . ومن الواضح أن هؤلاء ليسوا مجاهدين بمعنى الجهاد الذي نقصده في هذا البحث ، وإنما كانوا أقرب إلى المرتزقة الذين يستهدفون الكسب . وربما من ذلك ما ورد في بعض المصادر أن جماعة من الصليبيين وصفهم ابن واصل بأنهم « خلق عظيم » وصلوا إلى معسكر صلاح الدين مستأمنين سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م بسبب ما أصابهم من الجوع والفاقة في معسكرهم الصليبي واستأذنوه في مهاجمة مراكب الصليبيين في البحر وقالوا له « نحن نخوض في البحر في براكيس ، ونكسب العدو ، ويكون المكسب بيننا وبين المسلمين » فأذن لهم صلاح الدين ، وأعطاهم بركوسا ، ركبوا فيه ، وظفروا بعدد من مراكب تجار الصليبيين ، ونهبوا ما بها من بضائع معظمها « فضة مصوغة وغير مصوغة » وأسروا بحارتها ، واحضروهم وممتلكاتهم بين يدي صلاح الدين ، فكافأهم بأن منحهم جميع ما غنموه ، وكان لهذه المكرمة أثرها البالغ على هؤلاء المستأمنين فأسلم شطرهم (٦٩) .

(٦٩) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ ؛ انظر أيضا ، أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٢ والبركوس : جمعة براكيس وهو : نوع من السفن التي كانت تستعمل في الحرب في مياه البحر المتوسط في العصور الوسطى وهو أصغر حجما من البطسة ، تقدر حمولة البركوس الواحد بخمسة وعشرين رجلا (انظر درويش النخيلي ، السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ١٢ - ١٣) .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر :

أبْنُ الْأَثِيرِ الْجَزْرِيُّ (أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْكَرَمِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ
ابْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الشَّيْبَانِيِّ الْمَلَقَبِ بِعِزِّ الدِّينِ ، ت ١٢٧/١٢٣٠ هـ) .

١ - الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ ، ط بيروت ١٤٠٠/١٩٨٠م ، ط ليدن ١٨٨٦م .

٢ - التَّارِيخُ الْبَاهِرُ فِي الدَّوْلَةِ الْأَتَابِكِيَّةِ ، تحقيق عبد القادر طليمات ،
ط القاهرة ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م .

— ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكي ،
ت ٨٢١هـ/ ط القاهرة . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

— ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي ، ت ٨٥٢هـ)
الدير الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، ط بيروت .

— ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ،
ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق
أحسان عباس ، ط بيروت ١٩٧٢م .

— ابن شداد (أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم ، ت
٦٣٢هـ/١٢٣٤م) . النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق
جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ، ١٩٦٤م .

— ابن عبد الظاهر (محي الدين عبد الله بن رشيد الدين بن
عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري ، ت
٦٩٢هـ/١٢٩٢م) .

١ - الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر ، تحقيق عبد العزيز
الخويطر ، ط الرياض ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

٢ - تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ،
ط القاهرة ١٩٦١م .

— ابن العديم (صاحب كمال الدين أبو القاسم أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) .

١ — بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق ، سهيل زكار ، ط دمشق .

٢ — زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، ط بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

— ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة ، ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) . ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨م .

— ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر القرشي ، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) . البداية والنهاية ، ط بيروت ١٩٦٦م .

— ابن منظور (أبو الفضائل جمال الدين محمد بن مكرم ، ت ٧١١هـ / ١٣١١م) . لسان العرب ، ط بيروت .

— ابن منقذ (اسامة بن مرشد بن علي بن نصر الكناني ، ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م) . كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، ط برنستون ١٩٣٠م .

— ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) . مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ١ - ٣ تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٠ ، ج ٤ ، ٥ ، تحقيق حسنين ربيع ، ط القاهرة ، ١٩٧٢م - ١٩٧٧م .

— أبو شامة (الحافظ شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل ، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) .

١ — كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، ط القاهرة ، ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م .

٢ — الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) نشر ومراجعة السيد عزت العطار الحسيني ، ط بيروت ١٩٧٤م .

— أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م . تقويم البلدان ، ط باريس ١٨٤٠م .

— الخنبلي (أبو اليمن القاضي مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العلوي ، ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م . الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط النجف ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

— سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي ، ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م . مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، ج ٨ ، ط حيدر آباد ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

— السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ، ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م) .

— طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، محمود محمد الطناحي ط القاهرة ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م . تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط

— تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

— العماد الاصفهاني (أبو عبد الله محمد ، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) .

١. البرق الشامي ، ج ٥ ، تحقيق فالح صالح حسين ، ط عمان ١٩٨٧م .
٢. الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبح ، ط القاهرة ١٩٦٥م .

— القلقشندي (أحمد بن علي ، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط بيروت .

— النووي (أبو زكريا يحيى بن شرف الدين النووي الشافعي ، ت ٦٧٦هـ) . التبيان في آداب حملة القرآن ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، ط دمشق ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

— النويري (شهاب الدين محمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) . نهاية الأرب في فنون الأدب ، ط القاهرة .

ثانيا : المراجع :

- ابراهيم الساكت
الجيش فى التراث العربى الاسلامى ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد
الثالث والعشرون ، ط بغداد ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- آدم متمر
الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، أو عصر النهضة فى
الاسلام ، ج ٢ ، ط بيروت .
- جرجى زيدان
تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ١ ، ط ١٩٦٨م .
- جيرارد زالنغر
الفتوه هل هى الفروسية الشرقية ، ترجمة انيس فريضة ، مقال
مطبوع ضمن كتاب دراسات اسلامية بأقلام عدد من المستشرقين
باشراف نقولا زياده ، ط بيروت ١٩٦٠م .
- حامد غنيم أبو سعيد
عصر الدول الاقليمية ، ج ١ ، ط القاهرة ١٩٧٠م .
- درويش النخيلى
السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ط القاهرة ، ١٩٧٩م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور
بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت ١٩٧٧م .
- سليم بن عيد الهلالى
صفحات مطويه من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، ط
الدمام ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- عبد العزيز البدرى
الاسلام بين العلماء والحكماء ، ط المدينة المنورة .
(مجلة المؤرخ العربى)

- عبد العزيز عبد الله السلومى
ديوان الجند ، نشأته وتطوره فى الدولة الاسلامية حتى عصر
المأمون ، ط مكة المكرمة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- عفاف سيد صبره
دراسات فى الحروب الصليبية ، ط القاهرة ١٤٠٥هـ .
- على عودة الغامدى
بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، ط مكة المكرمة ١٤٠٨ / ١٩٨٨م .
- عمر رضا كحالة
دراسات اجتماعية فى العصور الوسطى ، ط دمشق ، ١٣٩١ هـ /
١٩٧١م .
- كى لسترنج
يلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكركيس عواد ، ط
بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- محمد على حيدر
الدويلات الاسلامية ، فى المشرق ، ط القاهرة ، ١٩٧٤م .
- محمد الزحيلي
العز بن عبد السلام سلطان العلماء وبائع الملوك ، ط دمشق
١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
- محمد قنديل البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، ط
القاهرة ١٩٨٣م .
- محمد نعيم ياسين
الجهاد ميادينه وأساليبه ، ط عمان ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- مسفر سالم الغامدى
الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الاسلامى قبل قيام الدولة الايوبية
فى مصر ، ط جدة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

- محمد أحمد عواد
الجيش والقتال في صدر الاسلام ، ط الزرقاء ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- وفيق الدقدوقي
الجنديّة في عهد الدولة الأمويّة ، ط بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .
- نظير حسان سعداوي
جيش مصر في أيام صلاح الدين ، ط القاهرة ١٩٥٩م .
- هاملتون جب
دراسات في حضارة الاسلام ، ط بيروت ١٩٧٤م .

تجارة السلاح فى عهد الشيخ مبارك الصباح

١٨٩٦ - ١٩١٥ م

بقلم الدكتور / فتوح الخترش (*)

تمهيد :

ان تأسيس الدول واستمرارها رهين باستمرار القوة ، وأن الكتابات الغربية تستبجح لدول الغرب المزيد من التسلح فى الوقت الذى تنكره على غيرها .

ويهمنا هنا - حتى لا يتشعب بنا البحث عن الاطار المحدد لهذه الدراسة - أن نبرز حقيقة لا جدال فيها ، وهى أن الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا - فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها - وقفت بالمرصاد لامارات الخليج بالذات لمحاربته وتدمير قوتها الوطنية الفتية ، اذ ادعت أن مركز تجارة السلاح هو منطقة الخليج وأن حكامها يشجعون تلك التجارة المحرمة ، ونست بل تناسبت أن رعاياها ورعايا الدول الأوروبية الأخرى هم أصلاً تجار السلاح الذين يبيعونه بدورهم الى تجار السلاح المنتشرين فى المنطقة . ولقد شعر أرباب تجارة السلاح أن حكام المنطقة بحاجة اليه للحفاظ على حكمهم والدفاع عن أراضيهم ، واقرار الأمن والسلام فى مناطقهم ، خاصة اذا تعلق الأمر بامارة مثل امارة الكويت ، حيث تجمع المصادر على أن الشيخ مبارك هو مؤسسها الحقيقى (١٨٩٦ - ١٩١٥ م) ، الذى عاش منذ توليه الامارة وحتى غادر الساحة فى توتر وصراع على العديد من الجبهات الداخلية والخارجية ، على النحو الذى سنتناوله بالتفصيل فى هذه الدراسة .

وعندما ندقق النظر فى قضية تجارة السلاح فى منطقة الخليج على وجه العموم وفى الكويت اiban حكم الشيخ مبارك على وجه الخصوص ،

(*) قسم التاريخ - كلية الاداب - جامعة الكويت .

لا يمكن لمؤرخ منصف أن ينكر أو يتجاهل استحالة الفصل بين هذه التجارة وبين الوجود البريطاني في الهند وأفغانستان . منذ أن أحكمت بريطانيا سيطرتها على هذه المناطق ، كما سنرى فيما بعد .

وعندما تتبدى أمامنا الصورة الكاملة لشخصية الشيخ مبارك كمؤسس دولة من الطراز الأول ، وكداهية سياسى من نوع فريد ، حتى لقد وصف بأنه كان حاد المزاج شديد البأس ، كثير القلب ، فيه شيء من الأسد وأشياء من الحرباء ، بدوى الطبع ، حضرى الذوق ، تارة يحبه الخصم وطورا يجامله ، كان كريما جوادا ، بل ومسرقا يسترسل الى البذخ والترف ، ويقدم بعد حبه للمجد نواعم العيش ونوافله على كل شيء سواها . أما سيفه فكان مثل سياسته ذا حدين - وكان يلقب بالحواقة « من حاق ومرادفاتهما مثل دار ولف ، أى ما يراد به السير على عكس الخط المستقيم ، نصف عمله سر لا يدركه سواه ، والنصف الآخر خدعة ماهرة أو خدع كثيفة مدلهمة » (١) ، عندما تتضح لنا هذه الصورة المثيرة لهذا القائد الفذ ، فهل من المبالغة فى شيء أن نميل الى القول أنه كان يسعى من وراء تجارة السلاح وتصديره الى دعم القوى المناضلة ضد بريطانيا فى آسيا عسى أن يكون فى ذلك ما يجبرها على التساهل معه ومحاولة كسب وده تأميننا لطريق مواصلاتها الى « درة » امبراطوريتها فى الهند ، وفى مواجهتها لنضال الأفغان والهنود من أجل الحرية ؟

وحتى اذا جردنا قضية تجارة السلاح من هذه الجوانب جميعا واقتصرنا على تناولها كمجرد عملية للشراء والبيع وتحقيق الربح ، فما هى الغضاضة فى أن يمارس الشيخ مبارك هذا النوع من النشاط ، وهو يتصدى لبناء دولة تكاد أن تكون بلا موارد حقيقية ، وفى الوقت الذى يمارس فيه غيره من الحكام نفس النشاط سرا أو علانية ، الى جانب العديد من الشركات الأجنبية المتخصصة فى تجارة السلاح ، والتى لا تتورع عن شيء تحقيقا للأرباح على حساب سكان المنطقة .

بهذا التمهيد ، نكون قد حددنا - فى نفس الوقت - العناصر الأساسية لهذه الدراسة والتى نركزها فى عنصرين أساسيين :

أولا : تجارة السلاح فى منطقة الخليج •

ثانيا : أسباب اهتمام الشيخ مبارك بتجارة السلاح •

أولا : تجارة السلاح فى منطقة الخليج

لفتت تجارة السلاح فى منطقة الخليج أنظار الحكومة البريطانية فى لندن وفى الهند ، لأول مرة أثناء الحرب الأفغانية الثالثة ١٨٧٩ - ١٨٨٠م وفى عام ١٨٨٠م ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن كميات كبيرة من الخوذات المصدرة من الهند الى فارس وقعت فى أيدي الأفغانيين فى هيرات وغيرها من المواقع (٢) • وهنا أدركت حكومة الهند الأهمية السياسية والعسكرية للقضية ، فأصدرت تعليماتها الى حكومة بومباى بالتوقف عن اصدار تراخيص تصدير الأسلحة والذخائر الى موانئ الخليج • وفى شهر أكتوبر من نفس العام أعلنت حكومة الهند انذارا جاء فيه أنها قررت مصادرة الأسلحة والذخائر المتجهة الى الخليج فى الموانئ الهندية ، وسرعان ما اقتنعت السلطات الفارسية وعلى رأسها الشاه بأهمية القضية وخطورتها (٣) من وجهة النظر الفارسية البحتة « تحت ضغط القلاقل الداخلية » أعلنت قانون عدم مشروعية عمليات الاستيراد فى عام ١٨٨١ وسرى هذا القانون ابتداءا من أول يوليو ١٨٨١م •

ومن أول رواد تجارة السلاح فى بوشهر شركة أ.ب.ج مالكولم ، وهى فارسية أرمنية بدأت عملياتها فى عام ١٨٨٤م ، تحت حماية الحكومة البريطانية ، ثم تبعها الشركة الفرنسية الانجليزية « فرانسيس وتايمز وشركاهم » ، وهى أول مؤسسة ظهرت فى بوشهر عام ١٨٨٧م لبيع السلاح ونتيجة لظهور تلك الشركات فى بوشهر بدأت تتعامل بالأسلحة على نطاق محدود فى البداية ، وحصلت منها على فوائد كبيرة مما جعلت بقية الشركات فى الخليج تتبع خطواتها ، وخاصة أن منع تجارة السلاح فى فارس ، برهن على عدم فعاليته وتأثيره ، فنمت التجارة فى بوشهر نموا واسعا بتشجيع سلطات الجمارك الفارسية التى رغم خطورتها على الضرائب المفروضة ، اعتبرت التجارة غير مخالفة

للقانون . وترتب على هذا أن أصبح رجال القبائل فى فارس وعربستان مسلحين ببنادق أفضل من الجنود الفرس (٤) .

وحين تفاقم خطر تلك التجارة ، اضطرت الى أن تثير مشكلتها فى مؤتمر عقد من أجل مناقشة موضوع الأسلحة فى شهر يوليو ١٨٩٠م ، حيث أعلنت كل من الولايات المتحدة وهولندا استعدادهما للتنازل عن حقوقهما بالنسبة لتجارة الأسلحة اذا ما نهجت بريطانيا وفرنسا نفس السبيل (٥) .

وكذلك وجه المؤتمر بقراره العام ضربة قاصمة لتجارة السلاح على الساحل الشرقى للقارة الأفريقية ، وبالأخص زنجبار ، وفى الوقت نفسه تبنت بريطانيا قراراته بصفة رسمية فى الثانى من أبريل ١٨٩٢م .

ولقد ازدهرت تجارة السلاح فى المنطقة منذ عام ١٨٩٠م حين وردت الى الخليج كميات كبيرة من الذخيرة والعتاد بعد أن منع مؤتمر ١٨٩٠م السلاح عن أفريقيا . وقامت سفن الحرب الأوربية تحاصر الساحل الشرقى الأفريقى حتى لا تصله الأسلحة ، فاتجهت التجارة بعد ذلك الى مسقط ، حيث وجدت طريقها الى الخليج .

وأصبحت مسقط من أكبر أسواق السلاح ، وقدر عدد الأسلحة النارية التى وصلت الى ميناء مسقط بمالا يقل عن ١١٥٠٠ قطعة ، وصل جزء كبير منها على سفن تابعة لسلطان زنجبار (*) . ثم ما لبث أن بدأ الشحن المباشر من أوروبا الى موانئ الخليج . وأصبحت منطقة الخليج سوقا لقبائل أفغانستان والمناطق الشمالية الغربية من الحدود الهندية يستعملونها فى حروبهم القبلية ، وفى مقاومة السلطات الموالية للانجليز فى المنطقة ، وق ظهر هذا جليا منذ عام ١٨٩١م (٦) . ولقد حاولت بريطانيا فى أواخر ١٨٩٠م منع مرور شحنات الأسلحة الى كراتشى ، تلك التى كانت فى طريقها الى جوارى التى كانت تتبع آنذاك سلطان مسقط ، ثم أعيد تصدير أكثر من نصفها الى الكويت والبحرين وبعض موانئ الخليج الأخرى ، أو هربت الى الأراضى التركية والفارسية حيث غمرت المنطقة كلها تدريجيا بأحدث الأسلحة ، مما جعل حكومة الهند

تتعد اتفاقية مع سلطان مسقط لمنع تجارة السلاح في جوادير منذ عام ١٨٩١م .

وبالرغم من ذلك واصلت تجارة السلاح في مسقط ازدهارها بعد عام ، وكانت محل اهتمام زائد من جانب سلطان مسقط ، نظرا لما يحصل عليه منها من أرباح نتيجة للرسوم المفروضة عليها . وبلغت هذه التجارة ذروتها في حوالي عام ١٨٩٥م ، حتى قدر حجم واردات مسقط في عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦م بنحو ٤٣٥٠ بندقية ، ٦٠٤٠٠٠ خرطوشة ، ثم قفز حجمها في عام ١٨٩٦ - ١٨٩٧م الى حوالي ٢٠٠٠٠ بندقية ومعها العدد المناسب من الخراطيش .

أما في فارس فقد جذبت حكومة الهند مع شاه فارس في عام ١٨٩١م اتفاق ١٨٨١م الذي ينظم الاتجار بالسلاح . ورغم ذلك فان تجار السلاح في فارس لم يلتزموا بتطبيق الاتفاق بشكل مطلق ، بل انهم واصلوا التوسع في تجارة السلاح ، حتى بلغ حجم ما استورده تجار السلاح فيما بين عام ١٨٩٢م وعام ١٨٩٣م حوالي ١٠٠٠ بندقية ، وكان مصدرها الكويت . وفي عام ١٨٩٣م ، كانت الأسلحة تصل مهربة من لندن الى فارس بعد استخدام ميناء مسقط كستار ، وقد ضبطت في بوشهر بناء على أمر الحكومة الفارسية ، واستمرت هذه العمليات في عام ١٨٩٥م ، حيث وصلت الى بوشهر شحنة ضخمة من الأسلحة بطريق البحر ، فتمت مصادرتها على أيدي السلطات الفارسية .

والواقع أنه رغم كافة المحاذير ، كانت الأسلحة تشق طريقها بسهولة الى فارس بعد تقديم الرشاوى للموظفين الفرس ، وبعض العاملين في الشركات الأجنبية ، ومنهم العديد من رعايا بريطانيا (٧) .

وفي عامي ١٨٩٦ و ١٨٩٧م ، تقدمت تجارة السلاح في ميناء بوشهر تقدما ملحوظا حتى قدر عدد البنادق الواردة اليها بما لا يقل عن ٢٠٠٠٠ في عام ١٨٩٧م ، وقد حصل عليها الحاكم المحلي رسوما بنسبة تتراوح من ٨٪ الى ١٠٪ من قيمتها . كما تحولت شيراز الى مركز للتوزيع تعتمد عليه بوشهر . وشهدت هذه الفترة أيضا تحول البحرين الى سوق هامة

للسلاح بعد أن كانت سوقا ثانوية (٨) . وتركزت تجارة السلاح في مسقط آنذاك في النوع الذي يعمر من قاعدته (٩) . أما النوع الذي يعمر من فوهته فكسدت تجارته ، واتجهت الى نجد وفارس ، بينما أعيد شحن الجانب الأكبر منه الى عمان والبحرين وقطر والكويت .

وفي أواخر عام ١٨٩٦م ، أدركت السلطات الانجليزية في الهند أن ٦٠٪ من الأسلحة الواردة الى منطقة الخليج تشق طريقها الى فارس ، وأن حوالي ٢٥٪ منها يتجه الى الأقاليم الخاضعة للحكومة التركية في الخليج ، بينما تمتص البلدان العربية غير الخاضعة لتركيا ١٥٪ منها (١٠) .

وعندما نشبت الحركات الثورية القبلية في عام ١٨٩٧م ، على الحدود الهندية الأفغانية ، ترددت الأقاويل بأن القبائل تحصل على جزء من الأسلحة من الخليج وتحركت الحكومة الفارسية لمواجهة الموقف وأيدت المقترحات التي تقدم بها البريانيون في هذا الصدد بتنفيذ قانون ١٨٨١م ، الخاص بمصادرة مخازن الأسلحة المستوردة الى بوشهر بطريقة غير شرعية .

وفي ١١ ديسمبر ١٨٩٧م ، أعلنت الحكومة الفارسية أنها أعطت أوامرها الخاصة بمصادرة وتفتيش السفن البخارية التي تشتغل بالتجارة وترفع العلم الفارسي ، من قبل السفن الحربية الانجليزية ، بحثا عن الأسلحة والذخائر (١١) . وبناء على التفاهم البريطاني - الفارسي ، جرى الاتصال بسلطان مسقط بواسطة المقيم السياسي بالخليج ، كي يحذر رعاياه من التصدير المحظور للأسلحة الى فارس ، وكذلك تخويل السفن الحربية البريطانية سلطة البحث عن السفن البريطانية والفارسية والعمانية في المياه الإقليمية ، وأن تفوض في مصادرة الأسلحة والذخائر المملوكة للرعايا الانجليز والفرس والعمانيين التي توجد على ظهر السفن المتوجهة الى فارس (١٣) . إلا أن سلطان مسقط حاول أن يجاري بريطانيا في تنفيذ بنود الاتفاقية التي وقعها بطريقة فاترة ، فأصدر أمرا بمنع التصدير من مسقط الى سواحل شرق أفريقيا ، ولكنه لم يقل بتفتيش

السفن العمانية وهو أكثر اجراءات المنع نفعا ، وفى الوقت نفسه أثار سلطان مسقط مسألة نقص حصته من دخل الجمارك اذا حدث تدخل فى تجارة السلاح . ونتيجة لذلك ظل الوضع كما هو وأصبحت القضية قضية ميتنة (١٣) .

وفى عام ١٨٩٥م ، تعرضت البحرين لتهديدات من جهة البر من قبل تجار السلاح فى البحرين ، ولم يكن بالامارة الا ١٠٠ بندقية ، مع العلم أن الشيخ عيسى بن على آل خليفة لم يكن مقتنعا بضعف مركز البحرين ، وفى شهر يناير ١٨٩٦م ، أصدر اعلانا غير واضح بمنع استيراد الأسلحة النارية فى البحرين ، ومعاقبة من يخالف ذلك . الا أنه استثنى وزيره عبد الرحمن بن عبد الوهاب من قرار المنع ، بشرط عدم جواز بيع الأسلحة فى البحرين وقطر والساحل العربى فيما عدا ساحل عمان (١٤) .

وقد نقل الوزير امتيازاه الى الأغا محمد رحيم - الذى يعتبر من أكبر تجار السلاح فى البحرين ، وفى الوقت نفسه كان يمثل الوكيل المحلى للوكالة الانجليزية فى البحرين ، والذى نقل بدوره الامتياز كلية فى الحال الى الشركة التجارية التى يملكها فرانسيس وتايمز وشركاهم ، والتى فتحت لها فرعا فى البحرين عام ١٨٩٥م ، بمقتضى هذا الامتياز تعهد الوزير عبد الرحمن بتقديم كمية من الأسلحة والذخائر للشيخ عيسى الى جانب دفع ضريبة جمركية عينية بنسبة ثلاث بنادق من كل ١٠٠ بندقية ، و ٢٠٠ طلقة لكل بندقية ، وقد قدرت أرباح الشركة فى منتصف عام ١٨٩٧م ، بما لا يقال عن ٤٠٠٠٠ جنيها .

وزادت حركة تجارة السلاح فى البحرين حتى قفزت قيمة الصادرات من ١٤٨٥٠ روبية فى عام ١٨٩٤م ، الى ٩٥٠٠٠ روبية فى عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦م (١٥) ، ثم الى ١٤٢٨٨٠ روبية فى عام ١٨٩٦ - ١٨٩٧م ، ٤٦٧٧٩٠ روبية فى عام ١٨٩٧ - ١٨٩٨م . وواصلت شحنات الأسلحة طريقها من البحرين الى بوشهر ومسقط أكثر من مرة ، الا أن أغلبها كان يباع للوافدين من بندر عباس ، ولنجة ، وبوشهر ، والمحمرة

على الساحل الفارسي للخليج ، وكذلك للمشتريين من الكويت ونجد وعمان على الساحل العربي .

وفي أبريل من عام ١٨٩٧م ، انزعج شيخ البحرين من تعاظم السلاح وذلك لعدم الالتزام بشرط الامتياز ، وبعد شد وجذب وصراع مع الشركة الفارسية الانجليزية ، احتجز الشيخ جميع ممتلكات الشركة « فرانسيس وتايمز » من الأسلحة نتيجة للمنافسة الضارية التي نشبت ، ونتيجة لعدم الالتزام بتنفيذ شروط الامتياز التي تنص على حظر بيع الأسلحة في البحرين ، ولكن الحكومة البريطانية في الهند لم تشجع هذا المسلك الذي أقدم عليه الشيخ عيسى بن علي ، وانتهى الأمر في أبريل ١٩٠٦م ، بإعادة الأسلحة الى الشركة ، ولكن بعد أن أصاب التلف معظمها (١٦) .

وأمام تعاظم حركة تجارة السلاح في الخليج ، رأت حكومة الهند أن تعقد اتفاقيات ومواثيق مع حكام وشيوخ الخليج ، تستطيع من خلالها أن تمنع أو تتغاضى عن هذه التجارة حسب الأوضاع السياسية في المنطقة وقد عقدت اتفاقية ١٨٩٨م ، مع شيخ البحرين ، ومع شيخ الكويت عام ١٩٠٠م ، وشيوخ الساحل المهادن عام ١٩٠٢م ، ولم تستثن الا اماره قطر لوقوعها تحت السيطرة التركية (١٧) .

أما بالنسبة للبحرين فقد أصدر الشيخ عيسى في مايو ١٩٠٠م ، قرارا يحظر فيه استيراد الأسلحة على أراضيه للسيطرة على تجارة السلاح ، الا أن دوافع الشيخ عيسى كانت أبعد ما تكون عن البكرم ، فوفقا لما يصدره هو من مراسيم وقرارات كان يستطيع أن يحصل ما قيمته ١٢٠٠٠ جنيها من الأسلحة من وكلاء « فرانسيس تايمز وشركاهم » ، ويمكننا أن نلاحظ أن اتفاقية منع السلاح التي عقدتها حكومة الهند مع شيوخ الساحل المهادن تختلف عن مثيلاتها التي عقدت مع مسقط وفارس ، حيث نصت حكومة الهند في اتفاقها مع مسقط وفارس على أن تصدر السفن التي تحمل السلاح والتي ترفع العلم أو الهوية الفارسية أو العمانية (١٨) :

أما اتفاق حكومة الهند مع شيخ الساحل المهادن الذي يقضى بحظر استيراد الأسلحة والذخائر الى اماراتهم وكذلك بالنسبة لتصديرها ، فقد خول شيوخ الساحل السفن الحربية التابعة لحكومة الهند البحث عن السفن وتفتيشها في المياه الاقليمية لسواحلهم ، ومصادرة ما يوجد على ظهرها من أسلحة وذخائر .

وأثارت عمليات مصادرة الأسلحة في مسقط والبحرين والساحل العماني سخط التجار والشركات البريطانية ، وانهال سيل من الشكاوي والاحتجاجات على وزارة الخارجية البريطانية في لندن ، وتحملت شركات التأمين البريطانية جزء من الخسائر (١٩) .

وبذلك استطاعت حكومة الهند أن تحمي نفسها ونفوذها في الهند بوضع هذه الخطة المحكمة لمنع تلك التجارة ، وزيادة في المنع قامت حكومة الهند باتخاذ سياسة حرق السفن الحاملة للسلاح حتى تتجول هذه التجارة الى عمل مكلف بسبب خسائر النقل ، لهذا نجد أن التجار العرب في الخليج أوقفوا هذه التجارة خوفا على قواربهم ، وهي مصدر رزقهم الرئيسي .

ثانيا : أسباب اهتمام الشيخ مبارك بتجارة السلاح

لم يشهد لهذه التجارة أي نشاط يذكر في الكويت الا بعد أن تولى الشيخ مبارك الصباح الحكم عام ١٨٩٦م ، ويعتقد أن خوف شيخ الكويت السابق من تدخل الأتراك جعله لا يتساهل في عمليات فتح بلاده كسوق رئيسي في منطقة أعالي الخليج . ولكن بعد أن تولى الشيخ مبارك اهتمام بتلك التجارة بل وشجعها حيث انه تولى في وقت حرج ، ليس في تاريخ العرب فحسب ، بل في تاريخ العالم بأسره . فعصر الشيخ مبارك يواكب نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وقد شهدت هذه الفترة ذروة النجاح الاستعماري لدول أوربا ، ثم تفكير تلك الدول في اقتسام تركيا رجل أوربا المريض ، الدولة العثمانية ، كما شهدت بداية الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من صراعات على تركيا الدولة العثمانية ، ولما كانت أغلب البلدان العربية تخضع آنذاك للدولة العثمانية ، ومهما كان هذا الخضوع اسميا في بعض الأحيان ، كان لابد للكويت وهي جزء

لا يتجزأ من شبه الجزيرة العربية ، أن تتأثر بكل ما يحاك من مؤمرات على حياة الرجل المريض ، ويكل ما يخطط له من مشروعات عن النفوذ الأوربي إلى هذه البقاع . . . إلا أن تتبع الصراعات الأوربية في الكويت ، والتي تمثلت أطرافها في بريطانيا وفرنسا ، وألمانيا ، حيث كانت ألمانيا تدرس بكل جدية اتخاذ الكويت موقعا لنقطة نهاية خط سكة حديد برلين - بغداد . وكذلك روسيا التي كانت تتطلع لمسد نفوذها على الكويت . كل ذلك يلقي الضوء أيضا على بعض جوانب قضية تجارة السلاح ، وموقف الشيخ مبارك منها . وإن كان الدخول في تفاصيل هذه الصراعات يبتعد بنا عن مجال هذه الدراسة إلا أننا نكتفي بالتوقف قليلا عند تلك الأحداث المحلية التي هزت الشيخ مبارك داخل وخارج الكويت والتي أجبرته على الاهتمام بتجارة السلاح للكسب المادي والعسكري ، فمن الناحية المادية أتاحت مكاسب مالية مغرية وصلت في ذلك الوقت إلى أربعة جنيهات استرلينية على كل قطعة من السلاح ، بالإضافة إلى جفيتها للضريبة العامة (٢٠) - ٠٠ . أما الجانب العسكري ، فقد اهتم الشيخ مبارك بتجارة السلاح وذلك ليتفادى الضغط التركي الذي تعرض له في بداية حكمه ، بمساعدة أبناء شقيقه محمد وجراح وقرينهم يوسف الأبراهيم (*)

ولقد استعان يوسف الأبراهيم بالسلطات العثمانية في البصرة متمثلة بوالها حمدي باشا الذي أيد وحالف يوسف الأبراهيم للتخلص من الشيخ مبارك . والواقع أن السنوات الثلاث الأولى من حكم الشيخ مبارك كانت أخرج سنين حكمه الذي يقارب العشرين عاما ، فقد واجهته أحداث كثيرة ومهمة من قبل أعدائه وعلى رأسهم يوسف الأبراهيم وعدوه الثاني اللدود الأمير عبد العزيز بن الرشيد أمير حائل .

فأول محاولة قام بها خصمه العنيد يوسف الأبراهيم تتمثل في تجهيزه حملة بحرية خرجت من هنديان في عريستان على الساحل الفارسي في أواخر يونيو من عام ١٨٩٧م متجهة إلى الكويت ، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل . واستمر خطر التهديد بغزو الكويت قائما من قبل السلطات العثمانية متمثلة بيوسف الأبراهيم بقية عام ١٨٩٧م ،

ثم طوال عام ١٨٩٨م ، ولكن معظمها باء بالفشل . شعر يوسف الابراهيم بفشله الذريع فى البصرة ، فتوجه الى حائل للاقامة فى ضيافة الامير عبد العزيز بن الرشيد ولحقه أبناء القتيلين محمد وجراح ، ويبدو أن ابن الرشيد تبني قضيتهم بالعودة الى حكم الكويت ، كما كان يسعى للتخلص من الشيخ مبارك الذى كان يستضيف الامير عبد الرحمن بن فيصل آل سعود وأبناءه منذ عام ١٨٩٢م ، وكان الامير عبد الرحمن خصما لدودا لابن الرشيد الذى انتزع منه ملك أجداده وآبائه آل سعود فى نجد . وفى صيف عام ١٩٠٠م ، بدأت المناوشات بين الشيخ مبارك وحلفائه ، وبين الامير ابن الرشيد ، كما اغار سعدون باشا - أمير قبائل المنتفق - فى الوقت نفسه على نواحي شمر ، ربما بايعاز من الشيخ مبارك الذى كان يستأند غارة قام بها الامير عبد العزيز بن الامير عبد الرحمن الفيصل على نجد ، وذلك فى شهر أغسطس سنة ١٩٠٠م ، وفى شهر سبتمبر أمد الشيخ مبارك الامير عبد العزيز بن سعود ، بنجدة طلبها أثناء تلك الغارة ، ثم انضم الشيخ مبارك بنفسه فى شهر أكتوبر الى صفوف قوات الامير عبد العزيز بن سعود ، ولكن والى البصرة بحسن باشا تمكن من حقن الدماء ، والفضل بين القوات المتحاربة ، عن طريق وساطة السيدين حامد وطالب النقيب (٢١) .

ولكن هذا الضلع لم يكن يروق للشيخ مبارك لأنه كان على يقين بأن الامير عبد العزيز بن الرشيد سيواصل مؤامراته من أجل اعادة أبناء القتيلين جراح ومحمد الى حكم الكويت ، خاصة وقد نزلوا ، هم ويوسف الابراهيم فى حائل تحت حماية الامير ابن الرشيد ، وهنا قرر الشيخ مبارك أن يمسك بزمام المبادرة ، وأن يغزو ابن الرشيد فى عقر داره . وفى شهر سبتمبر ١٩٠٠م ، توجه الشيخ مبارك والامير عبد العزيز بن سعود على رأس جيش قوامه عريان العسوازم ، والرشايدة ، ومطير ، والعجمان ، وبنو هاجر ، وبنو خالدة ، ونحو ألف من أبناء مدينة الكويت لغزو ابن الرشيد فى نجد وشمر ، واستولت القوات الغازية على نجد دون مقاومة تذكر ، ونصب الشيخ مبارك الامير عبد العزيز بن سعود حاكما على الرياض ، وعندما تقدم الجيش الغازى صوب حائل من أجل فتح منطقة شمر ، تمكن الامير ابن الرشيد من الحاق الهزيمة بالشيخ

مبارك في الصريف ، فاضطر للانسحاب من المعركة مع فلول قواته في ١٧ مارس ١٩٠١م ، بعد أن خسر أغلب قواته من أبناء مدينة الكويت الذي قدر قتلهم بجوالى ٧٠٠ رجل (٢٢) .

ان هزيمة الشيخ مبارك في معركة الصريف أنهت أحلامه في السيطرة على نجد والتخلص من خصمه اللدود ابن الرشيد ، وان كان من السهل الربط بين ما تعرض له الشيخ مبارك وحكمه في الداخل من مخاطر ، والتي وصلت الى ذروتها في هزيمة الصريف ، وبين موقفه من تجارة السلاح ، وبذله كل جهد للحصول عليه علانية أو خفاء ، أى بمطالبة حكومة الهند بتزويده بالمزيد من السلاح ، وفي الوقت نفسه يقوم باستيراده سرا من مناطق بيع السلاح مع العلم أنه وقع اتفاقية في شهر مايو ١٩٠٠م ، تحظر استيراد وتصدير السلاح ، تمشيا مع أهداف حكومة الهند العامة لمنع انتشار هذه التجارة في الخليج . وان كانت الحكومة البريطانية في لندن لم تحط علما بهذه الخطوة للحصول على موافقتها ، إلا أنها أقرت ما تم التوصل اليه لأنه يمثل اعلانا من طرف واحد فحسب ، وان كانت اشترطت عدم تقديم أى مساعدة لتطبيق الحظر الا بموافقة لندن ولم يكن لهذا الحظر وزنا كبيرا على المدى القصير ، فالسفن الكويتية كانت ترفع العلم التركي كالمعتاد ، ولم يكن هناك جدوى من تتبعها في المياه الإقليمية الكويتية في ذلك الوقت (٢٣) . ولكن ظل للاتفاق أهمية ليطبق في المستقبل .

ونتيجة لذلك لم يتلزم الشيخ مبارك بتطبيق نصوص اتفاقية ١٩٠٠م ، بل بدأ يتهرب من شروطها باستخدامه وسائل مختلفة ، من أهمها رفع العلم التركي تخلصا من تفتيش السفن البريطانية ، لأن الدولة العثمانية لم تدخل في اتفاقية مباشرة مع بريطانيا تنص على تفتيش السفن العثمانية .

ولهذا استخدم الشيخ مبارك العلم التركي لأنه طبق المبدأ الدولي الذي ينص على أن « العلم يغطي البضائع » فبينما كان الموقف يتأزم بين الدولة العثمانية وبريطانيا حول مسألة الكويت ، وكانت العلاقات البريطانية مع الشيخ مبارك في طريقها الى التقدم ، وان كان الشيخ

قد تعهد في شهر مايو ١٩٠٠م ، بأن يمنع حركة مرور الأسلحة الى الكويت ، وأن يسمح للسفن البريطانية بتفتيش ومصادرة السفن المشتغلة بتلك التجارة ، الا أن حكومة الهند أخذت تتساهل في تصدير الأسلحة الى الكويت بالذات على خلاف الحال مع غيرها من امارات الخليج الأخرى التي عقدت معاهدات مشابهة - كما ذكرنا - ويرجع ذلك الى أن حكومة الهند كانت تخشى اذا ما تشددت في منع استيراد الأسلحة الى الكويت أن تتيح الفرصة للأتراك لتدعيم مراكزهم ، فضلاً عما كان يتعرض له الشيخ مبارك من تهديدات الأمير ابن الرشيد حاكم حائل ، كما كانت حكومة الهند تهدف من ناحية أخرى ، الى مساعدة الأمير عبد العزيز بن سعود أمير نجد الذي كان في أمس الحاجة للسلاح بعد استعادته لامارة الرياض في عام ١٩٠٢م عن طريق حليفه الشيخ مبارك حتى يتمكن من اضعاف سيطرة العثمانيين في وسط نجد ، وأيضاً في سواحل الخليج ، ويتجلى ذلك في التعليمات التي بعثت بها حكومة الهند بعدم تدخل المقيم السياسي البريطاني في الخليج في حركة مرور الأسلحة الى الكويت لفترة معينة (٢٤) . ونتيجة لتدفق السلاح في وسط نجد عن طريق الكويت ، استطاع الأمير عبد العزيز بن سعود أن يفتح شقراء ، وثرمداء والزوضة ، وسائر مدن سدير . وقد أصبح جيشه يصل الى ١٠٠٠ جندي ، وكان في حاجة ماسة الى الذخيرة والسلاح لتكملة فتوحاته في وسط الجزيرة وقره له الشيخ مبارك وابنه الشيخ جابر (٢٥) ، وذلك بسبب تساهل حكومة الهند البريطانية بحركة مرور الأسلحة للكويت في هذه الفترة الحرجة بالذات .

أما بالنسبة للشيخ مبارك فقد واجه في نفس العام أحداثاً جديدة من قبل يوسف الابراهيم ومن الأتراك أنفسهم ، حيث أن يوسف الابراهيم بدأ يحرض أنصاره على مهاجمة بدو الكويت النازلين بالقرب من صفوان وسلب مواشيهم وأغنامهم (٢٦) بموافقة من السلطات العثمانية . كما قام رجاله بهجوم مباغت على منطقة الصبية ، استولوا خلالها على عدد غير قليل من الجمال الكويتية . ولكن هذه الاعتداءات لا تقاس في خطورتها بما كانت عليه الهجمة المفاجئة التي دبرها يوسف الابراهيم لغزو مدينة الكويت نفسها من جهة البحر . ففي خريف ١٩٠٢م ، جهز (مجلة المؤرخ العربي)

يوسف الابراهيم عددا كبيرا من رجاله وأعدهم لدخول مدينة الكويت نفسها خلسة من أجل الاستيلاء على الكويت ، وذلك بأن أعد جماعة من عرب الشريقات المقيمين على الساحل الفارسي للتحرك برئاسة عذبي بن محمد الصباح ، وابن عمه خمود بن جراح ، وسلحهم بالبنادق ، وأنزلهم في قوارب في الدفورة على شط العرب . وقد بلغت أنباء هذه الحركة السرية بالقرب من « الفاو » يوم الثالث من سبتمبر مسامع الانجليز حيث كانت ترسو السفينة لابوينج التي هرع قائدها الى الكويت ليبلغ الشيخ مبارك بما يجري ، فوجده على علم بالامر ، ومستعداً لمواجهة الغزو . وانتهت المحاولة بالفشل (٢٧) ، وطرد يوسف الابراهيم من منطقة الزبير والبصرة ، فلقا الى الأمير ابن الرشيد في حائل ، بعد أن طردته السلطات العثمانية من العراق ، ومكث في حائل الى أن توفي في شهر يناير ١٩٠٦م .

أما الحادثة الثانية من قبل السلطات العثمانية في البصرة والتي لا شك أن هزت الشيخ مبارك في أوائل يناير ١٩٠٢م ، فقد تمثلت في محاولة الأتراك الوصول الى مناطق أكثر استراتيجية وخاصة في مدخل الخليج ، وذلك باحتلال جزيرة بوبيان والمراكز الحدودية مثل أم قصر وصفوان (٢٩) . ولقد تقاعست حكومة الهند في حسم الأمر بطريقة عسكرية ، ودخلت في جدال بين موظفيها حول الجانب القانوني لتلك الأحداث . وقد تمثل ذلك في طرح السؤال التالي : هل الحق في جانب الأتراك أم الشيخ مبارك ؟ وما هو الحل الأمثل في المستقبل لازالة هذا العدوان التركي (٣٠) ؟

تلك الأوضاع الدولية العامة والظروف الخاصة بمنطقة الخليج ستكون من أسباب لجوء الشيخ مبارك الى التوسع في تجارة السلاح . كيف حدث ذلك ؟

تعرضنا في خلال البحث الى الأسباب التي أجبرت الشيخ مبارك الى قيامه بخرق اتفاقاته مع بريطانيا وذلك بسبب ظروفه الخارجية ، ومن ثم عول على استغلال تملكه لأسطول كان يعتبر في وقته أكبر أسطول كان ينقل تجارة الخليج ومنطقة البحر الأحمر ، كان ينقل تجارة

المنطقة ، فشجع الشيخ مبارك بعض التجار على تجارة السلاح واستيرادها للكويت ومنطقة الخليج لدعم موقفه الداخلي ، فضلا عما ينجم من استمرار هذه التجارة من أرباح مادية ، لذلك عول على حماية التجار المتورطين بتلك التجارة في حالة انكشافهم للسلطات البريطانية ، وتروى كتب التاريخ الكويتية قصصا كثيرة معتبرة أن ما يقوم به الشيخ مبارك هو ذكاء وبطولة نورد منها بعض الأمثلة . في عام ١٩٠٤م : كانت إحدى السفن الكويتية العائدة الى محمد صادق معرفي وكان ربانها يدعى عباس بن نحى قد شحنت كمية كبيرة من الأسلحة تعود لثلاثة من كبار تجار الأسلحة في الكويت ، وفي أثناء عزمها على ترك مسقط صدر أمر من الحكومة البريطانية بمنع تجارة الأسلحة فانتشرت قوات بحرية بريطانية في الخليج لمنع السفن التي تحمل الأسلحة . وعندما علم ربان تلك السفينة بالأمر عزم على الذهاب الى الكويت مهما كلفه الأمر . وكانت إحدى الطرادات البريطانية تراقب سفينته وتنتظر خروجها من ميناء مسقط للاستيلاء على ما كان فيها من سلاح فانتهز ربان السفينة انشغاله ، فأطلق العنان لسفينته وغادر الميناء وما كادت السلطات البريطانية تعلم بأمرها حتى أرسلت طرادا يقتفى أثرها ويعود بها الى الميناء فأدركها الطراد في عرض البحر وكان الوقت ليلا شديدا الظلام فحاصرها في أحد الجيوب البحرية ، ولما شعر ربان السفينة بالخطر المحدث بسفينته عمد الى حيلة لم تخطر ببال أحد ، فقد أشغل سراجا وشده الى لوح كبير من الخشب وأنزله على سطح البحر ثم واصلت السفينة سيرها تحت جناح الظلام . أما الطراد البريطاني فظل في مكانه يراقب السفينة التي لم تكن سوى خشبة عليها سراج . فلما أصبح الصباح تحقق للطراد أن السفينة قد خدعتهم فتعقبوها ، فلم يهتدوا لها على أثر فطنوا أنها لابد قد قصدت الكويت وستكون تحت قبضتهم متى شاءوا .

أما ربان السفينة فحال وصوله الكويت راجع محمد صادق ، فذهب الاثنان معا الى مقابلة الشيخ مبارك وأعلماه بما حصل وكان ذلك عند المساء .

فأصد الشيخ مبارك أمره الى أخذ خدمه (الذي كانت وظيفته

مراقب شئون الميناء) ، كما أصدر أوامره الى مدير جمرك الكويت بالاسراع بتفريغ جميع حمولة تلك السفينة من السلاح ، وارساله الى داره ، وأمر تجار الأسلحة الثلاثة بالذهاب الى دار حاج جراح الحداد ، لكي لا يشعر أحد بمقدمهم ويخبر قائد الطراد الانجليزى ، ثم أمر بسحب تلك السفينة الى أعلا الشاطئ وأمر باطلائها بالزيت ليوقن من يراها أنها منذ مدة فى حالة صيانة واعمار ، جرى كل ذلك ليلا ، ولما أصبح الصبح قدم قائد الطراد ليخبر الشيخ مبارك بمهمته ، أنكر الشيخ مبارك علمه بذلك ، ورغب بأن يجرى تفتيشا من قبله للوقوف على أثر تلك السفينة . فجاب قائد الطراد جميع شواطئ مدينة الكويت ، فلم يقف على أثر لتلك السفينة فتعجب لهذا الأمر غاية العجب ورجع من حيث أتى بدون أن يجد السفينة (٣١) .

لا يمكن انكار أن الشيخ مبارك كان له ضلع كبير فى عملية بيع السلاح وتصديره الى الخارج ومما ساعده على ذلك اتصاله سرا بتجار السلاح الأجانب وخاصة الفرنسيين وعلى رأسهم المسيو جوجير الذى كان له نشاط واسع فى الخليج يمتد من مسقط والبحرين والى الكويت أيضا . فمنذ زيارة المسيو جوجير الى الكويت ، تزايدت بعدها حركة الاستيراد وكانت الشحنات تدخل على أنها ممتلكات خاصة للشيخ ، وفى الأسبوع الأول من عام ١٩٠٤م ، وصل الى الكويت ١٢ صندوقا من الأسلحة ، وفى ١٨ من الشهر نفسه وصلت شحنة أخرى تحتوى على ٢٩ صندوقا ووضعت جميعها فى مخازن الشيخ ، وفى نهاية اغسطس استوردت الكويت ٨٠٠ بندقية .

وفى عام ١٩٠٤م ، أكدت الاحصائيات أن عملية الاستيراد تسير بمعدل ١٠٠٠ بندقية فى الشهر تقريبا ، وأن الشيخ يحصل على دخل سنوى قيمته ٥٠٠٠٠ جنيه استرلينى فى السنة .

وفى عام ١٩٠٤م ، طلب المدير العام للجمارك فى بوشهر منحه حق مصادرة جميع الأسلحة التى يجدها على ظهر السفن فى المياه الفارسية ، ومهما كانت وجهتها . وقد بذلت محاولة للاستيلاء على

أسلحة يملكها عرب متجهون من مسقط الى الكويت على سفينة انجليزية ،
الا أن المحاولة فشلت ، وهى السفينة التى يملكها محمد صادق معرفى
سابق الذكر .

وفى شهر سبتمبر ١٩٠٤م ، استولت سفينة الجمارك الشراعية
« المظفرى » على كمية من الأسلحة فى مدخل شط العرب ، فأثار هذا
التصرف استياءا شديدا فى الكويت .

واستمر تدفق الأسلحة من مسقط الى الكويت ، وفى شهر فبراير
١٩٠٦م ، أنزلت السفينة الروسية « تريفر » ٢٥ صندوقا فى الميناء ،
ثم وصلت الى نفس الميناء شحنة تتكون من ٣٠٠ بندقية بذخيرتها فى
نفس الشهر ، كما أفادت التقارير وصول ٤٥٠٠ بندقية و ١٥٠٠ صندوق
من الذخيرة الى الكويت بطريق البحر فى نفس التوقيت .

وفى مواجهة هذا التطور النشط لتجارة السلاح فى الكويت أثار
الكابتن نوكنس الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت ، وبعد استشارة
السفير البريطانى فى اسطنبول المسألة مع الشيخ مبارك فى شهر أبريل
١٩٠٦م ، ولكن الشيخ أبدى علامات الاستياء وعدم الرضا ازاء ما وجهته
اليه السلطات البريطانية من لوم ، وألح الى أن هذا المسلك من جانبها
لا يتمشى مع أهمية الصداقة السياسية القائمة بين الجانبين (٣٢) .

نستنتج من ذلك أن حكومة الهند قد تساهلت بصفة خاصة فى
تصدير الأسلحة الى الكويت - كما ذكرنا من قبل - حتى يستخدمها الشيخ
مبارك ضد أعدائه ، ونتج عن هذا التساهل تحول الكويت الى مركز
لتجارة السلاح . ومن الانصاف أن نذكر بأن هدف الشيخ مبارك من
الاستمرار فى تجارة السلاح يكمن فى حماية امارته من الأخطار المحدقة
بها فى الداخل والخارج ولبيان أن هذه الأسلحة كانت توزع من قبل
السلطات البريطانية على رجال القبائل ، وتحرضهم على استخدامها فى
مناوئة السلطات العثمانية (٣٣) .

ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه الأحداث المتعاقبة المفعمة

بالخطر ، كان لابد أن تدفع الشيخ مبارك الى السعى للتزود بالسلاح ، والتحایل على كل الالتزامات التي ارتبطت بتجارته خلال تلك المرحلة ، بل اننا لنلمس أيضا في هذه الفترة - كما سبق أن أشرنا - تغاضي السلطات البريطانية عن نشاط الشيخ مبارك في هذا المجال ، عندما كانت المصالح البريطانية تتطلب هذا التغاضي ، وليس من شك أيضا في أن هزيمة الصريف كان لها أثر بالغ العمق على الشيخ مبارك ، أدرك معه أن القوة والسلاح هما وسيلته الأولى والأساسية لتدعيم مركزه ، وتحقيق ما يصبو اليه من أهداف . وان كانت للعوامل والأخطار الداخلية أثرها على تحديد سياسات الشيخ مبارك ، فلقد كان للأوضاع الخارجية أيضا دور لا يقل أهمية وشأنا كما سبق وأسلفنا القول .

خلاصة القول أن الشيخ مبارك لم يكن تاجر سلاح بالمعنى الضيق والتقليدي ، وإنما كان مؤسس دولة ، وكان تأسيسها في توقيت بالغ الدقة والخطر ، ومحفوف بالصراعات والصدامات على الصعيدين الداخلي والخارجي ، ومن ثم أخذ يشق طريقه - كقائد فذ - بين هذه الأعاصير المتلاطمة ليخرج في خاتمة المطاف محافظا على استقلاله مهما شاب هذا الاستقلال من قيود أملت بها طبيعة العصر وتوازن القوى محليا وعربيا وعالميا .

أولا : الهوامش :

١ - جمال زكريا قاسم :

الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الامارات العربية (١٨٤٠-١٩١٤م) ص : ٢٩٥ .

٢ - لوريمر :

دليل الخليج ، القسم التاريخى ، الجزء السادس ، ص : ٢٩٥ ، وكذلك : أرنولد ويلسن : الخليج العربى ، ص : ٢٠ - ٤٢١ .

٣ - أرنولد ويلسن :

الخليج العربى ، ص : ٤٢١ .

٤ - المصدر السابق .

٥ - عبد العزيز المنصور :

التطور السياسى لقطر ، (١٨٦٩ - ١٩١٦ م) ص : ٧٠ .
يذكر ويلسون : بلغت التجارة فى بوشهر حوالى ١٨٩٧ ، أبعادا مكنت استيراد أسلحة وذخائر قيمتها مائة ألف جنيه استرلينى ، وذعرت الحكومة الفارسية ، فقامت آنذاك باتخاذ الخطوات الفعالة لفسخ المنع ، ودخلت فى اتفاقية مع حكومتى بريطانيا ومسقط ، حيث قفزت التجارة فى الوقت ذاته الى مالا يقل عن ١١٥٠٠ قطعة سلاح أنزلت البر ما بين ١٨٩٠ - ١٨٩٢م ، لمنعها ومحاربتها .

راجع أرنولد ويلسون : ص : ٤٢٢ .

٦ - عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم : بريطانيا وامارات الساحل العمانى ، ص ٤٢٢ .
* انضم ميناء جواهر الى مسقط منذ عام ١٧٩٣ عندما حصل عليه سلطان بن أحمد ، سلطان مسقط ، وظل تابعا لسلطنة مسقط حتى عام ١٩٥٨ حين تنازل عنه السيد سعيد بن تيمور لباكستان مقابل ثلاثة ملايين من الجنيهات علاجا لأزمته المالية .

٧ - لوريمر :

دليل الخليج ، القسم التاريخى ، الجزء السادس ، ص : ٢٩٥ .

٨ - المصدر السابق ، ص : ٣٥٨٧ .

٩ - راجع ويلسون : ص : ٤٣٢ .

- ١٠ - راجع لوريير : ج ٦ ، ص : ٣٥٨٨ .
- ١١ - المصدر السابق ، ج ٦ ، ص : ٣٥٩ .
- ١٢ - المصدر السابق : ج ٦ ، ص : ٣٥٩٠ .
- ١٣ - المصدر السابق ، ج ٦ ، ص : ١٣٩١ .
- ١٤ - المصدر السابق : ج ٦ ، ص ٣٥٩٢ - ٣٥٩٤ .
- ١٥ - المصدر السابق : ص : ٣٥٩٥ .
- ١٦ - المصدر السابق : ص : ٣٥٩٦ .
- ١٧ - عبد العزيز المنصور :
التطور السياسي لقطر ، ص :
- ١٨ - I.O.R. :L/Pas/10/114. Arms Trafic.
- ١٩ - لوريير :
دليل الخليج ، القسم التاريخي ، الجزء السادس ، ص : ٣٥٦ - ٣٥٩٧ .
- ٢٠ - المصدر السابق : ص ٣٦٠٦ .
- * يوسف الابراهيم من بيت رفيع بالكويت ، وله مصاهرة مع أسرة آل الصباح ، وكان هذا البيت في ذلك الزمن أثري بيت في الكويت ، وقد حصل ليوسف من العز والاقبال ما لم ينله قبله أحد منذ تأسست الكويت . راجع يوسف القناعي صفحات من تاريخ الكويت ، ص : ٢٣ .
- ٢١ - فتوح الخترش :
تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ص : ٦٣ - ٦٥ ، وأيضا :
عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ، ص : ١٦٢ - ١٦٣ .
- ٢٢ -
- BUSCH. : Britain and the Persian Gulf. 1894-1914, pp. 195.
- ٢٤ - جون فيلبي :
تاريخ نجد ، ص : ، وأيضا : حافظ وهبة : خمسون عاما في جزيرة العرب
ص : ٢٧ .

٢٥ - ديكسون :

• الكويت وجاراتها : ص : ١٤٠ - ١٤١

٢٦ - عبد العزيز الرشيد : ص : ١٨٠

• ٢٧ - فتوح الخترش : ص : ٤٩

• ٢٨ - لوريمر : ج ١ ، ص : ١٠٤٤

• (٩٢) فتوح الخترش : ص : ٦٨

٣٠ - BUSCH. B.C : Britain and the Persian Gulf., pp. 215.

٣١ - حسين الشيخ خزعل :

* يذكر بوش « أن مبارك اقتنع بعد هذه الحادثة بأن بريطانيا هي مصدر كل

متاعبه ، وأصر على أن يتابع مطالبه حول الجزر والمراكز الحدودية .

• راجع : بوش : مرجع رقم (٣٠) .

• تاريخ الكويت السياسي ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨

• ٣٢ - لوريمر : ج ٦ ، ص : ٣٦٠٧

• ٣٣ - لوريمر : ج ٦ ، ص : ٣٦٢١

ثانيا : أهم المراجع

أولا : المصادر والمراجع العربية :

- ١ - أرنولد ويلسن :
الخليج العربى ، الناشر : مكتبة الأمل : الكويت .
- ٢ - حسين خلف الشيخ خزعل :
تاريخ الكويت السياسى (خمسة أجزاء) دار مكتبة الهلال .
- ٣ - حافظ وهبة :
خمسون عاما فى جزيرة العرب .
- ٤ - جون فيليبى :
تاريخ نجد : منشورات المكتبة الأهلية ، بيروت ، لبنان .
- ٥ - جمال زكريا قاسم :
الخليج العربى (دراسة لتاريخ الإمارات العربية) (١٨٤٠ - ١٩١٤) مطبعة جامعة عين شمس : ١٩٦٦م .
- ٦ - ديكسون ، هـ. ر. ب. :
الكويت وجاراتها ، الطبعة الأولى : ١٩٦٤م .
- ٧ - عبد العزيز الرشيد :
تاريخ الكويت - منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت : ١٩٧٨م .
- ٨ - عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم :
بريطانيا وامارات الساحل العمانى - مطبعة الارشاد - بغداد
١٩٧٨م .
- ٩ - عبد العزيز المنصور :
التطور السياسى لقطر ، (١٨٦٨ - ١٩١٦) الناشر : دار ذات
السلاسل .
- ١٠ - فتوح الختروش :
التاريخ السياسى للكويت فى عهد الشيخ مبارك (دراسة وثائقية
مقارنة بالمؤرخين المحليين) ، منشورات دار ذات السلاسل .
الكويت - الطبعة الثانية : ١٩٩٠م .

١١ - فتوح الختشر :

- تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية (١٨٩٠-١٩٢١).
- منشورات دار ذات السلاسل - الطبعة الأولى ١٩٧٤ م

١٢ - ج.ج.ج. لوريمر :

- دليل الخليج الجزء الأول والسادس .. ترجمة : مكتب الترجمة
- بديوان حاكم قطر

ثانيا : وثائق أجنبية منشورة :

- * India Office Records, (I.O.R.) : L/PKS/10/113 - Arms Traffic.

ثالثا : الكتب الأجنبية :

- * B.C. BUSCH : Britain and the Persian Gulf. 1894 - 1914.
University of California Press. Berkeley Los Angeles, 1967.

باب عرض الكتب

خصصنا هذا الباب لعرض بعض الكتب التاريخية الحديثة ، ذات الطابع العلمى البحث والمنهج التاريخى السليم . والهدف من هذا العرض تعريف الباحثين - لا سيما أفراد أسرة المؤرخين العرب - بهذه الكتب ومؤلفيها ، حيث أن تيار الاعلام فى وطننا العربى لا يعطى - بكل أسف - الكتب والمؤلفات التاريخية الحديثة الاهتمام الكافى ، اللهم الا على الصعيد المحلى .

والتعريف بالكتاب لا بد وأن يصبحبه التعريف بصاحبه ، حتى ولو كان المؤلف أشهر من أن يعرف به . فلا بد من الاشارة بايجاز الى نشاط المؤلف وعمله وبلده ، وإلى مؤلفاته السابقة وأهميتها فى حقل الدراسات التاريخية ... وذلك لتحقيق قدر من الترابط الفكرى والروحى بين القارئ والمؤلف ، والاحاطة بالظروف التى يعمل فيها المؤلف ، والامكانات المتاحة له ، والتى فى ضوئها وضع مؤلفه أو مؤلفاته .



وفى ضوء هذه الاعتبارات شرعنا فى التنقيب عن المؤلفات التاريخية ذات الطابع العلمى البحث والتى صدرت فى الفترة الأخيرة لتعالج موضوعات جديدة . ولا نجامل اذا قلنا ان أول ما شد انتباهنا فى هذا المضمار كانت مؤلفات « الحاكم المؤرخ » سمو الدكتور سلطان ابن محمد القاسمى حاكم الشارقة والحائز على درجة الدكتوراه فى التاريخ من احدى أعرق الجامعات فى انجلترا . واسترعى نظرنا أن الدكتور سلطان يعمل فى صمت ، بعيدا عن أضواء الدعاية والاعلان ، وأنه فى السنوات الأخيرة أنتج عدة مؤلفات تاريخية ثمينة تجعل منه علما من اعلام الدراسات التاريخية فى عالمنا العربى ، وتتصف كلها بجدة الموضوع وسلامة المنهج وعمق الفكر وسلاسة الاسلوب .

وثمة عامل مشترك في مؤلفات الدكتور سلطان بن محمد القاسمي ، هو أنها ترتبط جميعا بتاريخ الخليج ، مما جعل منه أحد الثقات المتخصصين في تاريخ ذلك الاقليم ، الذي نشأ فيه وترعرع بين جنباته ، فأخلص له ولأهله اخلاصا جعله يكرس له جهده وفكره ووقته .

ثم ان الجديد في مؤلفات الدكتور سلطان بن محمد القاسمي هو أنه بحكم امكاناته استطاع جمع عدد كبير من الوثائق التاريخية الخاصة بتاريخ الخليج ، والمحافظة في دور الارشيف العالمية غربا وشرقا ، وعكف على دراستها وتحليلها واستخراج الحقائق التاريخية منها ، وهو مالم يتوافر لكثيرين غيره من الباحثين في تاريخ ذلك الاقليم . وهو في أحكامه يقف موقفا عادلا غير متحيز ، لا يستهدف الا الحقيقة التاريخية ، فيرد على الدعاية الكاذبة التي روجها الاستعمار لتبرير سياسته الاستغلالية في اقليم الخليج ، ويفند أساليب تلك الدعاية على أسس علمية ، معتمدا على الوثائق والحجج التاريخية متجنباً أسلوب التطرف أو التحيز ، وبذلك أتت مؤلفاته نبعا عذبا ينهل منه الباحثون في تلك الحلقة الهامة من حلقات التاريخ .

وسنكتفي في هذا العرض بالتركيز على آخر كتابين انتجهما سمو الشيخ الدكتور محمد بن سلطان القاسمي ، مع عدم اغفال الإشارة الى بعض مؤلفاته الأخرى التي سبقت في الصدور :



اسم الكتاب : العلاقة العمانية الفرنسية (١٧١٥ - ١٩٠٥)

تاريخ صدور الكتاب : ١٩٩٣

الناشر : دار الغرير للطباعة والنشر .

تلقى هذه الدراسة أضواء جديدة على العلاقات العمانية الفرنسية في فترة من أشد فترات التاريخ في الخليج والمحيط الهندي حساسية . ومن منطلق تاريخي سليم ، ربط المؤلف - الدكتور سلطان بن محمد القاسمي ، بين العلاقات العمانية الفرنسية في ذلك الدور من ناحية ،

ومما كان يجرى عندئذ من سباق بين إنجلترا وفرنسا وتنافس سياسى خطير بين هاتين الدولتين من ناحية أخرى . وهكذا أخذ المؤلف يتتبع فى منهج علمى متين وفكر هادىء متزن تطور الصراع بين إنجلترا وفرنسا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، موجهها نظر القارىء الى هدى هذا الصراع فى اقليم الخليج بوجه خاص . وطوال تتبع الباحث لمسيرة الأحداث فى تلك الفترة نراه يحرص على أن ينظر باحدى عينيه الى تطور المواقف بين إنجلترا وفرنسا فى اقليم الخليج ، وينظر بالعين الأخرى الى موقف أهل عمان والخليج من هاتين القوتين الدخيلتين على المنطقة وأهلها . وثمة حقيقة عنى الباحث بالكشف عنها هى أن العلاقات العمانية الفرنسية لم تتسم فى منجملها بالانسجام والود ، وانما تعرضت لهزات واضحة على مدى قرنين من الزمان .

واستنادا الى الأدلة والوثائق المعاصرة التى عنى بدراستها واستخلاص الحقائق منها ، تصدى الباحث فى شجاعة المؤرخ المدقق لأراء بعض الكتاب والمؤرخين الذين خاضوا فى هذا الموضوع مغلبين عواطفهم وميولهم دون الرجوع الى الوثائق التاريخية المعاصرة ، فناقش هذه الآراء بأمانة وشجاعة ، وفند بعضها وأثبت خطأها ، وكشف عن سياسة المبعوثين الفرنسيين الى عمان ، وما اتسمت به هذه السياسة من نوايا واغراض مستترة . وهكذا حتى كانت سنة ١٨١٧ عندما دخلت العلاقات العمانية الفرنسية مرحلة جديدة اتصفت بالتعاون وحسن النوايا .

هذا ، وقد راعى المؤلف الترتيب الموضوعى ، واحترام الحاسة الزمنية فى كتابة التاريخ ، فقسم كتابه الى عشرة فصول ، عدا المقدمة وقائمة المصادر والمراجع ثم ثبت الهوامش والكشاف العام . واختص كل فصل من فصول الكتاب بمحور محدد تدور حوله نقاط البحث ، الأمر الذى أضفى على الكتاب بأكمله طابع الوضوح والسلاسة ، بعيدا عن التكلف والتعقيد والاستطراد ، وهى الأمراض التى تشكو منها بعض الكتابات التاريخية .

والكتاب فى حد ذاته مرجع علمى لمن ينشد الوقوف على خبايا

تلك الصفحة المثيرة في تاريخ الخليج ، فضلا عن سياسة فرنسا في الشرق طوال قرنين حافلين بالاحداث والتطورات .



اسم الكتاب : الوثائق العربية العمانية في مراكز الارشيف الفرنسية
تاريخ صدور الكتاب : ١٩٩٣

هذا هو الكتاب الثانى الذى أصدره سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى فى نفس العام الذى شهد صدور كتابه السابق وكما يبدو ، يرتبط الكتابان بعضهما ببعض ارتباطا قويا داخل اطار وحدة الموضوع ، اذ يضم الكتاب الثانى عددا من الوثائق العربية التى تلقى أضواء على حقيقة العلاقات العمانية الفرنسية . ولم يكن الوصول الى هذه الوثائق بالأمر السهل ، وانما تطلب من المؤلف الكثير من الجهد والعناء والبحث والتنقيب فى أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية ، وفى مكتبة البلدية بمدينة كان فى فرنسا ، ثم فى جزيرة ريون نيون . . . وغيرها واستعان المؤلف بهذه الوثائق فى بحوثه ومؤلفاته ، غير أنه رأى أن ينشرها محققه علميا لتكون تحت بصر الباحثين فى كل زمان ومكان ، وهنا تبدو سماحة العلماء وكريم فيضهم .

يقول المؤلف فى مقدمة كتابه :

(بعد الانتهاء من كتابة كتابى (العلاقة العمانية الفرنسية) ، وجدت فى جورتى مجموعة من الوثائق العربية والفارسية الخاصة بالعلاقة العمانية الفرنسية ، والتى جمعتها من مراكز الارشيف الفرنسية ؛ عز على ايداعها ادراج مكتبى دون الاستفادة الكاملة بما تحويه تلك الوثائق من معلومات قيمة تمثل العلاقة العمانية الفرنسية خير تمثيل ، حيث تبرز كثيرا من التفاصيل الدقيقة ، والتى لا مجال لسردها فى كتابى (العلاقة العمانية الفرنسية) . فاخترت من بينها بعض الوثائق العربية الخاصة بالموضوعات الهامة فى تلك العلاقة ، وقمت بترتيبها حسب التواريخ والاحداث ، وأضفت اليها معلومات تاريخية حول كل وثيقة ، وقمت بتفسير ما اشتبه فيها من كلمات . . .) .

وبهذه الفقرة كفانا المؤلف مؤونة الافاضة فى الكلام عن موضوع الكتاب وأهدافه ومنهجه .

ومرة أخرى نؤكد أن الوثائق مصدر من أخطر المصادر التى تعتمد عليها الكتابة التاريخية . والرواية التاريخية بدون الوثائق والأسانيد التى تدعمها وتثبت صحتها تحتل التغيير والتدليل ، والزيادة والنقصان ، على مر العصور والأجيال . ولكن الوثيقة هى الشاهد على صحة الرواية أو عدم صحتها ، وخاصة اذا كانت مزودة بشهادة الشهود وتوقيعات الحضور .

والعمل فى مجال الوثائق ليس سهلا ، لأن قراءة كل كلمة مع تعدد الخطوط وتباين رسم الحروف ، وتفسير كل عبارة مع اختلاف معانى الكلمة الواحدة أحيانا من عصر الى آخر . . . كل هذا يجعل من دراسة الوثيقة مهمة قاسية صعبة . هذا الى أن الوثيقة تدون بأسلوب عصرها ، ولكل عصر تعبيراته التى قد تغاير ما كانت عليه فى عصر سابق أو ما آلت اليه فى عصر لاحق .

وفى هذا الكتاب واجهه الدكتور سلطان بن محمد القاسمى كافة هذه الصعاب ؛ وأظهر الكثير من الدقة والصبر والمثابرة ، مما يشهد له بسعة الأفق وغزارة الحصيلة التاريخية . ولعل فيما ذكره الباحث فى مقدمة كتابه من أنه قام بترتيب الوثائق التى نشرها « حسب التواريخ والأحداث » ما يدل على تمتعه بحاسة تاريخية مرهفة ، لأن التاريخ يعتمد على التسلسل الزمنى ، وحوادثه متلاحقة مترابطة ، مما يجعل الطريق ممهدا مستقيما أمام الباحثين .

وهكذا لم ينشر المؤلف وثائقه متراكمة ، متداخلة ، أو متشابكة مع بعضها البعض ، وإنما قسمها موضوعيا وزمنيا الى تسع مجموعات . وقد حرص - امعانا منه فى الدقة - على نشر الصورة الأصلية لكل وثيقة ، ومعها ما تتطلبه من شروح وتفسيرات علمية ولغوية . وربما ورد فى نص الوثيقة خطأ هجائى ، وعندئذ كان المؤلف يتركه كما هو حفاظا على (مجلة المؤرخ العربى)

روح الوثيقة وطابعها وأصلها ، ويكتفى بالإشارة الى ذلك الخطأ وتصويبه في ذيل الصفحة . وهذا هو المنهج السليم في نشر الوثائق . ان الوثيقة ينبغي أن تظل شاهدا يعبر عن روح العصر وفكره وأسلوب الكاتب ومستواه .

وبنشر هذه المجموعة من الوثائق العربية ، فتح الدكتور سلطان بن محمد القاسمي الباب أمام الباحثين المهتمين بتاريخ الخليج لمزيد من البحث والدراسة ، بحيث أصبح تاريخ الخليج لا يستقى أساسا من الوثائق الأوروبية وحدها بل أيضا من الوثائق العربية التي لم يعن بالرجوع اليها معظم الباحثين الغربيين .



واذا كنا قد اقتصرنا في عرضنا هذا على الكتابين السابقين فقط من مؤلفات الدكتور سلطان بن محمد القاسمي ، فليس معنى هذا أن انتاجه في حقل الدراسات التاريخية يقف عند هذا الحد . لقد عشق الرجل دراسة التاريخ ، وكرس له جزءا كبيرا من وقته وفكره ووجدانه . واذا كنا قد اخترنا هذين الكتابين من مؤلفاته التاريخية العديدة فذلك لأنهما آخر ما توصلنا اليه في نفس العام الذي كنا نعد فيه لإصدار العدد الثاني من مجلة المؤرخ العربي . وعندما طلبنا منه إهداء مكتبة « المؤرخ العربي » مجموعة كاملة من مؤلفاته ، لم يرض علينا - وهو الرجل الكريم الخلق الواسع الأفق - فبعث إلينا بمجموعة كاملة تحتل مكانها الآن كنواة لمكتبة اتحاد المؤرخين العرب . ومن بين هذه الكتب نكتفى بمجرد الإشارة السريعة الى المؤلفات الآتية التي تحمل اسم الدكتور سلطان بن محمد القاسمي : -

— الاحتلال البريطاني لعدن

سفر جليل ، صدرت منه الطبعة الثانية عن مؤسسة البيان بدبي سنة ١٩٩٢ . يوضح بالوثائق أساليب السياسة البريطانية في تنفيذ مخططاتها الاستعمارية الخاصة باحتلال عدن . ويكشف بالأدلة التاريخية

النقاب عن ألعيب الاستعمار البريطاني تحت ستار عدد من الاتفاقيات غير المتكافئة والتي تتسم بما عرف عن الاستعمار من خداع ومراوغة .

— تقسيم الامبراطورية العمانية (١٨٥٦ - ١٨٦٢)

دراسة تاريخية ثمينة ، تقع في نحو أربعمئة صفحة ، صدرت عن مؤسسة البيان في دبي سنة ١٩٨٩ ، تلقى أضواء على تاريخ شرق افريقية في حلقة هامة من أكثر حلقات تاريخ القرن التاسع عشر نشاطا وازدحاما بالاحداث . وفي ضوء الوثائق المعاصرة كشف الدكتور سلطان بن محمد القاسمي النقاب عن سياسة شركة الهند الشرقية ودورها الخطير في تثبيت أقدام الاستعمار وتوسيع دائرة نشاطه .

— The Myth of Arab Piracy in the Gulf, (Second Edition, Routledge, 1988).

في هذا الكتاب أوضح الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عدم صدق ادعاء بريطانيا بأنها قدمت الى اقليم الخليج ، ويسطت سيطرتها عليه في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر لتحقيق هدف انساني كبير ، هو القضاء على القرصنة العربية في الخليج . وبالوثائق الرسمية ، أثبت المؤلف كذب هذه الأسطورة ، وأن التخطيط لسيطرة بريطانيا على الخليج كان من وضع شركة الهند الشرقية التي حثت الحكومة البريطانية على اتخاذ هذه الخطوة لأسباب اقتصادية استغلالية بحتة .

وتنبع أهمية هذا الكتاب من أن المؤلف اعتمد فيه على وثائق دور الارشيف في بمباي بالهند . وكانت هذه المدينة مقر حكومة شركة الهند الشرقية ومركز نشاطها . ومن الثابت أن الدكتور سلطان بن محمد القاسمي كان أول مؤرخ عربي اتخذ من وثائق بمباي ركيزة لالقاء الأضواء على دور شركة الهند الشرقية في نشر سيطرة بريطانيا على الخليج .

وبعد ، فانه اذا كانت مجلة المؤرخ العربى ، وهى تفتتح فى عددها الثانى باب (عرض الكتب) قد اختارت أن تبدأ بعرض مؤلفات سمو الدكتور سلطان بن محمد القاسمى - حاكم الشارقة - ، فان هذا لم يأت اعتباطا ، وانما اعترافا بالقيمة العلمية لهذه المؤلفات أولا ، ثم بعد ذلك بدافع الاحساس بالفخر بأن يكون بين حكام الأمة العربية حاكم على مستوى الدكتور سلطان ، جمع بين وعى المؤرخ المحيط بالأبعاد الحقيقية لفنه ، والحاكم المخلص المتفانى فى خدمة شعبه وأمته .

رئيس التحرير

احاطة

هيئة تحرير مجلة (المؤرخ العربى) اذ تشكر جميع الزملاء الذين أسهموا فى تحرير هذا العدد ، تـرجو أن تحيط كافة أعضاء اتحاد المؤرخين العرب علماً بأنها شرعت فعلا فى تلقى البحوث العلمية المقدمة للنشر بالعدد الثالث الذى يصدر فى شهر مارس ١٩٩٥ بمشيئة الله .

رجاء الالتزام بقواعد النشر المنصوص عليها فى صدر هذه المجلة من حيث الكم والكيف ، حفاظا على مكانة هذا الانجاز العلمى الذى أخذ يشق طريقه فى الأوساط العلمية .

ولمثل هذا فليعمل العاملون .

رقم الايداع ٦٥٤٩ / ١٩٩٤

Bulletin
of
The Arab Historians Society

Academic Bulletin Concerned with
Historical studies

VOL. 1 -NO. 2 .

March,1994

Cairo - Egypt
